الخلفاء الراشدون

تأليف

عبد الوهاب النجار

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة فى الإسلام

يقول علماء الاجتماع العمرانى إنه ما اجتمع عدد من الأحياء، سواء كان هذا العدد من الحيوان أو من بنى الإنسان، إلا اتخذ له من بين أفراده رئيساً يذعن الجمع لإرادته ويهتدى بهديه، ويبذل كل فرد نفسه فى الدفاع عنه والمكافحة دونه. واتخاذ الكائنات الحية رئيسا منها أمر طبيعى تنساق إليه بمقتضى الفطرة.

قائد الجماعة من بنى الإنسان اذا كان قد تمكن له الأمر وتوطدت سلطته على الجماعة، وأوتى من النفوذ ما يحقق له السيادة عليهم، فنفذ أمره فيهم بمقتضى القهر والغلبة اللذين هما من آثار القوة الغضبية كان ملكا مستبداً وغلب على أحكامه الجور والإجحاف بمن تحت يده فى أحوال دنياهم، لما يستتبعه شأن القهر والغلبة من حمل القبيل على ما ليس فى طوقهم من أغراضه ومشتهياته. ومن البين أن نشوة الملك وسورة التسلط تحملان صاحبها على الأثر فى أغلب الأحوال.

فإذا كان الملك يرجع فى أحكامه الى قواعد يضعها العقلاء ويلزمون الكافة انتهاجها والسير على مقتضاها كان ذلك أرجى لاستقامة الأمر واجتماع الألفة فى الجملة، وإن كان الجور ليس بمأمون واستقامة الأحوال ليست بمستيقنة.

أما اذا قام قائد الجماعة على أثر نبوّة وفى عقيب رسالة وعلى نهج شريعة فقد خص فى عرف أهل الإسلام باسم الخليفة، والمنصب باسم الخلافة أو الإمامة تمييزاً لها عن الملك الذى تجر اليه طبيعة القهر وتغلب عليه سمة الجور.

كان للرسول صلى الله عليه وسلم مهمتان يؤديهما الى الأمة؛ إحداهما: أن

يبلغ عن الله ما أمره بتبليغه الى الناس من الأحكام المتعلقة بدينهم ودنياهم وما قصه عليهم من الأخبار والعظات ويبين للناس ما نزل اليهم ، فهو بذلك مشرع عن الله تعالى . الثانية : كونه إماماً للمسلمين يضم قاصية الأمة ويجمع كلمتها ويوجهها الى الخير ويبعدها عن مزالّ الأقدام ومواطن الشرور ، ويرجعون إليه فى أقضيتهم وحل مشكلاتهم طبق ما أوحى إليه من ربه جلّ ذكره وما يؤديه إليه اجتهاده فيما ليس عنده فيه وحى ، ثم إنه يقوم بتنفيذ تلك الأحكام .

ولما كان الله تعالى لم يجعل الخلد لبشر ، وكان الموت خاتمة مطاف كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، وقد قبض الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم الى جواره ، كان من الحكمة أن لا يترك الناس فوضى لاسراة لهم (كأغنام ذئب نام عنها رعاؤها) — بل لابد للشرع من حارس يخلف المبلغ له فى إقامته بين الأمة وتنفيذ أحكامه فيهم وهو الخليفة .

والخلافة هى النيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وتنفيذ أحكامه وسياسة الدنيا به . والسر فى ذلك استحالة حياة أفراد النوع الإنسانى منفردين ولأن من طبيعة الاجتماع التنافس المفضى الى التنازع لازدحام الأغراض المتباينة فيحتاج الى الوازع وهو الشرع . فقد جعل الله تعالى كمال النظام البشرى بالشرائع الإلهية يذعن لها الخاصة والعامة ويراها نافذو البصائر فى شؤون الاجتماع العمرانى حاجة من حاجات العقول البشرية بها يكون تقويم الملكات وتعديل مزاجها وحملها على القصد من الأمور بلا تفريط فى شىء ولا إفراط يدعى الى تجاوز الحدود وتخطى المعالم .

هذه الشرائع يصطفى الله تعالى من خيرة خلقه رسلا يتلقونها بالوحى عن الملك أو عن الله تعالى ثم يبلغونها للناس (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن

الناس) ويضعون للدائنين بشرائعهم (بأمره) حدوداً عامة لاترهق الناس مشقة فى رد أعمالهم إليها — كتقويم الملكات والأخلاق والعقائد ، وتحريم الدماء والأموال والأعراض إلا بحقها — على وجه يحمل كل واحد من الناس أن يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن لاينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يرغب فيما عند الله مستشعراً الرهبة من عقابه (إذا حاد عن النهج القويم) فى يوم تشخص فيه القلوب والأبصار .

انساق المسلمون بمقتضى الفطرة التى لكل جماعة من الأحياء إلى إقامة من يخلف رسول الله فى سياسة أمرهم . فأقاموا عليهم خليفة ، ولم يوجد عند الأمة الإسلامية أمر من أمورها اختلفت فيه الكلمة وتشعبت بشأنه الآراء بمقدار ما كان منها فى شأن الخلافة . وأظهر مظاهر الاختلاف أمران :

أولهما : البيت الذى يكون منه الخليفة .

ثانيهما : شكل الانتخاب أو الطريقة التى يكون بها انتخاب الخليفة

﴿ بيت الخلافة ﴾ إن الكتاب الكريم لم يعين بيتاً للخلافة ينتخب الخلفاء من أهله ، ولا شعباً من شعوبهم ولاقبيلة من قبائلهم ، وإنما كان يوجه الكلام إلى عموم المسلمين فيما يقرره من الأحكام ، ويطالبهم بتنفيذها فى مثل قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ﴾ وقوله : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ وقوله : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ ومن غير المعقول أن كل واحد من المسلمين يقطع يد السارق أو يقتص من القاتل ، بل المعقول أن ينوب عن جميعهم واحد منهم يتولى ذلك .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى البخارى حديثا يسنده إلى معاوية رضى الله تعالى عنه يقول فيه : « إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ماأقاموا

الدين » . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يزال هذا الأمر فى قريش مابقى منهم اثنان » . وفى مقابلة ذلك روى عنه أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » وهى أدلة متعادلة .

لم ينتهِ الناس من تجهيز النبى صلى الله عليه وسلم ودفنه حتى كان فى الناس فريقان لكل منهما رأى فى شأن الخلافة ؛ فريق يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت ، والفريق الثانى يرى تخصيصها .

أما رأى أهل التخصيص فقد انشعب إلى شعبتين :

أولاهما : تخصيص الخلافة بقريش بلا فرق بين بطونها .

ثانيهما : تخيصصها بالقرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأهل القرابة القريبة فى ذلك الحين ، هم العباس بن عبد المطلب من أعمامه وعلى وعقيل ابنا عمه أبى طالب .

أما العباس فلم تتطلع نفسه إلى الخلافة ولم يطلبها ، وأما على عليه السلام فقد امتاز على أخيه عقيل بأنه كان من السابقين الأوّلين ، وليس لعقيل ماله من الهجرة والبلاء فى إعزاز الدين والذود عن حوزته والمقامات المحمودة فى جهاد عدوّه ، والصهر إلى رسول الله فى البضعة الطاهرة ، وهى زوجته فاطمة . وكانت وجهة من يخصون أمر الخلافة بالقرابة القريبة الإلقاء بمقاليد الأمر إلى علىّ رضى الله عنه دون غيره من بقية قرابة رسول الله الأقربين . أما الذين يرون أنها حق قريش فحسب فكانوا جمهور أصحاب رسول الله من المهاجرين وبعض الأنصار .

وكان رأى عدم التخصيص فى الخلافة لجمهور الأنصار . فكانوا متطلعين إلى أن يكون الخليفة منهم لأنهم أصحاب دار الهجرة ، وقد آووا ونصروا وآثروا المهاجرين بأموالهم وواسوهم فى الضر ، وقاموا يرمون وراء رسول الله ويوالون من

والاه ويعادون من عاداه لا يرغبون بأنفسهم عن نفسه، وكانوا عيبته التي آوى إليها إذ أخرجه قومه ثاني اثنين، ولرسول الله المقامات المحمودة في الثناء عليهم. وقد تلقف هذا الرأي من بعد الأنصار جميع الخوارج الذين كانوا يشقون عصا الطاعة على الخلفاء في آونة مختلفة، ويفارقون الجماعات لأسباب يستمسكون بها ويتخذونها ذريعة لخلع ربقة الأئمة. وفي بعض الأحيان يقيمون عليهم خليفة وينادون به أميراً للمؤمنين كقطري بن الفجاءة، وهو رجل من بني تميم. وقد كانت تكأة أولئك القوم فيما آتوه أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيه الأمة إلى الخير والسير بهم في سبيل الصلاح والعدول بهم عن الشر وإقامة الدين فيهم واستقرار العدل في الأحكام، وهذا أمر يحصل بتولية من فيه المقدرة على ذلك والاضطلاع به بقطع النظر عن قومه وقبيلته. وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾.

والذي أراه أن أصحاب هذا الرأي قد يكونون على صواب إذا كان من يختار لهذا المنصب منفرداً بعصبية تؤيده وتقوم بنصره بحيث تكون غالبة لكل قوة سواها، لأن الإنسان في أموره لابد أن يلاحظ الفواعل الطبيعية وما جبل عليه الناس من الانقياد للغالب ذي النفوذ القوي والكلمة المسموعة والعصبية القاهرة فإن هذه هي الأمور التي تبهر عقول الجماعات وتقسر بقية الطوائف على الإذعان. وأما التقي الذي لا حول له ولا قوة. فإن الناس تنفض من حوله ولا يمكن أن يظاهر على أمره.

أما رأي تخصيص هذا الأمر بقريش فإنه الرأي الطبيعي المناسب لذلك الحين لما وقر في طبيعة العرب من الإقرار لقريش بالفضل والإذعان لها بالسؤدد لا ينازعها في ذلك منازع بخلاف غيرها من العرب فإن قبيلة منها لا ترضى أن تطأ عقب قبيلة أخرى وتنقاد لها بأزمتها، حاشا قريشا. وقد أبان ذلك أبو بكر يوم السقيفة بقوله: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج،

وإن تولتـه الخزرج نفسته عليهم الأوس . ولا تدين العرب لغير هذا الحيّ من قريش » .

ومن هنـا استنتج العلامة ابن خلدون السر فى تخصيص قريش بالخلافة وهو ما كان لهم من العصبية والنفوذ السارى فى جميع قبـائل العرب وبطونها يعترفون لهم بالتقدم ، ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم ويستثنونهم إذا افتخروا :

فأما الناس ما حاشا قريشا   فإنا نحن أفضلهم فعـالا

فإذا كان الخليفة منهم ألقت إليه العرب المقاليد وتقطعت أسباب المعاذير فى الخلاف عليه والنصب له . وقد بنى على هذا الأصل أنه ليس يمتنع أن تكون الخلافة فى غير قريش إذا ذهبت ريحها وعجزت عن حماية بيضة الإسلام وكانت المنعة والقوة لسواها . لأن الشريعة مبنية أحكامها على العلل والحكم فى كل زمن بحسبه .

أما رأى التخصيص بالقرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان رأى عليّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تابع علياً على ذلك فيما بعد لمكانه من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنه التفت يمنة ويسرة فلم يجد من يظاهره على أمره ممن يقول ويفعل لحدا به ذلك إلى الانضواء إلى رأى الجمهور والدخول فيما دخل فيه الناس ، وذلك بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها لستة أشهر من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الروايات .

والذى أراه وأعتقده هو ماروى من أنه بايعه بعد أيام ، بدليل أنه جعله قائداً على بعض المسلمين حين بيت الكفار أهل المدينة وذلك لشهرين من بيعة أبى بكر .

تولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وهو تيميّ قرشيّ ، ثم تلاه عمر وهو عدويّ قرشيّ ، ثم جاء بعدهما عثمان بن عفان وهو أمويّ من بنى عبد مناف وأذعنت الكافة للرأى القائل بأن الخلافة لا تكون إلا فى قريش وأجمع على ذلك أصحاب رسول الله والمسلمون كافة وبقى الرأى الأخير

(وهو القائل بتخصيص الخلافة بأهل القرابة القريبة) مهملا إلى آخر أيام عثمان بن عفان . فطاف على الحواضر الإسلامية طائف من التفريق وانساب إليها دعاة الفتنة ينبهون الناس إلى هذا الرأى ويقبحون من خالفه صارخين صاخبين . « كيف يحرم خلافة الرسول قرابته ! » .

يقول غوستاف لوبون : « لبعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ، ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعا أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين ، وتعنو الوجوه لها احتراما . وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية . ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار ، محفوفة بالإكبار والإعظام إبهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الأبصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد إذا تقدم نحوها » . وعلى هذا النمط كانت كلمات المفرقين وعلى هذا النحو سار دعاة الرأى الأخير ، فهاجموا مكان الإحساس من الأمة وملكوا على الناس مشاعرهم وأسمعوا الناس صوتا ملذوذا فى المسامع فأطربوهم بما كانوا يرددون من الجمل ويصوغون من العبارات . وربما تخطى بعضهم حدود الدين ونحل عليا ما لا يتحلى به بشر لينال بذلك فتنة الأمة وينجح فى الكيد للإسلام .

كأنى بالناس فى أطراف بلاد الإسلام وقد تلجلج هذا الأمر فى خواطرهم وإن لم تلكه ألسنتهم وقد اختمر فى نفوسهم وأشعرهم التشوق إليه ما أرهقهم به عمال الخلافة فى تلك الأطراف المنتبذة فى زعمهم فما هى إلا أن وجدت مس الدعوة إلى هذا الرأى حتى هبت لتحقيقه وانتدب له أفواج من الأطراف المختلفة غير حاسبين لعقبى عملهم حسابا . وهذا شأن الجماعات فى كل زمان ومكان تندفع بسهولة إلى الشر ، وتنكمش فى أفرادها الذات الشاعرة وتتسلط الذات اللاشاعرة . وتتجه المشاعر والأفكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد وتنقاد إلى فعل ما يخالف منافعها الحقيقية . هذا هو شأن الجماعات فى كل زمان .

كان تنبه الناس لهذا الرأى وهبوبهم إلى تحقيقه بالفعل سبباً لخطوب جسام ومصائب عظام ، فقد سال سيل الجماعات على المدينة فاجترف فى سبيله الخليفة الثالث عثمان بن عفان . وبذلك انبثق على المسلمين سيل من الخطوب لم يمكنهم سده .

ذلك أن دعاة الرأى الأخير والنافخين فى هذا البوق رأوا جانباً من أرض الإسلام لا يثمر فيه هذا الغرس الذى غرسوه . بل تيقنوا أن تخطيهم إلى تلك البلاد إنما هو تخط إلى الآخرة فبقى أهلها غير متأثرين بهذا الرأى ولا راضين عن أهله فهبوا لإخماد أنفاسه والإيقاع بالقائمين به بلا شفقة ولا رحمة .

كان عصارة ذلك أن تصادم أهل الرأيين وفزع كل فريق إلى سيفه وما احتقب من رأى ومكيدة وحسن سياسة فظفر معاوية بن أبى سفيان بالخلافة ، وهو من بنى أمية ، وليس من ذوى القرابة القريبة . وبهذا عاد الأمر كما بدأ واستقر الأمر على الرأى الأوسط بعد خطوب وأهوال يشيب لها فود الزمان .

اختنق هذا الرأى قبل أن يبلغ أشده وكمنت حياته كمون النار فى الحجر كلما وجدت قادحا ورت وإذا سكنت توارت ، وأهل هذا الرأى قد استكانوا لحكم السيف ولكن على أمل أن ينتهزوا الفرصة إذا رأوها سانحة وأن يشيموا بروق الأمل إذا رأوها لائحة .

ظل أبناء على رضى الله عنه يرون الخلافة إرثاً لهم عن رسول الله لا ينازعهم فيه إلا ظالم جائر وشيعتهم من ورائهم تحفزهم عليهم وتدفعهم إلى المطالبة . فيخرج الواحد منهم بعد الآخر يتهافتون عليه تهافت الفراش على السراج لا يبالون برءوسهم تطاح ، ودمائهم تستباح ، وأجسامهم تذروها الرياح . وكأن ما كان يحل بهم من القتل الوَحِيّ ، والتمثيل الذريع ، والتحريق بالنيران والتصليب على الأعواد لا يزيد النار إلا استعاراً ، ويغرى اللاحق باتباع آثار السابق وكان شيعتهم يجدون بتلك الحوادث مكان القول ذا سعة فيطلقون العنان لألسنتهم وقرائحهم فى تمثيل أهل البيت بين مضرج بدمائه

وهارب بذمائه وحريب وسليب ومأسور ومقهور وعقائل بيت الرسول تساق الواحدة منهن سوق السبية الأخيذة . فمن شاء فلينظر إلى شعر الكميت ابن زيد ومن حذا حذوه ففيه بلاغ ومقنع .

والذى أعتقده أن أهل البيت لو خفضوا من عنانهم فى سبيل المطالبة ولم ينصبوا أنفسهم هدفاً للولاة والخلفاء لأتتهم الخلافة منقادة بخطامها لأن فى طبيعة الرعية حب الجديد والاستشراف إلى تغيير الحكام متى طال العهد بهم فلا يجدون بعد بنى أمية سوى أندادهم من بنى هاشم ، وهم على حال سلامة ووفرة عدد وفى حرز أمنة ، ولكنهم كانوا يخاطرون بأنفسهم ومن معهم ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة ، وكان ذلك يزيد خصومهم قوة إلى قوتهم ، ويحدث ترات وذحولا عندهم للقبائل المختلفة ويزيدهم ضعفاً ، ويرهقهم وهنا بقلة عديدهم وفناء الفريق الأكبر منهم .

لم يكن للعباس مطمع فى الخلافة كما قدمنا ، ولم يكن لشيعة أهل البيت نظر يتوجه إلى أبنائه ، وكان قصارى بنى العباس أن يكونوا مؤازرين لعلىّ مظاهرين لأبنائه فى طىّ الخفاء على خوف من بنى أمية وملئهم أن يعتروهم بسوء . غير أنه لما توفى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب ، وكان قبلة أنظار الشيعة أكثر من بقية العلويين ، زعم العباسيون حينئذ أنه ألقى بمقاليد أمر الدعوة إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس فهبوا للعمل على إنماء الدعوة لآل البيت فى ظاهر أمرهم ويبطنون أن تكون الدعوة إلى خلافتهم ويحتجزونها دون أهل البيت إذا حق العمل فكانوا يدعون الناس إلى مبايعة الرضا من أهل بيت رسول الله ولا يبوحون لأحد باسمه زاعمين أن ذلك يوجه نظر بنى أمية إليه ويعرضه للقتل والتشريد لمن تابعه . وقد واتتهم المقادير على حين فترة من الهمم فى بنى أمية ، وانحلال العزائم فى خلفائهم وانشغالهم بالعيش الناعم وملذات الحياة ، واستهانتهم بالأطراف القاصية من مملكتهم واستصغارهم لما يحدث فيها ، وكانت الدعوة التى أخذت صبغة هاشمية بعد أن كانت علوية قد فشت فى نواحى فارس وخراسان فشواً زائداً واشتغل بنو العباس فيها بمهارة زائدة وأوردوا ذكر العباس عمّ رسول الله صلى الله

عليه وسلم وإشاعة فضله وفضل ابنه عبد الله وما له من الذكر النابه عند أولى العلم والتقوى وما للعباس من الحق فى إرث رسول الله بالعَصَبة دون سائر ذوى قرباه ، إلى غير ذلك من الأمور التى لقحت بها الدعوة العلوية .

وقد وفق العباسيون إلى دعاة مهرة ذوى مقدرة فائقة وجرأة وإقدام وعمدتهم أبو مسلم الخراسانى ، فأدار الأمر بحكمة وباشروا انتقاص الأطراف على عمال بنى أمية الذين كانوا قد وهن أمرهم فأدالهم الله منهم حتى إذا حق الأمر أعلن أبو مسلم اسم عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس خليفة للمسلمين .

إن وجهة الناس كانت إلى العلويين . ولكن لما كان العلويون قد ضعف أمرهم كما قدمنا وكفوا أيديهم فى الجملة عن مباشرة الدعوى ، وكان الذى يدير أمر الدعاة إنما هم بنو العباس ، وهم من قرابة رسول الله القريبة لم يجد الناس غضاصة فى المضىّ على أمرهم بالجد فى نقض بناء دولة بنى أمية حتى هوى شامخه وانهار باذخه .

غفل الزمان برهة عن العلويين فجم ذلك الدم الذى كان مطلولا وقوى الضعيف وكبر الصغير وفى أنفسهم من أمر الخلافة ما فيها ، واشتد وجدهم على تراث لم يخرج من يد ناهب إلا ليحصل فى يد غاصب أشد قوة وأعضل نابا . فلما آنسوا من أنفسهم بعض القوة وأحسوا بشىء من القدرة على المطالبة لم يلبثوا أن نصبوا أنفسهم حرباً لبنى العباس يشادُّونهم حبل الخلافة . فعادت الحرب العوان إلى حالها الأولى ، وشبت بين الفريقين نار العداوة والبغضاء واستحرّ القتل فى العلويين ومزقوا كل ممزق لا تعطف بنى العباس عليهم أواصر القربى ولا تثنيهم عن الفتك بهم لحمة النسب . وكان للمنصور والرشيد والمتوكل أيد قاسية فى أخذ العلويين بالعنف وتناولهم بالعسف حتى كان مجرد اتهام أىّ رجل من الناس بالميل إلى العلويين كافياً لاستباحة دمه واستلال روحه من بين جنبيه لا يشفع له فى ذلك نباهة قدر ولا ارتفاع ذكر . وقد كان استواء أحد العلويين فى بلد قصى على عرش الخلافة مغرياً لبنى العباس باستلال نفسه وإخماد أنفاسه

فر بعض العلويين إلى إفريقية لما رأوا أن السيف يجتاحهم ، وشيعتهم تضعف عن حمايتهم وحقن دمائهم ، وبعض آخر إلى المغرب الأقصى قبل ذلك. لانتباذ هذين القطرين عن مركز صولة العباسيين وسهولة العمل فيهما لبعدهما عن النجدة والإغاثة وظاهرهم على ذلك فى الخفاء أتباعهم وشيعتهم بتلك الأقطار . فاطمأنت بهم الحال وأخذوا الأمر على هينته وما زالوا دائبين على العمل حتى أسسوا الدولة الفاطمية فى إفريقية والدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى قبلها . ثم كان لهم دولة أخرى من ملوك الطوائف بالأندلس ببطليوس .

وقد امتدت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر والشام وقد قويت شوكتها واشتدّ بأسها ، أيام ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى ممالك بأيدى الترك والديلم وغيرهم . إلى أن انتهى أمر الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٥٦ هـ .

بقى أمر الدولة العباسية يضئول إلى أن أزيلت من بغداد فى خلافة المستعصم العباسى سنة ٦٤٥ هـ على يد هلاكو خان حين اجتاح فى طريقه ممالك الإسلام بنواحى تركستان وفارس وبغداد .

كانت مصر من الممالك التابعة للدولة العباسية التى لم يمسها المغول فى إغارتهم فلما دالت دولة بنى العباس ببغداد وصل إلى مصر أحد العباسيين فارّاً من وجه التتار ، واسمه احمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بن المستنصر العباسى فى سنة ٦٥٩ هـ أيام سلطنة ركن الدين بيبرس . فأثبت نسبه وبايعه السلطان وأهل الحل والعقد بالخلافة ، ثم خرج الخليفة لمقاتلة التتار والعودة الى بغداد فقتل ولم ينل ما أراد .

وفى سنة ستين وصل الى مصر الإمام أحمد بن على بن أبى بكر ابن الخليفة المسترشد العباسى وأثبت نسبه فبايعه السلطان والقضاة وأهل الحل والعقد بالخلافة ، وهو جد الخلفاء بمصر إلى أن جاءت سنة ٩٢٣ هجرية دخل السلطان

سليم شاه العثمانى مصر وأزال دولة المماليك . وكان الخليفة العباسى بمصر هو الإمام المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب فأخذه معه إلى الآستانة هو وولدى ابن عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد ، وبذلك انتهى أمر الخلافة العباسية بمصر .

جاء البيت العثمانى التركى واستولى على ممالك كثيرة من ممالك الإسلام ودان للقائم من العثمانيين بالطاعة أهل تلك الممالك وخفت صوت الخلافة . وادعى ملوكهم على طول الزمان أنهم خلفاء المسلمين ويدعى لهم الناس أن آخر الخلفاء العباسيين نزل للسلطان سليم عن الخلافة وبايعه بها ، وهو كلام لم يثبت . ولكن القوم نفذت كلمتهم فيما تحت أيديهم من الأقطار الإسلامية وشهروا بأنهم الخلفاء ، وعرف أكثر أهل بلاد الاسلام هذه السمة وأذعنوا لها فهى خلافة بالفعل عقدت البيعة بها لشوكة والقوة اذ كانوا أقدر أهل الإسلام على حماية البيضة وتنفيذ الأحكام . وهذا هو العلة التى استحقت بها قريش الخلافة فى أول الأمر .

بقى أن أقول أن مايدعيه أهل البيت من استحقاقهم الخلافة بالإرث دعوى غير صحيحة لامؤيد لها من عقل ولا شرع . أما العقل فإن هذا الأمر مناطه رعاية أمر المسلمين على شؤونهم العامة على نحو مابينافيما سبق بدء ولاه من يصلح له ويضطلع بأمره . والله لم يجعل أمر المسلمين ومصالحهم إرثا لأحد . وهذا الكتاب بين أيدينا خال من دعواهم ، وهذا على لم يدع الوصاية من رسول الله على المسلمين طول حياته ولم يحتج بعهد رسول الله إليه بالأمر . وأما الشرع فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يقبل من هوذة بن على أن يكون له الأمر من بعده بل قال: « الأمر لله يضعه حيث يشاء » . ولو كان الأمر لذوى قرابته لجاء به قرآن ، أو لنص عليه رسول الله ، أو احتج به على رضى الله عنه .

وما كان أبو بكر ليتمادى على اغتصاب الأمر من أهله ويطرح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهريا بعد ثبوته لديه وتحققه عنده .

شكل الانتخاب

لم يرد فى الكتاب أمر صريح يستبين به الشكل الذى يجب على المسلمين عمله إذا انتخبوا خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم سوى الأوامر العامة التى تتناول أمر الخلافة وسواء مثل وصف المسلمين بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان نظام خاص يتبعه المسلمون فى انتخاب من يلى أمورهم .

والذى يلوح لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن لا يضع للمسلمين شيئا إن وافقهم اليوم ولاءم حالهم فقد لا يوافقهم إذا تبدلت الأحوال وتغير مزاج الأمة . فلم يشأ أن يرهقهم بأمر يشرعه لهم تكون فيه مظنة المشقة عليهم فى يوم من الأيام فوكل ذلك إلى فطنتهم وما لهم من عقل يحلونه فى كل آن بالحل الذى يناسبه زمانهم ومكانهم .

أما طرقهم التى ساروا عليها فهى :

(١) الطريقة الأولى ـ طريقة الانتخاب الاستشارية ، وهى التى اتخذت فى انتخاب الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . ذلك أن الأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يجيلون الرأى فى تولية خليفة بعد رسول الله فى اليوم الثانى من وفاته . وعلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح من المهاجرين بأمر أصحاب السقيفة وخافوا أن يبت القوم أمراً فيما بينهم يكون فيه تفريق الجماعة أو مالا يحب المهاجرون ، فأسرعوا إليهم وبعد حوار بينهم والمراجعة على مشهد من الملأ تم انتخاب أبى بكر . ولم يحضر هذا الأمر من المهاجرين سوى الثلاثة الذين ذكرنا لأن القوم كانوا بين واجم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مفكر فى شىء آخر، وبين مشتغل بتجهيزه ودفنه كعلى وبنى هاشم . وإنما تم الأمر على هذا الوجه خشية اتساع الخرق بين المهاجرين والأنصار وتنازعهم فى استحقاقه ، فأراد أبو بكر وعمر عدم انتشار الأمر والعمل بالحزم قبل خروجه من أيديهم .

وقد نظر المجتمعون فى السقيفة فلم يجدوا من السابقين الأولين من المهاجرين الحاضرين بالسقيفة من هو أحق بها وأهل لها سوى أبى بكر لأنه رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وصديقه، وقد قدمه رسول الله للصلاة بأصحابه وهى من أهم المناصب وأغلاها قيمة ، وكان عمر حريصاً على الإسراع فى جمع الكلمة فمد يده لمبايعة أبى بكر ثم تبعه الناس بعد ذلك ولم يخالف عليه سوى على وفاطمة كما قلنا فيما تقدم وسعد بن عبادة الأنصارى .

يرى المطلع على الشكل الذى حصلت به بيعة أبى بكر أن الاستشارة فى أمرها كانت ناقصة نقصاً ظاهراً لأن المعقول فى مثل هذه الحال أن يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه وأن يؤذن الناس به من قبل ؛ غير أن حرص عمر بن الخطاب على الإسراع فى الأمر والمبادرة إلى لمّ شعث المسلمين جعله يتم على هذا الوجه، وقد أثر عنه أنه قال : ان بيعة أبى بكر كانت فلتة ولكن وقى الله شرها .

(٢) الطريقة الثانية ـ طريقة العهد من الخليفة إلى آخر فى الأمر من بعده ؛ وهذه هى الطريقة التى سار عليها أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى انتخاب عمر ابن الخطاب للخلافة من بعده بعد أن آمر الناس فوافقوه على الرضا بمن عهد إليه واختاره لولاية أمرهم وقد أعلمهم من هو الذى اختاره .

هذه الطريقة صادفت أن وقع الاختيار من أبى بكر على خير من يكون خليفة المسلمين وأشدهم صرامة فى الدين وأكثرهم تحرياً للعدل ، غير أنها طريقة خطرة إذ لا ثقة لأحد بأن يكون كل خليفة محسناً للاختيار كأبى بكر رضى الله تعالى عنه فلا يمكن أن يأمن الناس مغبتها لما فيها من احتمال الخطأ فى الاختيار .

(٣) الطريقة الثالثة ـ طريقة الاختيار الشورى ، بأن يعين الخليفة فى حياته أفراداً لينتخبوا من بينهم خليفة ؛ وهذه الطريقة التى جرى عليها انتخاب عثمان ابن عفان للخلافة . وذلك أن عمر رأى بعين بصيرته أن سادة الناس وقادتهم

الذين يتطلعون إلى الخلافة ولا يؤمن إنتقاض باقيهم إذا عهد إلى أحدهم على طريقة أبى بكر معه هم القوم الذين عينهم ليختاروا واحداً منهم ويخشى على المسلمين أن تفترق كلمتهم إذا افترقت بهؤلاء القوم لأن المسلمين لهم تبع . فأراد أن يعفى الأمة من تشتيت الآراء ورد الأمر إلى هؤلاء النفر الذين يخاف على المسلمين منهم ولايخاف عليهم من المسلمين . وكانوا ستة ووضع لهم نظاماً يسيرون عليه فى اختيار الخليفة من بينهم . وذلك أن يجتمعوا بعد وفاته فى حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ويختاروا الخليفة فى مدة لاتزيد على ثلاثة أيام وحتم عليهم الآخذ برأى الأغلبية وأن على الأقل الانصياع إلى مارأوه ومن أبى وخالف استحق القتل ، وإذا تساوت الأصوات أخذوا رأى عبد الله بن عمر على أن لا يكون له من الأمر شىء فلا يصح أن يكون مُنْتَخَباً . فإذا لم يرضوا برأى عبد الله بن عمر كان الراجح رأى الجماعة الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف .

وهذه الطريقة مبدأ نظام صالح لو تناولها المسلمون بالتحسين ، وإن لم تكن وافية بكل غرض . وما سنّه من بقاء القوم ثلاثة أيام لانتخاب واحد منهم يشبه بعض الشبه مايفعل اليوم فى اختيار خليفة للبابا إذا مات . فإنهم يجمعون الكرادلة فى مكان واحد يمنعونهم الأكل والشرب إلى أن ينتخبوا منهم البابا الجديد .

ومن نظر إلى هذه الطرق الثلاث التى جرى عليها انتخاب الخلفاء لم يجد مايمكن أن يكون نظاماً مستوى ولم تلزم الأمة بشىء من ذلك إذ لم يعرف فى القاعدة الأولى من لهم حق انتخاب الخليفة : أهم الأمة بأسرها ، أم هم أشخاص مخصوصون . وإذا كانوا أشخاصا مخصوصين فمن هم ، وما هى الصفات التى يلزم توفرها فيهم ؟

يقول شراح قاعدة الانتخاب الأولى : إن الذين لهم حق الانتخاب هم أهل الحل والعقد . وهو أمر غير مدرك الحدود ، لأن سامع هذه الكلمة لايدرى من

أهل الحل والعقد ؟ هل هم قوّاد الجيوش ، أم ولاة الأمصار ، أو أعيان الأمة ، أو غير هؤلاء من العلماء والقضاة وغيرهم ، وذلك لم يبين . وعلى ذلك فمن فى نفسه بقية من التطلع إلى الخلافة يجد مجالا للطعن على خلافة من يعين بها كما حصل من معاوية عندما ولى علىّ الخلافة .

أما الطريقة الثانية فقد بينا مافيها من الخطر ، وما قد يعترى العامل بها من الخطأ .

وأما الطريقة الثالثة فهى عبارة عن أن يعهد الخليفة إلى واحد لا يعينه من أناس محصورين يختارهم الإمام . وهى مساوية للطريقة الثانية وليس كل عصر عصر عمر ، ولا كل خليفة ينظر للأمة نظر عمر .

بويع بعد ذلك لعلى بن أبى طالب بالمدينة حين قدم عليها الثوّار وأهل الشغب من أطراف بلاد الإسلام فقتلوا عثمان وبايعوا علياً وبايعه حاضرو المدينة من أصحاب رسول الله والتابعين . فوجد بعض أهل البلاد الأخرى مطعنا على خلافة على ولم يرضوا بما رضى به الناس ، ورأوا أنفسهم فى حل من منابذته إذ لا بيعة له فى أعناقهم ، وأن البيعة لم تلزمهم بفعل أهل المدينة . والأمة لم يسبق لها أن سمعت احتجاجا كهذا ، بل كان الخليفة يولى بالمدينة فيطيعه أهل الأمصار فكان هذا حجته عليهم ، وقد يقال إن فى هذا المذهب إهداراً لأصوات أهل الأمصار وغيرهم النائين عن المدينة ، وهم بلا شبهة من أهل الحل والعقد ، وقد يكونون عدد الناس والأمر لم يوضع له نظام . وهذه الجمل تجد لها مساغاً إلى الأسماع ومنفذاً إلى النفوس .

نبت هذا الرأى فى الشام ووجد تربة صالحة فنما وأثمر ، وقام على رضى الله عنه لتأييد رأيه وتثبيت بيعته والتقى الجمعان بصفين وعلىّ يحمل على يده قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايستمسك به من بيعة وفود الأمصار وحاضرى المدينة ، فلما لفحتهم الحرب بسمومها لجأوا إلى التحكيم فيما شجر بينهم من الأمر ، فانتخب كل فريق رجلا لينظر الرجلان فيما شجر بين المسلمين .

والذى أراه أن القوم كانوا حديثى عهد بالتوثيقات ووضع الأنظمة فلم يحدد موضع النزاع تحديداً كافياً شافياً ، ولم يبين مرجع الحكم بياناً يرفع النزاع . بل وضعوا عقد التحكيم بألفاظ عامة يجد من يريد المخالفة ألف سبيل وسبيل لتأويلها ، فكان هذا التحكيم أشبه باللهو واللعب .

تجاوز الحكمان ماعينا لأجله من الحكم فى الأمر الذى دهم فريق المسلمين وتكلما فى خلع كل واحد من الحكمين صاحبه ، وكان للخداع والدهاء أكبر حظ من النجاح إذ انفرط عقد جند علىّ ونشز عليه اصحابه ولم يزل معاوية جميع الأمر .

أما أصحاب معاوية فقد رضوا بهذه النتيجة التى آلت إلى تثبيت صاحبهم فى مركزه وخلع على من الخلافة .

وأما أصحاب على ففريق تثاقل عن نصرته ، وفريق خالف عليه وعلى معاوية ورأوا أن التحكيم الذى كانوا يرونه واجباً من قبل إنما هو ضلالة ومروق من الدين ، أولئك القوم هم الخوارج . فقد نصبوا أنفسهم لعداوة على ومعاوية معاً واتخذوا لهم شعاراً هو قولهم : لا حكم إلا لله . وصاروا يبنون عذرهم فى مفاوقة على ومجاهرته بالعداوة على مقدمات يزينونها ويخلصون منها إلى تكفيره وتضليله ، ووجوب التوبة عليه حتى يعودوا إلى متابعته على أمره .

فيقولون : إن الخليفة المختار معين من الله تعالى ، فلا ينبغى له أن يشك فى أمره .

ولما كان على هو الخليفة الحق وقد حكّم الناس فى أمره فقد شك ومن شك فقد ضل ومن ضل لا يصلح للخلافة . وبعضهم يوجب استتابته وتجديد إسلامه . وأما معاوية فلما تعرض لما ليس له بحق فقد ضل فلا يصلح للخلافة .

انتبذ هؤلاء القوم ناحية وروّجوا مقالتهم بين الناس فنما عددهم وكوّنوا لهم

جماعة أعطوها الحق فى انتخاب الخليفة . وأذاعوا فيمن ضوى إلى رأيهم أن مخالفيهم فى الرأى كفار ، واستباحوا دماء الناس وأموالهم ، واندفعوا يقتلون بلا رحمة ولا شفقة . ولم يكن لدعوتهم حدود معينة ، ولا معالم ينتهون إليها ، ولا غاية يبغون الوصول إليها . فانتشر أمرهم واختلفت كلمتهم وجدّ الخلفاء فى استئصالهم وتتبعوهم بين سمع الأرض وبصرها ، وانهالوا عليهم بما عندهم من حول وطول حتى قطعوا دابرهم وأبادوهم بعد حروب حاصدة ووقائع تشيب لهولها الولدان . ولم يعد على الإسلام من عملهم منفعة ، ولم تجن الأمة سوى الويلات والحرب . ولم تزل لهم بقية إلى اليوم بالمغرب وجزيرة العرب وسواحل المحيط الهندى .

وعلى كل حال فقد انتهى الأمر باستقرار معاوية فى الخلافة ومضى علىّ إلى ربه وكان الفوز للسياسة والدهاء . وهنا نقول : لو كان للخلافة قانون متبع أو قاعدة يجب السير عليها فى انتخاب الخلفاء لوقى المسلمون التهوّر فى هذه المزالّ الخطرة ولساروا على الجادة

وليس للمؤرخ من حيث هو مؤرخ أن يرجح إحدى البيعتين على الأخرى لأن كلا من الرجلين قد بايعه جمع من المسلمين ولم يتخطّ فى عمله حدوداً مرسومة يعدّ متجاوزها ظالماً . أما كون أحد الرجلين أولى من الآخر لميزات خاصة ، أو صفات جليلة لا توجد فى الآخر فهذا أمر آخر مناطه التقدير . وينبغى لمن يبت فيه أن يرجع إلى الأوصاف التى تشترط فى الخليفة ليرى أىّ الرجلين أكثر جمعاً لتلك الصفات . ولما لم يكن فى الشرع بيان لشىء من هذا رجع الأمر إلى تكافؤهما فى القوة وكثرة الأعوان والأنصار ، وهى الأمور الطبيعية التى لا ينبغى غضّ النظر عنها كما قدمنا .

استتبّ الأمر لمعاوية وهو أول خلفاء بنى أمية . وكان حريصاً على أن يكون الأمر فى بيته فأخذ للأمر عدته وأوفد ولاة الأمصار فى حياته واستشارهم فى انتخاب خليفة يلى أمر الناس بعده ، معللا احتياطه هذا بخوفه على المسلمين أن تفشو فيهم الفتن . وقد كان بعض الولاة يعلم ما يرمى إليـــه فبادر

إلى قصده وحسن له أمر تولية ابنه يزيد ولاية العهد واصفق بقية الولاة ومن معهم على هذا الأمر وكتب له بذلك العهد . وقد اتخذ هذا السبيل غيره من بنى أمية يعهدون بالأمر من بعدهم لأبنائهم أو أخوتهم أو أبناء عمومتهم .

وقد كان معاوية يحاذى فى فعله ما كان من أبى بكر فى تولية عمر من بعده ، غير أنه لا مناسبة بين الفعلين فإن معاوية إنما آثر ولده وحاباه لمكانه من الاتصال به . وأما أبو بكر فإنه لم ينظر فى عمله إلا لمصلحة المسلمين ولم يؤثر بالأمر نسيباً أو قريباً لنسبه أو قرابته ناهيك أن معاوية — بإيثاره ولده يزيد وتخطيه فى عمله رقاب جلة الصحابة والتابعين وأصحاب السابقة والفضل من الأمة — أوجد فى عمله مغمزاً للطاعنين وأفسح الكلام لأهل الأقاويل ، فنبه بعمله هذا المطامع النائمة فهبت ريح الثورات بعد موته ، وقام الطامعون فى الخلافة ينازعون يزيد حبلها إلى أن مات والأمر على حاله ، وقد عهد إلى إبنه معاوية الثانى بالأمر بعده ، وكان رجلا ضعيف النحيزة مشتغلا بالعبادة فألقى الأمر إلى المسلمين يختارون من شاءوا إلى أن استقرت فى مروان وبنيه وقد ساروا فى أمر الخلافة سيرة معاوية : ربما عهد الواحد منهم بأمر الخلافة إلى واحد من أولاده أو اثنين منهم أو واحد منهم وآخر من بنى عمومته ، وقد جرت سنة الله تعالى أن لا يلى ولاية العهد اثنان إلا جرّ ذلك نزاعاً وشقاقا . فإن أولهما كان يميل إلى نزع الأمر من ثانيهما لاعتقاده أنه يحدث نفسه فى تعجل الأمر لنفسه ، أو لأن الأول يؤثر ابنه على أخيه فهو يريد إزالته وتنحيته عن ولاية العهد بكل سبيل ، أو بغير ذلك من الاعتبارات . فقد جهد عبد الملك فى تأخير أخيه عبد العزيز والإفضاء بالأمر من بعده إلى إبنه الوليد وولى سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد ولاية عهده ، فكان عمر يتألم من أن يلى يزيد أمر المسلمين من بعده . ولولا أن عاجلته المنيّة لأخرجه من ولاية العهد وعهد بها إلى رجل من غير بنى أمية . والأمثلة سوى هذه كثيرة .

ذهبت بعد ذلك الدولة الأموية لطيّتها وجاءت الدولة العباسية ، فترسم العباسيون فى ولاية العهد خطوات بنى أمية حقبة من الدهر ، إلى أن ذهب شبابها ووافاها دور الضعف والهرم وصار الخليفة ليس له من الخلافة سوى الاسم والأمر فى كل شىء فى أيدى المتغلبين من الوزراء والقواد والملوك الذين انتقصوا الدولة من أطرافها وأقاموا لهم منها ممالك قبضوا بأيديهم على أعنتها ، فكان أمر الخلافة فى أيدى هؤلاء المتغلبين وليس للخليفة معهم صرف ولا عدل .

لم يحفظ الخلافة الاسمية فى ذلك الزمان فى البيت العباسى إلا ما وقر فى نفوس الناس أن حكم الحاكم لا يكون إلا بعهد من الخليفة ليكون عمله وحكمه جارياً على مقتضى الشرع الشريف . فكان الخليفة يولى فى مكانه ليعطى الحكام والملوك العهود التى تكسب عملهم الصفة الشرعية . ولم يكن بين المسلمين فى ناحية بغداد بيت يسامى البيت العباسى فى نباهة الشأن لما كان له من قديم الملك ، ونفوذ الكلمة والسطوة ؛ فهذا النفوذ يمتد سلطانه لكل شىء قديم ، والروعة التى لهذا البيت بحكم الاستمرار ، وعدم حاجة الملوك إلى تغيير هذا الطراز من الخلفاء الذين يرضون بالاسم من الخلافة ولا يعارضون فى شىء من أمور الملك . أقول : لولا هذه الاعتبارات لزالت الخلافة فى تلك الأيام ولم يبق لها اسم ولا رسم .

جاء الملوك من أهل البيت العثمانى التركى وانتحلوا اسم الخلافة بعد فتح مصر سنة ٩٢٢هـ بزمن طويل والقوم قد رتبوا أمر الملك وجعلوه لأكبر موجود من أهل ذلك البيت ، فصار هذا النظام متبعاً فى شأن الخليفة منهم إلى أن جاء مصطفى كمال باشا وألغى الخلافة من البلاد فى شعبان سنة ١٣٤٢[١] وقد أدّى هذا الترتيب إلى منازعات كثيرة سفكت بسببه دماء غزيرة من أهل ذلك البيت ، فإن بعض ملوكهم كان يعمد بعد توليته إلى استئصال إخوته وذوى قرابته ليخلص الملك لبنيه . ولكن

---

(١) مارس ١٩٢٥ .

لما كان لهم نظام يسيرون عليه فى شأن من يلى الأمر ، فقد حفظ أمر الخلافة والملك فى هذا البيت إلى العهد الأخير .

أما الذين يقولون بأن الخلافة حق من حقوق أهل البيت العلوى فإنهم كانوا يجرون عليها حكم الوراثة فيجعلون الخليفة أحد أبناء الخليفة المتوفَّى ويخصون بذلك أكبرهم وقد ساقت الفرقة الاثنى عشرية (وعلى مذهبهم جمهور أهل فارس اليوم) الخلافة فى بنى الحسين بن على ، وسموا علياً ومن يليه الأئمة ، وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر الذى تغيب بسرداب بدارهم بالحلة وأنه يجىء آخر الزمان ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

ولغير الاثنى عشرية طرق أخرى فى سوق الخلافة . وعند الشيعة فى تفصيلاتها اختلاف كبير يخرجنا تتبع الكلام فيه عن القصد .

* * *

للأستاذ الخضرى كلمة جليلة فى إحدى محاضراته ساقها فى أمر الخلافة ، وما كان بين علماء الإسلام من البحوث المختلفة فى شأنها نسوقها مع بعض تغيير كلما رأينا لزوماً لذلك من زيادة ايضاح أو نحود ، قال :

لم يكن يحَلُّ الخلاف فى زمن من الأزمان إلا بالقوة فهى التى تجعل صاحبها صاحب الحق . والناس فى كل زمان يؤلهون القوة ويجعلون باطلها حقاً ويحقرون الضعف ويجعلون حقه باطلا .

تناول العلماء فى الدولة العباسية مسألة الخلاف وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية . ويخيل إلينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليها المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية ، وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور .

٢ — وجوب نصيب الإمام ، أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من

طريقهما معاً كما هو رأى بعض المعتزلة (وأرانى إلى هذا أميل)[1] أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية؟ أو على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأى بعض الإسماعيلية؟ أو لايجب كما هو رأى بعض الخوارج؟ أو يجب عند الأمن لا عند الفتنة كما هو رأى هشام الفُوَطى وأتباعه؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة!

٢ — شروط الإمام؛ وقد ذكروا شروطاً لاخلاف فيها وهى: أن يكون شجاعاً ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمى البيضة. وأن يكون أهلا للقضاء؛ بأن يكون مسلماً مكلفاً حراً، عدلا، ذكراً، مجتهداً، ذا رأى وسمع وبصر ونطق. ومنها شروط فيها خلاف؛ كالقرشية عند الجمهور، والهاشمية عند الشيعة، والعلم بجميع مسائل الدين؛ وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة.

ولما رأى القاضى أبو بكر الباقلانى ما عليه عصبية قريش من الاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء أسقط شرط القرشية. وإن كان رأيه هذا موافقاً لرأى الخوارج. وقد بقى الجمهور على اشتراطها وصحة إمامة القرشى ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين.

وكأنى بأهل هذا الرأى يرون أن الخلافة التى أوجب الشرع إقامتها يكفى فى سقوط الإثم باتخاذها على السبيل الذى تتخذ عليه الآثار القديمة والعاديات فى المتاحف، ولا أخفى عليكم أن هذا ليس معجباً لى ولا تميل إليه نفسى.

٣— ماتثبت به الإمامة؛ وهو النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد، خلافاً للشيعة. ثم قالوا: لايحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان، وقال بعضهم: لابد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة. وهل يجوز تعدد الأئمة أو لايجوز؟ وهل يجوز خلعه ولأى شىء يكون؟

---

(١) كلام المؤلف.

ولا يخفى أن وجوب الأخذ ببيعة واحد أو اثنين فيه خطر وافتيات على أهل الحل والعقد ، والمعقول أن يكون ذلك باصفاق أكثر من حضر منهم على البيعة . وأما جواز تعدد الأئمة فني النفس منه شيء ، مهما احتج المجيزون له بترامى الأطراف واحتياج البلاد النائية إلى قوة تضبط نواحيها وتؤمّن فجاجها ونحو ذلك من الحجج لأن هذا يحصل باختيار الكفاة من الولاة .

أما الإمام إذا بويع فإنه لا يجوز خلعه لنحو فسق لما فى مفارقة الجماعة بالخروج على الإمام من الخطر وسفك الدماء والمفاسد . ولكنه إذا كفر فلا رخصة فى الإبقاء عليه بل لا بد من خلعه . ومثل ذلك إذا جُنّ .

ولا يذهبن عليكم أن القول بعدم خلع الإمام بالفسق قول لكثير من أصحاب رسول الله عليه السلام ، فقد كان جمهور المسلمين على هذا الرأى فى خلافة يزيد وكثير من الصحابة يساكنونه فى بلده ولم يحركوا ساكناً بعزله حتى بعد أن قتل الحسين وهو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفريق يرى خلاف هذا الرأى كالحسين بن على ومن تابعه وذلك اجتهاد منهم .

٤ — من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أهو أبو بكر أم على ؟ ومعلوم أن الجمهور من المسلمين يقولون : إنه أبو بكر . وأما الشيعة فيقولون : إن علياً معين من قبل وسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته . ويدّعون لذلك حديثاً هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى : « أنت أخى ووصيي وخليفتى من بعدى » ، وأنا لا أذهب بكم بعيداً ، بل أقول : إن رسول الله لو كان قد قال هذا القول لاحتجّ به علىّ يوم بويع أبو بكر واستشهد على ذلك بالمسلمين وإنى لأربأ بعلى رضى الله عنه أن يكون قد عمل على خلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايع أبا بكر وهو ليس بالإمام الحق ثم بايع بعد ذلك عمر ثم عثمان .

٥ — من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومعلوم أن جمهور المسلمين على أنه أبو بكر الصديق . والشيعة على أنه على بن أبى طالب .

وأما نحن فنقول : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم وبيده تقليب قلوبهم الحكم فى ذلك وهو على كل شىء شهيد .

٦ — ماحكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟ ولاشك أن الجمهور يقولون بأن الإمامة تكون حينئذ صحيحة وحجتهم رضا الصحابة رضوان الله عليهم وسكوتهم على بيعة يزيد بن معاوية مع وجود من يفضله منهم ومن التابعين . وأما الشيعة فيقولون بعدم صحة بيعته .

وعلى الجملة كانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الأحيان ، عديمة الجدوى من الوجهة العملية ، لأن هؤلاء يتجادلون بأسنّة الأقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم ، وأولئك يُحَكِّمُون حدّ الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم .

و (السيف أصدق أنباء من الكتب ٭ فى حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب)

والخلاصة أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن فى طريق يؤمن فيها العثار ؛ بل كان تركها على ماهى عليه من غير حل بَيِّن الحدود ترضاه الأمة وتدافع عنه سبباً لأكثر الحوادث التى أضنت المسلمين وأوجدت ما سيرد أمام أعيننا من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما خلا منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين» اهـ . من محاضرات الخضرى بزيادة وتغيير .

نوع الحكم فى الخلافة الإسلامية

إذا نحينا جانبي الإفراط والتفريط فى شأن الخلافة الإسلامية واتخذنا رأى الجمهور نظاماً للحكم فى الخلافة ظهر لنا بذلك نوع غريب من أنواع الحكم

إن الحكومات التى عرفت إلى اليوم أنواع :

١ — حكومة يكون الملك فيها مستبداً ، أمره قانون متبع وشرع مطاع لا يراجعه أحد ولا يستشير أحداً . وهذه هى الحكومة الاستبدادية ويسمونها: (حكومة أوتوقراطية) أى حكومة ذاتية .

٢ — حكومة ينتخب الملك فيها من بيت خاص سواء كان ذلك على نظام متبع أولا . والملك فيها ليس مقيداً باتباع مجلس من المجالس ، مع وجود مجالس للتشريع وسنّ الأنظمة وإبداء الرأى فى مهامّ أمور المملكة . وأعضاء هذه المجالس تنتخبها الأمة على قاعدة متبعة ، كانت الحكومة (ارستوقراطية) أوحكومة الأعيان .

٣ — إذا كان الملك ينتخب من بيت خاص ،ولكنه لا شأن له بأمور المملكة سوى إمضاء المعاهدات والأوامر ، وأما شؤون المملكة فالذى ينظر فيها مجالس تنتخبها الأمة ، ولا يتأتى للملك أن يبت فى أمر إلا بعد عرضه على تلك المجالس وإبداء الرأى فيه ومايستقرّ عليه رأى المجلس يمضيه الملك ، كانت حكومة شعب ويعبر عنها بقولهم : (حكومة ديمقراطية) وتارة يعبرون عنها بحكومة شورية .

٤ — حكومة يكون فيها الرئيس منتخبا من بين الشعب دون بيت خاص ، ويكون انتخابه بواسطة مندوبين من الأمة على نظام خاص لمدة معينة — كثلاث سنين أو خمس سنين — ومعه مجالس تنوب عن الأمة ينتخب أعضاؤها بواسطة الأمة ، تنظر هذه المجالس فى كل شىء والرئيس مقيد بأمرها لا يبتّ شيئا دونها

وليس له إلا إمضاء القوانين والأوامر التى استقر عليها رأى المجالس بمقتضى الدستور المتبع وبمضى المعاهدات الدولية ونحوها ، وليس له تصرف فى مالية الأمة أو نظامها ، فهذه تسمى : (حكومة جمهورية) .

* * *

أما الخلافة الإسلامية وإن اختص الخليفة بأن يكون من قريش ، ولكن قريشاً بيوت كثيرة جداً ، فهى أشبه بأمة ولا يختص بالخلافة بيت من بيوتها دون بقيتهم ، وأيضاً فإن الذى ينتخبه رجال الحل والعقد ، وهم جمهور ذوى الرأى فهى من هاتين الجهتين تأخذ شبها من الحكومة الجمهورية .

ومن حيث إن الخليفة يُلحَظُ فى انتخابه الدوام دون أن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولا عن الخلافة بانقضائه ، تأخذ شبها من الحكومة الملوكية .

ومن حيث إن الخليفة مقيد فى اتباع أحكام نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية ، وأن يقاس النظير على نظيره فى الحوادث وما أجمع عليه أهل الحل والعقد بما ليس فى كتاب ولا سنة ولم يوجد له نظير يأخذ حكمه ، وليس له أن يضع شرائع من تلقاء نفسه ، تأخذ شبها من الحكومة الدستورية أو الشورية أو (الديموقراطية) .

وحينئذ يمكننا أن نقول فى تقريب وصفها مع شىء من التجوّز والتساهل فى التعبير : إنها (حكومة ملوكية موحدة النظام لها بعض الشبه بالجمهورية) .

انتخاب أبي بكر

لا يجهل أحد أن الأنصار إنما هم الأوس والخزرج . وهما شعبتان كان بينهما فى الجاهلية ما يندر أن يكون مثله بين بنى أب . وكان الخزرج أكثر عدداً ، وكانت الرياسة لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء . وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سَقيفة كانت بالقرب من داره .

لم يلبث الأنصار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن توافوا إلى سقيفة بنى ساعدة ليدبروا رأيهم فى شأن من يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريدون أن يلى هذا الأمر رجل منهم ويزووه عن المهاجرين ، وكان سعد بن عبادة مريضاً فأخرجوه معهم وهو لا يقدر أن يُسمع الناس ما يقول فكان يبلغ عنه بعض ذوى قرابته ما يقول فى خطبته يرفع به صوته ليسمع الناس . فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يامعشر الأنصار ، لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا القليل ، وما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عُمُّوا به ؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه . فكنتم أشدّ الناس على عدوّه منكم وأثقله على عدوّه من غيركم ؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيدُ المقادة صاغراً داخراً ؛ حتى أثخن الله عزّ وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين ، استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس فإنه لكم دون الناس » .

فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعدو ما رأيت نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رِضى :

ثم إنهم ترادوا فى الكلام بينهم ، فقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسـول الله الأوّلون ، ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعد ؟ فقالت طائفة منهم : فإنا نقول إذاً : « منا أمير ومنكم أمير » ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : « هذا أوّل الوهن » .

بينما الأنصار يديرون الرأى على وجوهه ويترادون الكلام فيما يجاوبون به المهاجرين ، نبىء عمر بن الخطاب بأمرهم وماهم عليه من الاستشراف لهذا الأمر والتحفز للبيعة ، فأقبل إلى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل إلى أبى بكر (وكان مع على رضى الله عنه فى جهاز رسول الله عليه السلام) أن أخرج إلىّ ؛ فراجعه قائلا : إنى مشتغل بجهاز رسول الله ، فرد عليه عمر بأن قد حدث أمر لابدّ لك من حضوره . فخرج إليه ، فقال : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة . وأحسنهم مقالة من يقول : « منا أمير ومن قريش أمير » ؟ فمضيا مسرعين نحوهم . فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فتماشوا إليهم ثلاثتهم فلقيهم عاصم بن عدى ، وعويم ابن ساعدة . فقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلم يصغوا إلى قولهما حتى وافوهم مجتمعين بالسقيفة وقد هيأ عمر فى نفسه كلاماً يريد أن يقوم به فيهم . فلما اندفع إليهم يريد ابتداء كلامه قال له أبو بكر : رويداً حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت . ثم تكلم أبو بكر : فلم يدع شيئاً مما فى نفس عمر إلا قاله أو زاد عليه . فكان كلامه بعد حمد الله والثناء عليه أن قال :

« إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت . ثم قرأ ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ وقالوا ـ ما نعبدهم إلا ليقربونا

إلى الله زلفى ﴾ فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف[1] الناس لهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم . وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لاتفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : يامعشر الأنصار ، أملكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولن يصدرَ الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العزّ والثروة ، وأولو العدد والمنعة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ماتصنعون . ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم . أبى هؤلاء إلا ماسمعتم فنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات لا يجتمع إثنان فى قَرَن . والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لاتمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة . من ذا يقارعنا سلطان محمد وإمارته — ونحن أولياؤه وعشيرته — إلا مدل بباطل ومتجانف لإثم أو متورط فى هَلَكة .

فقام الحباب بن المنذر فقال : يامعشر الأنصار ، أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فإن أبوا عليكم ماسألتموه فاجلوه من هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور . فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان

---

(١) شنف كفرح : نظر الى الشيء كالمعترض .

لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذَعَة .

فقال عمر : إذن يقتلك الله . قال : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر . فلا تكونوا أول من بدل وغير .

وقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا فى الكدح لأنفسنا . فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى . وأيمُ الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك . فسبقهما بشير بن سعد فبايعه .

ولما رأت الأوس ماصنع بشير بن سعد ، وماتدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة . قال بعضهم لبعض وفيهم أسَيْد بن حضير أحد النقباء : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر . فقاموا إليه فبايعوه. فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ماكانوا أجمعوا له من أمرهم . وأقبل الناس يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مريض لا يستطيع النهوض . وتخلف عن البيعة على بن أبى طالب ومن معه من بنى هاشم ، إذ كانوا مشتغلين بتجهيز رسول الله فلم يحضروا أمر السقيفة ولما سنورده . وأبى سعد ابن عبادة المبايعة فتركوه لأبى بكر .

لم يكن المانع لعلى عدم حضور السقيفة فحسب أو اشتغاله بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان يرى أنه أحق بهذا الأمر من سواه لما له من صهر رسول الله وقرابته وسابقته وحسن بلائه فى الإسلام وإن القوم قد غصبوه حقه وغلبوه على تراث رسول الله . ويريد أن يبقى على إبائه حتى لا يكون للناس عليه حجة بأنه نزل عن حقه لغيره ثم يترقب فرصة يعيد فيها الحق إلى نصابه .

غير أن الأحوال التى تلت بيعة أبى بكر من ارتداد العرب ونأيهم بجانبهم عن الإسلام ، كانت أكبر من شأن الخلافة ، والشدائد تذهب الأحقاد وتؤلف بين جميع من مسهم أذاها . لذلك أطرح على جانب الكلام فى الخلافة ووضع يده فى يد أبى بكر لدفع الأعراب عن المدينة وتثبيت كلمة الإسلام وتقليم أظافر الشرك الذى طما على الأمة .

أوّل خطبة لأبى بكر

إن قيام الرؤساء من ملوك وأمراء ووزراء بالخطابة بعد تمام الأمر لهم يعربون عن خطتهم التى يتبعونها فى سياسة أممهم ووجهتهم التى يولون وجوههم شطرها فى حكم شعوبهم ليس بالأمر الحديث . فقد قام أبو بكر بعد توليته الخلافة . فخطب الناس خطبة أبان فيها ما اعتزم على سلوكه فى سياسة الأمة بياناً لا إبهام فيه فقال :

« أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخير منكم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

وهذه الكلمة تجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته ، وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفيه ضمان لحريتهم في القول. أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ، ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه . حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منه . أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم .

ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن قحافة عثمان من بني تيم بن مرة يجتمع نسبه من رسول الله في مرة بن كعب بن لؤي . وأمه أم الخير بنت سلمى بنت صخر بن عامر من تيم ابن مرة . ولد لسنتين من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلة حميد السيرة بغضت إليه الخمر في الجاهلية ، وكان ذا ثراء وبسطة في الرزق ، وقد ساعدته سعة حاله وما يكسبه من التجارة على الافضال على أهل الحاجة . وكان قريباً من قلوب قريش محبباً فيهم . وإليه في الجاهلية الأشناق وهي الديات والمغارم ، فإذا احتمل دية أو غرم مغرماً وأخبر قريشاً صدقوه وأعانوه عليه . وكان أبو بكر نسابة في العرب عامة وفي قريش خاصة ، راوية لأخبارهم حافظاً لأنسابهم ، عالماً بمفاخر كل قوم ومثالبهم . وكان يعرف من أنساب قريش وأخبارها مالا يعرفه غيره . وكان بزازاً يعتمد على الكسب من تجارته في الجاهلية والإسلام فبلغ رأس ماله أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً في الله ومعاونة رسوله . وكان يشتري المعذبين من الأرقاء بمكة ، إذ كان يريد سادتهم فتنتهم عن الإسلام ويعتقهم . وكان أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام من الرجال فآمن به وصدقه وتابعه على دينه . وكان حفياً أثيراً لديه واحتمل أشد الإيذاء من قريش حتى لقد هم بالهجرة إلى الحبشة . فلقيه ابن الدُّغنَّة سيد القارة فأجاره على قريش وقال له . مثلك لا يهاجر إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتُعين على نوائب الدهر . وقد أجازت قريش جواره على أن لا يستعلن بصلاته

لهم . فاتخذ بفناء داره مسجداً يصلى فيه ويقرأ القرآن . وكان رقيق القلب بكاء من خشية الله ، وكان النساء والصبيان من المشركين يسقطون إليه ويعجبون من قراءته وصلاته . وشكاه رجال قريش إلى ابن الدغنة فرد عليه أبو بكر جواره راضيا بحماية الله تعالى له ممن يؤذونه . وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان ثانى اثنين إذ هما فى الغار وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإنى ليعجبنى قول صديقى الفاضل رفيق بك العظم رحمه الله فى كتابه أشهر مشاهير الإسلام :

« تجسم أبو بكر رضى الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن إدراك الصواب والمماراة فى الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان فبادره بالدعوة فلم يتردد ، وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر » .

أخلاق أبى بكر

ليس من همنا أن نستقصى ما كان عليه أبو بكر رضى الله عنه من أخلاق كريمة وسجايا جميلة ، ولكنا نعمد إلى أظهر أخلاقه أثراً فى أعماله التى استقبلها بعد أن ولى خلافة المسلمين ، وفى معاملتهم وسياستهم . فإن لكل أمير أو رئيس أخلاقا تملكه ويشتهر بها ، وأظهر أخلاق أبى بكر خلقان : الرقة ، وصدق العزيمة .

أما رقته فقد كان هذا الخلق غالباً عليه من أيام جاهليته واستمر معه فى الإسلام ، فقد كان كثير البكاء خشية الله تعالى ، وكم من مرة قام يدافع قريشاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى وقد لببوه بردائه قائلين :

أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، وهو يردهم عنه باكياً ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ولما استشار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى أسرى بدر ، كان رأيه أن يقبل منهم الفداء لأنهم قومه وأهله وقد أظهره الله عليهم وعسى الله أن يهديهم به . وقد مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبراهيم عليه السلام إذ قال : « فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » .

وسيمر بنا فى كتبه وعهوده مبالغته فى الاستيثاق لأهل العافية والنساء والصبيان ومن ليس لهم شأن فى الحرب ووصيته فيهم بالخير والرفق بهم .

وأما صدق عزيمته فإنه يتجلى واضحاً فيما يرد علينا من ضبطه للأمور وجدّه فى حفظ البيضة ومجاهدة المشاقين وتسيير دفة الإسلام وسط الخطوب المظلمة وأمواج الفتن المتلاطمة حتى أرساها إلى مرفأ السلامة والأمن . ولم يلحق بربه حتى أعاد الإسلام أقوى ما كان شوكة . وأمنع ما كان جانباً ، وأثبت ما كان أساساً . وكل ذلك بثباته أمام الأخطار واستصغاره الخطوب وتصميم عزيمته ومضائه على الحق .

وأول مواقف أبى بكر إنفاذ جيش أسامة ، وقبل الإفاضة فى الكلام على جيش أسامة أريد أن أعجل بالكلام على ردّة العرب بعد الإسلام .

الردّة

إن كثيراً من الأعراب المنبثين فى جزيرة العرب كانوا حين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتفق لهم من صحبته ما يصفى جواهر نفوسهم مما مازجها من شوائب الشرك ، ولم ينفذ إلى بصائرهم نور الحِكَم الباهرة المنطوية فى أوامر الإسلام ونواهيه . فزاغت بصائرهم عن أنّ الزكاة صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، لا يكلفها إلا من آتاهم الله بسطة فى الرزق . وعدُّوها إتاوة

ضريبة يسامون أداءها كما يسوم الجبابرةُ من الملوك رعاياهم أداء الإتاوات وحمل المغارم . وذهلوا عن بون ما بين الخطتين . فتناجوا بالإثم والعدوان فى منع الزكاة وفشت هذه المقالة فى كثير منهم — وآخرون من دونهم فشت فيهم فاشية سَوْء وهم الذين قام فيهم متنبئون يُضلونهم بغير علم ، كطليحة الأسدى ، والأسود العنسى ، ومسليمة الكذاب ، وسجاح التميمية . ومع أن المانعين للزكاة لم يرفضوا جميع أحكام الإسلام ولكنهم سموا مرتدين لجحدهم ركناً من أركانه .

ثبت على الإسلام أهل المدينة ومكة والطائف ومهاجرة الأعراب وبعض الدائنين بالإسلام فى قليل من الأطراف كعبد القيس .

فلم يكد خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتشر فى الآفاق حتى نجم النفاق والشقاق وتطاولت أعناق كثير من قبائل العرب إلى البطش بالمسلمين وطمعوا فى جانبهم وغرتهم الأمانى ، والله غالب على أمرهم

إنفاد أبى بكر جيش أسامة

بين هذه الفتنة الحالكة وفى معترك هذه الحوادث ، والأنباء بارتداد العرب يتلو بعضها بعضا ، قام أبو بكر بإنفاذ جيش أسامة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جهز جيشاً لمعاقبة قبائل قضاعة الضاربين فى جهات الشام مما يلى مؤتة لمظاهرتهم الروم على جيش المسلمين فى غزوة مؤتة ، وقد كان أمير الجيش زيد بن حارثة ، وقد استشهد فى تلك الغزوة فجهز جيشا آخر لغزوهم . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير هذا الجيش أسامة بن زيد ، وكانت سنه ١٨ سنة ، وكان تحت لوائه عدد من جلة الصحابة منهم أبو بكر وعمر . وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على خروج جيش أسامة . ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسن منه ، وقد توفى رسول الله قبل أن يزايل الجيش المدينة فبقى يظاهرها .

خشى المسلمون أن يطمع العرب وأهل النفاق فى مسلمى المدينة إذا فصل جيش أسامة وبقى المسلمون بدون حامية قوية تردّ عادية الطامعين فكلموا أبا بكر فى استبقاء جيش أسامة ليكون للمسلمين ردءاً . وقالوا : إن هؤلاء جند المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك . فقال : والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأرسل أسامة عمرَ بن الخطاب يعرض على أبى بكر تخلف الجيش عن وجهه وعهد بعض المسلمين إلى عمر أن يخاطب أبا بكر فى أن يولى أمر الجيش من هو أسنّ من أسامة . فلما أفضى عمر إلى الخليفة بما حمل من رسالة زيد وجنده أبى إلا المضاء فيما أمر به رسول الله واشتد على عمر حتى أخذ بلحيته وقال له: عدمتك أمك وثكلتك يا بن الخطاب، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه !

تصوّرَ أبو بكر ماخامر قلوبَ رجال الجيش وما هو لاصق بنفوسهم من لُوثة الجاهلية والأنفة من تأمير من لم تُقدمه السنّ والاستمساك بعرى التفاضل بالأنساب والأمور التى وضعها الإسلام . فرأى أن لا يجيبهم إلى طلبهم وأن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلا بالتقوى وصالح العمل ، وأن ينوّه بقدر زيد حتى يكون للقوم بخليفتهم أسوة حسنة . ولو أنه أطاع القوم لسنّ للناس مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأطمعهم فى أن يطلبوا ما ليس لهم بحق ، وفى ذلك من المضرة مالا يجهل .

خرج أبو بكر حتى وافى الجيش وشيعهم ماشيا وأسامة راكب واستأذنه فى أن يسمح لعمر بالبقاء معه بالمدينة يستعين برأيه، فسمح له بذلك . وقال له أسامة : ياخليفة رسول ، الله لتركبن أو لأنزلن ؟ فقال : والله لانزلت ولا أركب ، وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟

كان فى عمل أبى بكر ما حدا القوم على الرضا بإمرة أسامة إذ راوه ماشيا فى

ركابه غير مفتات عليه فى استبقاء عمر دون إذنه ، فكان عمله خير هاد لهم

ومن جهة أخرى رأى أبو بكر أن التوقف عن إنفاذ الجيش إلى الوجه الذى أعدّ له يشعر قلوب العرب ضعف المسلمين عن حماية أنفسهم ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وإن إنفاذه إمضاء لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصوير المسلمين فى النفوس بصورة القوىّ الجرىء الذى لم يختلج قلبه خوف ولم يستشعر الوجل .

زوّد أبو بكر جيش أسامة نصيحة هذا نصها : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، ثم قال : اندفعوا باسم الله .

نصيحة تخجل أدعياء المدنية الذين يظهرون بمظهر خدّام الإنسانية وهم أضرى العوادى عليها ، ويرمون الإسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف وعدم احترام الإنسانية وهم فى كل يوم يصْلون الإنسانية من نار الهمجية ضروبا ، ويذيقونها من الوحشية أفانين .

يجدر بالأمم المتمدنة أن تجعل هذه النصيحة أول مايتزوّد به الجندىّ ، وأن تكون القاعدة التى تبنى عليها حقوق الدول والملل .

سار أسامة وشنّ الغارة على بلاد قضاعة وأحلافهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوماً ثم عاد . وكان إنفاذ جيش أسامة نهاية الحزم ، فقدفت فى اعضاد المرتدّين حين تسامعوا به . وقالوا : لو لم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بعد عنهم من القبائل ذات الشوكة . غير أن ذلك لم يثن كثيراً من المرتدّين عن الانحدار فى مهواة الردّة التى زلت فيها أقدامهم .

قتال أبى بكر لأهل الردة

إن الدين الإسلامى يُعتَبرُ أهله والداخلون فيه بمثابة جند على تعبية لمنازلة العدو العادى . فمن نكل عن العدو وخام عن اللقاء وولى العدو ظهره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله واستحق جزاء الجندى الفار من صفوف الجيش أو المنحاز إلى الأعداء المظاهر لهم . لهذا كان قتال المرتدين إلى أن يفيئوا إلى دينهم أوجب من قتال المخالفين ، ولأن إعطاء الهوادة فى أمرهم يكون مدرجة لمشاقة سواهم حتى تتفرق الكلمة وتنشق العصا وتنفض البيضة وتكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

الدين الإسلامى لا يفرض على متبعيه أتاوة ، ولا يفرض عليهم حرجاً ولا يخلو حال الأمة من إقامة ولاة وأمراء وبعث بعوث وإطفاء فتن والإنفاق على مصالح عامة ومواساة ضعيف وإعانة ذى حاجة ونحو ذلك من الوجوه التى بينها الكتاب وجعلها مصارف للصدقات ، ولا مادة لكل هذه الوجوه سوى الزكاة التى هى ركن لا يتحقق الإسلام من امرىء إلا بالإقرار به والعمل بمقتضاه .

لهذا كله كان المانعون للزكاة مساوين فى الحكم للجاحدين للدين بعد انضوائهم إليه وانتظامهم فى صفوف جنده .

رأى فريق من الصحابة — بعد تواتر الأخبار بارتداد العرب ومنع فريق منهم الزكاة — أن يقبل أبو بكر منهم ما بذلوه وهو الصلاة ليكون ذلك تأليفاً لقلوبهم حتى يرجع جيش أسامة ويشتد ساعد المسلمين ثم يرمى المدبر بالمقبل ، فلم يقبل أبو بكر هذا الرأى لأنه مؤذن بالضعف وثلمة لا يلبث القوم أن يوسعوها بالمطالب حتى يعودوا إلى وثنيتهم الأولى وما كان له أن يبدد ذلك الإرث الذى خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجرد تناوله فقال : « والله لو منعونى

عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » .

إذا صدقت العزائم واتحدت الوجهة وَخَلُصَتِ النيات فى عصابة تحاول روماً . فهناك يكون النصر القريب والفتح المبين . ناهيك بعصابة قوامها المهاجرون والأنصار ، وهم قوم قد تأدّبوا بآداب الدين ، وغلبت على نفوس كثير منهم أخلاق القرآن . وقد تبوّأ مكان الرئاسة فيهم أبو بكر الصديق يحف به ويؤازره على سياسة أمره أمثال على وعمر وخالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل وعمرو بن العاص وخالد بن سعيد والمهاجر بن أبى أمية وأبى عبيدة بن الجراح ويزيد ومعاوية ابنى أبى سفيان وعياض بن غنم وحبيب ابن سلمة الفهرى وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم « وكل إذا ُعدّ الرجالُ مقدمُ » .

كانت حامية المدينة قليلة بعد ارتحال جيش أسامة . فأخذ أبو بكر بالحزم ولم يشأ أن يعاجل العرب بما اعتزم عليه من إعضاض السيف رقابهم حتى تستقيم له قناتهم ويعودوا إلى الدين الذى مرقوا منه حتى يعود جيش أسامة . فأخذ يطاول فى الأمر — غير أن عبساً وذبيان وغطفان وأسداً وطيئاً قد أعجلوه . وكان بعضهم نازلا بذى القصة وبعضهم بالأبرق بالقرب من المدينة وأرسلوا إليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أن يجيبهم إلى تفريق ماجمع الله — والظاهر أن الوفد كانت له مهمة أخرى ، وهى تجسس أحوال المسلمين والعلم بما هم عليه من قوّة أو ضعف .

عاد الوفد بعد ذلك إلى القوم بجواب أبى بكر وأفضوا إليهم بما رأوه من قلة عدد المسلمين وضعف جانبهم وأطمعوهم فى منازلتهم . غير أن الوفد كان على خطأ فيما أنبأ به القوم ، فقد كان للقوم مدد لايبصر بالعيون ، وهو قوّة الإيمان وصدق اليقين وثبات إرادة القادة ومضاؤهم . يؤازر هذا المدّدَ مددٌ آخر ، وهو طول التجربة والتمرس بالحرب والاكتواء بنارها فى مختلف الوقائع

التى لم يَنْفضوا عنهم غبارها ، وأن مساعير الحرب من أمثال على وطلحة والزبير وغيرهم من صناديد قريش لا تلين لهم قناة ولا يفَلُّ لهم حدّ .

لم ينم أبو بكر بعد أن ردّ وفد القوم بالخيبة . بل أخذ يستجيش من تيسر له من المسلمين خشية أن يبيت القومُ المدينة ، فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود ، وجعلهم على أنقاب المدينة . وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد خوف البيات ، ليكون منهم المدد لمن على الأنقاب إذا داهمهم العدوّ فى ليل أو نهار .

لم يكن إلا ثلاث ليال من عود الوفد حتى طرق القوم المدينة غارة مع الليل . وقد خلفوا بعضهم بذى حِسَى ليكونوا لهم فئة ورداً . وكان الذين على الأنقاب قد بثوا نفراً منهم يدرجون بعيدا عنهم ، فلما أحسوا القوم نبهوهم ، وعلم أبو بكر فخرج فى أهل المسجد على النواضح فانهزم أهل الردّة وتبعهم المسلمون على الإبل حتى بلغوا ذا حِسَى خرج عليهم الرده بأنحاء قد نفخوها[1] وجعلوا فيها حبالا ودهدهوها (دَحْرَجُوها) فى وجوه إبل المسلمين فنفرت عائدة إلى المدينة لا يملك راكبٌ رأس بعيره ، ولم يصب أحد من المسلمين . ولكن أبا بكر بات على تعبية وهيأ جنده وخرج فى عقب ليلته يريد الأعداء .

أما المرتدّون فلما رأوا نفار الإبل غرّهم ذلك وبعثوا إلى أهل ذى القصة ، وما طلع الفجر إلا وقد وافاهم أبو بكر بجنده وما سمعوا للمسلمين همساً ولاحساً حتى وضعوا السيف فى رقابهم . وما ذر قرن الشمس حتى منح الله المسلمين أكتافهم وغنموا إبلهم ، وكان نصر المسلمين فى هذه الموقعة كنصرهم فى وقعة بدر أوّل الإسلام فقد عزّ بها المسلمون وذلّ المشركون .

---

(١) الأنحاء ، جمع نحى (بكسر النون وسكون الحاء) : الزق

جزعت عبس من هذه الوقعة أىّ جزع فطاشت أحلامهم ولم يجدوا إلى نكاية المسلمين سبيلا سوى أن يقتلوا من كان مسلماً فيهم كل قتلة . ومعلوم أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم ويوهنون جماعتهم ولا يضير ذلك جماعة أبى بكر ، فحلف أبو بكر ليقتلنّ فى كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة .

بينما أبو بكر يعدّ للقوم ما استطاع من قوّة وافاه جيش أسامه فأمرهم بالإقامة بالمدينة ليأخذوا راحتهم ويريحوا ظهرهم ، وخلف أسامة على المدينة حين خروجه لأهل ذى القصة .

وحين أراد أبو بكر الخروج مع الجند للقتال قالوا له : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرّض نفسك فإنك إن تُصَب لم يكن للناس نظام ومقامك أشدّ على العدوّ ، فابعث رجلا فإن أصيب بعثت آخر . فقال : لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى .

سار أبو بكر بجنوده كما سار أوّلا إلى ذى حِسَى وذى القصة حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق ، فانهزمت بنو عبس وبنو بكر وأقام بالأبرق أياماً وقد غلب بنى ذبيان على بلادهم وحماها لخيل المسلمين وأرعى سائر الناس الربذة. ثم عاد إلى المدينة .

عقد الألوية للقتال

ولما استراح جيش أسامة خرج أبو بكر إلى ذى القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد وَقطَّعَ الجند وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وأمر كل أمير أن يستفزّ مسلمى القبائل التى يمرّ بها ليكون بعضهم فى جنده ويتخلف بعضهم لحماية قومهم . وقد حضرت فى تلك الأيام صدقات فكانت عونا .

وهؤلاء هم الأمراء الذين رمى بهم أبو بكر المرتدّين :

(١) — خالد بن الوليد : وجهه إلى طلحة بن خويلد الأسدى بِبُزَاخَة ، فإذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبُطاح .

(٢) — عكرمة بن أبي جهل : وجهه به إلى مسيلمة الكذاب باليمامة .

(٣) — شُرَحْبيل بن حسنة وجهه فى أثر عكرمة بن أبي جهل ، فإذا فرغ من أمر مسيلمة قصد قضاعة .

(٤) — المهاجر بن أبي أمية : وجهه به إلى جنود الأسود العنسى بصنعاء اليمن ومعاونة الأبناء على قتالهم — والأبناء : هم مولدة الفرس باليمن آمنوا وثبتوا على إيمانهم وذرّيتهم بها إلى اليوم — .

(٥) — حذيفة بن مِحْصَن : وجهه إلى أهل دَبا بعُمان .

(٦) — عرفجة بن هرثمة : وجهته أهل مهرة : وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه .

(٧) — سويد بن مُقَرّن إلى تهامة باليمن .

(٨) — العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين .

(٩) — طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن .

(١٠) — عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة .

(١١) — خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وقد فصلت الأمراء بجيوشها من ذى القصة بعد أن كتب إلى المرتدّين من العرب كتاباً واحداً أرسله إليهم ليكون لهم نذيراً بين يدى جيوشه ليكون قد أعذر إليهم قبل الإيقاع بهم . فكان أول منشور عام يقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم . ولما كان هذا المنشور مطوّلا فنحن نجتزىء بأن نقتطف بعضه وهو ما يتعلق بالمرتدّين .

كتب أبى بكر إلى أهل الردّة

بعد أن ذكر الله تعالى بما هو أهله وذكر رسول الله ووفاته قال : « وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى : ﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذرّيته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا ﴾ . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وإنى قد بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وامرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قَدَر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان . فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفّ عنهم وإن أقرّوا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى » .

ونفذ الكتب مع الرسل أمام الجنود .

عهد أبى بكر إلى القوّاد

وكتب إلى قوّاده عهداً صورته واحدة وهى :

« هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سرّه وعلانيته وأمره بالجدّ فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن

الاسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم . فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقرّ له قبِل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقرّ قبل منه وعلمه . ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتله بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبه ولين القول » .

طليحة

هو طليحة بن خويلد الأسدى ، علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع فسوّلت له نفسه أن يدّعى النبوّة فى قومه ومن يليهم ليكون له مثل ما لنبىّ قريش . فتابعه قومه من بنى أسد وأرزت إليهم عبس وذبيان وبعض من جديلة والغوث وطىء لما لها من الحلف فى بنى أسد .

كان عدى بن حاتم الطائى مقيما بالمدينة وقد خشى على قومه أن يجتاحهم خالد وقد أمر أن يبدأ بهم ، فاستأذن أبا بكر فى اللحاق بقومه ليردّ من رجع منهم إلى الإسلام وليعين بهم خالدا . فأذن له ، ففارق المدينة إلى قومه وصار يفتلهم فى الذروة

والغارب حتى وافقوه على الإسلام ومفارقة طليحة وأرسلوا قومهم الذين مع طليحة ببزاخة وجاء عدى إلى خالد ليتلبث ثلاثا حتى يعود رجال طىء لئلا يعتريهم طليحة بسوء ، ففعل ، ولحق من كان ببزاخة من طىء بجيش خالد ومعهم من خف من طىء . وأراد خالد أن يقصد جديلة ، فشقّ ذلك على عدى ونهنهه عن قصده وأشار عليه بالتلبث حتى يأتى جديلة لعل الله ينقذهم به كما أنقذ بنى الغوث قوم عدى ، ففعل خالد ولم يزل عدى بالقوم حتى جاء إلى خالد بإسلامهم ، وانضم منهم إلى جيش المسلمين ألف راكب ، فكان عدى خير مولود ولد فى أرض طىء وأعظمه بركة عليهم .

يمم خالد بجيشه ومن انضم إليهم من طىء بزاخة لقتال طليحة ومن لف لفه وكان طليحة يُسَمّى « المَلَكَ الذى يزعم أنه يأتيه بالوحى « ذا النون » وسن لهم الصلاة من قيام وقال : ما يصنع الله بتعفير وجوهكم ، إن الرغوة فوق الصريح .

التقى خالد مع جيوش طليحة واستحرّ القتل بين الفريقين وعضت الحرب بنى فَزارة وقائدُها وسيدها عيينة بن حصن يكرّ على طليحة كلما ضرسته الحرب يقول له : هل جاءك ذو النون ؟ فيقول : لا . وطليحة ملتفّ بكسائه بفناء بيت له من شعر . فلما استعر أوار الحرب جاء وقال له : هل جاءك ذو النون ؟ قال : نعم جاءنى وقال « إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحا كرحاه وحديثا لا تنساه » فقال عيينة : أرى والله أن لك حديثا لا تنساه يابنى فَزارة هذا كذاب . وولى من عسكره ومنح الله المسلمين أكتافهم . وعمد طليحة — إذ رأى الهزيمة — إلى فرس كان قد أعدّه فركبه وأردف زوجته خلفه وقال : من استطاع أن يفعل كما أفعل فليفعل وولى وجهه شطر الشام . ثم عاد مسلماً وحسن إسلامه وكان ذا بلاء فى قتال فارس فى أيام عمر .

كان بنو عامر بن صعصعة قريباً من ساحة القتال ببزاحة على قادتهم وسادتهم

ينظرون إلى القتال فلما رأوا ماحل بطليحة وجموعه أقبلوا يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا .

وقد كان الذى أعظم أمر طليحة بعد صغره ماسنقصه . وهو أن الرجل ادّعى النبوّة فى حياة رسول الله فأرسل الرسول ضراراً إلى بنى أسد وأمرهم بالقيام على كل من ارتدّ ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، ونزل المسلمون بواردات والمرتدُّون بسميراء وأمْرُ المسلمين فى نماء وأمر طليحة فى انعكاس ، وهَمَّ ضرار أن يأخذ طليحة سلماً وضرب طليحة بالسيف فنبا عنه فشاع أن السيف لايحيك فى جسده وجاء الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس على ذلك فانفض من كان مع ضرار عنه وعظم أمر طليحة إلى أن كان ما أوردنا .

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان رسول الله قد أمّر على بطون تميم أمراء ، منهم الزبرقان بن بدر وقيس ابن عاصم ووكيع بن مالك بن نويرة ، فلما شاع موت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من بقى على الوفاء بما عاهد عليه الرسول فبعث بالصدقة إلى أبى بكر ، ومنهم من منعها ، ومنهم من تردّد . وكان المانع مالك بن نويرة ، وكان اختلاف القوم داعيا لاشتغال بعضهم ببعض .

وبينما القوم على هذه الحال إذ أقبلت عليهم سجاح بنت الحارث ، وكانت نازلة مع أبيها فى بنى تغلب بالجزيرة وأبوها من بنى يربوع من تميم .

كانت هذه المرأة قد ادّعت النبوّة وتابعها على أمرها جموع من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد قتال جند أبى بكر فلما أشرفت على بنى تميم أرسلت الى مالك ابن نويرة سيد بنى يربوع فوادعها وثناها عن قتال أبى بكر وأغراها بمخالفيه من أحياء بنى تميم وتابعها على امرها وكيع بن مالك وقومه فسجعت لهم قائلة : « أعدوا

الركاب ، واستعدّوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرِّباب . فليس دونهم حجاب » فاستعرت نار الحرب في بني تميم .

ولما رأت أمرها لم يتم في بني تميم قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم : « عليكم باليمامة ، ودفّوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم فيها ملامة » فنهدت بمن معها إلى بني حنيفة ، وهابها مسيلمة وخاف إن هو شغل نفسه وقومه بأمرها أن يدهمه من جيوش أبي بكر داهم ، وتتخطفه القبائل من حوله . فأهدى إليها الهدايا ، واستأمنها على نفسه حتى يكلمها . فأمنته وأمها في أربعين وافداً من قومه ، فقال لها مسيلمة : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلتْ ، وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش لحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت: لا يرد النصفَ من الأجذَب فاحمل النُّصُف ، إلى خيل تراها كالسُّهُف. فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فيما سر نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم . فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكُبَّار ، رب الغيوم والأمطار . إلى غير ذلك من الأسجاع . وكان قد شرع لهم الامتناع عن النساء إذا ولد للرجل ولد ذكر إلى أن يموت ذلك الولد فيطلب أبوه غيره .

وقال مسيلمة لسجاح : هل أتزوّجك وآكل بقومى وقومك العرب ؟ قالت نعم ، فتزوّجها وأقامت معه ثلاثة أيام . ولما رجعت إلى قومها سألوها عن أمرها فقالت : إنى وجدته على الحق فاتبعته وتزوجنى فسألوها عن صداقها فقالت : لم يعطى صداقاً . فردوها إليه لأنه قبيح بمثلها أن يزوج بلا صداق . فلما سألته الصداق دعا مؤذنها شبَث بن رِبْعى الرياحى ، فأمره أن يؤذن فى الناس أنه حط عن الناس صلاتين مما أتى به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . وكان من أصحابها الزِّبرِقان بن بدر وعُطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان ابن خَرَشة وشبَث بن رِبْعى .

انتهى الأمر بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة فطلبت أن يسلفها السنة المقبلة فعجلها بنصف السنة وخلفت على السلف من يجمعه لها وانصرفت إلى الجزيرة .

لما عادت سجاح إلى الجزيرة ندم مالك بن نويرة على ما فعل وحار لا يدرى ما يأتى وما يدع ، وكذلك بقية مرتدة بنى تميم ورؤساؤهم ندموا ندما ظاهراً وأرسلوا الزكاة إلى خالد . وأما مالك فمنع الزكاة ورأى أن لا طاقة لقومه بنى يربوع بخالد وجنوده ، فأمرهم أن يتفرقوا . فلما ورد خالد البُطاح لم يجد أحداً ، فبثّ سراياه مغيرة على من لقيها منهم ، فجاءته السرايا بمالك فى نفر من بنى يربوع فحبسهم خالد ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، ويروى فى قتله روايات أخرى .

كان بعض رجال من جيش خالد قد شهدوا أن القوم أذّنوا حين سمعوا أذان المسلمين ، وأنهم بذلك قد حقنوا دماءهم وأن قتلهم لا يحل ، ومن أولئك القوم أبو قتادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأكبر الأمر ، وزاد ذلك عنده أنه رأى خالد بن الوليد قد تزوّج امرأة مالك بن نويرة ، ففارق أبو قتادة خالداً وقدم على أبى بكر ليشكو إليه خالداً فيما خالف فيه . فرأى أبو بكر أن فراق أبى قتادة لخالد خطأ لا ينبغى أن يرخص فيه له ولا لغيره لأنه يكون سبباً للفشل والجيش فى أرض العدوّ ، فاشتد على أبى قتادة ورده إلى خالد . وعملُ أبى بكر من أحكم السياسات الحربية .

كثر كلام المسلمين فى شأن خالد وما صنع ، وجاء متمم بن نويرة شاكياً ما صنع خالد بأخيه واشتدّ عمر فى شأن خالد عند أبى بكر وأراده على أن يُقيِّدَ منه بمالك وأصحابه . فأبى أبو بكر عليه ذلك . وقال له : «هيه يا عمر ، قد تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد» ، ولما عاد خالد إلى أبى بكر اعتذر مما كان منه

فى شأن مالك ، وساق أبو بكر دية مالك بن نويرة . وبانكسار بنى يربوع عاودت تميم كلها الإسلام ورضيت أن تؤدى إلى أبى بكر الزكاة كما كانت تؤديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان من سياسة أبى بكر المبنية على الحكمة أن لا يَقيد من عماله وقواده وَوَزَعته إذا حصل منهم أمر فى وجههم لقتال العدوّ ، لأن مفاجأة القائد وهو فى جهاد عدوّه بالعقاب تخبث نفوس بقية القوّاد ، وتطمع فيهم الجند ، وتطلق ألسنة العيابين ، وتفسد الأمر .

وهذه السياسة الحكيمة هى التى نراها من الأمم العريقة فى الاستعمار : لا تعجل بمحاسبة عمالها على خطأ كان منهم ، ولا تخذلهم فى أثناء قيامهم بأعمالهم فى خدمتها ، وإنما تتريث فى الأمر حتى إذا سكتت الزوابع ، وكفّت ألسن الشكاية وكان الأمر ثابتاً لا شبهة فيه ، عمدت إلى نقل عاملها إلى مكان آخر وربما زادت فى مرتبته حتى لا يتوهّم الشاكون أن نقله كان بسعيهم أو إجابة لمطالبهم ، وفى ذلك قطع لمطامع الشاكين . وهى سياسة الإنكليز فى هذا العصر .

بنو حنيفة ومسيلمة

قدمنا أن بنى حنيفة كانوا قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم الوفد وكان فيهم مسيلمة فى رحالهم يحفظ ظهرهم ، فلما أعطاهم رسول الله العطايا ذكروا له مكان مسيلمة فأعطاه كما أعطى واحداً منهم وقال : أما والله إنه ليس بشرّكم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه . ولما عاد الوفد إلى قومهم ادّعى مسيلمة أنه أشرك مع رسول الله فى الرسالة إلى آخر ما بينا .

لما فصل عكرمة بن أبى جهل بجيشه إلى اليمامة لقتال مسيلمة ، أرسل أبو بكر فى أثره شرحبيل ليجتمعا على قتال مسيلمة . فأراد عكرمة أن يذهب بفخر القتال فتعجل وواقعه بنو حنيفة ونكبوه ، ووقف شرحبيل حيث بلغه الخبر وكتب عكرمة إلى أبى بكر بما أصابه ، فقال أبو بكر لعكرمة فى كتاب بعث به إليه : « لا أَرَيَنَّك ولا تَرانى ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند

حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرءون الناس حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت، وكتب إلى شرحبيل بالتوقف حتى يأتيه أمره .

كان خالد بن الوليد قد فرغ من أمر بنى يربوع كما قدمنا ، فوجهه أبو بكر إلى اليمامة بمن معه وضمّ إليه جنوداً أخرى ، لأن أمر مسيلمة كان قد استفحل باليمامة ، وانضمّ إليه جنود تبلغ أربعين ألفاً على مايرويه الطبرى ، اتبعوه عصبية وحِفَاظاً لقوميتهم مع إقرارهم بكذبه ، حتى إن بعضهم كان يقول : أشهد أن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

سار خالد بجنده بعد أن ألحق به من أوعبهم أبو بكر من المقاتلة ، وكان شرحبيل قد فعل فعلة عكرمة فأصابه ما أصابه فلامه خالد ، ثم إن خالداً قدم إلى اليمامة وواقع القوم وحاربهم أشد حرب ، واستماتت بنو حنيفة فى القتال حتى انكشف المسلمون . وكادت الدَّبْرة تكون عليهم لولا أن الله ألهم رجالا من المؤمنين أن صرخوا فى القوم وصدقوا الحملة على بنى حنيفة ، وتبعتهم فئة باعوا أنفسهم لله ، حتى خالطوا مسيلمة فقتلوه . وقد تولى قتله وحشِىّ قاتل حمزة ورجل من الأنصار ؛ فلما رأى بنو حنيفة ذلك داخلهم الوهن ، فلجأوا إلى حصونهم واعتصموا بها ، وكانت النصرة لخالد وجيشه فى النهاية .

بعد أن تمّ الأمر على هذا الوجه جاء إلى خالد مُجاعة بن مرارة فصالحه على أن يحقن دم المقاتلة ، وأن يأخذ ما عندهم من نقود الذهب والفضة والسلاح وربع السبى . وبعد أن تمّ الاتفاق على الصلح ورد على خالد كتاب من أبى بكر يأمره بقتل مقاتلتهم ، وقد كتبت شروط الصلح فوفى خالد للقوم بما عاهدهم عليه .

بعد أن انتهى الصلح على هذا الوجه رجعت بنو حنيفة إلى الإسلام . فأرسل خالد وفداً منهم إلى أبى بكر . فقال لهم حين قدموا عليه : ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قدكان الذى

بلغك عما اصابنا . كان امرءاً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ، ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة ، فتلوا عليه شيئاً منها ، فقال : سبحان الله ! والله ما خرج هذا من إلٍّ ولا بِرٍّ فأين يذهب بكم ؟ .

وبهذا انتهى أمر بنى حنيفة بعد أن عصت المسلمين حربهم ، وقتل فيها كثير من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . وأقام خالد بواد من أودية اليمامة يقال له الوَبَر وقد قتل فى هذه الحرب كثير من حفاظ القرآن .

اليمن والأسود العنسى

كان باذان عاملا للفرس على اليمن ، فلما أسلم وأسلمت اليمن أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان فى يده حتى مات . وبعد وفاته جعل رسول الله ابنه شهراً والياً على صنعاء ، وولى على بقية اليمن عمالا آخرين ، وجعل معاذ ابن جبل معلما ينتقل فى كل ولاية من هذه الولايات .

حدث قبل وفاة رسول الله أن قام رجل من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود العنسى كان كاهناً فتنبأ ، وتابعه على أمره قوم من أعراب اليمن، فاشتدّ بهم ساعده واقتحم بهم بلاد نجران ، فلم تلبث أن دانت له ودخل فى أمره عَوَامُّ مَذحج ، فكثر سواده وأَمِرَ أمرُه .

وكان الرجل رأى أن التريث يفسد عليه أمره ، فرأى أن يبادر الفرصة قبل أن يجتمع أمر المسلمين وتتدبر القبائل فى شأنها . فقصد صنعاء وهى أكبر حواضر اليمن وأكثرها حاضراً وأوسعها ثروة ، فنازل عاملها شهراً وقتله وهزم الأبناء ، وهم مولدة الفرس باليمن . ولم يكن بين خروجه لهذا الأمر واستيلائه على صنعاء سوى خمس وعشرين ليلة ، ثم تزوّج بامرأة شهر ابن باذان . وصار الرجل لا يميل إلى قوم إلا دخلوا فى أمره أو صانعوه تقية وإبقاء على أنفسهم وذريتهم ، وجعل أمره يستطير استطارة الحريق ،

وقد كتب عمال رسول الله إليه بشأن الأسود وما يصنع ، فأرسل عليه السلام كتاباً على يد وبر بن يُحَنَّس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى العمل فى أمر الأسود وقتله بكل ما يمكن من الوسائل مصادمة أو غيلة ، وأن يبلغوا من رأوا عنده نجدة وديناً .

عمل القوم على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أمر الرجل مُسْتَصعباً عليهم . وبينما هم على هذه الحال إذ علموا بتغير الأسود على قيس بن عبد يغوث المرادى ، وكان رئيس جنده وقد خبثت نية الأسود عليه وأضمر له الشر ، وأعلمه أن الوحى أتاه وقال له : إن الملك يقول : عَمَدْتَ إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مُدْخَل وصار فى العز مثلك ، مال ميل عدوّك وحاول ملكك وأضمر على الغدر . إنه يقول : يا أسود يا أسود يا سوأة يا سوأة ، اقطف قُنَّتَه وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك أو قطف قُنَّتَك . فقال قيس : وأقسم به ، كذب وذى الخمار . لأنت أعظم فى نفسى وأجلّ عندى من أن أحدّث بك نفسى . فقال الأسود : أتكذّب الملك ؟ قد صدق الملك وعرفت الآن أنك تائب !

انتهز الأبناء هذه الفرصة ودعوا قيساً إلى ما يرون من الفتك به ، فلبى ثم أفضوا إلى آزاد امرأة الأسود التى تزوّجها بعد شهر بن باذان بأمرهم وقال من لقيها منهم : يا ابنة العمّ قد عرفتِ بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك وطأطأ فى قومك القتل وسفل بمن بقى منهم وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ، إخراجه أو قتله ؟ قالت : نعم ! والله ماخلق الله شخصاً أبغض إلىّ منه ، ما يقوم لله على حقّ ولا ينتهى عن حرمة ، فإذا عزمتم فآذنونى .

وفى هذه الأثناء جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء عامر بن شهر وغيره ، ووصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران : عربهم وسواهم ، فانحازوا إلى ناحية يريدون قتال الأسود ، وكاتبوا مَن بصنعاء من الأبناء ليعينوا عليه .

غير أن المؤتمرين بقتله عاجلوا الأسود بممالأة آزاد زوجته وقتلوه فى قصره

وهم فيروز وداذَوَيه وقيس . ولما طلع الفجر أعلن قاتلو الأسود بشعارهم من فوق القصر ، وفرّ أصحابه وجعلوا يترددون بين صنعاء ونجران . وكاتب القوم رسول الله بمقتل الأسود فوافى رسولهم المدينة عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان الأسود قد استغلظ ملكه وثبت أمره ، ودان له بالطاعة ما بين صنعاء وسواحل اليمن إلى عمل الطائف إلى الأحسية وعلب . وبموته ظن المسلمون فى صنعاء وماوليها أن جوّ البلاد قد صفا ، ولكن لما داهمهم خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد الأمر إلى أشدّ مما كان عليه وارتدّت العرب وعادوا إلى الخلاف تابعين لبعض الرؤساء ، فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من سادة اليمن ورؤسائهم يأمرهم بالثبات على أمرهم والوقوف حيال المرتدّين حتى توافيهم النجدات .

وذلك أن قيس بن عبد يغوث وهو رئيس جند الأسود والعامل فى قتله بادر إلى الردّة حين علم بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب المنهزمين من جند الأسود فاجتمعوا إليه . وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء فصنع وليمة دعاهم إليها ، فلم يظفر بأحد منهم سوى داذَوَيهِ وامتنع فيروز وخُشْنَش بقبيلة خَوْلان واستتبّ الأمر لقيس بصنعاء . وغرب عيالات الأبناء فاستخلصهم فيروز بمعونة بنى عقيل وعَكّ . واجتمع لفيروز جموع من عرب اليمن كعقيل وعك وغيرهم ، فنازل قيسا دون صنعاء فهزم قيس ومن معه من فل جنود الأسود ومن خفّ إليه من سواهم ، وخرجوا إلى مجالاتهم التى كانوا فيها بعد مقتل العنسى يصعدون ويصوبون .

فى أثناء هذا القتال وافى جيش الإسلام الذى يقوده المهاجر بن أبى أمية وكان أبو بكر قد بعثه لقتال جنود الأسود العنسى ومعاونة الأبناء . ثم جاء على أثر ذلك عكرمة بن أبى جهل بجنوده بعد أن انتهى من عمان ومهرة ، وبتعاون هذه الجيوش هزم الله المرتدّين ومنح جنود الإسلام أقفيتهم . وأسر قيس وعمرو بن معد يكرب الزُّبيدى وكان قد ارتدّ وتابع الأسود ثم وازر قيسا على قتال المسلمين

ولما جاء عمرو وقيس أسيرين إلى أبي بكر أنّب قيسا على عمله وحقن دمه ووبخ عمرا على ما كان منه وقال له: أما تستحى أنك كل يوم مهزوم أوما سور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال: لا جرم لأقبلنّ ولا أعود، فأطلقهما ورجعا إلى قومهما مؤمنين . وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن فى فتوح نهاوند ، وقد كان عمرو قد انهزم فى أوّل ردّته من خالد بن سعيد بن العاص وغنم منه خالد سيفه الصمصامة ، وقد بقى إلى عهد الواثق فدفعه إلى صيقل ليسقيه فتغير

ردّة كندة

سبب ردّة كندة ، اختلاف شجر بين زياد بن لبيد الأنصارى عامل صدقات كندة وبين شيطان بن حجر وأخيه العداء فى ناقة وضع عليها ميسم الصدقة غلطا وأبى زياد أن يردها واستصرخ شيطان وأخوه قومهما بنى عمرو بن معاوية من كندة فقاموا عصبية لهما وتبعهم غيرهم ، وتعصبت حضرموت والسكون لزياد وكانت الحرب بين الفريقين ، ومال شرحبيل بن السمط وابنه وامرؤ القيس بن عابس إلى زياد فقتل من القوم وسبى . وقام الأشعث بن قيس يفكّ السبي وأدركت زيادا جنود المهاجر بن أبى أمية فنازل الأشعث وحصره وقومه ، ثم نزلوا على حكمه عدا تسعة منهم وقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية وأتى بالأشعث فعفا عنه أبو بكر ورد عليه زوجته وهى أخت أبى بكر وبقى بالمدينة إلى فتح العراق

ردّة أهل البحرين

وإذا يسر الإله سعيدا ٭ لأناس فإنهم سعداء

ليس بين الشقاء والسعادة سوى عقبة لا يقطعها إلا المخِفّون من الشهوات ،

الغالبون على هوى النفس ، المالكون للإرادة المطلقة من سلطان التقليد والشهوة

وكما مُنِيَ الإسلام فى أول أمره بقوم قد رانت على قلوبهم أهواؤهم وضعفت نفوسهم عن اطراح سلطان الشهوات والعادات ، فلما لاح لعيونهم فجر كاذب من الآمال مالوا إلى مألفهم القديم ، وأرّثوا نار الفتنة وشبوا ضرامها وأبوا إلا الاسترسال فى الرجوع إلى ما كان عليه آباؤهم ؛ فقد رُزق أناساً قد استنارت بصائرهم بنور الهدى فكانوا للحقّ أنصاراً وللإسلام أعوانا : كالجارود ابن المعلى العبدى ، وصفوان بن صفوان التيمى ، وعدىّ بن حاتم الطائى وأمثالهم ممن أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدّين حتى تعلو كلمة الدين .

« أشهر مشاهير الإسلام ببعض تصرف » .

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فأمّر عليهم المنذر بن ساوى . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المنذر مريضا فتوفى عقبة وارتدّ أهل البحرين كما ارتدّ غيرهم من العرب .

تمت بكر على ردّتها . وأما عبد القيس فكان فيهم الجارود بن المعلى وكان له صحبة برسول الله وفقهٌ فى الدين وصحة عقل ويقين . فجمع قومه وقال لهم : يامعشر عبد القيس ، إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى إن علمتم ولا تجيبونى إن لم تعلموا . قالوا : سل عما بدا لك . فقال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ قالوا نعم . قال: تعلمونه أو ترَونه . قالوا : لا بل نعلمه . قال : فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا . قال : فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم .

اجتمعت قبائل ربيعة بالبحرين على الردّة ، عدا الجارود ومن تبعه . وقد اجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك إلى المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغَرور .

قام الُحطم بن ضبيعة من بنى بكر بن وائل فى جمع عظيم من المشركين والمرتدّين ليستبيحوا حمى الجارود ومن معه من عبد القيس والمسلمين . ونزل القطيف وهَجَرَ وبعث بعثاً إلى دارين ، وبعثاً إلى جُوَاثى وشدّد الحصر على المسلمين حتى بلغ منهم الجهد .

بينما كان الُحطم يفعل ذلك بمسلمة ناحيته كان العلاء بن الحضرمى يسير إليهم فى الجند الذين معه . فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفى فى مسلمة بنى حنيفة ، وقيس بن عاصم المِنْقَرِى فى قومه . وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كان فى بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول فى الليل . فما كادت أرجل القوم تنال الأرض حتى نفرت الإبل بأحمالها فما بقى عندهم بعير ولا زاد ولا ماء وأيقن القوم بالهلاك وقد دهمهم من الأمر مالم يكن لهم فى حساب .

جزع القوم لما أصابهم وحقّ لهم أن يجزعوا لنفوس تهلك ضيعة فى غير غناء . إذ المكان قفر لانبات فيه ولا ظلّ ولا ماء ، وقد انبتّ ما كان موصولا بأيديهم من أسباب الحياة . غير أن العلاء أمير الجيوش أظهر من رباطة الجأش والثقة بالله تعالى والرجاء فى غوث هذه العصابة ما أثاب للقوم بعض الرشد . فلما أصبح دعا العلاء ربه ودعوا معه ، ولم يمض قليل من الزمن حتى رأوا لمع الماء فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا ، وما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجتمع من كل وجه فأناخت إليهم فسقوها . والذى يخيل إلىّ أن الإبل كان الجوع قد أخذ منها فلما ، نزل القوم ظنت أن بالمكان شيئاً من الكلأ فتفرّقت تطلب المرعى ، فلما لم تجد شيئاً بقية ليلها وصدر نهارها ثابت إلى مجتمع القوم لعهدها أن الناس لاينزلون إلا حيث يكون الأكل والماء . وقد كتب العلاء بما لقى من عجيب الأمر ووجدان الماء بمفازة الدهناء وما صنع الله لهم من اللطف فى سفرهم .

نزل العلاء حين خلص من الدهناء إلى هَجَر وأمر الجارود أن ينزل عَلَى الُحطم مما يليه واجتمع أهل البحرين إلى الحطم سوى أهل دارين وانحاز المسلمون إلى العلاء وخندق كل على عسكره وكانوا يغدون إلى القتال ويروحون

واستمر الأمر على ذلك شهراً — وبينما هم على هذه الحال إذ سمع المسلمون ضوضاء فى معسكر أعدائهم ، فأرسل العلاء العيون فأخبر بأن القوم قد شربوا الخمر من النهار ، فلما أخذت من رؤوسهم أحدثوا ما سمع من الضجيج ، فرأى العلاء الفرصة سانحة للإيقاع بهم ، فخرج بالمسلمين حتى خالط القوم وهم على حالهم ، وأعملوا السيف فى رقابهم كيف شاءوا ، وهرب الكفار بين متردٍّ وناج ومقتول ومأسور . ولم يفلت رجل إلا بما عليه ، وأسر المنذر بن النعمان وقتل الحطم ، وأرسل العلاء إلى من ثبت على إسلامه من أهل تلك النواحى أن يقعدوا للمنهزمين بكل طريق ، ففعلوا ، وغنم ما كان بمعسكر أعدائه واتبع الفُلَّالَ واجتاز الخليج عند دارين بجيشه لا يغمر الماء سوى أخفاف الإبل والتقوا بمن كان قد ركب السفن من فلّ ذلك العسكر فقتلوهم ولم يبق منهم مخبر وضرب الإسلام بجرانه فى تلك الناحية . وكان مع المسلمين راهب من أهل هَجَر فأسلم وقال : خشيت أن يمسخنى الله بعدها ، فيض فى الرمال ، وتمهيد أثباج البحر ، ودعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء سحراً « اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع فليس قبلك شىء ، والدائم غير الغافل ، الحىّ الذى لا يموت ، وخالق ما يرى وما لا يرى ، وكل يوم أنت فيه فى شأن ، علمت كل شىء بغير تعلم » فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على حق . وبذلك انتهى قتال المرتدّين فى هذه الناحية .

ردّة أهل عُمان ومهرة

كان أهل عُمان قد أسلموا فى حياة رسول الله وولى عليهم جيفرا وعبداً ابنى جُلندا ، وكان قد نبغ فى عُمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى وادّعى بمثل ما ادّعى غيره من المتنبئين — وقد خافه ابنا الجلندا فعاذا بالجبال وكاتبا أبا بكر بشأنه . فبعث إلى هذا الوجه حذيفة بن مُحْصَن واتبعه بعَرْفَجَة بن هرثمة على الوجه الذى قدمنا . وأرسل فى أثرهما عكرمة بن أبى جهل بعد نكبته باليمامة فلحقهما دون عُمان .

أما لقيط فقد جمع جموعه بدُبَى ووافته جيوش المسلمين . فلما التقى الجمعان كان بينهما من القتال أشدّه . واستعلى المشركون على المسلمين . وكادت الدبرة تكون عليهم ، وبينما هم على هذه الحال إذ منّ الله على جيوش الإسلام بمدد اشتدّت به سواعدهم ، فوافاهم جيش من بنى ناجية يقودهم الخرّيت بن راشد وآخر من عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان ، ففت ذلك فى أعضاد المشركين ولم يلبثوا أن ولوا الأدبار والمسلمون يأخذونهم بالسيف فى كل سبيل فقتلوا منهم مقتلة قلّ أن سمع العرب بمثلها فى ماضى حروبهم .

ولما فرغ عكرمة من أمر عُمان سار بجيشه ومن انضمّ إليه من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد واقتحم بهم بلاد مهرة فوجد القوم فى جمعين من مهرة مختلفين : أحدهما تحت إمرة شخريت رجل منهم ، والثانى تحت إمرة المصبح أحد بنى محارب .

عمد عكرمة إلى إعمال حيلته فكاتب شخريتا ودعاه إلى الإسلام . فأجاب بمن معه . وأما المُصَبَّح فلم يقبل ، فشدّ عكرمة عليه بمن معه وصدق الحملة فى قتال المرتدّين رجاء أن يمحو ما لحقه من غضب أبى بكر فى قتال أهل اليمامة ، فهزم جموع المرتدّين وغنم المسلمون ماشاءوا ، وأقام بعد ذلك يسكن الناس ، وعاد القوم إلى الإسلام .

كانت حروب سوى ما ذكرنا بين المسلمين وأهل الردّة وفى جميعها كان النصر حليف المسلمين .

نرى مما قدّمنا أن أبا بكر قام فى شأن الردّة وأهلها قياما محمودًا ، وأخذ الأمر بحكمة سامية وهمة نادرة المثال لا توجد إلا فى الأبطال الذين لا يجود بهم الزمان إلا نادرًا .

نار تأجّجت فى كل ناحية وصُقْع ، وعصا قد انشقت ، وكلمة تفرقت ، وأمة

قد صار أهلها عباديد ، وركب كل حيّ هواه . فشمّر لها أبو بكر ، وضرب المدبر بالمقبل ، ورمى كل نابح بحجره ، وسدّ كل ثغر ، ولقى كل كارثة بأمثال عدّتها (كالسيل يقذف جلموداً بجلمود) ، فلم تنقض سنة من ولايته حتى اختنق وليد الفتنة وقد شبّ عن الطوق ، وأخمد تلك النيران المستمرة كأنما قد قال لها : كونى برداً وسلاما فكانت ، واجتثّ الفتنة من أصولها ، وأدال بطن الأرض ممن على ظهرها من أهل الشقاق ، وأتبعهم بين سمع الأرض وبصرها فجعلهم كأعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟

عزيمة صادقة وحسن نظام فى تزجية الجيوش ، وسرعة فى تلقى الأخبار وإلقاء الأوامر ، وقوّاد قد خرّجتهم الحروب وصقلتهم الوقائع ، وجنود باعوا أنفسهم فى سبيل الله . كل ذلك عوامل نصر قلّ أن تجتمع لقائد إلا بمعجزة أو توفيق من الله .

من نظر نظرة صادقة فى التاريخ، لا يتردّد فى أن أبا بكر مجدّد دين الإسلام وممسك رمقه بإذن الله فى ذلك الوقت الذى عمّ فيه الذهول وغلبت الدهشة على العقول . وعلى الجملة فإن انتصار جيوش المسلمين على سائر العرب المرتدّين قد استأصل من النفوس الطماعية فى الارتداد ، واستأصل البقية الباقية فى أعماق القلوب من الشرك ، ووحّد وجهة العرب وأيأسهم من كل دين سوى الإسلام ، وجمعهم على الطاعة لولىّ أمر المسلمين . وكانت ردّة العرب وما استتبعت من الحروب بمثابة تمحيص نقى من الأمة الزيغ ، وأخرج الخبث وصفى حساب الإسلام مع الشرك حتى صار الدين خالصاً لله .

ظهور الأمة العربية

لم تظهر الأمة العربية بين الأمم المتحضرة ذات الفتوح والمطامع فى الاستعمار منذ عرفها التاريخ إلى أن انتهى أبو بكر من أصحاب الردّة . نعم إن المؤرّخين يذكرون عن بعض ملوك اليمن أخباراً غريبة فى الغزو فى بلاد بعيدة ؛ ولكن ذلك لم يحرز من الثقة ما يحقق لهم ذلك المظهر ، ولئن كان ذلك ففى أزمان طال عليها القدم ، وعفى كرّ الغداة ومرّ العشىّ على تلك الآثار .

لم يكد أبو بكر يُخَلِّصُ يده من أهل الردّة حتى أمسك بكلتا يديه بدولتى فارس والروم ، يريد أن يلقى القومُ بأيديهم إليه بالطاعة ، وأن يدخلوا فيما دخل فيه أهل الجزيرة العربية . والفرس والروم هُمَا ما هُمَا ضخامة ثروة ، وسموّ مدنية ، واستبحار عمران ، وشموخ عزّ ، وانفساح رقعة ، وقوّة بطش ، وخصوبة أرض ، واستحكام ملك ؛ وما شئت من موجبات السلطان والرفعة والعزّ .

بعيشك حدّثنى . ماذا حدث فى الأكوان فقلب الوضع وجعل الأصل مُنْقَلَباً للفرع ، وصير المأكول آكلا ، وأعاد النبيه خاملا ، والغالب مغلوبا ، والسالبَ مسلوباً ؟ وبأىّ سلطان استنسر البغاث ، واستأسدت الأوعال ، وجَـرّت بيضَ الأفيال النمال ؟ أَ يُجتَاحُ دولتا الشرق والغرب ، وتزلزل عروش القياصرة والأكاسرة ، وتُفَضّ بيضة العالم القديم ، وتفلّ جيوش أوروبا وآسيا وإفريقية بأيدى العرب وهم فى ذلك الحين فلّ حرب داخلية قد حصدتهم حصدًا ، وأكلت عددهم على ماهم عليه من قلّة وذلّة ، وسذاجة فى العيش ، وعدم دربة فى فنون الحرب النظامية ، وضعف عُدّة ، وضيق ذات يد ، وقلّة عدد بالقياس (فى كل ذلك) على ما عند الدولتين ؟ إنه لمرتقى عالٍ يصعب تسنمه ، ومرام وَعْر يعزّ على من رامه ويطول .

كيف تسنّى للعرب أن يستبيحوا عرين الآساد ، ويدوسوا الحصون الشداد ، والمعاقل ذات العتاد ؛ بعدد لا يزيد عن حامية مدينة من المدن ، أو حرس ناحية من النواحى ؛ معرقة أحوالهم ، وخشونة عيشهم ، وقلة مددهم ، ونقصهم عن المدافعين فى جميع مواد الحياة ؛ وكل الوسائل والعوامل المادية التى يحرز بها النصر وينال بها الظفر ؟ .

قد كان العرب فى جميع أطوار حياتهم بحيال فارس لا يهجس فى نفوسهم هاجس بالاستطالة عليها ، أو مساماتها فى الملك ومطاولتها فى السلطان ، بل كان قصارى من سمت به همته إلى الملك وتعلق بأن يكون له ولقومه مايشبه أحوال الناس . أن يكون لهم تابعاً ، ولأوامر ملوكهم خاضعاً ، ليس به منعة منهم ولا يد له بمدافعتهم عن مراد يريدونه ، وقد كان الروم فى شمال بلادهم ومن صاقبهم من العرب عما لهم على من يليهم من عرب نواحيهم يدينون للرومان بالطاعة ، ويبذلون فى مرضاتهم غاية الاستطاعة . لا يحدّث أحد ملوكهم نفسه بالاستبداد بأمره ولا يطمع فى اقتطاع أمور من يليه دونهم . ومن كان يحلم ببعض ما كان منهم فى عهد أبى بكر وعمر ، سُكِّتَ وبكت ، واحتسب ذلك منه بعض الأوهام ، أو أضغاث أحلام . فبأى لقاح لقح دم هذه الأمة فوثبت إلى ما وثبت ، وأتت من ضروب خوارق العادات ما أتت ؟ .

كأنى بصائح يصيح : إن تضعضع حال الدولتين بسبب الحروب ، وانتشار المظالم والانقسامات الدينية فى بعضها . دفع العرب إلى اجتياحهما والإتيان على ملكهما بالفتح والاستيلاء (ومن لا يسوس الملكَ يخلعه) .

وإنى أجيبه بأن ذلك قد يكون بعض الأسباب وليس يمكن أن يكون كلها . إذ العرب لم ترتق حالهم إلى أن يكونوا أكثر من أحد الفريقين عدداً ولا أقوى عُدّة . ليس العرب فيما أتوا بأولى من ملوك الهياطلة فى شرق فارس وخاقان

الترك فى شمالهم ، وهم أمم لهم ملك متسق ، وأمر مجتمع ، وعدد وافر ، وعدّة قوية ، ومدد متصل ، وثروة عريضة ، ومطامع فى الفتح ، وسابقة صول فى فارس ، ونكاية فى جنودهم وإيغال فى حدودهم ؛ وليس للعرب من هذه الشؤون والبواعث ما لهؤلاء القوم ، فما الذى أهاب بالعرب إلى أن يأتوا ما أتوا ، وأحجم بهؤلاء وهم أعلم بحال جيرانهم من العرب وأقوم على شئونهم ؟ فلا بدّ أن يكون شىء وراء ذلك . وأيضاً فليس العرب بأولى من إحدى الدولتين بالاستيلاء على أخراهما ، وكل جندهم لا يبلغ عدده ما يمكن أن يجتمع من إحدى الولايات ، فكان الأجدر بإحداهما أن تستولى على الأخرى بطريقة أسهل من استيلاء العرب وهم أضعف من أهل أية ولاية من الولايات ، وكل منهما تعلم من حال الأخرى ما لا يعلم العرب .

أريد أن أذكر الدافع الذى حدا بالعرب إلى الفتح ثم أتبعه ببيان الأسباب التى ساعدتهم على ذلك ، وسهلت عليهم نيل ما نالوا بسرعة لم يعرفها التاريخ لأمة فاتحة قبلهم ولا بعدهم ، ولا لأمة فى مثل حالهم أو خير منها .

جرأة العرب على الفتح

إن العرب فى أيام باديتهم ، وفى جميع أطوارهم قبل الإسلام ، كانوا ينظرون إلى الروم والفرس نظر الهيبة والاحترام ، يضربون الأمثال بعزّهما وسطوتهما وضخامة ملكيهما ، لما ينظرون فى أهلها من حسن الحال ، وقوّة السطوة ، وضخامة العمران ، وما عليه حال العرب من الرقة وخشونة العيش وقلة الريف وضعف عُدّة الحرب ، إذ لا يعرفون منها سوى القوس ، والرماح مشدودة بالعصب ، والسيوف يتقلدونها معلقة بالميسور من قِدٍّ أو خرقة . والقوم لم يهجس فى خواطرهم ولم يمر فى خيالهم قبل الإسلام أن يخرجوا من جزيرتهم غازين لجيرانهم ولا أن ينازعوهم الملك .

لا شك أن الإسلام قد بدّل أحوال العرب وأنشأهم خَلْقاً جديداً ، وغير ما كانوا عليه من الأخلاق وبدّلهم منها أخلاقاً لا تلتئم مع الانكماش والانزواء. كانوا قبائل متنافرة ، وبطوناً متدابرة ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، لا يبيت أحدهم إلا على حَذَر ممن بعدت به العصبية من بني عمه وذوي قرابته . فأزال الإسلام تلك الأضغان التي رانت على القلوب ، واستخرج تلك الأحقاد ، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً أشدّاء على أعدائهم ، رُحَماء بينهم . وجعلوا عوامل التفريق دبر آذانهم ، وصاروا على قلب رجل واحد .

ومن المعلوم في طبيعة الجماعات أن اجتماعهم يحدث فيهم قوّة تشجع الجبان وتغري الناكل بالإقدام . فما قولك في أمة عظيمة إذا اجتمعت وكانت الشجاعة أخصّ أوصاف أفرادها ، لاشك في أنها تقدم على العظائم، وتستهين بالأخطار ، ولاشك في أنها تقوم بما لا تقوم به عصبة أوفر منها عَدَداً وأوفى عُدَداً .

لا يرجى غير ذلك من عصبة تغلغل في مكان الاعتقاد منها صدق الداعي الذي يدعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وجرى من كل فرد مجرى دمه في مفاصله أن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وأن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرونَ بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وقد أوقر في نفوسهم أنهم سيفتحون المدن والأمصار ، ويحوزون الممالك والأقطار ، ويأكلون كنوز كسرى وقيصر . ووعد بعض أولئك الأعراب — البوّالين على أعقابهم — أنه سيتحلى بحلى شاهنشاه كسرى . وكرّر وعد الله لهم بالنصر على الملوك والاستعلاء على الممالك في غير موقف حتى لم يُبْقِ في نفس أحد مجالا للشك، ولا محلا للريب . وفوق ذلك قد ذوّقهم حلاوة النصر في مواطن كثيرة ، أدركوا فيها فوزاً لم يكونوا يؤملون بعضه ، وقادهم إلى فتوح باهرة فأرتهم على يده

الأيام مالم يرهم المنام ؛ وقد استقرّ فى مكان اليقين من نفوسهم أنهم إذا صدقت منهم النيات فى لقاء عدوهم فاز المقتول منهم بسعادة الآخرة ، وأحرز الباقى سعادة الدنيا (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) هذان هما العاملان اللذان جرّآ العرب على المغامرة بحرب أقوى الدول شَوْكة وأشمخها بنياناً .

أما الاتحاد فأجلى مظاهره أن دين الإسلام عنوان التوحيد ، وقد نزلت الآيات الكثيرة حاثّة على الاتحاد واجتماع الكلمة ، منفرة من التفرُّق ، محذِّرة منه ، سواء كان التفرُّق فى الدِّين ، أو فى الكلمة والرأى . وقد جاء فى الدِّين أمورٌ هى رمزٌ أبدِىٌّ للوحدة كاتحاد جميع المسلمين فى استقبال مكان واحد ، يولون وجوههم شَطْره ، أينما كان الواحد منهم وحيث وجد ، وهو الكعبة . وأوجب على المستطيع منهم حجّ هذا المكان وقضاء النسك عنده تأكيداً لمعنى الوحدة مع فوائد أخرى . وأوجب (على سبيل الكفاية) اجتماع أهل المحلة خمس مرّات لأداء الصلوات المكتوبة جماعة ، وذلك فى كل يوم وليلة ، وأوجب اجتماع أهل البلد الواحد فى كل أسبوع مرة لصلاة الجمعة . هذا فضلا عن اجتماعهم عند الأمور المهمة فى سرور أو غيره للصلاة كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وغير ذلك . وإنك لا تكاد تقرأ خطبة من خطب الخلفاء الراشدين إلا وتجد فيها ذكر الاتحاد ، والاتفاق وما نالت الأمة ببركة الاتحاد بعد الاختلاف ، وإنه منّة من منن الله تعالى على الأمة أعتقهم الدين بها من الأهواء المختلفة والآراء المتباينة . أما ما جاء فى الأحاديث فشىء كثير جداً لا يكاد يستقصيه مستقص .

وأما تحققهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من وعد الله لهم بإحدى السعادتين إن قتلوا أو فازوا فيما أخبرهم به من الاستعلاء والتمكن فى الأرض وغلبتهم على دولتى كسرى وقيصر فظاهر من أقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فاهوا به فى حضرة الملوك وقوّاد

الأجناد ، كقول المغيرة بن شعبة لرُستم حين قال له : « إنكم ستموتون فيما تطلبون » إذ قال له المغيرة : « يدخل من قتل منّا الجنة ، ومن قتل منكم النار . ويظهر من بقيَ منّا على من بقيَ منكم » ، وهذا عُبادة بن الصامت قد خوّفه المقوقس جموع الروم ، وأن العرب فى قلّة عددهم لا يقدرون عليهم ، فقال عبادة : « يا هذا لا تَغُرَّنَّ نفسك ولا أصحابك أما ما تُخَوِّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنّا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا الذى تخوّفنا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشدّ لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنّته ، وما شىء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ لنا من ذلك . وإننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإنها لأحبُّ الخصلتين إلينا » الخ

الأمور التى ساعدت العرب على الفتح

قد اختص المسلمون فى أوّل الفتح بأمور ساعدتهم على قصدهم وكانت عوامل باجتماعها كان فوزهم ، ولم يكن لأعدائهم مثل ما لهم ، فكانت لهم بها الميزة على خصومهم . نذكر منها :

(١) — نشاط العرب وخفّة أثقالهم لإلفهم خشونة العيش ، وتجافيهم عن الترف ومذاهبه بما أَلِفُوه من سكنى البادية ، وتعوّدهم الجوع والعطش ، واجتزاؤهم بالقليل مما يمسك الرمق ، فلا يتكلّف أحدهم ما يثقل كاهله ، أو يشقّ على راحلته حمله كما يفعل الجُند فى الأمم المتحضرة ، فإنهم يحتاجون إلى أصناف منوّعة متعددة من المأكول والمشروب وأدوات صحية وعقاقير طبية وعلوفات للماشية وأوانى للمياه وكل ذلك مشغلة للجُنْد ، عائق لهم عن سرعة السير .

ولا تنس أن العرب معهم الإبل التى تصبر عن الطعام والشراب أياماً عديدة فلا تعوقها الصحارى ، ولا يتهيّبون القفار وهى معهم .

إن الجنـد المتمدن لا يستطيع السير فى بلاد غير متمدنة إلا إذا كان معه الأحمال من البقسماط واللحوم المحفوظة والسكر والشاى والبنّ والشمع وفناطيس[1] الماء والخيام والأمتعة وعلف الماشية . وقد كانت حملة التَمة سنة ١٨٩٧ — ١٨٩٨م عددها ١٥٠٠ جندى ، وجمالها أربعة آلاف ، ومعها الجمّالة والخدم . أما الرجل من أهل السودان (وهم عَرَبٌ) فكان الواحد منهم فى غنًى عن ذلك كله بجراب فيه شيء من الذرة الجافة أو الدخن يتأبّطه ، وربما كان ذلك مؤونة شهر أو شهرين . وهو فى ذلك يكاد يكون نسخة مطابقة للأصل من المجاهد العربىّ فى عصر الفتح .

(٢) — اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ، وقد رسخ ذلك فى نفوسهم أعظم رسوخ بما جاء فى الكتاب العزيز من مثل قوله : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » وقوله « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وقوله : « إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقوله : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . فكان هذا الاعتقاد يحدو بهم إلى الاستهانة بالأخطار لأنها لا تقرّب أجلا ولا تدنى حيناً . ولهذا أبدوا من البسالة ضروباً ، ومن الشجاعة والإقدام فنوناً ؛ ولم يكن اعتقادهم ذلك على النحو الذى يتخيّله الأوربى فيمن اعتقد هذه العقيدة من أنه تكلة مستسلم ، لا يهمّ بعمل ، ولا ينشط لنافع ، اعتماداً على القضاء والقدر .

(٣) — إن العرب وإن كانوا حديثى عهد بالقتال بالزحف ، ولكن القتال لذلك العهد كان يبدأ بالمبارزة غالباً ، فيبدأ الفارس يطلب قِرناً يبازله . وخيل العرب أنجب من خيل الفُرْس والروم ، وهى تدرك الخصم إذا كرّت ، وتفوته إذا فرّت . وكانوا أقدر على تصريف الأعنّة من سواهم ، ففرس الواحد منهم طوع يده . وكانوا أسدّ بالنبال رمياً ، وكان لذلك يغلب أن يفوز العربىّ بالغلب

---

(١) فناطيس : يطلق هذا اللفظ على أوعية توضع فيها المياه لاستعمالها عند الحاجة .

على مبارزه فيكسر ذلك من قلوب مقاتليهم ويوقع الرعب فى نفوسهم من أوّل الأمر ، وخاصة إذا كان المغلوب رئيس الجند أو ممن شهر بالشجاعة فيهم .

(٤) — ما كان للمسلمين من الثروة الواسعة فى عظماء الرجال من القوّاد ذوى الحنكة والدربة قد خرّجتهم الحروب وثقفتهم الوقائع فبرزوا كما يبرز السيف من الصقال . فإن ما كان فى طبيعة العرب من حبّ الغزو والإغارات والتلبب للصيال والحفاظ للجار ؛ كل ذلك أرّث نار الحرب بينهم . وقد كانت وقائع الإسلام من غزوات وسرايا مدرسة عليا زادتهم تبصرة بالحروب ومكائدها وعوّدتهم إحراز الفوز .

وقد جاءت حرب الردّة فزادتهم فى الحرب بصيرة ، وفى مكايدها حذقاً ومهارة .

فإذا ذهبنا نعدّ أمثال خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبى عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبى وقّاص ويزيد بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب ممن تتجلّى فيهم البسالة والحذق فى قيادة الجنود وجدناً عدداً جماً ، وإذا أردنا أن نعدّ أمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة ممن يغلب عليهم الدهاء وحسن السياسة وجدنا عدداً فوق الكفاية وعلى رأس هؤلاء وأولئك أبو بكر وناهيك بالرجل فى الحزم والتقوى وصدق العزيمة والعدل .

إن أمة تضمّ حاشيتاها أمثال من ذكرنا جديرة بأن تتبوأ أعلى مراتب العظمة ، وتحوز أقصى غايات الفخار .

(٥) — نجدة العرب واستمساك كثير منهم بأسباب العصبية . ذلك أن العرب المنبثّين فى نواحى الشام الخاضعين للروم . وكذلك العرب الذين يناوحون الفُرْس ، لم يبدُ منهم كبير عناد فى مقاومة المسلمين ومقاتلتهم وإن كانوا على غير دينهم فإن الرُبَط التى كانت تربط العرب فى تلك الأصقاع بفارس والروم لم تكن مريره محكمة ، والقوم لم تزل أنفسهم تشعر بأن العرب قومهم وفتهم التى

يرجعون إليها ، فلم يكونوا يحتاجون إلى كبير علاج فى دخولهم فى الإسلام أو الدخول فى طاعته . وكان ذلك من الأسباب التى سهلت فتح بعض البقاع وفتت فى أعضاد أعدائه .

(٦) — حفظ خط الرجعة . فلا يُوغلون فى البلاد قبل أن تدين لهم بالطاعة ويثقوا بأن العدوّ قد انقطع طمعه من مفاجأتهم من خلف ظهورهم . وكان ذلك فى مبدأ الأمر هيناً عليهم فى جهات الشام . فإن الصحراء من خلفهم تكون لهم ملجأ إذا خافوا أن يلحق بهم عدوّهم ، ولا يتقدّمون خطوة فى أرض عدوّهم إلا إذا كانوا قد استولوا على ما على يمينهم وشمالهم من المدن والبلاد ودان لهم بالطاعة وسدّوا كل ثغر بالمقاتلة .

وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم يحرصون عليها كل الحرص

وقد قال المثنى بن حارثة الشيبانى : « قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، ولا تقاتلوهم بـعُقْـر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ماوراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ الله الكرة عليهم » وقد أقام سعد ابن أبى وقاص بمدائن كسرى بعد افتتاحها ، وكذلك عمرو بن العاص أقام بالإسكندرية . فقال عمر بن الخطاب : « لاتجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت » فتحوّل سعد إلى الكوفة وتحوّل عمرو إلى الفُسْطاط .

(٧) — ما كانت عليه أحوال الدولتين : الفارسية والرومانية من الاعتلال والاختلال . وقد أتيت على شرح تلك الأحوال فى المحاضرات الماضية بما يترك صورة مصغرة للدولتين فى نفس القارىء .

ذلك أن حال كل من الدولتين كان فى انحطاط وتدهور ، فقد فسدت الأخلاق ، وانحطت الهيأة الاجتماعية ، وبدأ التحاسد والتباغض فى بيت الملك ، وخبثت النيات ، وكثرت الدسائس بين الأب وابنه والأخ وأخيه ، ونزا على

عروش الملك أبناء السوقة والغاصبون . هذا فضلا عن الاختلال فى الأحوال الدينية ، ودوام المنازعة بين أهل الدولتين ، واستعار نار الحرب ؛ فما تكاد الدولة منهما تُغمد السيف من حرب فى الخارج حتى تستله على الرعية فى الداخل ، وكل ذلك دعا إلى تضعضع حال الدولتين وأوجب اختلالها .

هذا فضلا عن استحكام الشحناء بين أهل البلاد الداخلة فى حكم الدولة الرومانية وبين الرومانيين ، وبخاصة فى مصر والشام ، لاختلاف القوم فى المذهب الذى يدينون به ، ومباينتهم للرومان فى ذلك ، واستعلائهم على أهل البلاد بما لهم من السلطة وأخذهم بالعسف . فالأقباط فى مصر قد عانوا حُكم الأجانب من فرس فيونان فرومان أجيالا متطاولة ، وقاسوا من ذلك أهوالا ، ويئسوا من قيام الملك فى أحد منهم ، وأيقنوا أنهم مأكولون على كل حال ، فهان عليهم الانتقال من سلطة إلى سلطة رجاء أن يجدوا فترة يجدون فيها راحة من الضغط والظلم . وكذلك أهل الشام وهم خليط من الآراميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم ، فقد نالهم ما نال المصريين ، فلا يهمّ أحداً من هؤلاء أن يكون الحاكم عربياً أو رومانياً . وإنما يهمهم أن يجدوا مسّ الراحة . ومما لا خلاف فيه أن المرء يميل بطبعه إلى البعيد عنه ، ويرجو أن ينال النفع منه ، ويتوسّم الخير فى القادم المجهول أكثر مما يظنه فى الحاصل المعلوم ، وبخاصة إذا كان الفرق بينهما ظاهراً كما كانت الحال ظاهرة الفرق بين الروم والعرب ؛ فقد كانت الرومان يومئذ فى أدبار دولتهم وانحطاطهم ، وقد فسدت آدابهم وأحكامهم ، والعرب فى إبّان إقبال دولتهم ودور نهضتهم ، وقد جعلوا العدل شعارهم ، والمساواة أساس أحكامهم ؛ فكان ذلك من العوامل المساعدة للعرب على افتتاح ما فتحوا فى تلك الجهات .

(٨) — كان الرومان مع انقسامهم إلى طوائف وأحزاب فى الدين قد

اجتمعوا على اضطهاد اليهود ومضايقتهم مضايقة شديدة ، وقد بلغت البغضاء بين الفريقين أقصى نهايتها ، واليهود يودون بجَدع الأنف أن يصيبوا رغم الرومان ، فكانوا عوناً للعرب يدلونهم على عَوْرات القوم ويرشدونهم إلى مقاتلتهم .

وهذه مدينة السامرة افتتحها أبو عبيدة بن الجرّاح صلحاً على أن يكون أهلها عيونا للمسلمين على أعدائهم ، وأطعمهم أرضهم ووضع عنهم جزية رءوسهم .

(٩) — إن المسلمين كانوا يفشون العدل فى البلاد التى تدين بطاعتهم ، ويرفقون بالرعية ، ويعفون عما فى أيدى المحكومين ؛ وهذا شىء لم يألفوه فى حكامهم . فكان شيوع هذه الخلال عنهم يسبقهم ويفتح لهم القلوب قبل فتح المدن والحصون .

(١٠) — إن العرب كانوا إذا دخلوا قرية أقرّوا أهلها على ما هم عليه من دين ومعاملات ، ولا يتقاضون منهم سوى الجزية ثمناً لحمايتهم والدفاع عن حوزتهم وتأمين سُبُلهم ، وهى بالطبع ليست إلا جزءاً من الإتاوة التى كانوا يؤدّونها إلى حكامهم من الرومان . فكان فى ذلك تخفيف لإصرهم وما عليهم من الأغلال . ويرى ذلك واضحاً فى قول عبادة بن الصامت للمقوقس والقبط لما دعاهم إلى الإسلام : « وإن أبيتم إلا الجزية فأدّوها إلينا عن يدٍ وأنتم صاغرون ، وأن نعاملكم على شىء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم » الخ .

ولما دخلت حمص فى ذمّة المسلمين وأدّوا الجزية واحتاج المسلمون بعد ذلك إلى الاجتماع فى اليرموك ردّوا إلى أهل حمص ما أخذوا من جزيتهم وقالوا : « قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » فقال أهل حمص : « لَولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ، ولندفعن جُند هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

وعلى الجملة إن المسلمين لم يجرّئهم على الفتح سوى الدين وصحة الاعتقاد

بالنصر مع ما كان فيهم من الميزات كالمهارة والفروسية وقوّة أبدانهم ونشاطهم وما كانوا عليه من التقشُّف ومجافاة الترف ومذاهبه . ونبوغ كثير من القوّاد وذوى الرأى ، مع العدل والقسط والرفق ، واختلال أحوال دولتى الروم والفرس ومَلَل المحكومين من حكامهم . فلم يمض عليهم بضع عشرة سنة حتى اجتاحوا فلسطين والشام ومصر والعراق وفارس وأخذوا ينتقصون الأرض التى على الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط بخطوات ثابتة ، وهو أمر لم يعرفه التاريخ لغير العرب .

غزو الفرس

لو أن أبا بكر حين فرغ من أمر أهل الردّة أعاد الجيوش إلى بلادها ، وأقرّ السيوف فى أغمادها ، لما استقام له الأمر طويلا ، ولعاد بعد قليل إلى نشر ما طوى ، ولاحتاج إلى ائتناف ما انتهى منه ، وافتقرَ إلى إطفاء فتن تشبّ فى الأطراف ، وحروب تستعر نارها فى أرجاء البلاد . لأن قوماً نشئوا وشابوا فى الجلاد والصدام لايمكن أن يهدأ ثائر نفوسهم ، بل هم يحرصون على خلق الأعداء فى الداخل إن لم يجدوهم من خارج بلادهم . ولكن الله تعالى خلق لهم الاشتباك مع الفرس ثم الروم ليكون ذلك أدعى إلى توافق القوم وتوازُرهم وتناصرهم فانقطعت الحروب فيما بينهم واتصلت بينهم وبين مجاوريهم .

كان ابتداء أمر فارس مع المسلمين أن الملك فى فارس قد أفضى إلى بوران بنت كسرى لفقدان من يصلح من بيت الملك لأن شيرويه كان قد قتل جميع إخوته سوى جوان شير فإنه كان طفلا . فلما مات جوان شير ولِيَتْ هى المُلك بعده فشاع فى أطراف الأرضين أن فارس لامَلِكَ لها وإنّما يلوذون بباب امرأة ، وكان أمر فارس فى اضطراب واختلال مُطمع للجيران .

خرج فى تلك الأيام رجلان من بنى بكر بن وائل . أحدهما : المثنّى بن

حارثة الشيبانىّ ، وثانيهما : سويد بن قطبة العجلىّ ، ونزلا فيمن جمعا من العرب بتخوم أرض العجم . فكانا يغيران على الدّهاقين(١) فيأخذان ما قدرا عليه ، وإذا طلبا أمعنا فى البر فلا يتبعهما أحد — وكان المثنَّى يغير من جهة الحيرة ، وسويد من جهة الأُبُلَّة . وذلك فى خلافة أبى بكر — فكتب المثنى إلى الخليفة يعلمه ضَراوته بفارس وينبئه بوهن القوم ويسأله أن يمدّه بجيش ليؤثر فى فارس .

كان خالد بن الوليد قد انتهى من أمر بنى حنيفة حين ورد كتاب المثنى على أبى بكر فندبه لغزو بلاد فارس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو يومئذ الأُبلة وندب عِياض بن غُنْم ليغزو فارس من الشمال ويبدأ بالمُضيح فى شمال العراق وأمرهما أن لا يستكرها أحداً ممن معهما إذا عزَما فانفضّ عنهما جموع ممن معهما وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردّة وأن لا يستعينا بمرتدّ . ولما استمده خالد وعَياض أمدّ الأوّل بالقعقاع بن عمرو التيمى وقال لمن راجعه بقوله : أتمدّه برجل واحد ؟ — : « لا يغلب جيش فيه مثل هذا ! » . وأمد الثانى بعبد بغوث الحميرىّ .

ولما وافى خالداً كتاب أبى بكر وهو باليمامة كتب إلى صاحب الثغر وهو هُرْمُز كتاب إنذار يقول فيه : « أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة ، واقرر بالجزية وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبّون الحياة » ، ولم يحمل خالد عسكره فى طريق واحد . بل جعلهم ثلاث فرق فسرح المُثنَّى بن حارثة (وكان قد وافاه فيمن معه) قبله بيومين . ثم عدىّ بن حاتم وعاصم بن عمرو ؛ أحدهما قبل صاحبه بيوم . وخرج خالد وقد واعدهم الحفير ليجتمعوا به ليصدعوا عدوّهم مجتمعين .

لما قدم كتاب خالد على هُرْمز كتب بالخبر إلى أزدشير الملك وجمع جموعه ثم تعجل يريد الكواظم ، وهى من جادة اليمامة فلم يجدها طريق خالد ونبىء أن

---

(١) الدهقان (بضم الدال وكسرها) : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

جموع المسلمين تواعدوا الحفير فيممه يبادرهم إليه وعبّى به جيشه .

ولما علم خالد بأمره عدل عنه إلى كاظمة ، فخفّ هرمز إليها ، وكان من أخبث الناس وأشدّهم دهاء وأعظمهم نكاية ، تضرب العرب به المثل فى الكفر والخبث لما كان منه من سوء الجوار لهم ، وكلهم عدوّ له حاقد عليه . وكان هرمز قد بقى فى عسكره وقد قيدوا أنفسهم فى السلاسل آية استبسالهم فى القتال وعدم البراح ، وكان الماء فى أيديهم . ولما وافى خالد نزل على غير ماء ، فقيل له فى ذلك فقال : حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، ثم تبارز هرمز وخالد ، وكان هرمز قد اتفق مع أصحابه على الغدر بخالد إذا بارزه ، فلما تلاقيا صرعه خالد وخرج أصحاب هرمز لاستلحام خالد فلم يثنه ذلك عن قتله ، وخفّ القعقاع فى جماعة إلى أصحاب هُرْمز فأناموهم وشدّوا على القوم فانهزموا .

ثم رحل خالد بجيشه حتى نزل قريباً من موضع البصرة ، وكانت لم تبنَ فى ذلك الوقت .

كان كسرى قد أمدّ هرمز بجيش تحت قيادة قارن بن قريانس فقصل عن المدائن حتى انتهى إلى المذار — على أربعة أيام من البصرة إلى شمالها قرب واسط — فأدركه فِلاَل جيش هرمز من الأهواز والسواد والجبل ، وضوى جميعهم إلى جيش قارن وعسكر جمعهم حيث انتهى ، واستعمل قارن على مُجَنْبِتَيه قُباذ وأنوشجان ، وكانا من قوّاد هرمز . وخف المثنى وأخوه المَعنى إلى خالد بالخبر فقسم الفيء على من أفاء الله عليه ، ونفل من الخمس ما شاء الله ، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبى بكر مع الوليد بن عقبة ، وبعث معه بالخبر عن اجتماع القوم — مغيثهم ومغاثهم — بالمثنّى . وخرج خالد بجيشه حتى التقى وهو على تعبية بجيش قارن فاقتتلوا على حنق وحفيظة وبدأت الحرب بالمبارزة . فكان أوّل صريع ، وقتل الأخوان أنوشجان وقُبَاذ ، وهما من ذرية

أردشير الأكبر وقتلت الفرس مقتلة عظيمة وانهزموا وأعطى خالد الأسلاب لسالبيها بالغة ما بلغت وقسم الغنيمة وبعث بالخمس والفتح إلى أبي بكر مع سعيد ابن النعمان من بني عدي .

انتهى خبر الهزيمة إلى كسرى بالمدائن ، فجهز جيشاً كثيفاً بقيادة الأنْدرْ زغر فسار حتى أتى كسكر ثم إلى الولجة وهي في شمال المدار . ثم حجز بهمن جاذويه فسلك وسط السواد وحشر إلى الأندَر زَغَر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكروا إلى جنب جيش أندر زغر .

أما خالد فلما علم بأمرهم أذن بالرحيل على تعبية بعد أن خلف على القرى حامية تحمي ظهر جيشه وتحفظ عليه خط الرجعة ، ورتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات . جعل جهتين منهما كميناً ، وصادمهم بمن معه فقاتلهم قتالا شديداً حتى ظن الفريقان أن الصبر قد نفد . واستبطأ خالد كمينه . ثم لم يشعر القوم إلا بالكمين قد اكتنف العدو من جانبيه فانهزمت صفوف الأعاجم وأخذهم الكمين من خلفهم، وخالد بمن معه من بين أيديهم . وانهزم أندر زغر ومات عطشاً . وأصيب في هذه الوقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فغضبوا حمية لقومهم وكاتبوا الفرس ليكونوا لهم عوناً على العرب المسلمين واجتمعوا بأليّس وعلى العرب رؤساؤهم وعلى الفرس جابان . وقد أمره جاذويه أن لا ينازل العرب حتى يصل إليه إلا أن يعجلوه .

ولما علم خالد باحتشاد القوم تعجل إليهم وهو لا يظن أن يلقى إلا متنصرة العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية ولا يظن أن جابان معهم. فلما أطل عليهم كان الفرس قد هيأوا الطعام وتنادوا له ولم يظهروا الاكتراث لأمر خالد ومن معه وكان خالد على تعبية فأجهضهم عن طعامهم وقاتلهم قتالا شديداً وكانت جموع المشركين تزيد كلَبا وشدة ، ثقة منهم بأن بهمن جاذويه لاحق بهم في مدد عظيم . وحرب المسلمون عليهم فكشف المشركون وكانت عليهم الدبرة

وأثخن خالد فى قتلهم وغنم المسلمون طعامهم الذى كان مهيئاً لهم. وكان فيه الرقاق فلم يعرف كثير من المسلمين ما هو ،وقالوا : ماهذه الرقاع البيض؟ فكان العارفون منهم يمزحون قائلين هذا رقيق العيش . وكانت هذه الوقائع فى صفر من السنة الثانية عشرة إلا وقعة الأُبلة فكانت فى المحرم وكان جيش خالد قد بلغ ثمانية عشر ألفاً وكان لا تمر به واقعة إلا كانت التى تليها أعظم منها نصراً وغنيمة . وكان يوصى بالفلاحين وأهل الأعمال ولا يظلمهم بل يقرهم فى عملهم ولا يتصدى إلا المقاتلة وأهليهم ؛ وكل ذلك عملا بوصية أبى بكر له . وكان من أمر خالد أنه بعد وقعة الوَلجة خطب فى جنده يرغبهم فى بلاد العجم ويزهدهم فى بلاد العرب . وقال :

« ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب وبالله لولم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه » .

ولما فرغ خالد من وقعة أُلّيس نهض فأتى مغيشياً وقد جلا أهلها عنها وتفرقوا فى السواد وكانت مصراً كالحيرة وكان فرات بَادَقْلى ينتهى إليها وكانت أليس ، من مسالحها فأصاب المسلمون بها مالم يصيبوا مثله فلقد بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة درهم سوى النفل الذى نفله خالد أهل البلاء ؛ ثم أمر بهدمها وكل شىء كان فى حيزها ، ولما جاء خمس الغنيمة إلى أبى بكر وبلغه ما صنع خالد أخبر قريش الخبر فقال : « يامعشر قريش ، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله . أعجزت النساء إن ينشئن مثل خالد ؟ » .

لما علم الازادبه مرزبان الحيرة بما صنع خالد بامغيشيا أيقن أنه غير تاركه ،فتهيأ للحرب وقدم ابنه أمامه ثم خرج فى أثره على عسكر خارجاً من الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات . وكان خالد قد حمل الرجل فى السفن مع الأنفال والأثقال . فلم يفجأ إلا والسفن جوانح . فارتاع المسلمون لهذا الأمر

وقال لهم الملاحون: إن الفرس قد فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ولا يجرى الماء إلينا إلا بسد الأنهار . فنهض خالد فى خيل نحو ابن الازاذبة . فلقى خيلا من خيله فجئهم وهم آمنون لغارة خالد فى تلك الساعة فأنامهم بالمقر ثم نهض من فوره وسبق الأخبار حتى لقى بجند من جند ابن الازاذبة على فم فرات بادقلى فقاتلهم وهزمهم وسد الأنهار وسلك الماء سبيله . ثم استلحق خالد عسكره ويمم الحيرة حتى نزل بين الخورنق والنجف .

أما الازاذبة فقد طرقه مصاب ابنه وخبر موت أزدشير فى وقت واحد فهاله الأمر وكان معسكراً بين الغريين والقصر الأبيض فاستخفه الفزع فعبر الفرات هارباً من غير قتال قبل أن تتام أصحاب خالد . فلما لحق بخالد عسكره سار حتى عسكر بهم مكان الازاذبة وجنوده . وأهل الحيرة متحصنون . فأدخل الحيرة الخيل من عسكره وأمر ضرار بن الأزور بمحاصرة أهل القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى وضرار بن الخطاب بحصار قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى العبادى . وكان ضرار بن مقرن المزنى عاشر عشرة إخوة له محاصراً قصر بنى مازن وفيه ابن أكال ، والمثنى بن حارثة كان محاصراً قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وقد عهد خالد إلى أمرائه أن يدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً ، وقال: لا تمكنوا عدوكم من أذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم ، ففعلوا، فاختار القوم المنابذة وعمدوا لمرمى المسلمين بالحزف فرشقهم المسلمون بالنبل وبنوا غارتهم ففتحوا الدور والديارات فنادى القسيسون. يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم فنادى أهل القصور: يا معشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا . وخرج رؤساء أهل القصور إلى خالد فخلا بأهل كل قصر على حدة ولامهم وكان مما قاله : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ ثم قال اختاروا واحدة من ثلاث، إن تدخلوا فى ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم

أو الجزية أو المنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة . فقالوا : بل نعطيك الجزية . وصالحوه على مائة وتسعين ألفا . وبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر . وكانوا أهدوا إلى خالد هدايا ، فقبل أبو بكر الهدايا على أن تكون من الجزية . وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقية ما عليهم فقو بها أصحابك — وقد كتب خالد لأهل الحيرة كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به . عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المنعة . وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ » .

ومن طريف ما يحكى فى فتح الحيرة أن رجلا من متنصرة العرب اسمه شويل كان قد أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع رسول الله يبشر المسلمين بأن قصور الحيرة ستفتح عليهم . فسأله أن يعطيه كرامة بنت عبد المسيح من سبى الحيرة حين تفتح . فقال النبى عليه السلام : هى لك . فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة جاء شويل يستنجز خالدا عدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرط خالد عليهم أن يسلموا كرامة فشق ذلك على القوم وعلمت كرامة فقالت لهم لا يشق عليكم ذلك فإنه رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم فأسلمونى فإنى سأفتدى منه فلما حصلت عند الرجل قالت : ما أربك من عجوز كما ترى ؟ فأدنى . قال لا إلا على حكمى قالت فلك حكمك . قال فلست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم

فأظهرت أنها تستكثر ذلك لتخدعه ثم أتته بالألف ورجعت إلى قومها . وتسامع الناس بما كان من شويل فعنفوه على أن لم يطالب أكثر من ذلك . فقال : ماكنت أرى أن عدداً يزيد على ألف ! وحاصم القوم إلى خالد فقال : كانت نيتى نهاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف . فقال خالد : أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ منك بما يظهر وندعك ونيتك .

ولما صالح خالد أهل الحيرة . جاء إليه صلوبا بن نسطونا وهو صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف دينار ، وكتب لهم خالد كتاباً نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه : إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة(١) القوى على قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم » .

وكان الدهاقين يتربصون بخالد وينظرون مايصنع بأهل الحيرة فلما استقام مابينه وبين الحيريين ، أتته دهاقين البلاد فصالحوه على مابين الفلاليج إلى هرمز جرد على ألفى ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بهيش وصلوبا بن نسطونا . إن لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط

---

(١) كذا فى ابن جرير وفى معجم الأدباء لياقوت « مادة بانقيا » كتاب بغير هذه الصورة

على ألفي ألف تقبل في كل سنه عن كل ذي يد سوى ما على بانقيا وباروسما وإنكم قد رضيتموني والمسلمين وإنا قد رضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم ».

بعد ذلك بعث خالد مسالحه وعليها ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والمثنى بن حارثة وضرار بن مقرن والقعقاع بن عمرو وبُسْر بن أبي رُهم وعتيبة ابن النهاس. وأمرهم بالغارة والإلحاح في الوجوه التي وجهوا إليها وكان قد أغزاهم.

ولما استقر خالد على أحد جانبي السواد . دعا برَجُل حيرى وآخر نبطى وكتب معهما كتابين : إحداهما إلى ملك الفرس مع مرّة الحيرى وقال: اذهب إليهم فلعل الله يُمر عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا. وأعطى النبطى حزقيل كتاباً وقال : اللهم ازهق نفوسهم وكان إلى المرازبة — فأما كتاب الملك فهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد : فالحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . وصورة الثانى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس: أما بعد : فأسلموا تسلموا . وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية . وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر ».

وكان أهل فارس فى ذلك الحين عقب موت أردشير مختلفين فى الملك مجتمعين على قتال خالد متساندين ، وكانوا بذلك سنة والمسلمون يمخرون مادون

دجلة وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر ، وليست لأحد منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه وسائر أهل السواد جلاء ومتحصنون ومحاربون . وكان الفرس ليس منهم سوى المدافعة عن بُهُرَسِير وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى واقعة في الجانب الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها . فلما وردت كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من اختلافهم فوقع اختيارهم على رجل من غير بيت الملك يولونه إلى أن يوجد من آل كسرى من يصلح للملك . وكان الذي ولوه هو الفرُّخْزَاذ خُسْرَوْ ولم يستقر له الملك فولوا يَزْدَجِرْد بن شَهْرِيار وكان في ملكه من الأحداث ما سيأتي .

لما استقام لخالد الأمر في الناحية التي أثخن فيها أجمع السير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسله أبو بكر ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد ؛ فاستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو وسار بجنده حتى وافى الأنبار فوجد القوم قد امتنعوا بحصونهم وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون . فأمر جنوده أن يرشقوهم بالنبل فأصابوا في عدوهم . وكان خالد رجلا لا يصبر عن الحرب إذا رآها ، فقال لمن معه : إني أرى قوماً لا علم لهم بالحرب فارشقوا في عيونهم ولا تحرّوا سواها . فأصيب في ذلك اليوم ألف عين .

ولم يكتف خالد بما صنع بل عمد إلى أضيق مكان في الخندق وعمد إلى الضعاف من الإبل في جيشه فنحرها وأفعم الخندق بجثثها واقتحم المسلمون الخندق وجسرهم عليه جثث الإبل وصاروا مع أعدائهم داخل الخندق فالتجأ المشركون إلى الحصن .

وكان رئيس القوم رجل يقال له شيرزاذ صاحب ساباط وكان أعقل أعجمي يومئذ وأسوده وأقنعه في الناس العرب والعجم . فراسل خالدا في الصلح على ما أراد فقبل خالد منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جريدة من الخيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء ، ووفى له خالد بما صالح عليه .

ولما انتهى أمر الصلح مع القوم صالح من حولهم واستخلف الزبرقان ابن بدر وسار إلى عين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس والعرب وعقبة بن أبى عقة فى جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم. فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً قال: صدقت لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم — وقد كان العجم ينظرون إلى العرب بعين الاحتقار والمهانة — فقال من مع مهران من العجم: كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ فقال: دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم. إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفل حدكم فاتقيته بهم. فإن كانت لهم على خالد فهى لكم، وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون. فحمدوا له رأيه. فلزم مهران العين ونزل عقة لخالد على الطريق وعلى ميمنته بجير أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير وعلى ميسرته الهذيل بن عمران وبين عقة ومهران غدوة أو روحة ومهران فى الحصن فى جند فارس وعقة كالخفير له بجنده. فقدم خالد فى تعبيته، وقال لمُجَنِّبَتَيْه: اكفونا ما معه فإنى حامل ووكل بنفسه حوامى ثم حمل وعقة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيراً فانهزم جنده قبل القتال، وأمعن المسلمون فيهم الأسر، وأمعن كثير من المشركين فى الهرب.

لم يكد الخبر يصل إلى مهران حتى وهنت قوته فترك الحصن ونجا فيمن معه من الفرس. وجاء فلال جيش عقة إلى الحصن فاقتحموه واعتصموا به وكأنما كان اعتصامهم به إنما هو اعتقال وسجن ضرب عليهم حتى يتسلمهم خالد فإنه لما قدم إلى الحصن ومعه عقة وعمرو بن الصعق فى الأسر نزل عليهم وكان القوم يظنون أن خالدا كمغيرة العرب لا يلبث أن يعود أدراجه إذا أصاب مغنما فلما رأوه غير تاركهم يئسوا من النجاة ونزلوا على حكمه. فأمر بعقة وعمرو بن الصعق فضربت أعناقهما وأجزر السيف بقية من كان معهما وغنم

ماحواه حصنهم وسبي السبي . وقد وجد فى بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : ماأنتم ؟ قالوا : رُهُن . فقسمهم فى أهل البلاء منهم أبو زياد مولى ثقيف . ومنهم نصير أبو موسى بن نصير . ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيرين . وحمران مولى عثمان بن عفان وغيرهم ..

وكان خالد أرسل الوليد بن عقبة بالأخماس إلى أبي بكر . فوجه به أبو بكر إلى عياض بن غنم فى جند مددا له .

وبينما كان خالد يفتح الفتوح ويحرز النصر كان عياض لم يعمل شيئاً ولم يدرك غرضاً مما وجه إليه . فقد كان أبو بكر وجهه ليفتح شمال العراق ويكون اجتماعه مع خالد بالحيرة وأيهما سبق إليها كان أميراً على صاحبه ، فأتم خالد مانيط به وشرع يعمل فى عمل عياض . ولما قدم الوليد على عياض بدومة الجندل وجده قد حاصر القوم وحاصروه وأخذوا عليه الطريق . فقال له : الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ، إبعث إلى خالد فاستمده . ففعل ، وقدم رسول عياض على خالد مستغيثاً فى أعقاب واقعة العين . فكتب إليه : «من خالد إلى عياض — إياك أريد .

لَبِّثْ قليلا تأتك الحلائب
يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب يتبعها كتائب »

خبر دومة الجندل

خلف خالد على عين التمر — عويم بن الكاهل الأسلمى . وخرج فى تعبيته التى دخل بها العين ويمم دومة الجندل ، فلما علم أهل دومة بمسير خالد إليهم استنفروا أحلافهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم . ومن قبل

وافاهم وديعة فى كلب وبهراء ومسانده ابن (وَبرة) بن رومانس . وأتاهم ابن الحِدْرجان فى الضجاعم وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ فأشجوا عياضاً وَشجُوا به .

وقد كان للقوم رئيسان : أحدهما أُكيدر بن عبد الملك والجودى بن ربيعة، فقال أكيدر : أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحَدٌ فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ؛ فأطيعونى وصالحوا القوم . فأبوا عليه . فقال : لن أمالئكم على حرب خالد . وتركهم وذهب لِطِيَّته .

قد كان فى رأى أكيدر كل الحزم وفى مخالفته الخطل والطيش والغرور .

لايذهب من ذاكرتنا أن أكيدرا هذا كان قد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية ليلة أن أرسل خالداً إليه فجاء به فى رجال من قومه إذ كانوا يصيدون البقر فى ليلة قمراء وقتل فى تلك الليلة أخا أكيدر . فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيمن غدر وخاس بالعقد ، ولما علم خالد بخروج أكيدر أرسل إليه من عارضه فى الطريق وأتى به فضرب عنقه جزاء غدره .

مضى خالد حتى نزل على دومة وعلى المشركين يومئذ الجودى بن ربيعة ووديعة الكلبي وابن رومانس وابن الأيهم وابن الحدْرجان ، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ، وكان مدده من متنصرة العرب محيطاً بالحصن لأنه لم يحملهم . وخرج الجودى ووديعة لخالد وابن الأيهم وابن الحدرجان لعياض ، فأظفر الله المسلمين بالفريقين وأثخن كل فيمن يليه من المشركين ، وأخذ خالد الجودى أسيراً ، واخذ عيينه ابن حصن وديعة أسيراً كذلك . وطلب المنهزمة الحصن للالتجاء إليه فلم يحتملهم وأغلق أهل الحصن أبوابه وبقى المغيثون بالعراء بادية مقاتلهم . فأجار عاصم بن عمرو ومن معه من تميم حلفاءهم من كلب فنجوا . وقتل خالد من كان خارج الحصن واقتلع بابه وقتل من كان فيه.

أقام خالد بدومة فظن الأعاجم به الظنون وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً

لعقة فخرج زَرْمِهْر من بغداد ومعه رُوزبه يريدان الأنبار واتعدا حُصيدا والخنافس . فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع خليفة خالد على الحيرة بما علمه من أمر العجم والعرب . فبعث القعقاع أعْبَد بن فدكى وأمره بالحُصَيد . وبعث عروة بن الجعد وأمره بالخنافس . وقال لهما : إن رأيتما مقدما فأقدما . فخرجا فحالا بين زرمهر وروزبه وبين مقصديهما، فلما قدم خالد الحيرة علم بالأمر فعجل القعقاع وأبا ليلى بن فدكى إلى روزبه وزمهر فسبقاه إلى عين التمر ، وقدم على خالد كتاب من امرىء القيس الكلبي يعلمه أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمُصَيَّخ ونزل ربيعة بن بجير بالثِّنى وبالبشر فى عسكر غضبا لعقة يريدان روزبه وزمهر . فخرج خالد واستخلف على الحيرة عياض بن غنم وأخذ طريق القعقاع وأبي ليلى حتى قدم عليهما بالعين فبعث القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الخنافس . كان من همه أن يزجيا القوم ليجتمعوا حتى ينازلهم بجمع كثيف هم ومن هب لمعاونتهم من العرب . ولكن القوم لم يجتمعوا ولعلهم فطنوا لنية خالد فأرادوا أن لا ينيلوه مراده .

حصيد

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبه لا يتحركان قصد الحصيد وعلى من به من العجم والعرب روزبة . فاستغاث بزرمهر فخف إليه بنفسه وخلف على جيشه المهبوذان ، والتقى المسلمون بأعدائهم فقتل من العجم مقتلة عظيمة وقتل زرمهر وروزبه وغنم المسلمون غنائم كثيرة وانحاز فلال جيش حصيد إلى الخنافس .

الخنافس

ولما قصد أبو ليلى بن فدكى الخنافس — وبها المهبوذان وجنده ومن ضوى إليهم من فل جيش الحصيد وعلم به المهبوذان ، انهزموا دون قتال وانضموا إلى المُصَيَّخ وبه الهذيل بن عمران ومن معه (مُصَيَّخ بنى البرشاء) . ولما انتهى إلى خالد

ما كان بالحصيد والخنافس كتب إلى قواده وواعد القعقاع، وأبا ليلى ، وأعبد ، وعروة ليلةً وساعةً يجتمعون فيها إلى المضيح وهى بين حوران والقلت . فتوافوا إليها فى موعدهم فاتفقوا على أمرهم وبيتوا الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فأتوا عليهم وامتلأ الفضاء برمم القتلى فما شبهوا إلا بغنم مصرعة ولم ينج سوى الهذيل فى نفر قليل . وقد أصاب جرير بن عبد الله يوم المضيح عبد العزى ابن أبى رُهم ولبيد بن جرير ، وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما فوداهما أبو بكر ، وكان عمر رضى الله عنه يعتد على خالد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة . وقد سمع عبد العزى فى تلك الليلة يقول :

أقول إذ طرق الصباح بغارة   سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربى لا إلهَ غيره   رب البلاد ورب من يتوردِ

فكان أبو بكر يقول : كذلك يلقى مَن ساكن أهل الحرب فى دارهم

وقد كان للرجلين متسع من الأرض يأمنان فيه وليس بهما من ضرورة تضطرهما إلى المقام فى مستنقع الموت وفى صف أعداء دينهم والمشاقين لأهل الإسلام . ومن ظن أنه يصنع صنيعهما ولا يكون موطنا نفسه على أن يكون طعاماً للسيوف فقد ظن عجزاً ، وليس لعمر حق فى الاعتداد بهما على خالد .

الثّنِىْ والزميل

لما أصاب خالد أهل المضيح بما أصابهم به تقدم إلى القعقاع وأبى ليلى أن يرتحلا أمامه وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على من بالثنى من ثلاثة أوجه، كما فعل بأهل المضيح ، ففعلوا وأعملوا السيوف فى أهله بياتا وهم نائمون فلم يفلت من الجيش مخبر ، ثم عطف بمثلها على من بالزميل وهو البشر وقد سبق الخبر إليهم ثم عطف من بالبشر إلى الرضاب وكان هناك هلال بن عقة فانقشع عنها . ولم يلق خالد كيداً .

الفِراض

وهى تخوم العراق والشام والجزيرة . قصدها خالد بعد الرضاب ليكون على بينة من أنه لم يترك وراء جيشه عورة ينالهم العدو منها ، وقد أفطر فى تلك السَّفْرَة فى رمضان لما كان من تتابع الغزوات واتصالها والأيام والوقائع قد نظمن فيها نظماً وقد أكثر الرُّجَّاز فى هذه الغزوات .

فلما اجتمعت المسلمون بالفِراض حميت الروم واغتاظت واستجاشوا من يليهم من مسالح الفرس يستعينون بهم ، واستمدوا تغلب وإيادا والنمر فأمدوهم وناهدوا خالدا حتى صار الفرات بينهم وبين المسلمين، وأجال الرومان الرأى فقال بعضهم لبعض : هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم والله لينصرن ولنخذلن . ثم لم ينتفعوا بذلك وعبروا أسفل من خالد وامتازوا ليعلموا من يأتى بحسن ومن يأتى بقبيح وناجزوا خالدا الحرب واقتتلوا قتالا شديداً طويلا ثم انهزمت جموع الروم ومن معهم من العرب ، فقال خالد : ألحوا عليهم ولا تَرَفَّهُوا عنهم وقد ألحش فيهم القتل . وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد بالعراق .

***

يحق لنا أن ننظر نظرة متأمل إلى ماصنعه خالد فى سنته . فإنا نجده قد فعل فى هذه المدة القصيرة مالم يفعله قائد من القواد فى مثل عدة جنده مع كثرة عديد أعدائه ومحاربيه وقوة عُدَدهم . فقد اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من سمالى الأبلة إلى الفرات وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقى الفرات وأثخن فى جيوش الفرس والعرب والروم فى مواقع كثيرة لم تهزم له فيها راية ولم ينثن سيفه عن ضريبته وكان الرعب يسبقه إلى كل قوم ويسير أمامه فى كل موقعة أجمع عليها حتى أن اسمه كان بمثابة مدد للجيوش . وكان فى كل أعماله فاتحاً موطداً لأركان الملك والاستعمار ، لامغيراً ناهباً . فلم تدن له بلد بالطاعة إلا خلف عليها حامية لحفظ

نظامها ، وأميرا لإقامة العدل فيها ، وآخر يجبي خراجها من الذمة على مقتضى كتاب صلحهم .

ومن أحسن ما يؤثر لخالد من المحاسن الغراء أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء ولا يمسهم بأذى . بل كان يشملهم برأفته ويعمهم برعايته ويمنعهم ممن يريدهم بسوء لاعتقاده أنهم مادة الأمة وبهم قوام الدولة . ولهذا صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس لما كانوا يجدونه فى عظمائهم من الغلظة عليهم والإعنات لهم ويستعبدونهم ويذلونهم .

وكما كان خالد رؤوفا بهؤلاء كان شديد الأخذ للمقاتلة وأهل الحرب لا يصبر على الميدان إذا رآه ولا يدع الجنود ينظر بعضهم إلى بعض دون أن يشنها غارة شعواء — بل سُرعان ما يخرج طالبا كبش الكتيبة فى بحبوحة الميدان ويدعوه إلى المبارزة ثم ينقض عليه انقضاض البازى على العصفور وفى ذلك بواره فكان عمله هذا يشرد من خلفه من عدوه ويوقع الرعب فى قلوبهم ويكون سبباً للفشل ثم الهزيمة .

قال الأستاذ الخضرى : وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه . ومما يبين عظيم عمله ما قاله الهيثم البكائى قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى كان يبلغهم ويقولون : ما شاء معاوية ، نحن أصحاب ذات السلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

وإنى ما عجبت من شىء لا يبلغ ذلك عجبى من أمر أولئك القوم الذين كانوا يتهافتون على حرب خالد تهافت الفراش على النار ، قد يكون وجه العذر واضحاً فى أهل ذات السلاسل وما بعدها بواقعتين أو ثلاث ، ولكن ما عذر أولئك الذين كانوا يعرفون أثره فى غيرهم ومِيسمه فى آناف القبائل ثم لا يكون

منهم إلا أن يهجموا عليه هجوم الحمار على الأسد ؟ إن البهائم تعرف ريح الليث بما قدرت عليه ولكن هؤلاء القوم جهلوا ما عرفته البهائم فلم يكتفوا من الليث بريحه دون أن يذوقوه .

أينكر ريح الليث حتى يذوقه   وقد عرفت ريح الليوث البهائم

كان لخالد فى العراق من الوقائع : (١) ذات السلاسل . (٢) والمذار (٣) والولجة . (٤) وأليس وامغشيا . (٥) والمقر وفم فرات بادقلى . (٦) وقصور الحيرة . (٧) وذات العيون بالأنبار وكلواذى . (٨) وعين التمر . (٩) ودومة الجندل وحُصيد (١٠ ، ١١) والخنافس . (١٢) ومضيح بنى البرشاء . (١٣ ، ١٤) الثنىُّ والزميل . (١٥) الفراض وقد انتظم جميعها فى سمط لأقل من سنة من خروجه للقتال . أفما كان فى الناس رجل رشيد يحثهم على المساومة وبذل ما يريده يحقن على الناس هذا الدم المهار ؟ إن الابتعاد عن طريق خالد نهاية الحزم ولا يمكن أن يهجس فى خاطرى أن الذين اتقوه بالفرار من الفرس كانوا جبناء أو ضعفاء لأن الإقدام الذى لا تقع منه القاء بالنفس إلى التهلكة .

على أن القوم الذين كانوا يجمعون له ويرصدونه أو ينهدون إليه كان يكون لهم شبه عذر لو أن الذى يقع فى يده محاربا يجد منفذاً إلى النجاة أو طريقاً إلى السلامة فيكون القوم قد أقدموا على طمع فى الفوز أو أمل فى النجاة ، إن خانهم الظفر فلم يخنهم عفو المنتصر . ولكن الرجل ماكان يقبل لمخذول عثرة بعد ما أشرع الرمح وفوّق النبل ، بل كان كما قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : إن فى سيف خالد رهقا . ولو أننى كنت القائل لقلت : إن فى سيفه قرماً إلى لحوم مخالفيه وزهداً فى موافقيه .

***

نعود إلى خالد فى الفراض فنقول: إنه أقام بعد الموقعة عشرة أيام ثم أذن

فى الناس بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وأمر عاصم بن عمر أن يسير بالناس وأمر شَجَرَة بن الأعز أن يسوقهم وأظهر أنه فى الساقة. ثم خالف من معه إلى مكة حاجاً يعتسف البلاد حتى أتى مكة على السَّمتِ فى عدة من أصحابه فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل خريت ولا رئبال . وقد سلك بأصحابه طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب ولا أشد صعوبة منه . فلما قضى نسكه خف مسرعا إلى جنده . فما توافى الجند بالحيرة إلا وقد طلع عليهم فى أصحابه مع ساقة الجند فقدما معاً ولا يعلم الجند بحج خالد ومن معه إلا بعد أن رأوهم محلقين رؤوسهم إلا ما كان ممن أفضى إليهم بذلك من أهل الساقة .

وقد انتهى إلى أبى بكر ما كان من خالد من ترك الجند ومخالفتهم إلى الحج فأكبر ذلك واعتده إعجاباً منه بنفسه وبما أتيح له من الظفر واغتراراً بمن يجاوره من عدوه واستضعافاً لشأنهم . وصادف فى ذلك الحين أن أبا بكر احتاج إلى أن يرمى الروم بمثل ما رمى فارس ، وقد استمده أمراؤه فأحب أن يرمى غرضين بحجر ، فأمر خالدا بالإنصراف إلى الشام مدداً لمن هناك من الأمراء بنصف الجند وأن يخلف المثنى بن حارثة على من معه من الجنود بالعراق فأرسل إلى خالد كتاباً يعاتبه فيه على ما كان منه ويعظه ويأمره بالإنصراف إلى الشام وكان فى هذا الكتاب

سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شُجُوا وأُشجَوا . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فَلْيَهْنِئْكَ أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء

وكان انصراف خالد فى صفر سنة ١٣ هـ

ابتداء حرب الروم بالشام

كان ابتداء حرب الروم متأخراً عن حرب الفرس . وأول ما كان من ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان عقد لخالد بن سعيد على جيش حين بعث البعوث إلى أهل الردة . وقد جهد عمر بن الخطاب بأبي بكر أن يصرف خالداً عن العمل له . وقال له : إنه لضعيف التروئة مخذول فلا تستنصر به . فأطاعه أبو بكر فى بعض أمره وخالفه فى بعض ، ذلك أنه أمر خالد بن سعيد أن ينزل بتيماء وأن يدعو من حوله للانضمام إليه ، وأن لا يقبل مرتداً ولا يقاتل إلا من قاتله . وأن لا يبرح مكانه حتى يأتيه أمره

وكان سبب حنق عمر على خالد بن سعيدأن خالداً كان عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن فقدم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر والقوم فى مصابرة أهل الردة . وكان لابساً جبة ديباج ، فقال عمر لمن يليه : مزقوا عليه جبته . أيلبس الحرير وهو فى رجالنا فى السلم مهجور ؟ فوجدها خالد فى نفسه ولقى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان فقال : يابنى عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم . وتربص ببيعة أبى بكر مدة يقول أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلنى حتى قبضه الله . وكان عمر يضطغن ذلك عليه وأبو بكر ولم يحفلها ولم يحتمل عليه

فصل خالد بن سعيد وجنده وسار حتى نزل على تيماء . فاجتمع إليه جند كثير وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فرأوا أن يقذفوا جلموداً بجلمود ويفلوا ذلك الجيش قبل أن يعظم بجموع من عرب الضاحية والحديد بالحديد يفلح

علم خالد بن سعيد بماصنعت الروم فكتب إلى أبى بكر بهذا الشأن وبنزول من استفزت الروم ونفر اليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان . فكتب إليه أبو بكر أن أقدم ولاتحجم واستنصر الله . فنهد إليهم خالد

فى جموعه فلما داناهم تفرقوا وأعروا منزله فنزله ودخل عامة من تجمع له فى الإسلام . وكتب إلى أبى بكر بما كان . فكتب إليه : أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك ، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء ومن لحق به حتى نزلوا فيما بين آيل وزيزاء والقسطل . فسيرت الروم إليه عسكراً بقيادة بطريق منهم يدعى باهان فهزمه خالد وفض جموعه . وكأن خالداً رأى أن توالى نكايته فى الروم يُنبّهُم إلى شأنه والجد فى أمره فكتب إلى أبى بكر يستمده حتى لا يفاجئه العدو بجيش لا قبل له به .

وافق كتاب خالد بن سعيد إلى أبى بكر أن قدم إلى المدينة المستنفرون من اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم على أبى بكر أيضاً عكرمة قافلا وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو فكتب أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل فكلهم استبدل فسمى جيش البدال وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص يخيره بين عمله الذى هو فيه أو يوجهه إلى عمل آخر يراه خيراً لدنياه وآخرته . فكتب إليه عمرو : إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاء من ناحية من النواحى . وكتب إلى الوليد بن عقبة فأجابه بإيثاره الجهاد . فأوعب أبو بكر إلى خالد بن سعيد جيشاً فيه الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبى جهل وذو الكلاع وغيرهم فوافوا خالد بن سعيد . وعند ذلك اهتاج أبو بكر إلى الشام واعتزم على الجد فى أمر الروم وأرسل الأمراء والجنود لافتتاح الشام .

فى أواخر سنة ١٢ هـ اختار أبو بكر أربعة من خيرة قواد المسلمين لهم جد وهمة وغناء وهم (١) عمرو بن العاص (٢) ويزيد بن أبى سفيان (٣) وأبو عبيدة ابن الجراح وهم قرشيون (٤) وشرحبيل بن حسنة وهو قحطانى .

وقد تخير لكل واحد منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير فى الطريق التى

سماها له وعين لكل واحد منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو بن العاص فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن وكان عدد الجنود التي سيرت إلى الشام سبعاً وعشرين ألفاً على ما رواه الطبري .

رأى خالد بن سعيد أنه قد عز بمن أمده بهم أبو بكر، وأن جنود المسلمين وقوادهم قد فصلوا لفتح الشام. فأراد أن يدرك الفوز قبل مقدمهم ويحرز الفخار دونهم فبادر الأمراء بقتال الروم ، واستطرد له باهان وقصد فيمن معه قصد دمشق واقتحم خالد فى الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر بين الواقوصة ودمشق فانطوت عليه مسالح باهان وأخذوا عليه الطريق وهو لا يشعر وزحف له باهان وأصاب سعيد بن خالد فقتله ومن معه . وعلم خالد بالخبر فخرج هارباً فى جريدة وأفلت من أصحابه من أفلت على ظهور الخيل والإبل وقد أجهضوا عن عسكرهم، ولم تنته بخالد وأصحابه الهزيمة عن ذى المروة وأقام عكرمة ردءاً للناس يرد عنهم باهان وجنوده . وقد علم أبو بكر بما نكب به خالد بن سعيد فكتب إليه وهو بذى المروة أن أقم مكانك فلعمرى أنك مقدام محجام نجاء من الغمرات لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه .

ولما علم الروم بقدوم أمراء جيوش المسلمين كاتبوا هرقل فقدم حمص وأراد أن يشغل قواد المسلمين عن بعضهم بما عنده من الجنود الكثيرة . وأرسل إلى كل قائد أمثال ما عنده ، فهابهم المسلمون ورأوا التريث حزماً وكاتبوا أبا بكر وعمرو بن العاص فيما نزل بهم . فأرسل إليهم عمرو أن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحدٍ ممن استقبلنا وأعدلنا . فاتّعدوا اليرموك ليجتمعوا به وهو واد يصب فى الأردن وقد طلع عليهم كتاب أبي بكر أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى

مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه .

لما علم هرقل باجتماع المسلمين باليرموك كتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع التعطن واسع المضرب ضيق المهرب . وبين لكل قائد مكانه من الجيش : من يكون على المقدمة والميمنة والميسرة ومن يكون قائداً عاماً . فصدعوا بأمره ونزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقا لهم وهو لهب لا يدرك غوره — وقد أراد قواد الرومان أن يستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين حين يرون قلتهم وكثرة جند الروم وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها . ولما نزل الروم منزلهم هذا انتقل المسلمون ونزلوا بحذائهم على طريقهم وليس لهم طريق غيره . فقال عمرو بن العاص : أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير . فأقام المسلمون على حالهم هذا صفرا وشهري ربيع سنة ١٣ لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم .

كان المسلمون في مبدأ اجتماعهم كتبوا إلى أبي بكر واستمدوه فقال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . وكتب إلى خالد الكتاب الذي قدمنا فوافاه إلى الحيرة منصرفه من حجه وأمره أن يسير إلى الشام بشطر الناس وأن يخلف على الشطر الباقي المثنى بن حارثة . وقال لا تأخذن نجدا إلا تركت له نجدا فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم ائت على عملك .

ولما أراد خالد أن يفصل بنصف الناس استأثر بأصحاب رسول الله فأبى المثنى إلا أن يكون الأمر على ما كتب أبو بكر فلم يزل به خالد حتى أرضاه . وكان خالد يعتقد أن صرفه عن العراق وفارس إلى الشام إنما كان سعى عمر حسداً له أن يكون فاتح العراق وفارس . وقد كان إرسال خالد إلى الشام توفيقا من الله تعالى لأبي بكر لأنه كان صاحب اليوم الذي حصلت فيه الصدمة الأولى وتتابعت الفتوح بعده .

سار خالد بمن معه من الجنود من الحيرة حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم ثم أغار على جموع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر. ثم أراد السير مُفوِّزاً من قراقر إلى سُوَى وهو ماء لبهراء من ناحيه السماوة. وقراقر ماء لبنى كلب وبينهما خمسة أيام للراكب المفرد المُخِف؛ وإنما أراد خالد هذا الطريق لأنه إذا مر فى العمران ودار حول المفازة وجد جموع الروم فى طريقه؛ وذلك يدعوه إلى منازلتهم وفى ذلك ما يؤخره عن الموعد الذى يريده وهو إغاثة المسلمين باليرموك فالتمس دليلا يسلك به المفازة فدل على رافع بن عميرة الطائى، فأراده خالد على الانطلاق بالناس فقال رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغررا. إنها لخمس ليال جياد ولا يصاب فيها ماء مع مضلتها. فقال خالد: ويحك إنه والله إنْ لىَ بُدٌّ من ذلك انه قد أتتنى من الأمير عزمة بذلك فمر بأمرك. قال: استكثروا من الماء، من استطاع منكم أن يصر إذن ناقته على ماء فليفعل فإنها المهالك إلا ما دفع الله — أبغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مَسَان. فأتاه خالد بهن فظمَّأهُن، حتى إذا أجهدهن عطشا أوردهن فشربن حتى إذا امتلأن عمد إليهن فكممهن لئلا يجتررن ثم أخلى أدبارهن ثم قال لخالد سر فسار بالناس مغذا بالخيول والأثقال فكلما نزل منزلا اقتط أربعا من تلك الشوارف فأخذ مافى أكراشها فخلطه بما كان من لبن ثم سقى الخيل وسقى الناس بما حملوا معهم من الماء. فلما كان آخر يوم خشى خالد على أصحابه فقال لرافع: ما عندك؟ قال أدركت الرى إن شاء الله ليطمئنّ الناس فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ فوجدوا جذمها بعد جهد فأشار عليهم بأن يحفروا فى أصلها فحفروا فخرجت لهم أوشال فشربوا وسقوا ظهرهم واتصلت بعد ذلك لخالد المنازل وقد قال بعض القوم فى ذلك:

لله عينا رافع أنى اهتدى فوّز من قُراقرٍ إلى سُوى
خمسا إذا ماسارها الجيش بكى ما سارها قبلك أنسى يُرى

ولم يكد خالد يصل إلى سُوى حتى صبح بَهراء بالقتال، وهم لا يظنون أن أحداً يأتيهم من هذه المفازة المهلكة، فدهمهم وبعضهم فى صبوحه. ثم أتى أرك فصالحوه، ثم أتى تدمُر فتحصن أهلها ثم صالحوه، ثم أتى القريتين على مرحلتين من تدمر فقاتلهم فظفر بهم وغنم، وأتى قُصَم فصالحه بنو شجعة من قضاعة. وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشراً راية سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب، ثم أتى مرج راهط فصبح غسان فى يوم فصحهم فقتل وسبى، ثم سار إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم وصالحهم فهى أول مدينة فتحت صلحاً بالشام على يد خالد وجند العراق. ثم بعث بالخمس إلى أبى بكر. ثم سار فأطل على المسلمين فى ربيع الآخر وطلع باهان على الروم ومعه القسوس والشمامسة فكان كل حزب مستبشراً فرحاً بما جاءه من المدد.

واقعة اليرموك

كان المسلمون فى قلة من العدد بالنسبة إلى عدد الروم، فالمقلّ من المؤرخين يجعلهم أربعين ألفاً، والمكثر يجعلهم ستة وأربعين ألفاً. وأما الروم فعددهم أربعون ومائتا ألف على رواية الطبرى وأقل ما قيل فيهم ما قاله ابن الأثير فى إحدى روايتيه أنهم كانوا مائة ألف. وكان قتال المسلمين على تساند، كل أمير على جيشه وقد مكث القسيسون شهراً يحرضون على القتال ويرغبون الروم فيه وينعون لهم النصرانية حتى أحمسوهم. فخرج الروم فى تعبية لم ير مثلها للقتال الذى ليس بعده قتال. فلما رأى خالد هذا الأمر مع تفرق المسلمين على عدة أمراء وأن القوة مجزأة بتعدد الأمراء؛ خشى أن يدخل على جيش الإسلام الوَهن والضعف، لأنهم إنما يقاتلون عدواً كثير العدد قوى العدة موحد الرأى والكلمة، ولابد لنيل الظفر من حزامة الرأى واجتماع الكلمة. فقام خالد فى الأمراء، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم وارْضُوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له

مابعده . ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون ، فإن ذلك لايحل ولا ينبغى . وأن مَنْ ورَاءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فى مالم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى من واليكم ومحبته . قالوا : هات فما الرأى ؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لما جمعكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرّقتْ بينكم ، فاللهَ الله ، فقد أُفرد كلُّ رجل منكم ببلد لاينقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولايزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده . إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نرُدهم ، وإن هزمونا لم نُفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يَتأمر كلكم . ودعونى أليكمُ اليوم فأمّروه . وهم يرونها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه .

صار خالد أمير المسلمين فى ذلك اليوم . وقد قدمنا أن الروم خرجوا فى تعبية لم ير الراءون أحسن منها ولا أهيب فى العين ، فخرج إليهم خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبلها : فخرج فى ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين . والكردوس هو الجماعة من العسكر ، وظاهر أن كردوس المسلمين فى هذه الوقعة لايزيد على ألف مقاتل إلا قليلا . وقد قسم الجيش فجعل على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وجعل على كراديس الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة . وأقام على كل كردوس قائداً من شجعانهم وكان القاضىَ فى ذلك الجيش أبو هريرة . والقاصّ الذى يعظ الناس ويحرضهم على القتال أبو سفيان ابن حرب . فكان يقف على كل كردوس ويقول : « الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك » . وكان المسلمون يقرأون على الجنود وهم فى الصفوف سورة القتال .

وفيما المسلمون فى المصاف قبل أن ينشب القتال خرج قائد القلب من جيش الروم طالبا خالد بن الوليد ، فجاء إليه وكلمه فى بعض الشأن .

ذلك أنه لا بد فى كل زمان ومكان من أناس يتزيدون فى الأخبار ويهرفون بما لا يعرفون ، ويؤولون الكلام على مايخطر على قلوبهم بدون تدبر ولا تحقيق . ولعل بعض القوم أشاعوا فى بلاد الشام أن خالدا فى يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه أعطاه له رسول الله . وأخذوا ذلك بما اشتهر به بين المسلمين أنه سيف الله . ويظهر أن ذلك القائد (ويسميه الطبرى جَرجَة بن توذر ، ولعله جورج بن ثيودور) كان يعرف العربية لأنه كلم خالدا بدون ترجمان .

وقف ذلك القائد فقال : يا خالد لا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخدعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا . ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا كذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : « أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنامن أشد المسلمين على المشركين . قال : صدقتنى : ثم أعاد عليه يسأله عن الإسلام وما يأمر به ، وما للداخل فيه من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وخالد يجيبه عن كل ما سأل عنه ، فمال مع خالد إلى صفوف المسلمين ، ودخل خيمة خالد فاغتسل وتشهد وصلى ركعتين ، وخرج يقاتل مع المسلمين إلى أن قتل عصر ذلك اليوم ما صلى سوى الركعتين .

نعود إلى شأن القتال فنقول : لما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم أنها من قائدهم حملة فحملوا فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى المحامية وعليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة : قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر

اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم . فقاتلوا بين يدى فسطاط خالد حتى ثبتوا جراحة ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل . وقد اشتد القتال بين الفريقين النهار كله إلى جنوح الشمس للغروب ، فنهد خالد بالقلب حتى تصافح القوم بالسيوف وصار خالد بمن معه بين خيل الروم ورَجْلهم ، وكان المكان واسع المطرد ضيق المهرب . وتضايقت خيل الروم ، فلما وجدت مذهبا ذهبت تشتد فى الصحراء ، وأفرج لها المسلمون وترك فرسانهم الرجالة فى مصافهم وتفرقوا فى كل مذهب لا يلوون على شيء . وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجْل ففضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة فهووا فيها . وقد زاد خسارتهم أنه كان فيهم كثير من المقيدين وآخرون مسلسلين للموت ، فكان الجماعة من المسلسلين أو المقيدين إذا هوى واحد منهم فى الواقوصة هوى بقيتهم بِهُوِيِّه ، فكان ذلك نكالا لهم ووبالا عليهم إذ تهافت فى الواقوصة أكثر القتلى .

وقد ذكر الطبرى أنه قد هوى فيها من الروم عشرون ومائة ألف ، وهؤلاء سوى من قتلوا بالمعركة . وقد استمر القتال طول النهار ومعظم الليل . وأصبح خالد وهو فى رواق رئيس جند الروم . وإنى لأشك فى عددهم ، ولكن لا شك فى نصر المسلمين .

وقد شق على كثير من عظماء جنود الروم وشجعانهم وقوادهم أن يروا هزيمة جيشهم بأعينهم ، ففضلوا الموت على الحياة : فتزملوا وجلسوا ينتظرون الموت حتى لا يروا اليوم البئيس فقتلوا على حالهم تلك — وهذه هى العادة لم تزل إلى اليوم فى بعض القبائل العربية : إذا غلب الجيش على أمره وحقت عليه الهزيمة عمد الرؤساء إلى التزمل والجلوس حتى يأتى من يقتلهم ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة وتجرع غصص الذل . وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف فيهم كثير من أجلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد اليوم منهم ألف ؛ وفى ذلك اليوم سمع خالد رجلا يقول :

ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان ، ولوددت أن الأشقر بریء مما به من الوجى وقد أضعف الروم جيوشهم .

وفى أول هذا اليوم ورد كتاب عمر بن الخطاب بوفاة أبى بكر رضى الله عنه وبتولى عمر الخلافة ، وفيه عزل خالد عن إمارة جيشه وتولية أبى عبيدة بن الجراح . فلما جاء الرسول سئل عما وراءه ، فأخبر بالمدد وبسلامة الأمة ، وأعطى الكتاب لخالد وأسر إليه بما وراءه . فأحمد خالد رأيه ولم يشأ أن يظهر الأمر للناس وهم على حالهم تلك ؛ حتى إذا ما انتهت الوقعة سلم الكتاب إلى أبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة . وفى الصبح بعد انتهاء الموقعة أتى خالد بعكرمة وابنه عمر فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمر على ساقه ، وصار يقطر فى حلقيهما ويمسح وجههما ويقول : زعم ابن حنتمة أن لا نستشهد — يريد عمر رضى الله عنه — وقد قاتل النساء فى ذلك اليوم قتالا شديداً فى بعض الجولات ، وكن يقمن بسقى الجند الماء ومداواة الجرحى وتمريضهم .

ومكان العبرة بعد هذه الموقعة هو أن جيشاً عدته أربعون ألفاً قد غلب جيشاً فيه خمسة أمثاله ، يفتش الناس عن الأسباب التى دعت إلى ذلك .

أنا لا أبعد بكم إلى شىء ناء ، وإنما أحيلكم على ما قدمنا من الأسباب . وأزيدكم أن جيش المسلمين كان فيه العدد المدرب على الحرب وهم قريبو عهد بالانتصار على الجنود الفارسية ، فأورثهم ذلك ضرارة عليهم . وقد أحبوا أن ينتظموا الروم مع فارس فى سلك ليكون لهم فخر الإثخان فى الدولتين .

قد كان فى حكم المقبول أن يقال : إن الانتصار فى كل من الناحيتين (العراق والشام) سببه ارتباك الدولتين ، غير أن هذا الارتباك لم يمنع الطائفتين عن حشد الجنود التى تفوق المسلمين أضعافا مضاعفة ، ورمى كل ثغر بما يسده من المقاتلة وذوى النجدة . فالأمر الذى ساعد المسلمين كما قدمنا وراء المدد وهو أن الجندى المسلم إنما كان يخوض المعامع وقلبه متأثر بأمرين :

أولهما — ثقته بأن العاقبة له لما قرأه فى الكتاب من عدة النصر وما سمعه من الرسول من التبشير بهذه الفتوح . وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله تعالى يؤيده .

ثانيهما — أنه واثق بالعاقبة فى الأخرى فهو إن قتل شهيداً فائزٌ بالحسنى وزيادة ، وإذا عاش ظافراً فذلك خير عَجَّله الله له ، والآخرة خير وأبقى .

ولا تنس براعة القواد وحسن تدبيرهم . فإن أولئك القواد الذين قاموا بهذه الفتوح قد أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم فى مثل حالهم ، وإن أمثالهم فى تاريخ الشرق قليل .

أما خالد فكان واسطة عقد هؤلاء القواد ، وزينة تاريخ أبى بكر . وبانتهاء وقعة اليرموك تمت الأعمال الكبرى التى قامت بين دولة الإسلام فى مقابلة دولتى الفرس والروم فى عهد أبى بكر . وإنما عددنا اليرموك من الأعمال فى عهد أبى بكر ، لأنها بدأت وتهيأت فى زمنه ، وبعمله ، وإن كان تمامها فى عهد عمر . وإن الأعمال الكُبَر التى تمت فى هذا التاريخ القصير الذى لم يمتد إلى أكثر من سنتين وأربعة أشهر — وهى مدة خلافة أبى بكر — تشهد بأن الرجل كان صادق العزيمة قوى الإرادة كبير الهمة ؛ لأنه لا يحمل العظيم من الأمور ويستقل به إلا العظيم .

إدارة البلاد فى عهد أبى بكر

لم يكن للمسلمين بلاد فى عهد أبى بكر سوى شبه جزيرة العرب ، وهى التى كانت تابعة للإدارة الإسلامية نهائياً . وقد كان أبو بكر جزأها إلى ولايات ، وجعل على كل ولاية أميراً من قبله ، وكان الأمير يقيم الصلاة ويقضى فى القضايا ويقيم الحدود . فكان أميراً وقاضياً ومنفذاً يقوم بعمل الشرطة ، ولم يول أبو بكر قضاة يتولون القضاء دون الأمراء . وهذه ولاية الجزيرة وولاتها لعهده :

(١) مكة : وأميرها عتاب بن أسيد ، وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر مدة أبى بكر .

(٢) الطائف : وأميرها عثمان بن أبى العاص ، ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقره أبو بكر .

(٣) صنعاء : وأميرها المهاجر بن أبى أمية ، وهو الذى فتحها ووليها بعد انتهاء أمر الردة .

(٤) حضرموت : وواليها زياد بن لبيد .

(٥) خولان : وواليها يَعلَى بن أمية .

(٦) زُبَيْدُ وَرِمَع : وواليهما أبو موسى الأشعرى .

(٧) الجَنَدُ : وأميرها معاذ بن جبل ، وبها مسجد من بناء معاذ ، وقد كانت العرب تحج بمسجد الجَنَد قبل الإسلام .

(٨) نجران : وواليها جرير بن عبد الله .

(٩) جرش : وواليها عبد الله بن ثور .

(١٠) البحرين : وواليها العلاء بن الحضرمى .

أما العراق والشام فكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها ، ولم يكن أمر التولية فى نواحيها راجعاً إلى أبى بكر . بل كان كل أمير يولى واحداً من قبله على الناحية التى فتحها ليكون نائباً عنه فيها ، ولم يكن الأمر قد استقر فى تلك النواحى استقراراً نهائيا .

ولم يتخذ أبو بكر وزيراً ، وإنما كان عمر يلى له القضاء بالمدينة ولم يكن قاضيا . وكان أبو عبيدة أمينًا على بيت المال قبل أن يسير إلى الشام .

ولم يتخذ أبو بكر كاتبا بعينه ، بل كان يكتب له زيد بن ثابت ، وكان يكتب له الأخبار عثمان بن عفان ، وكان يكتب له من حضر كعلى وغيره .

جمع القرآن

وفى عهد أبى بكر جمع القرآن . وذلك أن القتل قد استحرّ فى القراء فى حروب اليمامة وأهل الردة . فرأى عمر أن يجمع القرآن فى مصحف خشية أن يهلك الحفاظ فيضيع القرآن ، فلم يزل بأبى بكر حتى رضى بذلك ، فدعا زيد بن ثابت فلم يزل به أبو بكر حتى رضى ، وهو الذى قام بجمع القرآن . أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال : « أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، إلا أن يجمعوه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن .

« قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ! فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبّع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل على مما كلفنى به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والأكتاف ، والعسب ، وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخرها . وكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

وسنذكر عند الكلام على عثمان أنه هو الذى استنسخ المصاحف وفرقها فى الأمصار ، وكان القرآن قبل ذلك محفوظاً مرتباً فى الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة .

رزق الخليفة

كان أبو بكر يرتزق من استغلال ملكه وعمل يده . وقد ظل مدة ستة أشهر بعد خلافته وهو على حاله تلك ، لا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً ، فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق . فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة (أمين بيت المال) فلما ذهب إليه ، قال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه فى الرأس والبطن . أخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب .

وقال الطبرى : قالت عائشة : كان منزل أبى بالسُّنْح عند زوجته حبيبة ابنة خارجة ، وكان قد حجَّر عليه حُجْرَة من سَعَفٍ ، فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة وأقام هناك بالسُّنْح بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشق فيوافى المدينة فيصلى الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسُّنْح . فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب . فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنْح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيُجَمِّعُ بالناس . وكان رجلا تاجراً . فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع . وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما كفيها فرعيت له وكان يحلب للحى أغنامهم . فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى :

اليوم لا تُحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى ، لعمرى لأحلبنها لكم وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه . فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحى : ياجارية أتحبين أن أرْغى لك أو أصرِّح ؟ فربما قالت : ارْغ ، وربما قالت : صرح ، فأى ذلك قالته فعل . فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر ، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها . ونظر فى أمره فقال : لا والله لا تصلح أمور الناس على التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم . ولابد لعيالى مما يصلحهم . فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر . وكان الذى فرضوا له فى كل سنة ستة آلاف درهم ، فلما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً . وإنّ أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم . فدفع ذلك إلى عمر ولقوحا وعبدا صيقْلا وقطيفة ما تساوى خمسة دراهم . فقال عمر : لقد أتعب مَن بعده .

وروى عن عائشة أنها دخلت على أبيها فى مرضه الذى توفى فيه وطلبت إليه أن يعهد بالأمر وهى حزينة كئيبة . فرفع رأسه وقال : « أى أمّه هذا يوم يُجلى لى عن غطائى وأشاهد جزائى : إن فرحاً فدائم ، وإن ترحاً فمقيم . إنى اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعة ، والخذل تفريطا . فشهيدى الله ما كان يقيلنى إياه ، فتبلغت بصفحتهم وتعللت بدِرّة لقْحَتهم . فأقمت صلاتى معهم لا مختالا أشرا ، ولا متكاثرا بطرا . لم أعدُ سد الجوعة وَوَرْى العورة وَقُوانه القْوام (١) . حاضرى الله من طوى مُمْمِض تهفو منه الأحشاء وتَجبُ له الأمعاء ، فاضطررت إلى ذلك اضطرار المريض إلى المَعيف الآجن . فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الأرض ، كان حشوها قطع السعف اه .

---

(١) القوام: ما يعاش به .

وكأن أبا بكر يرى أنه ليس له حق فى أن يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ، فلهذا أوصى بأرضه للمسلمين فى نظير ماأخذه من أموالهم .

ومناقب أبى بكر كثيرة . منها قول النبى صلى الله عليه وسلم « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة غير أبى بكر » . وقد شهد له بالجنة وبعتقه من النار . وأخبر بخلافته تعريضاً لانصاً بقوله لامرأة « إن لم تجدينى فإنك تجدين أبا بكر » . وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتق سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون فى الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزنّيرة ، والنهدية ، وابنها ، وجارية بنى مؤمل ، وأم عبيس . وكان بيت المال معه فى داره. ولما فتح بيت المال بعد وفاته لم يجدوا فيه درهما ولادينارا إلا ديناراً واحداً سقط من غراره .

وقال أبو صالح الغفارى : كان عمر يتعهد امرأة عمياء بالمدينة بالليل فيقوم بأمرها ، فكان إذا جاء وجد غيره قدسبقه ، فرصده فإذا هو أبو بكر وهو خليفة

وقيل : إن زوجته اشتهت حلوا ، فقال لها : ليس لنا مانشترى به . فقالت : أنا استفضل من نفقتنا عدة أيام مانشترى به . قال : افعلى . ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء يسير، فلما عرّفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فرده إلى بيت المال وقال : هذا يفضل عن قوتنا . وأسقط من نفقته بمقدار مانقصت كل يوم وغرمه من بيت المال من ملك كان له .

وهو أول من سمى ما كتب فيه القرآن مصحفاً ، وأول من فرض له رعيته نفقة ، وأول من سمى خليفة ، وأول خليفة ولى وأبوه حى .

كان يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى » من ابن الأثير .

أرزاق الجند

كان جند المسلمين فى عهد أبى بكر متطوعين لايكلفون الخليفة ولابيت المال شيئاً ، وإنما ينفقون من أموالهم ابتداء ثم مما يصيبون من الغنائم فإن المقاتلة

لهم أربعة أخماس الغنيمة سوى ماناله القاتل من سلب القتيل . وكان الأمير ينفل أهل البلاء الممتازين بالغناء فى الحرب والضراوة على العدو . ولقد كانت الغنائم فى العراق والروم مما يغرى المخلفين باللحاق بإخوانهم، لأنها كانت شيئاً كثيراً لاعهد لهم به . وحسبنا من ذلك خطبة خالد التى أغراهم فيها على العراق وافتتاحه وحيازته دون فارس ، وأن الأمر لو لم يكن ديناً ولم يكن إلا المعاش لكان فى الحق أن يجالدوهم على مافى أيديهم . وقدكان أبو بكر يسوى فى العطاء بين الناس ولا يميز أحداً عن أحد ، فقيل له : كيف تسوى بالسابقين الأولين غيرهم ؟ فقال : أولئك قوم عملوا لأنفسهم وسبقوا إلى الدخول فى الدين ابتغاء مرضاة الله فوقع أجرهم على الله . أما أنا فلا أفضل أحداً على أحد. وعذره فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان يفاضل بين الناس فى العطاء ، لأنه كان أعلم بوجوه المصلحة ، وأجر العطاء مردود إليه يصنع فيهما شاء ، والناس يرضون منه بكل مايجىء به ، فإذا حرم أحداً من أهل البلاد رجع وهو راض مكتفياً برضا الله ورسوله عنه . وليس لأبى بكر مالرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم، وصدقات المسلمين ، وجزية أهل الذمة ؛ وذلك كله مادة الخلافة يرزق الخليفة منها العمال ، ويعين منها المجاهدين فى سبيل الله ، ويفض مابقى على أهلها المعينين فى كتاب الله تعالى .

وفاة أبى بكر

مرض أبو بكر بالحمى لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . ومكث محموما ١٥ يوما ، وتوفى فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ م) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالى ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يميل عنه قليلا إلى الجهة الشرقية .

انتخاب عمر للخلافة

لما اشتدّ على أبي بكر مرضه ، وأحس بدنوّ أجله ، خاف على المسلمين أن ينتشر أمرهم وتنحلّ عقدة اجتماعهم بتنازعهم سبل الخلافة . وقد رأى الناس يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انقسموا فئتين كل منهما يجذب الخلافة إلى حيزه — فكان ذلك حاديا له على النظر للمسلمين والاحتياط لاجتماع كلمتهم ، ولم يشغله ما هو فيه عن النظر فى مصلحتهم من بعده وجمع كلمتهم ، ولو أن أبا بكر ترك مركز الخلافة شاغراً لكان للتصاول عليها مجال ، ولشغل المسلمون عن أعدائهم بأنفسهم ، ولكان وجه التاريخ تغير عما هو عليه اليوم ، ولكانت فتنة القوم بالخلافة أنكى وأشد من فتنة الردة ، ولعادت فتنة الردة جذعة واتسع الفتق على الراتق ..

أدار أبو بكر عينه فى أصحابه يتخير منهم لهذا المنصب رجلا يكون شديداً فى غير عنف ، ليناً فى غير ضعف ، فوجد كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مايجب . غير أن عمر كان أفضلهم فى نفسه ، وأقربهم إلى الصفة التى يجب أن يكون عليها خليفة المسلمين . وكذلك كان عمر فى نفوس من استشارهم أبو بكر فى أمر الخلافة ومن يليها .

يقول صاحب أشهر مشاهير الإسلام رحمه الله ، « وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، إلا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور إليه ، والثانى يرى الاستقامة فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو إلى الشدة أميل منه إلى اللين » .

أقول : إن ما ذكره حضرة الفاضل فى وصف الرجلين صحيح ، غير أن عدول أبى بكر عن على إلى عمر لم يكن سببه ما ذكر فحسب . والذى أعتقد أن تريث على فى بيعة أبى بكر واحتجاجه على أحقيته للأمر بقرابته من رسول الله

صلى الله عليه وسلم هو الذى حدا بأبى بكر إلى العدول عنه إلى غيره ؛ لأنه خشى أن يجعلها ميراثا للأعقاب على نظام الأرستقراطية ، فى حين أن أبا بكر كان يراها غير خاصة ببنى هاشم كما يرى على . بل قد صرح بأنه كان يود : أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار: هل لهم فى هذا الأمر شىء حتى لا يكون قد غلبهم يوم السقيفة بأن كان ألحن منهم بحجته . فهو يود أن لو كان استبرأ لنفسه . ومن كانت هذه حاله كان أحرص على إبعادها عمن يراها تراثاً وطعمة لأهله خاصة . هذا هو الذى أظنه سبباً لما ذكر .

عزم أبو بكر على اختيار عمر . وأحب أن يستوثق للأمر ويوطن أصحاب رسول الله وأهل السابقة على هذا الأمر حتى لايكون فى نفس أحد منهم حفيظة ، ولئلا يكون قد استخلف عليهم من لايرضونه . فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب . فقال : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى . فقال : وإن . فقال عبد الرحمن: هو أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو فيه . ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرنى عن عمر . فقال أنت أخبرنا به . فقال: على ذلك يا أبا عبد الله ، أخبرنى عن عمر . فقال : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . فقال أبو بكر : رحمك الله أبا عبد الله . لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً . قال : أفعل . فقال له أبو بكر : لو تركته ماعدوتك وما أدرى لعله تاركه ، والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئاً ، ولوددت أنى كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم . وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضى ويسخط للسخط، الذى يسر خير من الذى يعلن ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه . واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والأنصار فكلهم قال خيراً وأثنى عليه .

ولما تهيأ لأبى بكر ما أراد دعا عثمان بن عفان فأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد» ثم أغمى عليه فكتب عثمان : « فإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ على . فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتُلِتُّ في غشيتي . قال : نعم . قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله . وأقرها أبو بكر من هذا الموضع .

قال الطبري : ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته . فقال لهم : أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ وإني والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا .

ثم دعا ابو بكر بعمر خالياً فقال : إني مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . وحُق لميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وَخِفَّتِهِ عليهم ، وحق لميزان لايوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ حالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني لأرجو أن لا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه .

ولما خرج عمر من عنده رفع يديه وقال : اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيا فوليت

عليهم خيرهم ، وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته .

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤م) .

ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب من بنى لؤى . وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة . ولد لثلاث عشرة سنة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان عمر ذا شهامة ونجدة وجرأة وشجاعة . وكانت الشجاعة الأدبية أخص أوصافه لا يخاف فى الحق لومة لائم ، ولا يقر على كتمانه ولا يعطى هوادة فى باطل يعتقد بطلانه .

كان عمر فى صغره يرعى على أبيه غنمه ويضم إليهن غنيمات لخالات له . وقد روى ابن عساكر بسنده : أن عمر مر بضجنان (اسم مكان) فقال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً . فكنت أرعى أحياناً وأحطب أحيانا فأصبحت أضرب الناس ليس فوقى أحد إلا رب العالمين . ثم قال :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودى المال والولد

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة فى ماله وكان يذهب أحياناً إلى الشام متجراً . وقد روى ابن عساكر : أن بطريقا أسره بالشام واستعمله فى بعض عمله فتغفله عمر وقتله وخرج هارباً من الشام . ولم يكن لعمر وفر من المال ، بل كان مقلا من ذلك وحرفته التجارة فى الجاهلية والإسلام إلى أن ولى الخلافة .

كان عمر عزيز الجانب فى قومه مشهوراً بالشدة ، وصدق العزيمة وقوة الشكيمة ، وكانت سنه حين البعثة سبعا وعشرين سنة . ولم يكن قد أشرق نور الإيمان على قلبه فكان ينال المسلمين بالأذى .

كان رسول الله فى مبدأ أمره يتمنى أن يكون له بين المسلمين رجل له عز وشرف وصدق عزيمة يكفكف عنهم المشركين ويكون للمسلمين ردءاً من الأذى : ويرى أن قريع هذه الصفات إنما هو عمر بن الخطاب ، وعمرو ابن هشام ، فكان يدعو الله أن يعز الإسلام بأحدهما ، فاستجاب الله له فى عمر .

ذكر فى أسد الغابة بسنده قال : قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى ؟ قلنا نعم . قال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا يوماً فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة ، إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك ، قلت : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت ، قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ، ويصيبان من طعامه . وكان قد ضم إلى زوج أختى رجلين . قال : فجئت حتى قرعت الباب . فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب . قال : وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن فى صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم ، فقامت المرأة ففتحت لى ، فقلت : ياعدوة نفسها ، قد بلغنى أنك صبؤت . قال : وأرفع شيئاً فى يدى فأضربها به ، فسال الدم ، فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت : يابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل ، فقد أسلمتُ . قال : فدخلت وانا مُغْضَب ، فجلست على السرير ، فنظرت فإذا بكتابٍ فى ناحية البيت ، فقلت : ماهذا الكتاب أعطينيه ، فقالت : لاأعطيك ، لستَ من أهله ، أنت لاتغتسل من الجنابة ولا تَتَطَهَّر ، وهذا لايمسه إلاالمطهرون ؛ قال : فلم أزل بها حتىأعطتنيه ، فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلمامررت بالرحمن الرحيم ، ذعرت ورَميت بالصحيفة من يدى ، ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها (سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم تراجعت إلى نفسى حتى إذا بلغت (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)

حتى بلغت إلى قوله : ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ قال : فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى ، وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا : يابن الخطاب ، أبشر فإن رسول الله دعا يوم الإثنين فقال : « اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين : إما عمرو بن هشام ، وإما عمر بن الخطاب » وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك الخ . وقد قدمنا فيما سبق نحو هذا مع اختلاف يسير .

ولما أعلن عمر إسلامه فى قريش اشتد الأمر على القوم وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاص بن وائل السهمى ، وناله ما كان يناله المسلمون من الأذى غير أنهم لم يبلغوا به مبلغهم .

ولما كانت الهجرة كان الناس يخرجون متسللين لا يعلم بخروجهم أحد حتى لا تمنعهم قريش . أما عمر فأعلن أنه مهاجر وقال : « من أراد أن تثكله أمه وتأيم عرسه فليلقنى خلف هذا الوادى » ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد .

وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها . وكان موفق الرأى ، ملهماً بالصواب ، وكثيراً ما كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر ثم ينزل القرآن موافقاً لما أشار به ، وكان هو وأبو بكر بمنزلة وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته حفصة ، وله مقامات حسان فى الحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذبّ عنه ، والشدة على من ناوأه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون فإن يكن فى أمتى أحد فهو عمر » .

ومن مقاماته المحمودة فى الإسلام يوم السقيفة حين اختلفت الآراء وخشى أن يتفرق أمر المسلمين وتُشبّ نار الفتن فأخمدها بالمبادرة إلى مبايعة أبى بكر . فكان عمله هذا سبباً لنجاة المسلمين من أكبر كارثة كانت تحلّ بهم لولا يمن نقيبته وصحة نظره بعد معونة الله تعالى . وقد كان لأبى بكر بمنزلة الوزير الأول يؤازره ويعينه ويشير عليه ، وكان أبو بكر يحيل عليه النظر فيما يرفع إليه من القضايا بالمدينة ، فكان قاضياً له وإن لم يتسمّ باسم قاض .

أوّل خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التى اعتزم أن يسوس بها الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله :

« إنما مثل العرب كمثل جمل آنف اتبع قائده فلينظر قائدُه أين يقوده . أما أنا فوربّ الكعبة لأحملنكم على الطريق » .

والجمل الآنف : هو الجمل الذلول المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ماعنده من السير عفواً سهلا . وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطواعة إذا أمرت ائتمرت ، وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها فإنه يجب عليه أن يرتاد لها ويصدر فى شأنها بعقل ، ويورد بتمييز حتى لا يورطها فى خطر ، ولا يُقحمها فى مهلكة ، ولا يهمل شأنها إهمالا يكون من ورائه البطر . وقد أراد بالطريق . الطريق الأقوم الذى لا عوج فيه . وقد بَرّ بما أقسم به .

فتح فارس وما كان بعد خالد

رحل خالد عن العراق كما أمره أبو بكر وشيعه المثنى ثم قال له خالد : ارجع إلى سلطانك غير مقصر ولا وان . وقد استقام أمر فارس على رأس سنة من مقدم خالد على شهر براز بن أردشير بن شهريار ، فوجه إلى المثنى جنداً كثيفا بقيادة هرمز جاذويه ومعهم فيل . وكتبت المسالح إلى المثنى بإقبال ذلك الجيش ، فخرج المثنى من الحيرة للقاء الجيش وضمّ إليه مسالحه وجعل على مُجَنِّبَتيه أخويه : المعنَّى ومسعودا وأقام ببابل . وأقبل هرمز وعلى مجنبتيه الكوكبذ والخوكبذ . وقد كتب شهر براز إلى المثنى كتاباً يقول فيه :

« إنى قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس . إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم » فأجابه المثنى : إنما أنت أحد رجلين إما باغ فذلك شرّ لك . وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم فالحمد لله الذى ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير ، فجزع الفرس لذلك وقالوا لملكهم : جرأت علينا عدوّنا بالذى كتبت به إليهم ، فإذا كاتبت أحداً فاستشر .

التقت جموع الفرس وجموع المسلمين ببابل بعدوة الصَّراة الدنيا وتقاتلوا قتالا شديداً . ثم إن المثنى قصد الفيل فى جمع من المسلمين وكان يفرّق بين الصفوف والكراديس وأصابوا مقتلة فانهزم الفرس وتبع المسلمون فلّهم حتى جازوا بهم مسالحهم وهم يقتلون ويأسرون فيهم حتى انهزموا إلى المدائن .

وقد رأى المثنى أن الفرس غير تاركيه ولا بدّ لهم من مناجزته بجنود لاقبل له بهم ، فخف إلى المدينة ليخبر أبا بكر بالمسلمين وما تمّ لهم وما يتوقعون ويستأذنه فى الاستعانة بأهل الردّة ممن قد ظهرت توبته وندمه ، وكان المثنى قد خلف على من كان معه بشير بن الخصاصية ، ووافق انصراف المثنى إلى المدينة اضطراب الفرس فى شأن ملكهم ، فشغلهم ذلك عن المثنى وجيشه إلى أن عاد من وجهه ذاك .

ولما قدم المثنى على أبى بكر وجده قد اشتدّ به المرض ، فلما أخبره الخبر قال علىّ بعمر ، فلما حضره قال : إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فإن أنا متّ فلا تُمْسِينّ حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ؛ وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماصنعت ولم يصب الخلق بمثله ، ووالله لو أنى آبى عن أمر الله ورسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً . وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم .

فلما فرغ عمر من أبي بكر ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من الليلة التى مات فيها أبو بكر، ثم أصبح فبايع الناس . ولما فرغ من أمر البيعة عادفندب الناس إلى فارس .

كان الناس قد وقر فى نفوسهم عظم ملك الفرس وقوّة شوكتهم وظفرهم فى الحروب فى الجاهلية ، فكان حرب الفرس أثقل شيء على نفوسهم فاثّاقلوا فلم ينتدب أحد لذلك الوجه ، وما زال عمر يندب الناس إلى اليوم الرابع ، فكان أوّل منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى وسعد بن عبيد الأنصارى ، ثم تتابع الناس بعد ذلك وتكلم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شِقَّى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قِبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها . وقام عمر فقال : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعَةَ ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعزّ ناصره ومولى أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ؟

فكان بعد ذلك انتداب أبي عبيد . ثم ثنى سعد بن عبيد أو سليط بن قيس .

لما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر : أمّرْ عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الأنصار فقال : والله لا أفعل إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدوّ فإذا جَبُنْتُمْ وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمِّر عليهم إلا أوّلهم انتداباً . ثم دعا أبا عبيد وسليطاً وسعداً فقال : أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى مالكما من القُدْمَة . فأمّر أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف .

عجل المثنى إلى عسكره وأبو عبيد بمن معه ، وكانوا خمسة آلاف ، فى أثره

وصار أبو عبيد يستنفر من يمرّ به من العرب لقتال الفرس فأجابه بشر كثير وقد وَصَل المثنى إلى الحيرة فى عشر ليال وجاء أبو عبيد بعده بشهر .

النمارق

كانت الفرس مشغولة عن المسلمين بموت شهر براز وصارت تولى وتعزل إلى أن عاد المثنى من المدينة إلى الحيرة ، وكان الفرس قد ولوا رُسْتُم أمر حرب المسلمين فكتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودسّ فى كل رُسْتَاق رجلا ليثور بأهله ، فبعث جابان إلى البهقباذ الأسفل ، وبعث نَرْسِى فنزل زَنْدَوَرْد وثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله — فضمّ المثنى مسالحه وحذر . وعجل جابان فنزل النمارق ونزل المثنى بِخَفّان حتى لا يقطع عليه خط الرجعة إلى أن قدم عليه أبو عبيد ونزل حتى جمّ الناس وما معهم من الظهر ، ثم تعبأ ونزل على جيش جابان بالنمارق فاقتتلوا قتالا شديداً ثم انهزمت الفرس وأسر جابان ومردان شاه — فأما آسر مردان شاه فقتله ، وأما آسر جابان فقد خدعه جابان فقال له : إنكم معاشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا ؟ قال : نعم . قال : فادخلنى على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه . ففعل . وأجاز أبو عبيد أمانه . ولما علم بنو تميم أنه الرئيس قالوا لأبى عبيد اقتله . قال : ماترونى فاعلا معاشر ربيعة[1] ؟ أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا ؟ معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم . وكان آسره مَطَرَ بن فضة التيمى .

قسم أبو عبيد الغنائم وبعث بالخمس إلى عمر ثم نادى بالرحيل إلى كسكر حيث ينزل نَرْسِى وهو ابن خالة كسرى . وكسكر قطيعة له وقد ضوى إليه فل جيش جابان وقد وجه إليه رستم وبوران بجيش على رأسه الجالنوس حين بلغهما هزيمة جيش جابان ، فرجا نرسى ومن معه أن يدركه المدد قبل منازلة المسلمين له . ولكن أبا عبيد عاجلهم وكان المثنى على تعبيته التى لقى بها جابان فاقتتلوا أسفل من كسكر بمكان يقال له : السقاطية قتالا شديداً فانهزمت الفرس وفر نرسى

(١) كذا فى ابن الأثير ، ولعل صحتها مضر لأن آسره تيمى وهم من مضر لا من ربيعة .

وغلب على عسكره وأرضه ، وأخرب أبو عبيد ما كان حول عسكرهم من كسكر وجمع الغنائم ، فوجد من الأطعمة شيئاً كثيراً وأخذت خزائن نرسى فلم يكونوا بشيء مما فى خزائنه أفرح منهم بالنرسيان لأنه كان يحميه . لا يأكله بشر ولا يغرسه سواه وأهل بيته أو ملك الفرس ، فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين ، وبعثوا بخمسه إلى عمر وكتبوا : إن الله أطعمنا مطاعم الأكاسرة يحمونها وأحببنا أن تروها لتذكروا أنعام الله وأفضاله .

وأقام أبو عبيد بكسكر وسرح المثنى وغيره من القوّاد يغيرون على النواحى ويفلون عصائب الجنود التى كانت متفرقة هناك ، وصالحه أهل بعض تلك النواحى ، وجاء فروخ وفرّاونداذ من أهل الصلح إلى أبى عبيد بآنية فيها أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها فقالوا : هذه كرامة أكرمناك قرى لك . قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون . قال : لا حاجة لنا فى ما لا يسع الجند ، وقدم إليه آخرون مثل ذلك ، فأبى وقال : بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دمهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ؛ لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم .

وقعة الجسر

جاء خبر الهزيمة إلى رستم فجهز جيشاً آخر عظيما وعليه بَهْمَن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس وهى المسماة درَفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر ذراعا من جلود النمر . وأقبل أبو عبيد ونزل المرْوَحة ، موضع البرج والعاقول ، فبعث إليه بهمن : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما تخلوا بيننا وبين العبور . فقال من مع أبى عبيد : دعهم يعبرون إلينا وأبى ولج وقال : لا يكونون أجرأ على الموت منا . فعبروا على جسر نصبوه فى مكان ضيق المطرد والمذهب فاقتتلوا يوماً ، حتى إذا كان آخر النهار واستبطأ رجل من ثقيف الفتح ألّفَ بين الناس فتصافحوا بالسيوف وقصد أبو عبيد الفيل وضربه فخبط الفيل أبا عبيد وقد أسرعت السيوف فى أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف . فلما خُبط أبو عبيد انهزم المسلمون وتموا على هزيمتهم وعمد رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه . فانتهى الناس إلى الجسر والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب من المسلمين أربعة آلاف من بين غريق وقتيل . وقام المثنى من خلف الناس فى أهل النجدة يحمون ظهورهم ويدافعون عنهم حتى أصلح الجسر وعبر الناس ثم عبر بمن معه إلى المروحة وهو جريح ومعه عدد من حماة الناس جرحى وهذه عاقبة اللجاج والمجازفة فى الحرب

كان المثنى قد نصح لأبى عبيد وقال له : إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جرءوا على الشرّ فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفشين سرّك ، فإن صاحب السرّ ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة .

هرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا

مما نزل بهم وبلغ عمر من بعض من آوى إلى المدينة فلم يعنف الفارين وخفف عنهم مصابهم وقال : عباد الله اللهم إن كل مسلم فى حلّ منى ، أنا فِئَةُ كل مسلم . يرحم الله أبا عبيد : لو كان عبر فاعتصم أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة .

أراد أهل فارس العبور للمسلمين لما رأوا من قلتهم وضعفهم بمن قتل منهم أو شرد وأحبوا أن يستأصلوهم . فدهمهم خبر أهمهم وصرفهم عن نيتهم . وهو أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم ونقضوا الذى بينهم وبينه فصاروا فرقتين : الفهلوج على رستم ، وأهل فارس على الفيرزان . وقد كان بين وقعة اليرموك ووقعة الجسر أربعون يوماً .

وقد أخطأ أبو عبيد رحمه الله فى عبور النهر ومخالفته أصحابه ، وقد أمره عمر بأن يستشيرهم وينتهى إلى رأيهم وهم أصحاب رسول الله وبخاصة سليط ابن عمرو ، ولم يسمع نصيحة المثنى وهو رجل قد خرجته الوقائع وزاده علما ما رآه من خالد إذ كان معه . وخطأ ثان ما صنعه مرثد الثقفى من قطع الجسر على الناس ، فإن العدوّ لم يحدث بهم من النكاية ما أحدثه فيهم بعمله ، فكان الصديق الجاهل ، ولا ينفعه اعتذاره بأنه أراد أن يقاتل الناس على ما قاتل عليه أمراؤهم ، فإن لكل مقام مقالا ومثل هذا القول لا يصلح فى وقت الجولة . وإنما يقال للقوم وصفوفهم ثابتة وآذانهم مصغية وهم فى سعة من التدبر وإجالة الرأى ، فأما وقت الهزيمة فلا كلام .

البويب

إن وقعة الجسر قد أكلت جيش المسلمين وعلم عمر أن ليس بالقوم امتناع ولا قوة إذا نازلهم العدوّ فشرع يبعث الإمداد إلى المثنى منهم جرير بن عبد الله البَجَلى فى بجيلة وعصمة بن الحارث فيمن تبعه من قومه بنى ضبة . وكتب

إلى أهل الردّة ولم يوافه فى شعبان أحد إلا رمى به المثنى فتوافى المنجدون إليه فى جمع عظيم . وبلغ رستم والفيرزان ما عليه المثنى وما ينتظر من المدد . فاجتمعا على أن يبعثا مهران الهمذانى إلى الحيرة . وعلم المثنى فخفّ إلى البويب لموعد من كان بالحيرة من المسلمين وخرجوا منها حين علموا بجند مهران وقد توافت جنود المثنى ومددهم إلى ذلك المكان مما يلى موضع الكوفة وبينه وبين مهران النهر . فكاتبه مهران يخيره فى العبور ولكن المثنى رأى العبرة فى أبى عبيد وجيشه فلم يرض أن يكون هو الذى يعبر . فعبر مهران بجنوده وكان ذلك فى رمضان . فنادى المثنى انهدوا لعدوّكم . وكان قد عبأ جيشه تعبية خالدية . وخطب المثنى فى المسلمين فقال : إنكم قوم صوام والصوم مَرقّة مضعفة ، وإنى أرى من الرأى أن تفطروا ثم تقوّوا بالطعام على قتال عدوّكم فأفطروا . ورأى رجلا يستوفر ويستقتل من كردوسه فقال : ما شأنه ؟ قالوا : قد فرّ يوم الجسر ويريد أن يستقتل ، فقرعه بالرمح وقال : لا أبا لك الزم موقفك فإذا أتاك قِرْنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل . قال : إنى بذلك لجدير . واستقرّ ولزم الصفّ . وسار المثنى على الرايات يقف بها راية راية يحضهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم ويقول لكل قوم : إنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم . فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولا أو عملا . وقال : إذا كبّرت الرابعة فاحملوا فأعجلهم أهل فارس عند التكبيرة الأولى وحمى القتال بين الفريقين واشتد فعمد المثنى إلى أنس بن هلال وقال له : إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على دينى فإذا رأيتنى حملت على مهران فاحمل معى . وذمر قوما معه وأوصى القوّاد بأمره وبأن لا يزايلوا أمكنتهم لئلا ينكشف الجيش وحمل المثنى وخالط القوم وأوغل فى صفوفهم وصبر المسلمون صبراً جميلا . ولم يزل المثنى يعمل ومن معه فى قلب الفرس حتى أفناه فقويت مجنبات المسلمين

على من يليهم وصار المثنى يذمرهم ويحضهم حتى هزم الفرس وسبقهم المثنى إلى جسرهم فقطعه لئلا يعبره أحد منهم .

كان عمل المثنى هذا خطأ ، لأن القوم وإن كانت الهزيمة قد حقت عليهم فى عدد كبير وقوة عظيمة إذا تتامّ فَلّهم فى مكان ووجدوا من يقودهم وهم واجدون لامحالة ، عادت لهم قوتهم وثاب إليهم نشاطهم إلى القتال ويصيرون بعد ذلك كالشوكة فى جنب جيش المسلمين .

قتل فى هذه الوقعة مهران ، قتله بعض فتيان تغلب وكانوا مع المسلمين ، وتمت الهزيمة على الفرس بقتله ، وأخذ فل المنهزمين يصعد ويصوب إذ جلاهم المثنى عن الجسر وخيل المسلمين تتبعهم ويقتلون منهم فلم تكن وقعة من الوقائع أبقى رمة منها . وقد أصيب من حماة المسلمين عدد كبير بين قتيل وجريح . ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه فى قطعه الجسر وإخراجه العدو — قال : لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم ، فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة . لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع .

ثم أرسل فى أثر المنهزمين من اتبعهم حتى وصلوا إلى السيب — كورة من سواد الكوفة — بعد أن عقد لهم جسراً . وكانت هذه الوقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس ، واستمكن المسلمون من الغارة فى السواد وانتقضت مسالح الفرس وتشتت أمرهم فى تلك الناحية واجترأ المسلمون عليهم وشنّوا الغارة عليهم فيما بين سورا وكسكر والصراة والفلاليج والاستانات . وقد قال عروة بن زيد الخيل فى هذة الوقعة والطبرى ينسبها إلى الأعور الشنى :

هاجت لعروة دار الحى أحزانا ... واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم ... فقتّل القوم من رَجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته ... حتى أبادهم مثنى ووحدانا

ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى　　مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرمَ لا كذبٌ　　فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

وقد كان عمر من أول أمره حريصا على تعرف حال المسلمين والوقوف على ما عليه الجند من الشؤون . فكان يعهد إلى قوم من المسلمين بالكتاب إليه بكل شؤونهم وأحوالهم حتى إذا رأى خللا أو خطلا بادرهم بما يصلحهم لا تأخذه فى ذلك هوادة — لأن الجند والرعية إنما يؤتون من قبل الإهمال والاستهانة بالخلل حتى يقوى ضعيفه و يعظم صغيره .

من ذلك أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند للإغارة على صفّين وبها النمر و تغلب على تساند . فأغار جند المسلمين على القوم حتى أقحموا طائفة منهم فى الماء فناشدوهم أن يكفوا عنهم وينادونهم الغرق الغرق . وأخذ عتيبة وفرات البكريان وهما قائدا الجند يذمران الناس ويناديانهم : تغريق بتحريق يذكرانهم بما كان من النمر و تغلب فى أيام الجاهلية إذ حرقوا قوما من بكر بن وائل فى إحدى الغياض . وبعد أن فرغوا من أمر القوم رجعوا إلى المثنى ، وقد كانت لعمر عيون فى كل جيش فكتب إليه العين بما قال عتبة وفرات يوم بنى تغلب والنمر على صفّين . فاستقدمهما أمير المؤمنين وأخبراه بأنهما قالا ذلك على وجه أنه مثل وأنهما لم يقولا ذلك على وجه طلب دَخْل الجاهلية فاستحلفهما على ذلك فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام ، فقبل منهما وصدقهما وردّهما إلى المثنى . فهكذا يكون حرص الأمراء على صيانة أخلاق الرعية وحياطتها من تسرب الفساد إليها .

كان المثنى اتخذ دليلين : أحدهما انبارى والآخر حيرى ، فدله الأنبارى على الخنافس وكانت هذه السوق عظيمة يؤمها تجار فارس والسواد فانتهبها المثنى . ثم قدم على سوق بغداد ، أسرى إليه من ليلته ثم صبح السوق فملأ أصحابه أيديهم من الذهب والفضة وحر المتاع و تفرق الناس عن بضائعهم وقتل من كانوا يخفرون

السوق من ربيعة وقضاعة ؛ ثم عاد إلى معسكره ، وكانت عساكره تصوّب وتصعد ولا حامى للبلاد منهم .

ولما بلغ سويد بن قطبة العجلى ما أتيح للمثنى بن حارثة من الظفر يوم مهران أحب أن يكون له من الفخر ما للمثنى فكتب إلى عمر يخبره بوهن الناحية التى هو فيها ويسأله أن يمدّه بجيش يغزو به الفرس فى ذلك الوجه . فندب عمر لذلك الوجه عتبة بن غزوان المازنى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمّره على جيش فيه ألفا مقاتل من المسلمين وكتب إلى سويد بن قطبة يأمره بأن ينضم إلى عتبة . وقد خرج عمر لتشييع الجيش وأوصى عتبة فقال : « ياعتبة إن إخوانك من المسلمين قد غلبوا على الحيرة وما يليها ، وعبرت خيلهم الفرات حتى وطئت بابل مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين ، وإن خيلهم اليوم لتُغير حتى تشارف المدائن ، وقد بعثتك فى هذا الجيش فاقصد قصد أهل الأهواز فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدّوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانكم الذين هناك وقاتلهم مما يلى الأُبلّة » . فسار عتبة حتى أتى مكان البصرة ، ولم تكن هناك يومئذ إلى الخُرَيْبَة . وكانت منازل خربة وبها مسالح الفرس تمنع الأعراب من العبث فى تلك الناحية . وموضع البصرة إذ ذاك حجارة سود وحصى . ثم سار حتى نزل على الأبلة وافتتحها عنوة بعد قتال شديد وكتب إلى عمر رضى الله عنه : « أما بعد ، فإن الله وله الحمد فتح علينا الأبلة وهى مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين . وأغنمنا ذهبهم وفضتهم وذراريهم وأنا كاتب إليك ببيان ذلك إن شاء الله » .

ثم إن عتبة سار حتى أتى إلى المذار وأظهره الله على أهله ووقع مرزُبانه فى يده ، فضرب عنقه وأخذ بزّنه وفى منطقته الزمرد والياقوت وأرسل بذلك إلى عمر . وقد تباشر المسلمون بذلك وأكبوا على رسول عتبة يسألونه

عن أهل البصرة (وكان ذلك ابتداء اختطاطها ونزول المسلمين بها) فقال: إنهم يهيلون الذهب بها هيلا فرغبهم ذلك فى القدوم إليها . وكان ذلك قبل تمصير البصرة .

ثم خرج عتبة إلى فرات البصرة فافتتحها ثم إلى دست ميسان فافتتحها بعد ان قاتل مرزبانها وقتله وهزم من بها من العجم ثم إلى ابرقباذ فافتتحها كذلك ثم عاد إلى مكانه من البصرة . وكاتب عمر يستأذنه فى العود إلى المدينة فأذن له . ثم أرسل بعده المغيرة بن شعبة بالبصرة مدة ثم استبدل به ابا موسى الأشعرى .

أمر القادسية

نظر الفرس فيما دهمهم من امر العرب الذين يجوسون خلال ديارهم ويفضون مسالحهم ويغيرون على اسواقهم ويحتوون متاجرهم وامتعتهم وضيقوا على فارس السبل فى الوجه الذى هم فيه . فقالوا لرستم والفيرزان : ما تنتظرون والله إلا أن يُنْزِل بنا ونهلك ، والله ما جرّ هذا الوهن علينا غيركم يا معشر القواد ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، والله لولا أن فى قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم بالقتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم وإنه لم يبلغ من خطركما ان تعزكما فارس على ما أنتم عليه وان تعرضاها للهلكة . ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت .

تفاوض الرجلان ومن معهما من وجوه فارس فى الأمر وعلموا أن كلام أهل فارس الذين كلموهم حق وقالوا : إنما أتينا من تمليك النساء علينا فقالا لبوران بنت كسرى — وكانت عدلا فى فارس تلى ملكهم مدة الاختلاف إلى أن يتفقوا — اكتبى لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت وأرسلت إليهن فلم يبق منهن امرأة إلا أتوا بها فأخذوهن بالرجال

ووضعوا عليهن العذاب يستدلونهن على رجل من آل كسرى . فقلن لم يبق إلا وَلد يدعى يزد جرْد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بَادُورَيًّا . فأتوا بها فدلتهم عليه ، وكان ابن إحدى وعشرين سنة ، فاطمأنت فارس واستوثقوا وملكوه عليهم وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته . فأخذ أمر القوم بعزيمة وهمة وجيش الجيوش وكتب الكتائب وسمى الجنود لكل مسلحة من المسالح التى كانت لكسرى وسد الثغور وسير جنداً إلى الحيرة والأنبار .

علم المثنى علم القوم فكاتب عمر بشأنهم وما ينتظر من انتقاض من دان له بالطاعة ممن بين ظهرانيهم . فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى انتقض أهل السواد وكفروا من لم يكن فى يده عهد ومن كان له عهد ، فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذى قار وتنزل الناس بالطف حتى جاءهم كتاب عمر وفيه : « أما بعد ، فاخرجوا من بين ظهرى الأعاجم وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا فى ربيعة احداً من اهل النجدات ولا فارسا إلا اجتلبمتوه ، فإن اتى طائعاً وإلا حشرتموه . احملوا العرب على الجد إذ جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم، فأقام المثنى بمن معه بذى قار ونزل الناس بالجل وشِراف إلى غضى . حيال البصرة ، فكانوا فى أمواه العراق من اولها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض ويغيث بعضهم بعضا إن كان كون ، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٣ هـ وكتب عمر — إلى عماله على الكور والقبائل — أن لا تدعوا احداً له سلاح او فرس او نجدة او راى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ١٣ هـ فلم يقفل من حجه حتى وافته الجنود من كل وجه وناحية . فأما القبائل التى طرقها على مكة والمدينة فقد اجتمعوا عليه بالمدينة ، واما من كان على اكثر من نصف الطريق من المدينة فقد لحق بالمثنى .

والذين وافوا عمر أخبروه فيمن وراءهم بالحث وترادف ورود الجنود إلى أن جاء المحرم سنة ١٤ هـ فخرج عمر بمن اجتمع إليه إلى ماء يدعى صرار

على ثلاثة أميال من المدينة فعسكر به ولا يدرى الناس ما يصنع عمر ، يسير بهم أم يرجع إلى المدينة ويؤمر رجلا آخر . وقد رغب الناس فى الوقوف على نيته .

كان الناس إذا أرادوا علم شىء من عمر فهابوا أن يسألوه رموه بعبد الرحمن بن عوف أو بعثمان بن عفان . وكانوا يدعون عثمان رديفاً — والعرب تقول ذلك للرجل يرجونه بعد رئيسهم — فإذا أعيا عليهما ذلك الأمر فزعوا إلى العباس بن عبد المطلب . فلما أرادوا معرفة نيته كلموا عثمان . فقال لعمر : ماتريد ؟ فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه . فأخبرهم الخبر وانتظر ما يشيرون به . فقال العامة : سر وسر بنا معك .

رأى عمر ذلك منهم والصواب فى خلافه ، غير أنه لم يرد أن يخالفهم لأول أمرهم ، بل دخل فى أمرهم إلى أن يخرجهم من ذلك الرأى برفق فقال : استعدّوا وأعدّوا فإنى سائر إلا أن يجىء رأى هو أمثل من ذلك . ثم بعث إلى أهل الرأى فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب . فقال : أحضرونى الرأى فإنى سائر . فأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقم عمر ويرميه بالجنود ، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فهو الذى يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجلا وندب جنداً آخر ؛ وفى ذلك ما يغيظ العدوّ ويقر عين المسلمين ويجىء نصر الله بإنجاز موعوده ، فنادى عمر : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس إليه وأرسل إلى على — كرم الله وجهه — وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه وعلى المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف ، فقام فى الناس فقال : إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شىء من شىء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم

ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم . يا أيها الناس ، إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج . فقد رايت ان أقيم وأبعث رجلا . وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) .

أخذ عمر فى إجالة الرأى فى شأن من يتولى إمارة الجيش وقال : أشيروا علىّ برجل . وكان سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن وقد كتب إليه عمر قبل ذلك بانتخاب ذوى النجدة والرأى والسلاح ، فجاء كتاب سعد إلى عمر وهو يستشير الناس فيمن يبعثه . يقول فيه : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ، إليهم انتهت أحساب قومهم ورأيهم . فلما قرأ عمر الكتاب قال القوم : قد وجدته . قال : من هو ؟ قالوا : الأسد عادياً ، سعد ابن مالك . فانتهى عمر إلى قولهم وأحضروه وأمره على حرب العراق ووصاه فقال : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه ووصاه بالصبر ، وسرحه فيمن اجتمع إليه وهم أربعة آلاف . وكان فى ذلك الجيش حد الأمة العربية وجدها ونجدتها ورأيها . فإن عمر لم يدع رئيساً ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا ذا نجدة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فكانت حاشيتا الجيش تضمان وجوه الناس وغُررهم .

وقد أمر سعداً بالمسير وقال له : إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وهى رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة . فلما نزل بها تفرق الجند فيما حولها من أمواه تميم وأسد . وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفى ذلك الوقت توفى المثنى ابن حارثة من جراحة كانت أصابته قبل ذلك .

وقد كان المثنى البادىء بأمر فارس من تلقاء نفسه ، وكان فارساً مغواراً صاحب مكيدة وغناء فى الحرب ، بصيراً بقيادة الجند ، شديد الحذر ، نافذ الرأى قوّى الإرادة ؛ موفقاً فى الحرب ، مظفراً على العدو ، حريصاً على نصر الإسلام وظهور المسلمين على الفرس . فلما أحس بدنو أجله كتب وصيّته إلى سعد بن أبى وقاص يبصره فيها بأمر العجم ويلقى إليه بزبدة الوقائع التى خضها ونتيجة خبرته وتجاربه قبله . فأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم ، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم ، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ الله الكرة لهم . وهى وصية أنضجتها الخبرة وسبكتها التجربة .

سار سعد من زرود حتى نزل بشراف وأرسل المغيرة بن شعبة إلى ناحية الأُبلة من أرض العرب وكتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس ، فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس (اجعلوهم عشرة عشرة) وعرّف عليهم وأمر على أجنادهم وعبّهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم إليك المغيرة بن شعبة فى خيله واكتب إلىّ بالذى يستقرّ عليه أمرهم . فأرسل سعد إلى المغيرة فانضم إليه ودعا برؤساء القبائل فأتوه . فقدر الناس وعبأهم بشراف وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الأمراء . وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة . وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الإسلام وولى الحروب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها .

فكان أمراء التعبية يلون الأمير . ويليهم أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل ، ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبية وبإذن من عمر . وقد بعث عمر إليهم الأطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وجعل إليه الأقباض وقسمة الفىء وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى

فلما فرغ سعد من تعبيته وأعدّ لـكل شيء من أمره مُجمّاعا ورأساً كتب إلى عمر بذلك . وكان فى تلك الأثناء — قبل إذن عمر فى الارتحال إلى القادسية — قدوم المعنى بن حارثة وسلمى بنت خصفة إلى سعد بوصية المثنى . وكان السبب فى إبطائهما مع أمر المثنى لهما بالتعجل إلى سعد أن الأزاد مرْد بعث قابوس ابن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال : ادعُ العرب وأنت ملك على من أجابك كما كان آباؤك . فلما علم المعنى به أسرى إليه حتى بيته ومن معه فأنامهم فشغله ذلك عن الإسراع إلى سعد بزرُود فلما وقف سعد على الوصية ترحم عليه و ولى المعنّى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً ، وتزوّج سلمى بعد انقضاء عدتها . وكان فى جيش سعد بضعة وسبعون بدْرياً و ثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان فما فوق ، و ثلاثمائة ممن شهد الفتح ، وسبعمائة من أبناء الصحابة من جميع أحياء العرب .

وكان كتاب عمر إلى سعد وهو بشراف : « أما بعد . فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله . واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كئود لبحوره وفيوضه ودآدئه إلا أن توافقوا غيضاً من فيض . وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشدّ والضرب ، وإياكم والمناظرة بجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادُّوهم . وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية — وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار مقنعة — فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما . ثم لزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدّهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدّوكم واحتسبتم لقتاله

ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويردّ لكم الكرة .

وكتب إليه أيضاً باليوم الذى يرتحل فيه من شِراف — وكانت الكتب متواصلة مترادفة بين سعد وعمر رضى الله عنهما — .

وقد جاء إلى سعد كتاب عمر يقول له فيه : « واكتب إلىّ أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم . فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر أمركم عليه . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها . واجعلنى من أمركم على الجلية » .

فكتب إليه سعد بصفة البلدان يقول . « القادسية بين الخندق والعقيق[1] وإن ماعن يسار القادسية بحر أخضر فى جوفٍ لاحٍ[2] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطىء النهر يدعى الحَضُوض[3] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[4] والحيرة . وإن ما على يمين القادسية إلى الولَجة فيض من فيوض مياههم . وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السَّواد قِبَلِى إلْبٌ لأهل فارس . قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رُسْتم فى أمثال له منهم . فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعدُ ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدّر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر فى عافية » .

---

(١) الخندق : حفير لسابور الملك ببرية الكوفة ، والعقيق : نهر
(٢) لاح : ضيق
(٣) الحضوص كصبور . نهر كان بين القادسيه والحيرة .
(٤) الخورنق كفدوكس : قصر للنعمان الأكبر ، معرب خورنكاه ، أى موضع الأكل .

فكتب إليه عمر : « قد جاءنى كتابك وفهمته . فأقم بمكانك حتى يُنْغِض الله لك عدوّك واعلم أن لها ما بعدها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله » ثم كتب إلى سعد : « إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدوّ وهزمتموهم فاطرحوا الشكّ وآثروا التقية عليه فإنْ لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قَرفَه بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى الأمان وإياكم والضحك والوفاء الوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهْنُكم وقوّة عدوّكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم . واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم .

ولما نزل سعد عذيب الهجانات بثّ الغارات وكان من ذلك سرية فيها الشمّاخ الشاعر القيسى فى ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس وأميرهم بُكير ابن عبد الله الليثى وسرحهم فى جوف الليل وأمرهم بالغارة على الحيرة فسروا حتى جاوزوا السليحين وقطعوا جسرها يريدون الحيرة فسمعوا جلبة فأحجموا عن الإقدام وأقاموا كميناً فمرت بهم خيل تقدم تلك الغوغاء فتركوها فنفذت الطريق . وإذا أخت أزاد مَرْد بن أزاذبه مرزبان الحيرة تزفّ إلى صاحب الصِّنّين وكان من أشراف العجم . فلما انقطعت الخيل عن الزواف والمسلمون كمين فى النخل وجازت بهم الأثقال حمل بُكير على شير زاد بن أزاذبة فقصم صلبه وطارت الخيل على وجوهها . واحتوى المسلمون الأثقال وابنة الازاذبه وثلاثين امرأة من نساء الدهاقين ومائة امرأة من التوابع ومما لا يدرى قيمته ثم عاجوا فصبحوا سعدا بعذيب الهجانات بما أفاء الله على المسلمين فكبر المسلمون تكبيرة شديدة . فقال سعد : أقسم بالله لقد كبّرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزّ . ثم فضّ الغنيمة فى المجاهدين بعد أن نفل الخمس وأعطاهم بقيته ، فوقع ذلك منهم موقعاً .

كان كثير من المسلمين يرحلون إلى الغزو بحريمهم وعيالاتهم وذراريهم فأنزل سعد حريمهم فى حامية وأمّر عليهم غالب بن عبد الله الليثى ونزل سعد بالقادسية .

كانت الفرس تنظر إلى رستم نظر المستغيث إلى مغيثه وكانت العرب من حين نزولهم إلى القادسية يبثون السرايا فتغير على النعم والدواب وكانوا فى قرم إلى اللحم أما الشعير والحنطة وما ينفع من الحبّ فقد كان عندهم من ذلك الحبّ ما يغنيهم أياماً طويلة لولم يأتهم منه شيء ، وكانوا يسمون الأيام بأسماء ما يأتيهم من اللحمان كيوم الأباقر ويوم الحيتان . فلما تواترت منهم الإغارات فى السواد على دوابّ الفرس ومن معهم واغتنام مواشيهم ، كتب أهل السواد وعظماء فارس ممن كان له ملك بناحيتهم إلى يزدجرْد وعجوا إليه بالشكوى من العرب وما يعترونهم به من النكبات قائلين : إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب وإنّ فعل العربِ مذ نزلوها لا يبقى على شيء وقد أخربوا مابينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك أنيس إلا فى الحصون وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا ، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا .

وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالطفّ وهيجوه على بعثة رُسْتُم.

أرسل يزدجرد إلى رستم فلما جاء قال له : إنى أريد أن أوجهك فى هذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدَرها وأنت رجلُ أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولى آل أردشير . فأراه أن قد قبل منه وأثنى عليه .

إن اشتراك الملوك مع القوّاد فى شؤونهم إذا كانوا غير مضطلعين بالحرب عارفين بكل ما يلزم لها لا يعود إلا بالخيبة والخسار . وهذه العادة الرديئة قد خذلت قوّاداً من أحسن القواد خبرة وأغزرهم علماً بالحرب وفنونها ومكايدها . فكانت وبالا على الدول . ونحن لم نزل نسمع مايقوله الخبراء عن

إدارة الحرب الروسية العثمانية سنة ١٢٩٤ — ١٢٩٥ هـ إنما كان أكبر أسباب الخذلان فيها أن القوّاد لم يكونوا أحراراً فى عملهم من تقدم أو تأخر بحسب ما يستلزم الميدان وتقتضيه الأحوال . بل كانت الأوامر من القوّاد من الآستانة.

من ذلك أن يزدجرد قال لرستم : صف لى العرب وفعلهم منذ نزلوا القادسية وصف لى العجم وما يلقون منهم . فقال رستم : صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت فقال : ليس كذلك إنى إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب . فافهم عنى . إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل فتبيت فى سفحه فى أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شذّ منها شىء اختطفه فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته . وجعلت كلما شذّ منها طائر اختطفه فلو نهضت نهضة واحدة ردته . وأشدّ شىء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت . فهذا مثلهم ومثل الأعاجم ، فاعمل على قدر ذلك . فقال له رستم : أيها الملك ، دعنى فإن العرب لا تزال تهاب العجم مالم تُضْرِهم بى ، ولعل الدولة أن تثبت بى فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة رأى الحرب . فإن الرأى فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر . فأبى عليه وقال . أى شىء بقى ؟ فقال رستم . إن الأناة فى الحرب خير من العجلة وللأناة اليوم موضع . وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشدّ على عدّونا . فلج وأبى فخرج حتى أنزل عسكره بساباط .

رأى رستم أنه يسير فى الحرب برأى غيره ويعمل فيها بمشورة سواه الغائب عنها الجاهل بها فأراد أن يستعفى يزدجرد من قيادة الجيش فى هذا الوجه واختلفت منه إلى الملك الرسل ليرى موضعاً لإعفائه وبعثه غيره فلم يُنله الملك مأربه .

قد يقال إن عمر كان يوافى سعداً بالنصائح والآراء ، ولا ينتقل من موضعه الذى يكون فيه إلا بأمر منه ، فلماذا لم يكن هذا توهينا لأمر سعد ؟ والجواب على هذا أن عمر من أهل المكيدة فى الحرب والرأى الراجح والبصر النافذ فيها

وهو يخشى أن يتورط سعد فيما تورط فيه أبو عبيد يوم الجسر . فكان يحذره مثل ذلك . ولما صار سعد مع العجم وجها لوجه . لم يكن ليأمره بشيء من أمر الحرب لأنه أعلم بها من الغائب عنها . والدليل على أن عمر كان ضليعاً بالحرب ذا كفاءة للقيادة أن أبا بكر رضى الله عنه كان يندم على أنه حين صرف خالد بن الوليد عن العراق إلى الشام لم يكن قد ولى عمر مكانه فجعله بحيال فارس . وكانت كل أوامر عمر تصدر إلى القائد بأخذ الحيطة والاحتراس والتأنى والحث على الصبر والعدل والزهد فى الدنيا ونحو ذلك مما هو بمنزلة المدد للجيش . والفرق بين الغرضين واضح .

خرج رستم حتى نزل بساباط واجتمع إليه الجند . وجاء العيون إلى سعد بذلك من قبل الحيرة وبنى صلوبا . فأعلم عمر بذلك ، وكثرت الاستغاثة على يزدجرد من أهل السواد وعليهم الإزاذمرد بن الإزاذ به الذى جشعت نفسه وكان ضيقاً لجوجا فاستحث رستم فقال له : أيها الملك ، لقد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به فأنشدك الله فى أهلك ونفسك وملكك . دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس : فإن تكن لنا فذلك ، وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامُّون . فأبى إلا أن يسير . فكتب إلى فارس وعظمائها أن يرموا حصونهم وأن يعدوا ويستعدوا . وقال فى كتابه فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم ، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم .

ولما بلغ عمر أن كسرى ولى رستم بن الْفَرُّخْزَاذْ حرب المسلمين وفصول رستم بالجند إلى ساباط كتب إلى سعد لا يَكْرُبنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجلا من أهل المنظرة والرأى يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجا عليهم . واكتب إلى فى كل يوم .

ولما جاء أمر عمر إلى سعد اختار من جنده قوما عليهم نِجار وآخرين لهم

آراء ، فأما الأولون فالنعمان بن مقرّن . وبُسر بن أبى رهم ، وحمالة بن جويّة الكنانى. وحنظلة بن الربيع التميمى ، وفُرات بن حيان العجلى ، وعدى بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة . وأما الآخرون فعطارد بن حاجب ، والأشعث ابن قيس ، والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو . وعمرو بن معد يكرب ، والمغيرة بن شعبة ، والمُعنى بن حارثة ، فبعثهم دعاة إلى الملك كسرى يزدجرد فسار القوم حتى وصلوا إلى المدائن واستأذنوا فحبسوا ، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ويقوله لهم . وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون إليهم وعليهم المقطات والبرود وفى أيديهم سياط دقاق وفى أرجلهم النعال وبعد أن أجلسهم قال للترجمان : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا من أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فردّ عليه النعمان بن مقرّن وكان رئيس الوفد : إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته . فقالوا بل تكلم . وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا فقال النعمان : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم . فقال يزدجرد : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقلّ عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم . قدكنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوننا إياكم

لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم . فسكت القوم .

فقام المغيرة بن زُرَارة الأسيدى فقال : أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظِّم حقوق الأشراف الأشراف ، ويفخم الأشراف الأشراف . وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه . وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حيّة كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت ، فبعث الله إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ؛ فأرضه خير من أرضنا ، وحسبه خير من حسبنا ، وبيته أعظم من بيوتنا ، وقبيلته خير من قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا . فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من تِرْب كان له وكان الخليفةَ من بعده ، فقال وقلنا ، وصدَّق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ؛ فلم يقل شيئاً إلا كان ؛ فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه . فصار فيما بيننا وبين ربّ العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول : إنى أنا الله وحدى لاشريك لى ، كنت إذ لم يكن شىء ، وكل شىء هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شىء وإلى يصير كل شىء وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل الذى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ولأحلكم دارى . دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ، ومن ابى فاعرضوا عليه الجزية

ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه . فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك .

أصابت الكلمات مكان العزة من نفس كسرى يزدجرد ، ورأى كبيراً عليه أن ينابذ إليه بالقتال — وهو شاها نشاه الواسع ، الملك العزيز الجانب المهيب السطوة — من قوم ظلوا مستضعفين لآبائه طول حياتهم لا يأبه لامتلاك أرضهم طامع ، ولا ترغب نفس أحد الملوك فى التغلب عليهم لقحولة أرضهم ، وقلة ريفها ، وسوء عيشهم فيها ، وقلتهم وذلتهم . وأقل عَبْدٍ من عَبيده أبهى منهم رواء . وأحسن منظراً ، وهو أقوى منهم ناصراً وأكثر عدداً . وهاجه منهم أن يستقبلوه بطلب الجزية يؤدِّيها صاغراً فعل الذليل المستضعف ، والحقير المستضام . فقال محنقاً : أتستقبلنى بمثل هذا ؟ فقال : مااستقبلت إلا من كلمنى ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به فقال كسرى : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى . ثم قال ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن . ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية ، وينكِّل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم . ثم قال : من أشرفكم ؟ فقال عاصم بن عمرو : أنا . فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليها ، ثم صار هو وأصحابه حتى أتى إلى سعد بالتراب متفائلين بالظفر ، متأولين أن كسرى أعطاهم أرضه . وإنما قصد كسرى أن يعطيهم التراب من الجزية ولا ينالون منه إلا المذلة التى تكون بحمل التراب .

وقد جهد رستم حين بلغه ماصنع كسرى أن يلحق عسكراً بحامل التراب ليأخذوه منه فأخبر بأنه فاتهم إلى المسلمين فأهمه ذلك ورآه فال سوء عليهم .

وكان يتعاطى العيافة والتنجيم واعتدّها من سوء فعل الملك .

وفى الوقت الذى قرب فيه جيش رستم كان سعد قد بثّ الطلائع لاستطلاع أحوال الفرس وتقدّم إليهم أن يأتوه برجل من الفرس يعلمه علمهم ، وكان فيمن ذهب إلى هذا الوجه عمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدى وطليحة بن خويلد الأسدى — الذى كان متنبّئاً فى بنى أسد أيام الردّة — فلما رأوا عسكر الفرس ، وكانوا لا يعلمون بقدمهم ، لم يشأ طليحة أن يعود إلى معسكر المسلمين . فقال له أصحابه : ما تريد ؟ قال : أريد أن أخاطر القوم أو أهلك . فقالوا : أنت رجل فى نفسك غدر ولن تُفلح بعد قتلك عكاشة بن محصَن . فارجع بنا . فأبى ومضى حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسّم . فلما أدبر الليل أتى فى ناحية العسكر فإذا فرس لم ير فى خيل القوم مثله فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ثم ضمه إلى مقود فرسه ثم حرك فرسه فخرج يعدو به . ونُذر به عسكر الفرس فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول فى طلبه ، وأصبح وقد لحقه فارس من الجند فبعد مصاولة قليلة قتله طليحة ، ثم لحق به آخر فسقاه بكأس الأوّل ، ثم لحق به ثالث فما زال يصاول حتى استأسر الفارسى ، فسار حتى غشى عسكر المسلمين فجاء إلى سعد ؛ فلما انتهى إليه قال له : ما وراءك ؟ قال : دخلت عساكرهم وجُسْتُها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توسُّماً ، وما أدرى أصبت أم أخطأت ؟ وها هو ذا . فاستخبره وأمنّه على دمه إن صدقه فاسمح له بذلك . فقال : أخبركم عن صاحبكم قبل أن أخبركم عمن قبلى . باشرت الحروب وغشيتها ، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى . ولم أر ولم أسمع بمثل هذا . إن رجلا قطع عسكرين لا يجترىء عليهما الأبطال — وكان طليحة قد جاز عسكر الجالينوس وعسكر ذى الحاجب إلى عسكر رستم — إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الواحد منهم الخمسة إلى العشرة فما دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته فأنذره فأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأوّل وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله فأدركه الثانى وهو نظيره

فقتله ، ثم أدركنه لا أظُنُّنى خلفت بعدى من يعدلنى وأنا الثائر بالقتيلين ، وهما أبناء عمى ، فرأيت الموت فاستأسرت . ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف ، وبأن الأتباع مثلهم خُدّام لهم ، وأسلم الرجل وسُمّى مسلما ، وكان من أهل البلاء .

كان بين خروج رستم من المدائن إلى أن لقى سعداً أربعة أشهر ، لا يقدم ولا يقاتل رجاء أن يضجر المسلمون بمكانهم ، وأن يجهدوا فينصرفوا ، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقىَ من قبله وطاولهم . وجعل الملك يستحثّه وينهضه ويقدمه حتى أقحمه .

كان على مقدّمة سعد زهرة بن الحَوِيّة ، وعلى مجنبتيه عبد الله بن المُعتم وشرحبيل بن السمط الكندى ، وعلى مجردته عاصم بن عمرو ، وعلى المرامية والرجل قائدان من أهل النجدة ، وعلى الطلائع سواد بن مالك . وعلى مقدّمة رستم الجالينوس ، وعلى مجنبتيه الهرمُزان ومهران ، وعلى المجردة ذو الحاجب ، وعلى الطلائع الفيرُزان ، وعلى الرجالة زاذ بن بهيش . فلما انتهى رستم إلى العقيق نزل عليه بحيال عسكر سعد وتلاحق به العسكر حتى تكاملوا وأخذوا منازلهم والمسلمون ممسكون عنهم ، وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا مُضرّاةً بالحرب .

ولما أصبح رستمساير العقيق ليَحزُر المسلمين ويعرف مقدار عددهم حتى انتهى إلى منقطع العسكر . وأرسل إلى زهرة قائد مقدمة المسلمين فخرج إليه حتى واقفه . فأراده على الصلح ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه وجعل يقول : أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ونكفّ الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم فى أهل باديتهم ؛ فنرعيهم مراعينا ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شىء من أرضنا ، وقد كان لهم فى ذلك معاش . يعرّض لهم بالصلح ولا يصرح . فقال له زهرة : صدقت قد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنّا كما ذكرت يدين لكم

من ورد عليكم منّا ، ونضرع إليكم بطلب ما فى أيديكم ؛ ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة عليهم ماداموا مقرّين به ، وهو دين الحقّ لا يرغب عنه أحدٌ إلا ذلّ ، ولا يعتصم به أحدٌ إلا عزّ . فقال رستم : وماهو ؟ قال : أما عموده الذى لايصلح منه شىء الا به ، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بماجاء من عند الله تعالى : قال : ما أحسن هذا ؟ وأىّ شىء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : حسن ، وأىّ شىء أيضاً ، قال : والناس بنو آدم وحوّاء إخوة لأب وأم . قال : ما أحسن هذا . ثم قال له رستم : أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى ، كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟ قال : أى والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة . قال صدقتنى .

لم يكن استرسال رستم معه فى الكلام هذا الاسترسال عن اقتناع أو رضى بما يقول ، وإنما كان خديعة ليأتى زهرة بآخر ماعنده ويعرض عليه منتهى أمانيه وأمانى القوم الذين هو منهم ، ويدلّ على ذلك قول رستم له بعد ذلك : والله إن أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السِّفْلة . كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا إلى أشرافهم . فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون . نطيع الله فى السِّفْلة ولا يضرنا من عصى الله فينا .

إن الكلام الحق لابدّ أن يترك فى النفس أثراً ، مهما حاول الإنسان مقاومته . فلما انصرف رستم إلى قومه دعا رجال فارس فذاكرهم ما دار بينه وبين زهرة فَحَمُوا من ذلك وأنفوا ونالوا منه ونال منهم .

أرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة ، وبشر بن أبى رهم ، وعرفجة بن هرثمة ، وحذيفة ابن مُحصَنٍ وربعىّ بن عامر ، وقرفة بن زاهر الوائلى . ومذعور بن

عدى العجلى ، ومعبد بن مرّة العجلى ، والمضارب بن يزيد العجلى . وكان معبد من دُهاة العرب فقال : إنى مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟ قالوا جميعاً : نتبع ماتأمرنا به وننتهى إليه ، فإذا جاءنا أمر لم يكن منك فيه شىء نظرنا أمثل ماينبغى وأنفعه للناس فكلمناهم به . فقال سعد : هذا فعل الحزمة . اذهبوا فتهيأوا . فقال ربعىّ بن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآداب ومتى جئناهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فمالؤوه على ذلك ، فقال : سرحونى فسرحه حتى دخل على عسكر رستم فجبسه العسكر حتى جاء إذن رستم فيه ، وقد أظهر رستم الزينة وبسط البسط والنمارق ، وجلس رستم على سرير الذهب ولبس زينته . وأقبل ربعىّ على فرس له زباء قصيرة ، ومعه سيف مشوفٌ وغمده لفافة ثوب خَلَق ورمحه معلوب . ومعه حجفة من جلود البقر على وجهها قرص جلد أحمر مثل الرغيف ، ومعه قوسه ونبله ورمحه ، وعليه درع له كأنها إضاة ويلمعة . عباءة بعيره قد جلبها وتدّرعها وشدّها على وسطه بسلب وقد شدّ رأسه بمعجرته ، وهى نِسعة بعيره ، ولرأسه أربع ضفائر كأنها قرون الوعلة . ولم ينزل عن فرسه إلا على البساط ، ثم أرادوه على وضع سلاحه فأبى أن يأتيهم إلا كما يريد وإلا رجع . وأراد أن يستحرجهم فأقبل يمشى وهو يتوكأ على رمحه وَزُجُّه نصل يقارب الخطو وزج الرمح يهتك النمارق والبسط .

ولما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض . وركز رمحه بالبساط فقالوا له : ماحملك على هذا ؟ فقال: لانستحبّ الجلوس على زينتكم هذه ، فقال له رستم : ماجاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه . فمن قبل ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله . قال : ومامو عود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى فقال رستم : قدسمعت مقالتكم . فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟

قال نعم ، كم أحب إليك ؟ أيوماً أم يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . وأراد مقاربته ومدافعته . فقال : سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . اختر الإسلام وندعك وأرضك ، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه ؛ وإن كنت إليه محتاجاً منعناك . أو المنابذة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك على أصحابى . وعلى من ترى . وكأن رستم عد غريباً أن يضمن له هذا الرجل الزرىّ الهيئة سكون الجيش إلى اليوم الرابع ، فقال له : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم .

كان رستم قد قارن بين ما قال زهرة وما قاله ربعىّ بن عامر . فرأى اتحاداً فى الكلمة ، وصدقا فى اللهجة . وفى اعتقادى أنه أراد أن يصرف القوم عن بلاده بأى الوسائل ، وفى نيته أن يخدعهم بقبول دينهم ويصرفهم عن وجههم بكلمة ينطقها ، ثم يكون على ما عليه قومه . ولو وجد من فارس من يعينه على رأيه لفعل . ولكنه خلص إلى أهل فارس ورؤسائهم فقال : ماترون ؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله لك أن تميل إلى شىء من هذا أو تدع دينك لهذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ ثم أخذوا يعيبون رثاثته وتناولوا سلاحه وأداة حربه فعمدوا إلى تجربتها فاستبان فضل ذلك على سلاحهم . فلما رأى منهم ربعىّ ذلك قال : يا أهل فارس ، إنكم عظمتم اللباس والطعام والشراب وإنا صغرناهنّ ، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل

فلما كان اليوم الثانى طلب رستم أن يرسل اليه المسلمون الرجل الذى كان بالأمس (ربعىّ) فأرسل إليه سعد حذيفة بن محصن ، وكان منه ما كان من ربعىّ ، لا يكاد أمرهما يختلف . ثم فى اليوم الثالث طلب رستم أن يرسل إليه سعد رجلا له عقل ورأى يكلمه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة .

جاء المغيرة إلى رستم ومعه وجوه قومه، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة من مجلس رستم. وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه. فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوما أسفه منكم. إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تتواسون بينكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض. وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه. ولم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون. وأن مُلكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول. فقال السفلة: صدق والله هذا العربي، وقال الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه. قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة. وقد رأى رستم أن يأسو ما صنعت حاشيته وأن يطيب خاطره ليستخرج ما عنده، فمازحه ليمحو ما صنع. فقال له: يا أعرابي إن الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق، ما هذه المغازل التي معك؟ (يريد السهام) قال: ما ضر الجمرة أن لا تكون طويلة، ثم راماهم. قال: ما بال سيفك؟ قال: رث الكسوة، حديد المضربة ثم عاطاه سيفه.

بعد ذلك أراد رستم أن يكلمه فيما استقدمه لأجله. فقال له: تكلم أو أتكلم؟ فقال المغيرة: أنت الذي بعثت إلينا فتكلم. فأقام الترجمان بينهما وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوله وقال: لم نزل متمكنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافا في الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين، أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضي رد علينا عزنا وجمعنا لعدونا ثم لم يكن

فى الناس أمة أصغر عندنا أمرا منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ، ثم نردكم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم وأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم . فتكلم المغيرة بن شعبه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

إن الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذى له ؛ وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن فى البلاد وعظم السلطان فى الدنيا ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره فالله صنعه بكم ووضعه فيكم ، وهو له دونكم .

وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك فصيرنا إليه ، والدنيا دول ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال . ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يرفه بها عنا . ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به .

إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا (ثم ذكر ما ذكره سابقه حتى انتهى إلى قوله) وإن احتجت إلينا أن نمنعك منعناك فكن لنا عبدا تؤدى الجزية عن يد وأنت صاغر وإلا السيف إن أبيت .

فاستشاط رستم غضبا ، وحلف بالشمس : لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين . فانصرف المغيرة .

ثم بعد ذلك أرسل سعد بقية ذوى الرأى إلى رستم وحبس الثلاثة الذين ذهبوا إليه فكلمهم بمثل ما تكلم به وكلموه بمثل ما تكلم به سابقوهم وضرب لهم الأمثال وضربوا له الأمثال كذلك، ثم تهيأ الفريقان للحرب.

وقد سأل رستم ذلك الوفد: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا إلينا. وأخذ سعد فى الاستعداد — ولما أرادوا عبور العقيق على القنطرة وكانت فى يد المسلمين أبوا عليهم ذلك وقالوا شىء غلبناكم عليه لا نعيده إليكم أبدا بل انظروا لكم معبرا آخر، فباتوا ليلتهم يسكرون العقيق ثم اصبحوا فعبروه على ما سكروا به من قصب وبراذع وتراب.

عين رستم جيشه ورتب الفيلة فى مواقفها وعليها الرجال فى الصناديق؛ وكان يزدجرد قد رتب الرجال بينه وبين رستم بين كل رجلين مقدار ما يسمع أحدهما صوت الآخر فكلما نزل او ارتحل أو حدث أمر قاله فقاله الذى يليه حتى يقوله الذى يلى باب الإيوان وفيه الملك. وهكذا إذا أراد الملك إصدار أمر إلى رستم على هذا النمط. فكانت الأخبار تعلم ساعة حدوثها لا يغيب عنه شىء حدث فى ليل أو نهار.

كان بسعد عِرق النَّسا وحُبون قامت له، لا يستطيع معها الركوب ولا الجلوس. فخلف على الناس خالد بن عُرفُطة. فشغب عليه بعض وجوه الجند. فقال سعد: احملونى واشرفوا بى على الناس. فارتقوا به فأكب مطلعا عليهم وتحت صدره وسادة. وأتى بمن شغب على خالد فهمّ بهم وشتمهم وقال: أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ولا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائه إلا سُنتْ به سنة يؤخذ بها من بعدى — ثم كتب إلى الرايات: إنى قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعنى أن أكون مكانه إلا وجعى الذى يعودنى وما بى من الحبون، فإنى مكب على وجهى وشخصى لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم ويعمل برأيى. فقرىء أمره على الناس فانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة والرضا بما صنع سعد. فكان سعد يرمى بالرقاع فيها أمره

ونهيه إلى خالد بن عرفطة وخالد يبلغها من قصد بها لينفذها (فكان أركان حرب لسعد ذلك اليوم) .

وقبل أن تنشب الحرب بين الفريقين أرسل سعد إلى الذين انتهى إليهم رأى الناس والذين انتهت إليهم نجدتهم ومن أحرزوا أصناف الفضل ، فكان منهم ذوو الرأى النافذ الذين أتوا رستم : المغيرة بن شعبة ، وحذيفة بن مُحصن ، وعاصم بن عمرو ، وبسر بن أبى رهم ، وعرفجة بن هرثمة ، وربعى بن عامر ، وقرفة بن زاهر ، ومذعور بن عدى ، ومعبد بن مرة ، والمضارب بن يزيد ، وطليحة وقيس الأسديان ، وغالب بن عبد الله الأسدى . وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم ، ومن الشعراء : الشماخ والحطيئة وأوس بن مغْراء وعبدة بن الطيب وأمثالهم . وقال انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم — فما شئت فى ذلك اليوم من خُطب حشوها الحث على الحرب والحض على الطعان والاستبسال بكلام تستأسد منه الأوعال ويستنسر به البغاث ويغلى به دم القلوب وتتوتر له الأعصاب . ومن شعر يوّرث الشر ويوغر الصدور ويهون الموت . لو تتبعنا ذلك لامتد بنا القول واتسع مجال الكلام وخرجنا عن عهدة ما نحن بصدده .

اتّفق سعد مع جنده أن يكبر لهم ثلاث تكبيرات ، والثالثة علامة بدء الحرب والرابعة علامة الزحف العام وإن ذلك يكون بعد صلاة الظهر . فلما أذن المؤذن بصلاة الظهر وأدوا المكتوبة كبر سعد ثلاث تكبيرات ، فلما كبر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال . وبرز غالب بن عبد الله الأسدى وهو يقول :

قد علمت واردة المسائح　　ذات اللّبَان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح　　وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب   مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب   مثل على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهى علامة الهجوم العام فزحف الجنود واصطدموا صدمة من أشد صدمات الحروب هولا . وكان أشد شيء لقى منه المسلمون عناء لا يطاق الفيلة . فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت عن الرجالة وكان مبدأ أمرها فى بجيلة ، توكل حين فرت عنها خيلها فرقاً من الفيلة. فلما رأى سعد ما حل بهم أعانهم ببنى أسد فصمدوا لها وكانت حلبة الفرس تدور على بنى أسد قبل الهجوم العام . فلما رأى سعد ما حل ببنى أسد من الفيلة أرسل إلى عاصم بن عمرو التميمى وقال : يا معشر بنى تميم ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى ثم نادى برجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال للرماة : ذبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال لأهل الثقافة : استدبروا الفيلة وقطعوا وُضُنَها ، ففعل كل فريق ما أمر به ووقعت الصناديق عن ظهور الفيلة ، فلم يبق من ركبان الفيلة راكب إلا قتل . ولما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها ونفّس ذلك الكرْب عن بنى أسد بعد ما قتل منهم فى ذلك اليوم خمسمائة مقاتل وكانوا ردءاً للناس . واستحر القتال حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل . وقد كان الظفر ظاهراً ذلك اليوم فى صفوف الفرس وهذا اليوم يسمى يوم أرماث — وكان فيه عاصم عادية الناس وحاميتهم . وكان ذلك فى المحرم سنة ١٤ ﻫ يوم الإثنين .

يوم أغواث

ولما أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعبية ووكل سعد قوماً بنقل القتلى إلى مُشرّف وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس ، ووكل آخرين بحمل الجرحى إلى العذيب ليقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم وبينما القوم على هذا الحال

ولم ينشب القتال إذ طلعت نواصى خيل الإسلام قادمة من الشام . وذلك أن عمر أرسل إلى أبى عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرد الجند الذين جاءوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ليكونوا عونا لجنود سعد على قتال الفرس . فكان وصولهم إلى جيش المسلمين ذلك اليوم قبل انتشاب القتال وكانوا سته آلاف ، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من أفناء اليمن . وكان خالد قد فصل بهم وهم تسعة آلاف قبل اليرموك — وكان الأمير على هذا الجيش عتبة بن أبى وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى مجنبتيه قيس بن هبيرة ، والهزهاز بن عمرو العجلى . وقد عجل القعقاع فطوى حتى قدم المسلمين بالقادسية صبيحة ذلك اليوم .

وقد أراد القعقاع أن يوقع الرعب فى قلوب الفرس فقسم جيشه عشرة أقسام ليردوا على المسلمين قسما بعد قسم ليعلم الفرس أن المدد مواصل على المسلمين فيكون ذلك أدعى إلى انكسار نفوسهم — ثم قدم هو فى القسم الأول ولم يلبث أن باشر القتال ذلك اليوم . وكان قدومه سبباً لتنشيط المسلمين واستبشارهم حتى كأن لم تكن فيهم مصيبة بالأمس . وقد كان القعقاع فارس يوم أغواث . فإنه حين ورد ساحة الحرب طلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب بَهْمَنْ جاذويه وهو صاحب يوم الجسر الذى قتل فيه أبو عبيد فقتله القعقاع ، ثم برز إليه البيرزان والبندوان . فقتل القعقاع أولهما ، وقتل الحارث بن ظبيان ثانيهما وباشر المسلمون العجم بالسيوف فاجتلدوا إلى المساء وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ولم ير أهل فارس فى قتال هذا اليوم مايعجبهم ولم تباشر فيلتهم الحرب لأن صناديقها كانت قد تكسرت فلم تصلح حتى أمسى المساء ، وفى هذا اليوم قدم رسول عمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس لتقسم على أهل البلاء إن كان سعد لقى حرباً ففضها سعد فى أهل البلاء وفى ذلك يقول الدبيل بن عمرو :

لقـــد علم الأقوام أنا أحقهم إذا حصلوا بالمرهفات البواتر
وما فتئت خيلى عشـــية أرمثوا يذودون رهواً عن جموع العشائر

لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم　　وقد أفلحت أخرى الليالى الغوابر

وقال القعقاع :

لم تعرف الخيل العراب سواءنا　　عشية أغواث بجنب القوادس

عشـــية رحنـا بالرماح كأنها　　على القوم ألوان الطيور الرسارس

ومما صنعه المسلمون فى ذلك اليوم أن بنى عم القعقاع حملوا عشرة عشرة من الرجال على إبل قد ألبسوها الجلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها فى حملتها على خيول العجم بين الصفين يتشبهون بالفيلة ، فجعلت تلك الإبل لا تصمدُ لقليل ولا كثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين وقد استن بهم الناس فى عملهم فلقى الفرس منها مالقيت خيل المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول وقد استحر القتال إلى نصف الليل وكان الظفر للمسلمين واضح الغرة ذلك اليوم .

وفى ذلك أبلى أبو محجن الثقفى بلاء حسنا ، وذلك أنه كان محبوساً فى منزل سعد بن أبى وقاص لشغبه على خالد بن عرفطة ، فلما كان يوم أغواث قال لسلمى زوج سعد هل لك أن تخلينى وتعيرينى البلقاء ؟ فلله إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى فأبت ، فقال :

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا　　وأترك مشـــدوداً على وثاقيا

إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت　　مصاريع دونى قد تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة　　فقد تركونى واحداً لا أخاليا

ولله عهـــد لا أخيس بعهده　　لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فرقت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها فحمل على الفرس وكان يقصف الناس قصفا منكراً . وتعجب المسلمون منه وهم لا يعرفونه وكان سعد يقول لولا تحبس أبى محجن لقلت أبو محجن وهذه البلقاء حتى إذا انتصف الليل أقبل وأعاد رجليه فى القيد وقال أبياتاً منها :

وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمُخْرِجِيَ الزُّحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائى وإن أترك أذيقُهم الحتوفا

وآخر أبياته الأولى يدل على أنه إنما حبس فى الخمر كما هو المشهور وبدليل قوله لزوجة سعد وقد سألته عن سبب حبسه : إنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى ، فقلت :

إذا مُت فادفنى إلى جنب كرمة تروّى عظامى حين تسقى عروقها
ولا تَدْفِنـنّى فى الفلاة فإننى أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

ولعله كان قد اجتمع عليه الأمران . ولما علم سعد بأمره أطلقه وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله . فقال لا جرم لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح أبداً .

يوم عماس

وفى اليوم الثالث أصبح القوم وهم على مواقفهم وقد أصيب من المسلمين ألفان ما بين قتيل وجريح وأحرز المسلمون قتلاهم خلف ظهورهم ووكلوا بهم من يدفنهم وبالجرحى من يبلغهم مكان النساء لتمريضهم وكان النساء والصبيان يحفرون القبور فى يومى أغواث وأرماث .

وقد بات القعقاع يسرب أصحابه وأمرهم أن يعودوا من النهار مائة مائة ليجدد نشاط المسلمين ، وكان قتلى فارس بين الصفين لم يوارهم أحد ، فكان ذلك مما أشجى الفرس وفتّ فى عضدهم . وزاد ذلك ما صنعه القعقاع بجنوده وطلوعهم مدداً للمسلمين واقتدى به عاصم بن عمرو ووصل هاشم بن عتبة فى سبعمائة من جند عتبة بن أبى وقاص فصنع صنع القعقاع وكلما جاء جماعة كبر المسلمون .

أما الفرس فقد أصبحوا على مواقفهم وقد أصلحوا توابيت الفيلة فأقبلت

ومعها رجال يحمونها أن تقطع وُضنها ومن خلفهم رجال تحميهم إذا أرادوا كتيبة دَلفَوْا لها بفيل وأتباعه لينفروا بهم خيلهم . وقد ظن الفرس أن ذلك يكون كما حصل فى يوم الرماث ، ولكن خيل المسلمين لم تنفر من الفيلة فعلها فى ذلك اليوم ، لأن الفيلة فيه كانت وحدها ، فلما كانت فى هذا اليوم والفيلة معها الرجال أنست الخيل ولم تنفر . واستمر القتال شديداً بين العرب والعجم كل فريق منهما صابر على شدة القتال والنجدات تصل إلى الفرس ويزدجرد يُزْجيها ويمدهم بأهل النجدة والبأس من قومه والأمداد تصل على البرُد وهم يقوون بها كما قوى المسلمون بهاشم بن عتبة ومن معه ، وكان البلاء فيه من الجانبين على السواء .

رأى سعد أن الفيلة قد عادت إلى فعلها فى اليوم الأول فأرسل إلى جماعة من مسلمة الفرس أسلموا قبيل الحرب فسألهم : هل للفيلة مَقاتل ؟ قالوا : نعم مشافرها وعيونها ، فأرسلوا إلى القعقاع وعاصم ابنى عمرو وقال لهما : اكفيانى الفيل الأبيض ، وأرسل إلى الربيل وحمال الأسديين وقال لهما : اكفيانى الفيل الأجرب ، وكانت الفيلة كلها آلفة لاثنيهما . فحمل القعقاع وأخوه على الفيل الذى وجه له ففقأ عينه ونفحه بالسيف فرمى بمشفره ، فلم يكن من الفيل إلا أن يُقْعى على من خلفه ثم ينقلب بمن على ظهره فيقتلهم المسلمون ، وأما الآخران فعورا الأجرب ورميا بمشفره فنفر ووثب فى العقيق فتبعته الفيلة وخرقت صفوف الفرس وألقت من عليها وعبرت العقيق فى أثر الأجرب حتى أتت المدائن بتوابيتها .

ولما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون بأهل فارس ومال الظل تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا على حرَدَ بالسيوف وهم فى ذلك على السواء .

ولما جاء الليل خرج القعقاع بن عمرو التميمى فى جند وزاحف الفرس بغير

إذن سعد ثم تبعه كثير من القبائل حتى زحف الجيش كله واشتد القتال وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع فى تلك الليلة سوى صليل السيوف كأنه صوت مطارق الحداد على الحديد ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم وبات سعد بليلة لم يبت مثلها وأقبل على الدعاء للمسلمين بالنصر . فلما أصبح الصبح انتسب الناس فعلم أنهم الأعلون وأصبح الناس وهم حسرى لم تغمض عيونهم ليلتهم كلها .

ولما أصبح القوم أخذ القعقاع يحرض الناس ويقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا عليهم فإن النصر مع الصبر، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وتحاضوا على الموت وحملوا فى من يليهم . فاقتتلوا أشد قتال إلى أن جاء الظهر ، وحينئذ بدأ الخلل فى صفوف الفرس فتأخروا وثارت عاصفة فألقت طيارة رستم فى العقيق وانتهى القعقاع إليها فلم يجده لأنه قام عن مكانه حين قلعت طيارته إلى بغال كانت مهيأة فاستظل بحمل بغل منها وضرب هلال بن عُلَّفَة الحمل الذى تحته رستم وهو لا يدرى به فسقط عليه العدل وضربه هلال فلم يقتله فرمى بنفسه فى العقيق فأخذ هلال برجله فأخرجه وقتله ثم نادى: قتلت رستم ورب الكعبة . فأطاف به الناس وكبروا وانهزم قلب الفرس وتتابعت الهزيمة وغنم المسلمون راية الفرس وهى (دُرفش كابيان) ثم تتبع المسلمون المنهزمين حتى أجلوهم إلى ماوراء القنطرة . وليلة الهرير يمر بالمسلمين ليلة أشدمنها هو لا مع الفرس ولا غيرهم وقتل فيها من المسلمين نحو ثمانية آلاف ومن الفرس ثلاثون ألفاً .

قال الطبرى . فأما المقترنون فإنهم جشموا فتهافتوا فى العقيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفا وكان الذى أخذ (درفش كابيان) ضرار بن الخطاب فعوض منها ثلاثين ألف درهم ، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتى ألف . وقد قتل فى اليوم الذى تلا ليلة الهرير عشرة آلاف سوى من قتل فى الأيام قبله .

أما الأسلاب والغنائم فى تلك الوقعة فلم يأخذ المسلمون غنيمة مثلها قبلها ولا بعدها . وقد كان سلب رستم سبعين ألف درهم . ولو وجدت قلنسوته لكان ثمنها مائة ألف درهم . وقد تعقب المسلمون المنهزمين فلم يكن بهم منعة ولا مدافعة ولا نجاء . وقد صمد للقتال بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار فصمد لكل كتيبة رئيس من رؤساء المسلمين فى جنده ، فمن هذه الكتائب ما استؤصل ومنها ماهرب .

ما بعد الموقعة

بعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر : « أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعُدة لم ير الراؤون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفى الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلمهم ، الله أعلم بهم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لايشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب له » .

كان عمر حريصاً على تعرف أجناد المسلمين فى القادسية وكان كل الناس فى شبه جزيرة العرب يرونها الحد الفاصل بين العرب والفرس . ولايرون أن الإسلام تقوم له قائمة وينتظم للأمة العربية حال إلا بالظفر فيها ، يشترك فى هذا الاعتقاد كل أهل الجزيرة من عدن أبين إلى أبلة إلى البحرين إلى حدود الشام . حتى الرجل منهم إذا كان له عمل أحجم عنه حتى يرى مايكون من شأن حرب القادسية فلا غرو إذا كان عمر مشغول القلب والبال بها .

كان يخرج كل يوم يتنسم الأخبار من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى منزله . وبينما هو بسبيل ذلك ذات يوم لقى البشير عمر ، فسأله من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله حدثنى . قال : هزم الله العدو وعمر يخب معه ويستخبره والبشير يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة . فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل هلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى . فهكذا يكون أمراء المؤمنين والخلفاء الراشدون .

قرأ عمر الكتاب على الناس وقال : إنى حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف . ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم . ولست معلمكم إلا بالعمل ، إنى والله ما أنا بملك فاستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرض علىّ الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترووا سعدت وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتى شقيت ففرحت قليلا وحزنت طويلا وبقيت لا أقال ولا أرد فاستعتب .

وكتب سعد إلى عمر يقول . « إن أقواما من أهل السواد ادّعوا ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبارسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارسا أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض » ثم كتب كتابا آخر يقول فيه : « إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يُجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل ، أو استسلم . فأنا فى أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإنّ أعمر لها وأوهن لعدونا تألـفهم »

فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد . فأجمعوا على أن الوفاء لمن

أقام وكف ولم يزده كفه إلا خيراً . وإن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وإن من كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم ، فإن شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال ، وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء . وكذلك الفلاحون . فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول : « أما بعد — فإن الله جل وعلا أنزل فى كل شىء رخصة فى بعض الحالات إلا فى أمرين : العدل فى السيرة والذكر . فأما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة ولم يرض منه إلا بالكثير . وأما الثانى العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا بعيد ولا فى شدة ولا رخاء وإن رؤى ليناً فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر . فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشىء فلهم الذمة وعليهم الجزية . وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب فى الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا فانبذ إليهم وأبلغوهم مأمنهم » .

وكتب إليه جواب الكتاب الثانى :

« أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة عدوكم . وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك . وكل من ادعى وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا نبذ إليهم . وأما من أعان رجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فأقسموا ما أفاء الله عليكم منهم »

وهنا أقول لسنا فى حاجة إلى بيان ما تضمنته الكتب وأجوبتها من الأمور الإدارية والنظام البديع وطرق الاستعمار . وإنما العجب أن يصدر عن قوم لا عهد لهم بهذه الأمور ، وإنما يصل إليها الناس بعد الدرس والبحث والتجارب الطويلة .

فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم

خراجهم أثقل . وأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم . وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد . وكذلك الفلاحون . ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلا إلى واحدة من اثنتين : الإسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهى والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة . وأخذوهم بخراج كسرى . وكان على رؤوس الرجال على مافى أيديهم من الحصة والأموال .

ولم تتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن أقام معهم لأنه كان متفرقاً فى السواد فكان يليه لأهل الفىء من وثقوا به وتراضوا عليه .

ما بعد القادسية

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد انتهاء الموقعة . وذلك أمر طبيعى بعد موقعة قاسى فيها الجيش شدائد عظاماً وأهوالا جساما واصطلى بنارها جميع الجيش ، فكانوا بعد ذلك كله فى حاجة إلى الجمام والراحة . ولو كان عند سعد جيوش احتياطية لم تشهد الحرب ولم تكتو بنارها لكان فى حكم الحزم أن يرمى الفرس بها قبل أن يأخذوا راحتهم ويدبروا أمرهم ، لأن المعاجلة فى مثل هذه الحال حزامة — ولكن القوم كانوا على ما علمنا من قلة عدد وقد قاتلوا عدواً يفوقهم أضعافاً وقد نالوا منه ونال منهم . فلا بد أن يكونوا فى حاجة إلى الراحة والمدد — ومع هذا فما كان احتياج القوم إلى الراحة ليحبسهم شهرين فى القادسية . بل كان أكثر ما لبثهم تطهير النواحى التى غلبوا عليها من الأعداء حتى لا يتركوا وراءهم عورة يخافونها وأن ينتهوا مع من دانوا لهم بالطاعة على حال وأن يستأمروا عمر فى شأنهم وفى الوجه الذى يريد أن يرميهم به والعمل بما ينبغى .

أمر عمر رضى الله عنه سعداً أن يؤم المدائن وعهد إليه أن يخلف النساء والعيال بالعقيق ويجعل معهم كثفاً من الجند وأن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم — فقدم زهرة بن الحوية إلى اللسان الذى أدلعه

البر فى الريف وعليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم وكان النخير جان معسكراً به فارفض ولم يثبت فلحق بأصحابه .

برس

وبعد تقديم زهرة إلى اللسان أتبعه بعبد الله بن المعتم ، ثم شرحبيل بن السمط ثم هاشم بن عتبة وقد ولاه عمل خالد بن عرفطة وجعل خالداً على الساقة ثم اتبعهم وكل المسلمين فارس مؤد(١) قد نقل الله إليهم ما كان فى عسكر فارس من سلاح وكراع ومال وكان ارتحاله لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين (بُرْس) لقيهم جمع من الفرس بصُبْهُرى . فلم يكن بين الفريقين كبير قتال حتى انهزموا إلى بابل ، وبها فل القادسية وجميع رؤساء الفرس كالنخيرجان ومهرجان ومهران الرازى والهرمزان وأشباههم وعليهم الفيرُزان . ولما رأى بسطام دُهقان برس أن المسلمين قادمون على بلاده وقد هزموا من بإزاء بلده من الفرس بعد أن هزموا عسكرهم الأكبر بالقادسية وقتلوا قائدهم الأعظم وعلم أن بلده حاصل فى قبضتهم وخاف معرة دخولهم عليه عنوة وخشى أن يعتريه أحد منهم بسوء بادر إلى زهرة فاعتقد منه ذمة وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لموافقة المسلمين .

(١) المؤدى هو التام عدة الحرب القوى .

يوم بابل — وكوثى

فلما علم زهرة بما أنبأه به بسطام كتب إلى سعد يعلمه بما أجمع عليه الفرس وما أعدوا له . وقد قال الفرس فيما بينهم : نقاتلهم دستا (طابقا) قبل أن نتفرق وذلك ليبلوا عذرا أمام الأمة حتى لا يقال إنهم تفرقوا وتشتت جمعهم وهم فى عدة تفوق المسلمين تمكنهم من أن يوافقوهم نخلوا بينهم وبين البلاد جبنا وهلعا — ومعلوم أن جيشاً يقاتل على مثل هذه النية لا يكون مآله سوى الهزيمة ولا تغنيه كثرة العدد شيئاً لأن توطيد الجند العزيمة على النصر وانفساح الآمال بالفوز أمامهم وعظم الثقة بالنصر مدد لا يعادله مدد . وأما ضد ذلك إذا جال فى رؤوس القواد والجنود فهو هزيمة معجلة وخذلان تسلفوه .

التقى الجمعان ببابل بعد أن زجى سعد الجيوش إليها وفى رؤوس الفرس ماينا والمسلمون كما قد علمنا وأفكارهم مايبنوه ليزدجرد ورستم ورؤساء فارس فلم يكن إلا كلفت الرداء حتى انهزم الفرس ، ثم لم يكن لهم هم سوى الافتراق . فخرج الهرمزان إلى ناحية الأهواز فأخذها وأكلها ومهرجان قذق وخرج الفيرزان حتى نزل على نهاوند وبها كنوز كسرى فاحتواها وأكل الماهين وولى النخيرجان ومهران الرازى وجههما شطر المدائن حتى عبرا (بَهُرَسير) إلى جانب دجلة الآخر ثم قطعا الجسر .

أقام سعد أياما ببابل وبلغه أن النخيرجان ومهران قد خلفا شهريار دهقان كوثى لقتال المسلمين فى جمع من الجنود . فقدم سعد إليه الجيوش . فالتقى أوائل جموع المسلمين بجنود شهريار فلم يلبثهم أن طلب البراز وقال : « ألا رجل » ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلى حتى انكل به ؟ فأخرج له زهرة أبا نباتة بن نائل بن جعشم الأعرجى فخرج إليه . وكلاهما وثيق الخلق إلا أن شهريار مثل

الحمل فلما تلاقيا تجالدا ثم تعانقا . فصرع شهريار أبا نباتة وأراد أن يحتز رأسه بخنجره فوقعت إبهام الفارسي في شدق أبي نباتة فلاكها فاسترخى الفارسي وفتر فانقلب عليه واحتز رأسه واستلبه وأخذ برذونه . وكان يلبس ملابسه ويتحلى بحلاه ويلبس أساوره عند الحرب ، وهو أول مسلم تزيا بذلك الزى بأمر من سعد بن أبي وقاص .

بهرسير

بهرسير إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن وهي في غدوة دجلة الغربية تجاه إيوان كسرى ولم يبق من المدائن سواها إلى عهد صاحب معجم البلدان .

قدم سعد زهرة من كوثى إلى بهرسير . فتلقاه شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية الجزاء فأرسله إلى سعد حتى قدم معه . ثم سار زهرة حتى أتى إلى المظلم وكان به كتيبة لكسرى تسمى بوران ولعلها بمنزلة ما يسمونه الحرس الملوكي — وكان أهل هذه الكتيبة مداين بأنفسهم ويقسمون بأن ملك فارس لا يزول ماعشنا، يفعلون ذلك كل يوم — فلقيهم زهرة بجنوده ففلهم . ثم جاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المظلم ووقف حتى لحق به سعد ووافق ذلك رجوع (المقرط) وهو أسد كان لكسرى قد ألفه وتخيره من أسود مظلم ساباط فبادر المقرط الناس حتى انتهى فخرج إليه هاشم فقتله بسيفه . وقبل سعد رأس هاشم . فقبل هاشم قدم عمه سعد ولما جاء إلى المظلم قرأ « أولم تكونوا أقسمتم من قبل ، مالكم من زوال » وقدم سعد على بهرسير — وكلما قدمت خيل من خيول الإسلام إليها كبروا إلى أن تنام الجند وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة .

أقام سعد على بهرسير شهرين يحاصرها ويرميها بالمجانيق ويدب إليها بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدة . وكان الفرس البادئين بالرمي بالمجانيق والعرادات

فاستصنعها سعد واقام عليها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها — ولما طال الأمد على الفرس خرجوا فى رجالة وناشبة وتجردوا للعرب وتبايعوا على الصبر فقاتلتهم المسلمون فلم يثبتوا لهم .

ولما رأى الفرس أن البقاء فى هذه المدينة لا يستقيم تركوها ودخلها المسلمون فلم يجدوا فيها غير نفر قليل وقعوا أسرى فى أيديهم — وفى مقام سعد على بهرسير . أرسل سراياه فأغارت فى سواد الفرات فأتت بناس من الفلاحين لا عهد لهم ولا ذمة . فكانوا مائة ألف فقال شيرزاد : إن هؤلاء عُلوج لأهل فارس لم يُحرضوا عليكم فاتركوهم حتى يفرق لكم الرأى . فتركهم سعد بعد أن كتب عليه أسماءهم ثم كتب إلى عمر يقول : « إنا وردنا بهرسير بعد الذى لقينا فيما بين القادسية وبهرسير فلم يأتنا أحد لقتال فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام فَرَ رأيك » فأجابه « إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم . ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به » فلما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم ، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة فتراجعوا عن الجزية والمنعة فلم يبق فى غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واغتبط بملك الإسلام واستقبلوا الخراج .

المدائن القصوى

ولما دخل سعد بهرسير وكان ذلك فى شهر صفر سنة ١٦ طلب السفن ليعبر عليها إلى عدوة دجلة الشرقية فلم يجد سفيناً يجيز الناس عليهن فبقى على ذلك أياماً من صفر فجاء بعض أهل فارس ودلهم على مخاضة فخشى سعد ذلك ثم بدا له أن يجيز بهم فى دجلة وقد جاء المدد . فقام فى الناس فقال : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم فى سفنهم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه فقد كفاكم أهل الأيام

وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم . وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . إلا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد . ثم انتدب الناس ليحموا الفِراض حتى يعبر الناس ويتلاحقوا حتى لا يمنعهم الفرس العبور فانتدب أنجاد الناس وأولهم عاصم بن عمرو ذو البأس وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات فجعل عاصماً عليهم فصار بهم عاصم وانتدب منهم ستون ليكونوا أولين . فاقتحموا دجلة بخيلهم ورآهم الفرس فاقحموا خيلهم دجلة ليلاقوهم ويمنعوهم فلقوا عاصماً فى السرعان فصاح عاصم : الرماح الرماح ، اشرعوها وتوخوا العيون . فطعنوهم فى أعينهم فمن لم يقتل منهم صاروا عورانا فساحلوا بخيلهم فلم تصل إلى الشاطىء حتى ولت مدبرة وملك الستون الفراض وتلاحق سائر الستمائة ثم اقتحم المسلمون دجلة حتى صاروا بالعدوة الشرقية مع الفرس . والذى يظهر أن الفرس باحتوائهم السفن كانوا آمنين أن يعبر إليهم المسلمون فى زمن قريب . وأن ذلك لا يكون إلا بعد أن يحصلوا على سفن يجيزون فيها إليهم ، فلم يكن بالقوم استعداد للقائهم فى ذلك الحين ولا على تلك الحال . فأجهضهم المسلمون وأعجلوهم عن جمهور أموالهم واقتحموا عليهم مدينتهم على هذا الوجه واستولوا على كل ما بقى فى بيوت كسرى من الأموال .

وقد قال الطبرى : فيما هيج سعداً على دعاء الناس لعبور دجلة — إن علجا فارسياً أتى سعداً فقال ما يقيمك ؟ لا يأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شىء فى المدائن .

والذى يفهم من ذلك أن سعداً كان على ثقة من أن القوم قد يئسوا من المقام فى المدائن وأن حاميتهم لا تصلح للمقاومة ، وإلا كان عمله مخاطرة لا تصح من قائد حريص ولا تلتئم مع تحذير عمر له ذلك التحذير الذى علمناه .

كان يزجرد قد أحس سوء الحال فرحل عيـاله إلى حلوان حين فتحت بهرسير. ولما علم بعبور المسلمين خف حتى لحق بعياله وخلف مهران الرازى والنخيرجان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حر متاعهم وخفيفه وما قدروا على استخلاصه من بيت المـال والنساء والذرارى وتركوا فى الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان شيئاً لا تعلم قيمته لكثرته وغادروا ما أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة. وكانت كتيبة الأهوال أول داخل المدينة وهى كتيبة عاصم بن عمرو ثم الخرساء، وهى كتيبة القعقاع بن عمرو وحمّال بن مالك والربيل بن عمرو — فأخذوا فى سككها لا يجدون أحداً إلا من كان بالقصر الأبيض. وقد استجابوا على الذمة وقد نزل سعد القصر الأبيض. وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً ودخله وهو يقول: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقـام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين، فمـا بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين».

فى مثل هذا الدخول الفجائى الذى دخل به المسلمون مدائن كسرى، وبخاصة إذا كان بحالة غريبة، يستولى الفزع على الأفئدة وتجيش النفوس إلى الفرار ومفارقة الديار. ولكن كثيراً ممن يستولى على نفوسهم الهلع ويجلون عن أوطانهم لا يذهبون بعيداً عنه حتى تضيق الدنيا فى وجوههم وتحرج صدورهم وتعمى عليهم السبل ثم تنازعهم نفوسهم إلى مألفهم القـديم ثم لا يلبثون أن يعودوا، ولاسيما إذا عرفوا أن من ملأ الخوف قلوبهم منه وظنوه فتاكا لا يأخذ الناس بعنف ولا يسوسهم بعسف، بل يبسط المعدلة ويتوخى حسن السيرة. فإنهم حينئذ يعودون إلى وطنهم ويثوب إليهم رشدهم. كذلك كان حال أهل المدائن فإنهم تراجعوا إلى مدينتهم ودخلوا فى ذمة المسلمين إلا من كان من آل كسرى ومن معهم.

ثم جمع سعد ما وجد فى خزائن كسرى من الأموال والغنـائم فكان شيئاً

كثيراً فخمسه وقسم أربعة الأخماس على المقاتلين ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألف درهم . وهو شيء لم يكن أحد من العرب يظن أن يراه فى منامه . وكان كل المسلمين فرساناً وبعضهم معه الجنائب . ثم قسم سعد دور المدائن على الناس وأنزلهم بها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم وكان فى ما أرسله إلى عمر أيضاً بساط ذرعه ستون ذراعاً فى مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب . وقواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك — فلما قسم سعد الفيء فى العسكر فضل هذا البساط عنهم ولم تستقم قسمته . فجمع سعد المسلمين فقال : « إن الله قد ملأ أيديكم وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى أحد على شرائه ، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء . ففعلوا . فلما قدم البساط على عمر بالمدينة جمع الناس واستشارهم . فمن مشير بقبضه وآخر مفوض إليه وآخر مرقق . فقام عليٌ حين رأى عمر يأبى حتى انتهى إليه فقال : لِمَ تجعل علمك جهلا ويقينك شكا ؟ إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت . قال : صدقتنى ، فقطعه وفرقه فى الناس — وفى رواية أخرى أنه قال له : يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية . إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ماليس له . فقال : صدقتنى . وقد أصاب علياً قطعة منه فباعها بعشرين ألفاً وما هى بأجود تلك القطع[1] .

ونوى سعد الإقامة بالمدائن وصلى فيها صلاة المقيم وأول جمعة صليت فى العراق كانت بالمدائن فى صفر سنة ١٦ هـ . ثم بث السرايا تغير فيما حول المدائن

---

(١) لم يكن من شأن العرب الاحتفاظ بمثل هذه الذخائر . ولو أنهم من أهل هذا العصر المقدرين للآثار والنفائس قدرها لاحتفظوا به على الدهر .

فى الوجوه كلها . وصدر الأمر من عمر بولاية سعد بن أبى وقاص صلاة ماغلب عليه وحَرْبه وولى النعمان وسويد بن عمرو الخراج أولهما على ما سقت دجلة وثانيهما على ما سقى الفرات . ولما جىء إلى عمر بتلك الأخماس من الغنيمة وفيها زينة كسرى وتاجه وحلاه وأزياؤه التى كان يلبسها للمباهات وبساطه ، أكثر الناس الكلام فى فضل أهل القادسية وحق لهم أن يكثروا ، فقال عمر : أولئك أعيان العرب وغررها اجتمع لهم مع الأخطار الدين . هم أهل الأيام وأهل القوادس .

يقول ابن الأثير : كان فى بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند سيره إلى القادسية النصف وبقى النصف .

والذى أراه أن هذا المقدار يزيد على عشرات المقدار الذى كان موجوداً لأنه يقتضى أن يكون فى خزائن كسرى ثلاثة آلاف بليون وهو مقدار لا يمكن أن يتفق مثله لدولة فى ذلك العهد مهما كان عمرانها مستبحراً وخراجها وافراً .

وما لنا وللكلام ؟ لا بد أن نرجع إلى الأرقام فإنها لا تكذب .

قال ابن الأثير نفسه : إن سهم الفارس بلغ فى المدائن اثنى عشر ألف درهم وكان المسلمون جميعاً فرساناً ، فإذا فرضنا أن المسلمين كان عددهم فى ذلك اليوم هو عددهم يوم القادسية بزيادة الربع كان عدد المسلمين الذين كان لهم حظ من غنيمة المدائن ستين ألفاً .

فعلى ذلك يكون عدد النقود التى قسمت على الغانمين ٧٢٠ مليوناً .

فإذا أضيف إلى ذلك الخمس (١٨٠ مليوناً) كان مجموع ذلك ٩٠٠ مليون .

وإذا كان رستم أخذ مقداراً مساوياً له كان ما فى الخزائن من قبل ١٨٠٠ مليون . وبعبارة أخرى بليوناً واحداً وثمانمائة مليون . فأين هذا من ثلاثة ترليونات وهو يزيد عما أدى إليه الحساب مع التساهل ترليونان وثمانية وتسعون بليونا ومائتا مليون .

ماجمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن وعلى القسمة سليمان بن ربيعة الباهلي فجمع ما في القصر والإيوان والدور وأحصى ما يأتيه به الطلب وكان أهل المدائن قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كل وجه ، فما أفلت منهم أحد بشيء إلا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم . ورأوا بالمدائن قباباً تركية مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فإذا فيها آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وأكبوا عليه فقال بعض المسلمين . إن لهذا البغل لشأناً فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى : ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلج ببغلين معهما فارسيان فقتلهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال فقال له : قف حتى ننظر ما معك فحط عنهما فإذا سفطان فيهما تاج كسرى مرصعاً وكان لا يحمله إلا الاسطوانيان وفيه الجوهر وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجا منظوما وأدرك القعقاع بن عمرو فارسيا وأخذ منه عيبتين في إحداهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستة أسياف وأدرع منها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر .

وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى — والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان فأحضر

القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها فى الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك . حسبوها فى الأخماس وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبى رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر فأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سفطان فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر . وفى الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر . وكان كسرى يضعها على اسطوانتى التـاج .

وأقبل رجل بحق إلى صاحب الأقباض فقال هو والذى معه ما رأينـا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به . فقالوا : من أنت ؟ فقـال : والله لا أخبركم فتحمدونى ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلا فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس . وقال سعد : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر . لقد تبعت منهم هناة ما أحسبهـا من هؤلاء .

وقال جابر بن عبد الله : والذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معد يكرب وقيس بن المكشوح .

وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجده : إن قوماً أدوا هـذا لذوو أمانة . فقـال على . إنك عففت فعفت الرعية . فلمـا جمعت

الغنائم قسم سعد الفيء بين الناس بعد ما قسمه وكانوا ستين ألفاً فأصاب الفارس اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل .

وقعة جلولاء

قال ياقوت : طسُّوجٌ من طساسيج السواد فى طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، ثم حكاه بالقصر والمد فى قول القعقاع :

ونحن قتلنا فى جلولا أثابراً　　ومهران إذ عزت عليه المذاهب
ويوم جلولاء الوقيعة أفنيت　　بنو فارس لما حوتها الكتائب

وسبب هذه الوقعة أن الفرس لما انتهوا إلى جلولاء فى هربهم من المدائن إلى هذا الموضع وافترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس — ويظهر أن جمهور جيش الفرس كان مجتمعاً من هذه الأقاليم — فقال رؤوس القوم : إنا إذا افترقنا لم نجتمع أبداً وهذا مكان يفرق بيننا . فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم ، فإن كان الظفر لنا فذاك الذى نحب ، وإن كانت الأخرى نكون قد قضينا الذى علينا .

ويظهر أن القوم فى هذه المرة كانوا قد وطنوا أنفسهم على الاستماتة فى القتال وصدق الحملة فاجتمعوا تحت إمرة مهران الرازى واحتفروا خندقاً حول حصنهم وأحاطوه بحسك الخشب أول أمرهم ثم استبدلوا به حسك الحديد إلا طُرُقَهُم. وعلم سعد بأمرهم فاستأمر عمر فأمره أن يسرح إليهم هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألفاً وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو . فسار هاشم فى جيشه وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن كان ارتد وممن ثبتوا على إسلامهم إلى أن نزل على الفرس بمكانهم هذا .

كاتب الفرس كسرى يزجرد وهو بحلوان يعلمونه بأمرهم الذى أجمعوا عليه فأمدهم بالأموال والرجال وجعل يستنفر الفرس فيما يليه وكلما اجتمع إليه جند بعثهم إليهم مدداً . وقد عزم الفرس على المطاولة لايخرجون إلى القتال إلا إذا شاءوا والمسلمون محيطون بحصنهم فزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً وهم فى كل مرة ينالون من الفرس . وأمد سعد المسلمين فلما رأى الفرس أن الأمداد متواصلة إلى عدوهم خافوا أن يصير المسلمون إلى حال قوة يضعف الفرس عن منازلتهم معها وذلك أن الفرس كانوا أكثر من محاصريهم أضعافاً كثيرة وازدياد المدد على المسلمين يغير من تلك الحال فاعتزموا على القتال وتقاسموا بالنار على أن لايفروا وجعلوا فى الخندق من ناحيتهم طرقاً لخيلهم فأفسدوا بذلك حصنهم ثم خرجوا للقتال فاقتتلوا قتالا شديداً لم يقاتلوا المسلمين مثله فى موطن من المواطن حتى أنفدوا مامعهم من نَبل ونُشاب واطعنوا بالرماح حتى تقصفت ثم صاروا إلى السيوف والطَّبرْزينات فكانوا على هذه الحال صدر نهارهم إلى الظهر ، وصلى المسلمون إيماء وقد كلَّ المسلمون وبلغ التعب بهم أشده . فجاء القعقاع بن عمرو إلى الناس فقال : «أهالتكم هذه ؟ قالوا : نعم،نحن كالون وهم مريحون والكال يخاف العجز إلا أن يعقب.فقال : إنا حاملون عليهم ومجادّوهم وغير كافين عنهم حتى يفتح الله بيننا وبينهم . فاحملوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا تكذبن . ثم حمل وحملوا معه فانفرجوا فما ذب أحد عن باب الخندق وألبسهم الليل سواده فأخذوا يمنة ويسرة وجاء إلى المسلمين أمداد فيهم طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معديكرب وحُجر بن عدى فوافقوا القوم وقد تحاجزوا لما أجنهم الليل ، غير أن القعقاع لم يكف بل أمر مناديه أن يقول يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق . وقصد أن يقويهم بذلك فحملوا لا يشكون أن هاشما فى الخندق فإذا هم بالقعقاع قد أخذ به وانهزم الفرس يمنة ويسرة فوقعت خيلهم فيما أعدوا من الحسك فعقرت وصاروا رجالة . واتبعهم المسلمون فلم يفلت

منهم إلا عدد يسير وذهب جمع الفرس طعمة للسيف وصاروا مصرعين فى المجالات وتلك النواحى حتى تجللت الأرض بهم .

وصار القعقاع فى طلب الفالّة حتى وصل إلى خانقين وقتل بها مهران ثم أخذ ناحية حلوان فى جيش من الأفناء والحمراء . فوجد الملك يزدجرد قد أجفل منها إلى الرى عندما بلغه خبر الهزيمة بجلولاء فنزل القعقاع بحلوان وكانت هذه الوقعة فى ذى القعدة سنة ١٦ ﻫ . ولم يلق القعقاع كبير قتال دون حلوان وبقى بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة أما غنائم جلولاء ، وما سباه المسلمون من النساء والذرية فكان شيئاً يخرج عن الوصف فكانت سهام المقاتلة تسعة آلاف وتسع دواب وفى رواية اثنى عشر ألفاً . وأما السبى فكان شيئاً كثيراً من أحرار فارس حتى أن عمر استعاذ بالله من ذرية سبي جلولاء .

ولما ذهب الخمس إلى عمر كان على حسابه زياد بن أبيه . فقص على عمر أخبار الوقعة وما كان فيها من الأهوال ومافتح الله على المسلمين . فقال له عمر : هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل ماكلمتنى به ؟ فقال : والله ما على وجه الأرض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟ فقام زياد فى الناس وقص عليهم مافتح الله عليهم وما كان منهم فى حربهم وماصنعوا وما يستأذنون فيه من الانسياح فى بلاد عدوهم فأحسن فى ذلك ماشاء الله أن يحسن . فقال عمر : هذا الخطيب المِصقَع . فقال زياد : « إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا » وكان زياد شاباً حدثاً فى ذلك الوقت .

ثم كتب عمر إلى سعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين من قبلهم وإذا كتبت إليك فى قوم فأجروا أمثالهم مُجراهم . ثم كتب إليه سعد فى غير الفلاحين ،

فكتب إليه « أما من سوى الفلاحين فذلك إليكم مالم تغنموه — يعنى قسمته — ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلاها فهى لكم فإن دعوتموهم وقبلتم منهم الجزاء ورددتموهم قبل قسمتها فذمة ، وإن لم تدعوهم ففىء لكم لمن أفاء الله ذلك عليه .

فتح تكريت

علم سعد أن الفرس قدجمعوا جموعا بتكريت اجتمعوا من الموصل . فسرح إليهم عبد الله بن المعتم فى جيش قوامه خمسة آلاف . فسار أربعا حتى نزل على تكريت وفيها جموع الفرس ومعهم جموع من الروم وإياد وتغلب والنمر وقد خندقوا بها فحصرهم بها أربعين يوما وقد تزاحفوا أربعة وعشرين زحفا وكانوا أهون شوكة وأخف أمراً من أهل جلولاء . ولما أحس الروم أنهم لايخرجون مرة إلا نال منهم المسلمون تركوا أمراءهم ونقلوا أمتعتهم إلى السفن ورأى العرب الذين معهم ذلك وعلموا أن القوم منفض جمعهم عنهم وأنهم لا يقوون على المسلمين بعد ذلك ، فجاءت العيون من أياد والنمر وتغلب إلى عبد الله بن المعتم بالخبر وسألوه السلم للعرب فدعاهم إلى الإسلام فاستجابوا له سراً واتفق معهم على أن يأخذوا على القوم الأبواب من ناحية النهر إذا أخذها بجنده من ناحية البر . ففعلوا ونهد المسلمون لما يليهم وكبروا علامة مابينهم وبين مسلمة ليلتهم فأخذ جنود الفرس والروم من كل ناحية ولم ينج إلا من أسلم فى تلك الليلة من العرب

ولم يلبث عبدالله بن المعتم أن أرسل إلى الحصنين قوة ممن معه عليها الأفكل العنزى إلى الحصنين وبهما جموع من فارس . وقال له : اسبق الأخبار وسر ما دون القَيْلَ أحْيِ الليل . وسرح معه من كان مع الفرس بتكريت من إياد

والنمر وتغلب فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعل وغيره من أمرائهم فادعى عتبة بالظفر والنفَل والقَفَل ثم جاء من بعده من أمرائه حتى أخذوا الأبواب وأقبلت سرعان الخيل مع ربعى بن الأفكل فاقتحموا الحصنين فأجاب من استجاب وهرب من لم يستجب ثم عاد القوم وتراجع الهراب واغتبط المقيم وصاروا جميعا ذمة ولهم المنعة .

ماسبذان

ما سَبَذَان عن يمين حلوان إلى همذَان .

وأرسل سعد بن أبى وقاص فصيلة أخرى من المدائن يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان . وذلك أنه قد بلغ سعداً أن أذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً فخرج بهم إلى السهل فأرسل إليه ذلك الجيش فالتقى ضرار بن الخطاب بمن معه بالفرس فأخذ أذين وضرب عنقه وشتت شمل جيشه وأثخن فيهم القتل ثم خرج فى طلب الفالّة حتى انتهى إلى سيروان فأخذت ما سبذان عنوة فتطاير أهلها فى الجبال ثم عادوا وصاروا ذمة للمسلمين وعليهم الجزاء .

قرقيسيا

بلدة على نهر الخابور وهو يصب فى الفرات ، فهى بين الخابور والفرات.

كان سبب هذه الغزوة أنه لما رجع هاشم بن عتبة عن جلولاء اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل بجند يساعدونه على أهل حمص وبعثوا جندا إلى أهل هيت . فوجه إليهم سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف فى جند وعلى مقدمته الحارث بن يزيد العامرى فى غيره من القواد. فسار عمر حتى نزل على هيت وقد خندق من بها عليهم خندقا واعتصموا به — فلما رأى عمر

امتناع القوم خشى أن يطول عليه الأمد . فخرج فى نصف الجند وكتم خروجه عن الأعداء وأمر أن لا يقوضوا خيامهم حتى لا يعلم الأعداء بقلة المسلمين المحاصرين لهم ثم خلف على من أقام الحارث بن يزيد وذهب هو بمن معه حتى نزل على قرقيسيا على حال غرة من القوم لا يشعرون به فأخذها عنوة . فطالب أهلها أن يقيموا على الجزاء فرضى منهم بذلك . فلما رأى من بهيت ذلك جزعوا . وكتب عمر إلى الحارث يقول له : إنهم إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، وإلا فخندق عليهم خندقا يحيط بخندقهم وأبوابه مما يليك حتى أرى رأيى . فسمحوا بالإجابة وانضم الجند إلى عمر ، والأعاجم إلى أهل بلادهم .

بعد هذا صار السواد كله فى يد المسلمين فمهدوا طريق إدارته وأقاموا الجنود مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرث والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم . وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة ، وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابن السبيل من المسلمين وأما من أفاء الله عليهم البلاد فالضيافة كانت لهم خاصة ميراثا . وكان فى صلح عمر لهم أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة وإن سبوا مسلما أن ينهكوا عقوبة وإن قاتلوا مسلما أن يقتلوا وعلى عمر منعتهم وبرىء عمر إلى كل ذى عهد من معرة الجيوش .

تمصير الكوفة

لما فتح على المسلمين مافتح من العراق وفارس أوطن المسلمون بمختلف البلدان عنها — وكان كل أمير على ناحية يبعث بالوفود إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فكان عمر يرى فى أوجه من يرد عليه تغيرا فقال لهم والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهما لكما

أبدؤوا فما غيركم ؟ فأجابه القوم بأن وخومة البلاد قد أثرت فيهم هذا الأثر وأراد عمر أن يتعرف الأسباب التى أثرت فيهم هذا الأثر وأهمه ذلك فكتب إلى سعد يسأله عن ذلك الذى غير ألوان العرب ولحومهم ، فكتب سعد إليه يقول : إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة · فكتب إليه عمر إن العرب لايوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان فابعث سلمان رائداً وحذيفة — وكانا رائدى الجيش — ولم يكن أمر فى الجيش إلا أسند إلى من يقوم به — فليرتادوا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر — فبعثهما لذلك فسارا مرتادين غربى الفرات حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل مختلطان فأعجبتهما وفيها أديار ثلاثة : دير حُرُقَة — دير أم عمرو — دير سلسلة . وبينهما خصاص خلال ذلك . فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه عمر : فأمره أن يسير بالجنود . فطلب سعد إلى أمراء الجنود بالثغور أن يستخلفوا عليها ويقفلوا إليه ففعلوا وارتحل سعد بالناس حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ ﻫ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول المسلمين بالكوفة سنة وشهران وقد ترك سعد من رضى بالإقامة بالمدائن ليكونوا مَسْلَحَة للمسلمين فى نواحيهم .

كان عمر يريد ممن نزلوا الكوفة أن يكونوا فى خيامهم لأن ذلك أسرع فى انتقالهم إذا مست الحاجة إلى ذلك وليكون ذلك أهيب فى عين عدوهم وأدعى إلى إحجامه عن أمر يهم به إن كان فى رأسه شيء من ذلك . ثم بعد ذلك استأذنوه فى اتخاذ البيوت من القصب فأذن لهم فى ذلك بعد أن عرفوه أنه هو العكرش إذا روى .

ثم أصاب الكوفة بعد ذلك حريق أتى على ثمانين بيتا فاستأذنوه فى البناء باللبن فأذن فيه وقال افعلوا ولا يزيدن أحـــدكم إلا على ثلاثة أبيات

(حجرات) ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة . فرجع المستأذنون إلى الكوفة بذلك وكتب إلى أهل البصرة بمثله . وكان على تنزيل الكوفة أبو هَيَّاج بن مالك وعلى تنزيل البصرة عاصم بن دُلَف أبو الجرباء . وقد قدر عمر لهما المناهج أربعين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعا والأزقة سبع أذرع والقطائع ستين ذراعا . وأول شيء خطه فيهما وبنى المسجدان مسجد الكوفة ومسجد البصرة وقام فى وسطهما رجل شديد النزع فرمى فى كل جهة بسهم وأمر أن يبنى فيما وراء ذلك وبنى ظُلّة فى مسجد الكوفة على أساطين رخام فى مقدمته كانت فى بعض أبنية الأكاسرة بالحيرة وبنوا لسعد داراً بحيال المسجد وهى قصر الكوفة بينها وبين المسجد طريق منتصب بناها روزبة من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة . وجعل الأسواق على شبه المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ مما معه .

بلغ عمر أن سعداً قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق سَكّنوا عنى الصُّوَيت وإن الناس يسمونه قصر سعد فبعث محمد بن مَسلمة إلى الكوفة وأمره أن يحرق باب القصر ثم يرجع . فحرق باب القصر واستدعاه سعد فلم يفعل فخرج إليه وعرض عليه نفقة فأبى وبلغه كتاب عمر إليه وفيه : « بلغنى أنك اتخذت قصراً جعلته حصنا ويسمى قصر سعد . بينك وبين الناس باب . فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال . إنزل منه مما يلى بيوت الأموال واغلقه ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس دخوله » فحلف له سعد ما قال الذى قالوا فرجع محمد فأبلغ عمر وصدقه .

كأنى بصائحين يصيحون ماهذا الحرَد الذى استفز عمر إلى أن يزعج محمد ابن مسلمة ويكلفه أن يذرع مابين المدينة والكوفة لإحراق باب قصر أو باب بيت اتخذه أمير ليكون حجابا بينه وبين من لا يروق منظره ومن لا يحب مقابلته؟ وهل يريد عمر أن يسكن الناس فى القبور وهم أحياء ؟ ومن ذا الذى حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ وأى حرج على الناس إذا استطالوا

فى البنـاء وجملوا دورهم بما تتسع له حالهم التى صاروا إليها ؟ ومن المعلوم عند علماء الاقتصاد أنه إذا لم يوجد فى الناس أهل الثراء الذين يروقهم تأثل القصور واتخاذ الشامخ من البنيان والرائع من الزينة والزخرف لايمكن أن يكون للأمة رقى ولايوجد فيهـا من يتعاطى الفنون الجميلة فضلا عن البراعة فيها . فكيف يضيق عمر على الناس واسعاً ولايأذن لهم فى اتخاذ البنيان من اللبن إلا بعد مؤامرة ثم هو بعد ذلك يأمرهم بعدم الاستطالة فى البنيان وذلك تعطيل للفنون الجميلة ومعارضة لرقى الأمم الذى هو الغاية من العمران ؟

أما أنا فأعرض عن أولئك الصائحين — وإنما أقول لـكم — إن القوم على أثر من رسالة قد بهرتهم عجائبها وفى عقب نبوة قد أخذت بنواصيهم وعلى بينة من دين استغرق أفئدتهم وملك عليهم مشاعرهم وهم حديثو عهد بأخوة قد أحكمت عراها واستحصدت مِرَّتها ولم تنجل عن قلوبهم تلك الروعات التى كانوا يسمعونها فى قوله تعـالى : « إنما المؤمنون إخوة » وفى قوله تعـالى : « فأصبحتم بنعمته إخوانا » وهذه يد عمر لم تغتسل من دماء الأعاجم والروم الذين كانوا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وملوكهم يتخذون المصانع الشامخة والقصور المزخرفة فغرتهم الحياة الدنيـا وسوغوا لأنفسهم استعباد الرعية وتسخير الـكافة فى توفير لذاتهم وشهواتهم فأدال الله منهم هؤلاء القوم وهم على حال أخوة وتواس فيما بينهم لامِيزَة لأحد منهم على الآخر إلا بحسن البـلاء أكرمهم عند الله وفيما بينهم أتقاهم لم تبهرهم الدنيا بزخرفها ولم تختلب قلوبهم بنقشها ورقشها . فمثل عمر يخشى أن يغمس أمثال سعد بن أبى وقاص ومن على شاكلته أيديهم فيما غمست فارس والروم أيديهم فيـه فيديل الله من أهل الإسلام كما أدالهم من جيرانهم بالأمس .

واتخاذ الأبواب دون الأمير وصعوبة الوصول إليه أمر لم تجر به عادة العرب ولم يألفوه فيما بينهم إلى اليوم وعمر يخشى أن يكون مبدأ جبرية يقترفها سعد

تحت ظل ويأخذ الناس بها باسمه سرت إليه من أهل فارس . إذا رخص له عمر فى أخذ الناس بها كان شريكا له فى إثمها ومساهما له فى جزائها . وهم إنما كانوا يعيرون العجم بالأمس ويحجونهم بمثل مايتخوف عليهم عمر مغبته اليوم ولايحسن فى القالة أن يكونوا ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم .

إن الأمر الذى أخذ به سعداً مما تطرب له قلوب أهل الاشتراكية المعتدلة وتصغى إليه مسامع الفئات التى تنشد المساواة وتخفيف ويلات الإنسانية وتطهير المجتمع من أدران المدنية الجائرة القاسية وتعبس له وجوه أهل الأثرة وعباد الأنانية ومن يؤلهون الأبهة ويقدسون الخيلاء .

أما تحجيره على أهل المصرين أن يبتنوا بيوتهم فى أول الأمر ثم تسويغهم ذلك على شرط القصد فى البناء وعدم الاستطالة فسببه أن القوم هم جند الإسلام وأعباء الجهاد وحماة تلك النواحى وذادة الملة وهم على أهبة النجعة وعلى أوفاز للإغاثة أن دعا داع فى ناحية من النواحى . والجندى إذا تأثل العقار وتبجبح فى اتخاذ الدور المنجدة بأنواع الزخرف والزينة كان ذلك أدعى إلى ثقل الجهاد على نفسه ورغبته عن مزايلة مستقر راحته وإذا أزعج من مكانه هذا إلى وجه من الوجوه أو ناحية من النواحى كان قلبه دائم الالتفات إلى ماخلف وراءه من نعيم وما فارق من مال هو عدل نفسه وشقيق روحه . وإنى أقتصر على هذا وأترك لكم الحكم بالإنصاف فى منع أمير المؤمنين وإذا استطاع واحد منكم أن يفهم الصائحين فليفعل وله الأجر .

ومهما كان الشأن فى ذلك . فإن عمر وضع تخطيط المصرين على قاعدة صحيحة محكمة فقد وسع طرقها وجعلها على نظام جميل وهى فى شكلها العام تشبه أن تكون كحلوان فى نظامها واتساع طرقها إذا قارنا بين ارتفاع الحيطان فيها وسعة المناهج والطرق لا فى الرواء والزينة — فكانت الكوفة تجمع بين سكنى

المدن وهواء البادية وتربتها . وذلك أدعى إلى صحة الأجسام وجودة الهواء لأن سعة الطرق للبلاد بمثابة الرئة للجسم .

ومن المدن التى خططت على نظام أتم مدينة الخرطوم الحالية وقد قسمت درجات فما يلى النيل الأزرق الدرجة الأولى وراءها الدرجة الثانية فالثالثة فالرابعة وهى فى سعة الشوارع على هذا الترتيب .

وقد بنيت البصرة والكوفة فى سنة واحدة وإن كان أهل البصرة قد نزلوها قبل ذلك وبهذا يجمع بين الأقوال المختلفة فى تحديد العام الذى أسست فيه البصرة فمن قال إن ذلك كان سنة ١٤ هـ فذلك مبدأ نزولها ومن قال سنة ١٧ هـ فذلك عام تمصيرها والبناء فيها على التخطيط الذى وصفنا .

وكانت ثغور الكوفة فى ذلك الزمن أربعة : حلوان وماسذان وقرقيسيا والموصل وأميرها سعد بن أبى وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين . وقد صار كل من الكوفة والبصرة مركزاً حربياً تفصل منه الجنود لحرب العجم ، ولكل منهما جنود خاصة ترابط فيه لحين الحاجة .

فتح الجزيرة

يراد بالجزيرة هنا مابين دجلة والفرات من جهة الشام ويسمى جزيرة أقور وهى تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حرّان والرُّها والرَّقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك .

وكان الذى أثار فتحها أن عرب الجزيرة قد أمدوا الروم بجموع كثيرة يعاونونهم على المسلمين الذين كانوا يقاتلون الروم بناحية حمص — فأراد عمر أن يخالفهم إلى ديارهم وبلادهم ليشغلهم فى أنفسهم وأهليهم عن نصرة الروم .

وقد نقل بن جرير الطبرى خبر فتح الجزيرة فقال أول ماأذن عمر للجند

بالكوفة بالانسياح أن الروم خرجوا وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص فضم أبو عبيدة إليه مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من قنسرين وانضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح فاستشارهم أبو عبيدة فى المناجزة أو التحصن إلى مجىء الغياث . فكان خالد يأمره أن يناجزهم وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ويكتب إلى عمر فأطاعهم وعصى خالداً وكتب إلى عمر بخروجهم عليه وشغلهم أجناد أهل الشام عنه وقد كان عمر اتخذ على كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عُدة لكوْن إن كان . فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس . فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومك الذى يأتيك فيه كتابى إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به . وتقدم إليهم بالجد والحث . وكتب إليه أيضا أن سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة فى الجند وليأت الرّقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وإن أهل قرقيسيا لهم سلف وسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين فإن أهل قرقيسيا لهم سلف ثم لينفضا حران والرها . وسرح الوليد ابن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضا فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعا إلى عياض بن غنم . وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد منجدين لأهل الشام وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدين لأهل القادسية وكان يرافد أبا عبيدة فمضى القعقاع فى أربعة آلاف من يومهم الذى أتاهم فيه الكتاب نحو حمص وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض وتوجه كل أمير إلى الكورة التى أمر عليها فأتى سهيل الرقة وخرج عمر من المدينة مغيثا لأبى عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية . ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا

الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من بالجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا : الجزيرة يريدون أم حمص؟ أجفلوا فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم وخلوا الروم . ورأى أبو عبيدة أمراً لما انفضوا غير الأول فاستشار خالداً فى الخروج فأمره بالخروج ففتح الله عليهم . اه

وعلى هذا الوجه فتحت الجزيرة على الصلح وما جرى مجراه ولم تكن بلد أيسر منها أمراً ولا أسهل منها فتحاً .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد وفد تغلب على أن لا ينصروا وليداً فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من أوفدهم ولم يلتزمه غيرهم . فلما جاء عمر ووجه إليهم الوليد بن عقبة وأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام حاجوه بأنهم لا سبيل عليهم لأنهم لم يعطوا عهداً بذلك ولا شأن له عليهم ، فكتب الوليد إلى عمر فى شأنهم فكتب إليه عمر : إنما ذلك فى جزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام فدعهم على أن لا يُنَصِّروا وليداً واقبل منهم إذا أسلموا. فقبل منهم على أن لا ينصّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام فأعطى بعضهم ذلك فأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزاء فرضى منهم بما رضى من العِبَاد وتنوخ . على أن رضى القوم بالجزاء إنما كان باسم صدقة أنفة منهم أن يساموا جزية . وذلك أن الوليد أرسل رؤساءهم وديّانيهم إلى عمر فقال لهم عمر : أدوا الجزية . فقالوا له أبلغنا مأمننا والله إن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحنا من بين العرب . فقال أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدن وأنتم صَغَرَة قَمَأَة . ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ولأسبينكم . فقالوا خذ منا شيئاً لا تسميه جزاء . فقال أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم . فقال على بن أبى طالب : يا أمير المؤمنين ألم يُضْعِف

عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ قال بلى وأصغى إليه ورضى منهم بالجزاء على أن يسمى صدقة . وكان فى بنى تغلب عز وامتناع وكانوا ينازعون الوليد فهم بهم وقال :

إذا ما عصبت الرأس منى بِمِشْوَذٍ   فَغَيَّك منى تغلب ابنة وائل

فخاف عمر أن يحرجوه فيخرجوه إلى أن يسطو عليهم فعزله وولى عليهم سواه .

فتح الأهواز(١)

الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان بها الهرمزان وكان من أحد بيوتات فارس وأمته بتلك الناحية فكان يغير على البلاد التى دانت لحكم المسلمين . فلما علم بذلك عتبة بن غزوان وهو بالبصرة استمد سعد بن أبى وقاص فأمده بنعيم ابن مقرن ونعيم بن مسعود فى عسكر وأمرهما أن يأتيا ميسان ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرى وأرسل عتبة بن غزوان سلمى بن القَيْن وحرملة بن مريطة فى جند وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مناذر . وقد دعوا بنى العم بن مالك وكانوا من حاضرى تلك الجهة فأجاب رؤساؤهم إلى أن يكونوا عوناً للمسلمين واتفقوا على إحداث ثورة بمناذر ونهر تيرى والهرمزان يومئذ بين نهر تيرى وبين دلث . فلما التقت جيوش المسلمين بجيوش الهرمزان واشتد القتال بين الفريقين كان بنو العم قد أخذوا مناذر ونهر تيرى . ففت ذلك فى عضده وهزم جنده فقتل المسلمون منهم ما شاءوا وأسروا منهم عدة ثم عبر الهرمزان بمن بقى معه من دُجيلا أمام سوق الأهواز وصار دُجَيل بين المسلمين ومن معهم من بنى العم وبينه ثم طلب الهرمزان الصلح فعقد معه الصلح على الأهواز كلها ومِهرجان قذق ماعدا ما فتحه المسلمون عنوة . واتخذ المسلمون مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطون .

---

(١) الأهواز مجموع كور عدها ياقوت عشراً وهى سوق الأهواز ورامهرمز وأيذج وعسكر مكرم وتستر جندى سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر . وهى مقابلة البصرة .

أقام بنو العم مسلحة للمسلمين بتلك الناحية . ثم شجر اختلاف بين بعض رؤساء بنى العم غالب وكليب وبين الهرمزان على حدود الأرضين ورؤساء بنى العم يومئذ سلمى وحرملة وغالب وكليب الوائليان . فقدم سلمى وحرملة لينظرا الخلاف فوجدا الهرمزان ظالماً لغالب وكليب لحالا بينه وبينهما . فنقض الهرمزان صلحه ومنع ما قبله واستعان بالأكراد فكثُف جنده وانتهى إلى عتبة بن غزوان فكتب بذلك إلى عمر فأمره أن يمدهم بجند من عنده عليهم حُرقوص بن زهير فالتقى بنوا العم وهم على ساداتهم مع جند المسلمين بجنود الهرمزان على جسر سوق الأهواز فانهزم الهرمزان وجنده وفر إلى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الأهواز ونزل الجبل واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تُستر ووضع الجزية على أهل البلاد التى افتتحها وجد فى عمارتها ثم أرسل الهرمزان فى الصلح فأجابوه إلى الصلح على مالم يفتتح عنوة وهو رامهرمز وتستر والسوس وجندى سابور والبنيان ومهرجان قذق .

كان عمر يخاف أن يكون نقض أهل الذمة ما بأيديهم من العهود عن غدر من المسلمين أو ظلم منهم لأهل الذمة فكتب إلى عتبة : أن يوفد عليه عشرة رجال من صلحاء جند البصرة . فأوفدهم وفيهم الأحنف بن قيس ، فسأله عمر عن حال الجند وعن انتقاض من ينتقض بتلك الناحية أعن ظلم هو ؟ فقال : لا بل لغير ظلم والناس على ما تحب فصدقه عمر فيما قال . وقال عمر — وقد رأى فى ثياب الأحنف فضولا — : خصوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم . وكتب عمر إلى عتبة : أعزب الناس عن الظلم واتقوا الله واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهَدكم عليه وقد تقدم لكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً .

غزو فارس من البحرين

كان المسلمون فى ناحية البصرة والكوفة بإزاء الفرس وقد استقامت الأحوال فى الغالب والفرس فى تلك الناحية يؤدون الخراج للمسلمين لايدخل عليهم ولهم الذمة والمنعة . وكان عميد الصلح فى تلك الناحية من البصرة الهرمزان . وكان عمر يريد الاكتفاء بما فى أيدى المسلمين ويقول : وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لايصلون إلينا ولانصل إليهم .

وكان العلاء بن الحضرمى عاملا لعمر على البحرين وكان له ذكر وشهرة فى أيام حرب أهل الردة ليست لسعد بن أبى وقاص ، فلما فتح سعد العراق والفرس وظفر بالقادسية وأزاح الأكاسرة وورث المسلمين أرضهم وديارهم عفى ذلك على ما كان للعلاء من شهرة وبلاء وكان العلاء يباريه . فسر العلاء أن يبلى بلاء يكون فى وزان ماصنعه سعد لئلا يذهب عليه بالشهرة والصيت .

ندب العلاء أهل البحرين إلى فارس فأسرعوا فى إجابته ونزلوا عندما يسره وفرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر السوار بن همّام ، وعلى الثالث خُليد بن المنذر بن ساوى وجعله قائداً عاما وحملهم على السفن وأجازهم فى البحر إلى فارس دون أن يكون قد أذن له عمر فى ذلك ولم يستأذنه فى شىء من هذا الأمر وكان عمر يكره أن يغرر بالمسلمين أو يجيزهم إلى عدوهم فى ماء قبل أن يثخنوا فى ناحيته ويكسروا شوكته .

عبرت تلك الجنود فخرجوا وبإزائهم أهل فارس وعليهم الهربذ فاجتمعوا على الجند وحالوا بينهم وبين سفنهم . فقام خليد فى الناس فخطبهم وحثهم وقال :

أما بعد : فإن الله إذا قضى أمرا جرت به المقادير حتى تصيبه ، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن دعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين — فلما صلوا الظهر شبوا القتال بينهم وبين الفرس فقتل من قواد المسلمين السوار والجارود . وجعل خليد يذمر القوم ويحرضهم فاشتد القتال فقتل الفرس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها ولم يجد المسلمون سبيلا إلى الرجوع فى البحر لأن الفرس أغرقوا سفنهم فخرجوا يريدون البصرة فوجدوا شِهرَك قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا .

وصل الخبر إلى عمر فتذكر ماقدم بما حدث وخشى أن يصيب هذا العسكر ما أصاب عسكر أبى عبيدة فاشتد غضبه على العلاء فعزله وكتب يتوعده وأمره بأمر يشق عليه حمله وهو : أن يلحق فيمن معه بجند سعد بن أبى وقاص . وكتب إلى عتبة بن غزوان : أن العلاء بن الحضرمى حمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصانى وأظنه لم يرد وجه الله بذلك فخشيت عليهم أن لاينصروا وأن يغلبوا وينشبوا فاندب الناس واضممهم إليك قبل أن يجتاحوا .

انتدب له أنجاداً من الناس كعاصم بن عمر وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وسواهم من أنجاد أهل الإسلام فى اثنى عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبرَة بن رُهم والمسالح على حالها بالأهواز فسار لايلقاه معارض إلى أن التقى بجيش خليد وقد كان أهل اصطخر وحدهم وشذاذ من غيرهم هم الذين أخذوا الطرق على جيش خليد . فلما أقام المسلمون بمكانهم طارت الأخبار إلى أهل فارس فطار إليهم من كل فج وناحية وتوافت إلى الفرس أمدادهم وتوافت إلى المسلمين أمدادهم كذلك فاقتتلوا قتالا شديداً حالف المسلمين فيه الظفر ونالوا من الفرس ماشاءوا قتلا وأسرا . وكانت هذه الغزوة سبباً فيما طار بين الناس من شرف نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار وأفضل المصرين نابتة ثم

انكفأوا بما أصابوا وعاد المُنْقَذُون من أهل هجر والبحرين إلى قبائلهم من البصرة .

هنا نلفت نظركم إلى خطأين . فأما أولهما : فمن العلاء بن الحضرمى لأنه أجاز جنده البحر إلى قوم لهم قوة وشوكة وليسوا بدون جنده عدداً وعدة دون أن يكون له بتلك العدوة وزر أو فئة . ولم يكن عند السفن من يمنعها من الأعداء أن يعتروها بسوء — فلو أن الهزيمة كانت على جنده لاستؤصلوا وكانت نكبة دونها نكبة جسر أبى عبيد .

الخطأ الثانى : ما حصل من أهل فارس بإحراج جند فى قوة ومنعة وقد نال منهم . ولو أن القوم وجدوا سفنهم لأجازوا فيها وخَلّوْا للقوم ديارهم . ولكن القوم وهم فى قوة عمدوا إلى المكاشرة وامتنعوا حتّى جاءهم المدد وتنقّذهم ولم يُجدِهم ما صنعوه من إغراق السفن ولا أخذ الطرق عليهم ، بل كانت خسارة أهل فارس مضاعفة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل الفرس فى ناحيته استأذن عمر فى الحج فأذن له . فلما قضى نسكه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات ببطن نخلة فدفن به . وبلغ عمر خبره فمر به زائراً وقال : أنا قتلتك ، لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم . وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ .

فتح رامهرمز والسوس وتستر

كان يزدجرد بمرو وفى يده ما بقى من بلاد فارس وهو رقعة فسيحة كان فى ميسوره أن يدبر أمرها لو قنع والقوم وادعون راضون به . وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مقصّر للمسلمين من عنانهم لا يرضى لهم بالانسياح فيما

وراءهم من فارس . غير أن الله تعالى إذا أراد أمراً يسره . فإن يزدجرد لم يسغ الغصة التى رمى بها . فلم يقر له قرار عن استرجاع بلاده فأخذ يحمس أهل فارس ويستثير حميتهم ونخوتهم ويهزهم لاستنقاذ بلادهم ومسح العار اللاحق بهم . فتحركوا لذلك . وكاتب بعضهم بعضاً ودخل أهل الأهواز فى أمر فارس وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا على النصر . وجاءت الأخبار إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة . فكتب إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرّن وعجل وابعث سويد بن مقرّن وعبد الله ابن ذى السهمين وجرير بن عبد الله البجلى فلينزلوا بإزاء الهرمزان حتى يفرغوا من أمره وكتب إلى أبى موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفا ، وأمر عليهم سهل بن عدى وابعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وعرفجة بن هرثمة وحذَيفة بن مُحْصن وعبد الرحمن بن سهل والحصين بن معبد ، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة بن أبى رهم وكل من أتاه مدداً له . فخف النعمان فى أهل الكوفة على البغال يجنبون الخيل حتى انتهى إلى تيرى فجاوزها ثم جاوز مناذر وسوق الأهواز قاصداً رامهرمز . فلما سمع الهرمزان بقصده طمع فى نصر أهل فارس وأراد أن يقتطع النعمان ومن معه وبادره القتال بأربك وقد وردت أوائل الفرس تستر فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الهرمزان وأخلى رامَهرمز ولحق بتُستر وأخذ النعمان رامهرمز . ولما وصل أهل البصرة إلى سوق الأهواز جاءهم خبر الوقعة وأن الهرمزان لحق بتستر فمالوا نحوها وراغ النعمان إليها من رامهرمز وقصدتها المسالح التى تركوها خلفهم وكان عليها حرقوص وجزء ولحق بهم سلمى وحرملة من بنى العم ونزل جميعهم على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس . ثم جاء أبو موسى الأشعرى مدداً للمسلمين فحاصروا الفرس أشهراً وقتل كل من البراء بن مالك ومجزأة ابن ثور وكعب بن ثور وأبو تميمة ونفر سواهم فى براز الفرس مائة مقاتل سوى من قتل منهم فى غير براز .

وقد زاحف المسلمون الفرس فى حرب تستر ثمانين زحفاً يكون ذلك لهم مرة وعليهم أخرى . فلما كان آخر زحف قال المسلمون يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا فقال : اللهم اهزمهم واستشهدنى فهزموهم واقتحموا عليهم خنادقهم ففزع الفرس إلى المدينة وأحاط المسلمون بها وقد ضاقت بهم المدينة .

وبينما المسلمون على ذلك إذ خرج إلى النعمان رجل من المدينة فاستأمنه على أن يدله على مدخل المدينة .

وقال أبو حنيفة الدينورى فى الأخبار الطوال أن الرجل إنما كلم أبا موسى الأشعرى وكان اسم الرجل سينة وكان من أشراف المدينة فقال تؤمننى على نفسى وأهلى وولدى ومالى وضياعى حتى أعمل فى أخذك المدينة عنوة فجعل له ذلك فقال ابعث معى رجلا من أصحابك فندب أبو موسى الناس لذلك الوجه . فقال الأشرس بن عوف الشيبانى أنا فمضى معه حتى خاض به دجيلا ثم أخرجه فى سرب حتى انتهى به إلى داره ثم أخرجه من داره وقد ألقى عليه طلياساناً وقال امش ورائى كأنك من خدمى ففعل ومر به فى أقطار المدينة طولا وعرضاً حتى انتهى به إلى أحراس أبواب المدينة ثم انطلق حتى مر به على الهرمزان وهو على باب قصره ومعة ناس من مرازبته وشمع أمامه حتى نظر الرجل إلى جميع ذلك ثم انصرف إلى داره وأخرجه من السرب وعاد إلى أبى موسى فأخبره الأشرس بجميع ما رأى وقال وجه معى مائتى رجل حتى أقتل الحرس وافتح الباب فانتدب مائتى رجل مع الأشرس وسيمينه حتى دخلوا من ذلك النقب وخرجوا فى دار سيمينه وتأهبوا للحرب ثم خرجوا والأشرس أمامهم حتى أتوا إلى باب المدينة وأقبل أبو موسى فى جميع الناس حتى وافوا الباب من خارج فوافى الأشرس بمن معه وقتلوا حرس الباب وضربوا القفل حتى كسروه ودخل المسلمون ووضعوا السيف فيهم وهرب الهرمزان فى عظماء مرازبته حتى دخلوا الحصن الذى فى جوف المدينة وامتنعوا

به ولما أحرج الهرمزان طلب أن يسلم على حكم عمر يصنع به ما شاء فرضوا منه بذلك ثم ذهبت طلائع المسلمين فى اتباع الفالة وأخذ ما أحاط بتستر من البلدان .

أما الرجل الذى دل المسلمين على عورة بلده فلا أدرى سبب فعلته وليس من شأن الفرس هذا فهل كان له ثأر قبل الهرمزان ؟ لم أقف على ذلك .

وأرسل أبو سبرة الهرمزان إلى عمر فلما قدموا به إلى المدينة وكان فى الوفد أنس بن مالك والأحنف بن قيس ، ألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب ووضعوا على رأســــه تاجاً يسمى الآزين وألبسوه حليته كيما يراه عمر .

فلما دخلوا المدينة قصدوا بيت عمر فلم يجدوه فقيل لهم إنه فى المسجد مع وفد جاءوا إليه فقصدوا المسجد فلم يجدوه فذهبوا يسألون عنه فقال لهم ولدان المدينة ما تلدّدُكم تريدون أمير المؤمنين إنه نائم فى ميمنة المسجد متوسد بُرْنسه فذهبوا إليه فوجدوه كما وصفوا ودرته معلقة فى ذراعه فجلسوا دونه وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره ـ فقال الهرمزان :أين عمر ؟ فأشاروا إليه فقال : وأين حرسه وحجابه عنه ؟ فقالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان فقال: ينبغى أن يكون نبياً ـ قالوا لا . بل يعمل عمل الأنبياء . وكثر الناس واستيقظ عمر على الجلبة فاستوى جالسا ثم قال: الهرمزان ؟ قالوا نعم . فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال : أعوذ بالله من النار وأستعين الله . وقال الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه . يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة وقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلمه . فقال : لا حتى لا يبقى عليه من حليته شىء فرمى بكل شىء عليه إلا شيئا يستره وألبس ثوباً صفيقاً . فقال عمر : هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : يا عمر إنا كنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتونا ـ فقال عمر : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم

وتفرقنا ثم قال عمر : ماحجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال : أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى إناء غليظ . فقال : لو مت عطشاً ما شربت فى هذا . فأتى به فى إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال : أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء . فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه . فقال عمر : لاتجمعوا عليه بين القتل والعطش فقال . لاحاجة لى فى الماء . فقال له عمر إنى قاتلك . فقال آمنتنى . فقال عمر كذبت . فقال أنس بن مالك صدق ياأمير المؤمنين . فقال عمر ويحك منى يا أنس أنا أؤمن قاتل البراء ومجزأة بن ثور ؟ والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبنك . قال قلت : لا بأس عليك حتى تخبرنى . وقلت لابأس عليك حتى تشرب . وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل عمر على الهرمزان وقال : خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له عمر فى العطاء على ألفين وأنزله المدينة .

والذى أعتقده أن عمر إنما أنزله المدينة ليكفى المسلمين عواقب غدر الرجل ومكره فإنه كان واسع الحيلة خداعاً كما يتبين من عمله هذا وما كان منه مع المسلمين فى الأهواز . والرجل لم يترك دسائسه وهو بالمدينة حتى كان من أمره ما كان حين قتل أبو لؤلؤة المجوسىّ عمر . ولو أنه أقام بعد عمر لتحيل حتى يرجع إلى بلاده ثم يكون له مع المسلمين شأن آخر . فإسلامه كما أعتقد إنما كان تقية ودسيسة على الإسلام والمسلمين . وقد بلغ من قوة مكيدة الرجل أن كان يتحبب إلى عمر ويوهمه أنه يخلص النصح له حتى يكسب ثقته .

خلص عمر إلى الوفد يسأل عن المسلمين ومايعاملون الناس به وخشى أن يكونوا قد اعتروا أحداً من أهل الذمة بسوء وأن يكون الانتقاض له سبب من ذلك فقال للوفد . لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ماينتقضون بكم وقالوا مانعلم إلا وفاء وحسن ملكة . قال فكيف هذا ؟ وقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافى أيدينا وإن ملك الفرس حى بين أظهرهم وإنهم لا يزالون

يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئا بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولايزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنَسحْ فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه عن مملكته وعز أمته . فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس . فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه . ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند على قتال المسلمين . فكان ذلك سببا لإذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد فارس .

فتح نهاوند

كان الفرس قد اجتمعوا بنهاوند من بلاد الجبل جنوبى همذان واستشار عمر الهرمزان . فقال : إن فارس اليوم رأس وجناحان فاقطع الجناحين يهن الرأس وذكر له أن الرأس بنهاوند وهو بُنْدَار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان . فقال عمر كذبت يا عدو الله بل أعمد إلى الرأس أقطعه فإذا قطعه الله لم يعص عليه الجناحان وكتب إلى أبى موسى أن سر بأهل البصرة . وإلى حذيفة بن اليمان أن سر بأهل الكوفة فإذا التقيتم فأميركم النعمان ابن مقرن المزنى . وكتب إلى النعمان « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . فإنه بلغنى أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلنهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار . والسلام عليك » فسار النعمان فى جند المسلمين وفيهم أعيان الصحابة ووجوه العرب وأنجادهم . فلما انتهى إلى نهاوند بث العيون ليتعرفوا له حال ناحيتها فأخبروه بأن القوم قد ألقوا حولهم الحسك وهم ممتنعون .

حط المسلمون فى تلك الناحية وأنشبوا القتال مع الفرس أياماً ثم انحجزوا فى خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا . وخاف المسلمون أن يطول بهم المقام عليهم فكلموا النعمان فى الأمر فجمع أهل الرأى والنجدة فى الجند وأجال معهم الرأى فيما ينبغى أن يصنعه والقوم معتصمون أشد اعتصام بالحصون والخنادق والمدائن والمسلمون لا يقدرون على إنغاضهم وانبعاثهم وإنه إنما يريد أن يحمسهم ويستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل . فقال عمرو بن ثُبيّ وكان أكبر الناس سناً وكانوا يبدأون بذوى الأسنان . فقال : التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم . فردوا عليه جميعاً رأيه وقال عمرو بن معد يكرب : ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم . فردوا عليه رأيه وقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا . وقال طليحة الأسدى: قد قالا ولم يصيبا ما أرادا . وأما أنا فأرى أن نبعث خيلا مؤدية فيحدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فينا ولم يشكوا فى هزيمتنا فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فينا وفيهم ما أحب فرُضى منه هذا القول . وأمر القعقاع . ففعل وأنشب القتال فأنغضهم ثم نكص ونكص وظنها الأعاجم هزيمة فاغتنموها وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الأبواب وتقهقر القعقاع إلى المسلمين حتى انقطع الفرس عن حصنهم وقد أمر النعمان الناس بأن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم وقد رماهم الفرس وفشت فيهم الجراحات وجعلوا يستأذنون فى الهجوم وهو يلبثهم ثم أمر بالهجوم وصار يمشى فى الرايات ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور وقد أنجز لكم هوادى ما وعدكم وصدوره ، ولم يبق إلا أعجازه وأكارعه والله منجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله واذكروا إذ كنتم أذلة وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة . فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه . وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة والذى لهم فى ظفركم وعزكم والذى عليهم فى هزيمتكم وذلكم . إلى آخر ما كلمهم وأطال به .

بعثهم فانبعثوا إلى الأعداء فاقتتل الناس بالسيوف اقتتالا شديداً لم يسمع الناس بوقعة يوم قط كانت أشد هولا منها . وقتل من الفرس فيما بين الزوال والعتمة ماطبق أرض الميدان وما يزلق الناس والدواب . وأصيب النعمان فأخذه أخوه سواد وسجاه بثوبه وتناول الراية حذيفة بن اليمان ولا يعلم الناس بمصاب النعمان وكتم ذلك من علمه لئلا يهن الناس حتى إذا أقبل الليل انكشف الفرس ولزم المسلمون مجالدتهم فعمى السبيل على الفرس وهووا فى هاوية كانت هناك بعيدة الغور ولم ينج من جموع الفرس سوى الشريد — وكان فيهم الفيرزان فهرب من بين الصرعى وتبعه القعقاع وهو يتعقب الفلال حتى أخذه ووصل القعقاع إلى همذان . وقد هال ذلك أهل البلاد القريبة من نهاوند فصالحوا ودخل المسلمون نهاوند واحتووا ما فيها من الأموال وكان شيئاً كثيراً وأقبل الهربذ صاحب بيت النار يطلب الأمان لنفسه ولمن يريد على أن يؤدى إليهم ما وضع عنده التخيرجان من ذخائر كسرى وهى جوهر كان أعده لنوائب الزمان فأجمع رأى المسلمين على رفعه إلى عمر مع الأخماس وخرج بذلك السائب بن الأقرع وأدى إليه ذلك . ولم يقبل عمر سفطى الدر بل ردهما على حذيفة ليقسم أثمانهما بين المسلمين ولم يرض بشىء مما خصوه به وهو كنوز كسرى .

وقد بكى عمر لاستشهاد النعمان بكاء شديداً حتى سمع له نشيج . وبعد انتهاء الموقعة أذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد الفرس لقطع مادة الشغب وليـيأس الملك من عود ملكه إليه حتى لا يكون كالشوكة فى جنب المسلمين . فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلدان وأرسل إليهم بالألوية وهم :

(١) الأحنف بن قيس التميمى ووجهه إلى خراسان .

(٢) مجامع بن مسعود السلمى ووجهه إلى أردشير خُرَّه وسابور .

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجهه إلى اصطخر .
(٤) سارية بن زنيم الكناني ووجهه إلى فسا ودار بجرد .
(٥) سهيل بن عدوى ووجهه إلى كرمان .
(٦) عاصم بن عمر ووجهه إلى سجستان .
(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجهه إلى مكران .
وقد استعدت هذه الجنود إلى وجهها مفتتح سنة ١٨ هـ .

فتح أصبهان

أصبهان إقليم من نواحي الجبل تجمع بها جمع للفرس فسار إليهم عبد الله بن عبد الله بن عتبة فى جند من المسلمين وصار يغلب على البلاد حولها ويصالح من طلب الصلح منهم حتى انتهى إلى أصبهان وكان بينه وبين ملكها القاذوسبان زحوف وكان ذلك بقاعدة هذا الإقليم وهى (جَى) ثم خرج القاذوسبان وقال لعبد الله : لاتقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن أبرز لى فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتنى صالحك أصحابي وإن كان أصحابي لايقع لهم نُشابة . فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل علي وإما أن أحمل عليك . فقال: أحمل عليك. فوقف له عبد الله وطعنه القاذوسيان فأصاب قربوس سرجه فكسر وقطع السرج واللبب والحزام وأزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع قائماً واستوى على الفرس عُرْياً وقال له اثبت ، فحاجزه وقال : ماأحب أن أقاتلك قد رأيتك رجلا كاملا ولكن ارجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على ان من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى مس أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون . ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه فإن لكم ذلك ودخل أهل جَى فى الذمة إلا ثلاثين رجلا من أهل أصبهان خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان .

قال الطبرى : وقدم أبو موسى الأشعرى من ناحية الأهواز وقد صالح القاذوسبان عبد الله ثم قال : ودخل ابو موسى وعبد الله جى وقد جاء كتاب عمر إلى عبد الله أن سر حتى تقدم إلى سهيل بن عدى على قتال من بكرمان .

وكان كتاب صلح أصبهان « بسم الله الرحمن الرحيم * كتاب من عبد الله للقاذوسبان وأهل أصبهان وحواليها . إنكم آمنون ماأديتم الجزية وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم فى كل سنة تؤدونها إلى الذى يلى بلادكم عن كل حالم ، ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوما وليلة وحملان الراجل إلى مرحلة ولا تسلطوا على مسلم وللمسلمين نصحكم وأداء ماعليكم ولكم الأمان مافعلتم فإذا غيرتم شيئا أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم ومن سب مسلما بلغ منه فإن ضربه قتلناه وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله ابن ورقاء وعصمة بن عبد الله » .

فتح أذربيجان

صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقاً إلى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت اقبل مدينة المراغة .

وذلك أن نعيم بن مقرن كان فى همذان بعدأن فتحها فبلغه أن الفرس تجمعوا بواج روذ بين همذان وقزوين. فخرج إليهم وأنشب القتال معهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة .

فتح الرى

الرى قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسبة إليها رازى .

لما فرغ نعيم من أمر واج الروذ قصد الرى فقهر المجتمعين فى تلك الناحية ثم دانوا له بالصلح وكان الذى ولى الصلح عنهم رئيسهم الزينبى أبو الفَرُّخَان وبعد أن تم صلحهم بعث أخاه سويد بن مقرن إلى قومس ، فسار إليها وأخذها سلما . ومن هناك كاتبه ملك جرجان (وهى مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان) بالصلح فكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان .

فتح الباب

الباب مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر قزوين) وهى ثغر عظيم .

سار سراقة بن عمرو على رأس جيس إلى الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة . فلما أطل عبدالرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمنا ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاء الملك إليه ويظهر أن هذا الملك كان حكيما عاقلا رأى العبرة فى غيره فلم يقبل أن يكون عبرة لسواه . وقد رأى المسلمين قد غلبوا فارس على العراقيين والأهواز وغيرها وأنه وإن كان فى بلد منيع وثيق الحصون وعنده من الحماة من يقدر على الامتناع مدة غير أن ذلك ينهك قوته ويضعفه عمن يتاخمون حدوده من الأعداء وليس وراءه سوى التسليم لحكم قاهريه وليس وراء ذلك سوى القتل وسبي الذرية فأحب أن يبقى على نفسه ومن معه من الرجال والذرية والنساء وأن يتركوا على حال عافية ليكون ذلك أبقى لهم عاقبة وأعونَ على مصاولة من وراءهم من الأعداء .

قال الملك لعبد الرحمن : إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لاينسبون إلى أحساب ، ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول ، وذوُ الحسب قريبُ ذى الحسب حيث كان ولست من القبج فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى وأنا اليوم منكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم .

كلام جميل وعبارة ناصعة تدل على عقل وبعد غور فى السياسة . وما كان جواب عبد الرحمن إلا أن قال له : فوق رجل قد أظلك · وجوّزه . وسار إلى سراقة فلما جاءه وكلمه بمثل ما كلم به عبد الرحمن وقع ذلك من سراقة موقعا فقال له : قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ، ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض . فقبل ذلك وصارسنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عندة الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم الجزاء تلك السنة · وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه . وكان فى كتاب صلحهم الأمان على أنفسهم وأموالهم . وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أولم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض عن جزائهم . ومن استغنى منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به . وهذه سنة حسنة فى عهد عمر بن الخطاب ، فليست الاستعانة بالمخالفين ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة .

ثم وجه سراقة بعد ذلك فصائل إلى الجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان فلم ينجح أحد منهم فى غزاته سوى بكير بن عبد الله الذى توجه موقان من جبال القبج وأعطاهم الأمان على الجزاء عن كل حالم والدلالة والنزل

للمسلم يوما وليلة — وكان غزو سراقة ومن معه على هذا الوجه لم يخطر لعمر ولا لغيره ببـال . لأن جيشا ليس بالضخم يخرج إلى مثل هذا الوجه بغير زاد ولامؤونة ثم يلاقى هذه السهولة فى الفتح والنجاح أمر يتعجب منه ، وبخاصة أن هذه الناحية ثغر عظيم حافل بالجند ، والفرس كانوا يتوقعون أن تكون نكاية جند الإسلام فى هذه الناحية ، فجاء الأمر على ما لا يشتهون . وقد مات سراقة بعد أن استوثق أهل هذه الناحية واستحلوا الإســـلام . وكان قد استخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر — وقد غزا عبد الرحمن فيما وراء البـاب . فلما قطعه لوجهه ذاك قال له شهربَراز: ما تريد أن تصنع ؟ قال: أريد بَلنجَر . فقال: إنا نرضى منهم أن يدعونا ، قال: ولكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم وتالله إن معنا لأقواما لو يأذن لنا أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الردم . قال: ومن هم ؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا فى هذا الأمر بنيـة كانوا أصحاب حياء وتكرم فازداد حياؤهم وتكرمهم فلا يزال هذا الأمر دائما لهم ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم . ثم أخذ عبد الرحمن طريقه حتى غزا بلنجر غزاة لم تئم أيها امرأة ولا ييتم فيها صبي . وبلغ بخيله البيضاء على مائتى فرسخ من بلنجر وذلك أن أهل البلاد لما رأوا هؤلاء القوم قد طلعو عليهم حال الله بين الترك أهل تلك النـاحية وبينه وأوقع الرعب فى قلوبهم فقالوا : لولا أن الملائكة تمنعهم من الموت لم يجترئوا علينا ، فتحصنوا منهم ورجع عبد الرحمن بالغنم والظفر .

فتح خراسان

(بلاد واسعة فى شرق الفارسية وقصبتها مرو . وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وَسرَخس وغير ذلك من المدن التى دون نهر جيحون) .

سبب هذه الغزوة أن كسرى يزدجرد لما وقعت هزيمة جلولاء خرج يريد الرى وقد جعل له محمل واحد يطبّق ظهر بعيره فإذا سار نام فيه ولم يعرس بالقوم . فلما انتهى إلى الرى وعليها أبان جاذويه وثب عليه فأخذه . فقال له: أتَغدر بى ؟ قال: لا ولكن قد تركت ملكك وصار فى يد غيرك فأحببت أن أكتتب على ما كان لى من شىء وما أردت غير ذلك ووصل الأدَم واكتتب الصكاك وسجل السجلات بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم . وكره يزدجرد المقام معه فخرج إلى كرمان والنار معه . ثم عزم على خراسان فأتى مرو فنزلها وقد نقل النار فبنى لها بيتاً واتخذ بستانا وبنى أزجا فرسخين من مرو إلى البستان واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكثوا وثار أهلُ الجبال مع الفيرُزان فكان ذلك سببا لتغيير عمر رأيه فى الانسياح فى بلاد الفرس فانساح أهل البصرة والكوفة حتى أثخنوا فى الأرض وتوجه الأحنف بن قيس إلى خراسان فأخذ على مهرجانقذق ثم إلى أصبهان وأهل الكوفة محاصروجى. فدخل خراسان من الطبّسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صُحار العبدى ثم سار نحو مرو الشاهجان وأرسل مُطرّف بن عبد الله بن الشّخير وليس دونها قتال وأرسل الحارث بن حسان إلى سَرخس .فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها وحل الأحنف بمرو الشاهجان .

كتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان ملك الترك يستمده جنداً يقاتل بهم العرب فأمده . وكتب إلى ملك الصغد كذلك وإلى ملك الصين يستعينه

أما الأحنف بن قيس فاستخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلى بعد أن لحقت به أمداد الكوفة على أربعة أمراء وهم : علقمة بن النضر النصرى ، وربعى بن عامر التميمى ، وعبد الله بن أبى عقيل الثقفى ، وابن أم غزال الهمْدانى . ثم خرج الأحنف سائراً نحو مرو الروذ فخرج منها يزدجرد ومرّ على وجهه بَلْخ فأقام الأحنف بمرو الروذ وقدم جنود أهل الكوفة إلى بلخ ثم أتبعهم الأحنف فالتقت جنود أهل الكوفة بيزدجرد ومن معه فانهزم يزدجرد وتوجه بمن بقى معه من الفرس إلى النهر فعبره ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم وحصلت بلخ فى أيديهم وتتابع أهل خراسان ممن شذ أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان وعاد الأحنف إلى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعى بن عامر . ثم كتب الأحنف إلى عمر بفتح خراسان ، فقال : لوددت أنى لم أكن بعثت إليها جنداً ، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار . وكتب عمر إلى الأحنف : « أما بعد فلا تجاوزن النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأى شىء دخلتم خراسان فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر وإياكم أن تعبُروا فتنفضوا » .

كان عبور يزدجرد قبل أن يستتب لخاقان وغوزك ملك الصغد إنجاد يزدجرد والملوك ترى حقاً عليها إنجاد الملوك . فأقبلت جيوش الترك وحشر أهل فرغانه والصُّغْد وعاد بهم يزدجرد إلى خراسان فلما عبر إلى بلخ خف أهل الكوفة الذين بها إلى مرو الروذ وجاء إليها المغيثون والأحنف بها . وكان الأحنف حين بلغه عبور القوم يخرج يتسمع ليلا فمر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول للآخر : لو أن الأمير جعل هذا الجبل خلف ظهورنا وتركنا نقاتل العدو من وجه واحد رجوت أن يكون النصر لنا . فأخذهما الأحنف وعمل بها . وجاءت جموع الترك وسواهم فصاروا يقاتلون حتى إذا جاء الليل انشمروا إلى مكان بعيد — ولم يهدأ للأحنف روع حتى علم أين يكونون .

ثم خرج ليلة وحده حتى إذا كان بمكان قريب منهم وقف فلما كان وجه الصبح خرج فارس منهم ومعه طبل فطبل به ثم أخذ مكاناً وقف فيه لجاء الأحنف فقتله . ثم خرج الثانى ففعل فعله ثم وقف فقتله الأحنف . ثم خرج الثالث ففعل فعلهما فألحقه بهما وانصرف لا يشعر به أحد من المسلمين . فلما خرج الترك وجدوا فرسانهم قتلى فتطيروا ورجعوا عودهم على بدئهم يؤمون بلادهم وقالوا : لا خير لنا فى قتال هؤلاء .

وفى تلك الأثناء ذهب يزدجرد فيمن معه من الفرس إلى مرو الشاهجان والأحنف لا يعلم به فتحصن منه حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج كنوزاً كانت له فأعجل عنها . وأراد أن يستقل فأراد أهل فارس صرفه عن قصده وقالوا له : إن هذا رأى سوء مك إنك إنما تأتى قوماً فى مملكتهم وتدع مملكتك وأرضك وقومك ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا . وإن عدواً يلينا فى بلادنا أحب إلينا ملكه من عدو يلينا فى بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما وفاؤهم. فأبى عليهم وأبوا عليه وقاتلوه وهزموه وكاتبوا الأحنف بالخبر فاعترضهم المسلمون والفرس ينازعونه فأعجلوه عن الأثقال ومضى حتى قطع النهر إلى فرغانة والترك فلم يزل مقيما هناك زمان عمر . وأقبل أهل خراسان على الأحنف يصالحونه ودفعوا إليه الخزائن وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا فى زمان الأكاسرة كأنما هم فى ملكهم إلا أن المسلمين أوفى وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا .

ولما عاد رسول يزدجرد الذى بعثه إلى ملك الصين أخبره أنه أهدى إليه هدايا وأنه سأله عن القوم الذين غلبوهم على بلادهم وقال له: إنك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم ، فقلت : سلنى عما أحببت . فقال . أيفون بالعهد ؟ قلت : نعم قال : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة أو المنابذة . قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟ قلت : أطوع قوم لمرشدهم . قال :

فما يحلون وما يحرمون ؟ فأخبرته فقال : أيحرمون مايحلون أو يحلون ما يحرمون؟ قلت : لا . قال فإن هؤلاء لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال : أخبرنى عن لباسهم فأخبرته . وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها فقال نعمت الحصون هذه . ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها فقال : هذه صفة دواب طوال الأعناق . وكتب مع الرسول إلى يزدجرد أنه لم يمنعنى أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق على ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لى رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سَرْبُهمْ أزالونى ما داموا على ما وصف لى فسالمهم وارض منهم بالمساكنة ولا تهيجهم ما لم يهيجوك .

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد الفارسية ـ توَّج ـ فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ـ ثم فتح فساو دار بجرد ـ وفتح عثمان بن أبى العاص اصطخر ـ وفتح سهل بن عدى كرمان ـ وفتح عاصم بن عمرو سجستان ـ وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران .

قد نقل الأستاذ الخضرى حديثاً طريفاً هو حديث قيس بن سلمة وكان عمر قد ولاه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد ، فسار إليهم وهزمهم . ولما قسم على الجند النفل رأى شيئاً من حلية . فقال : إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب نفوسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ومؤونة ؟ قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا . فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه يوصل ذلك إلى عمر . قال الرسول : فأتيت إلى المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القطاع . فلما دفعت إليه قال : اجلس . فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة — طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس . قال يا يرفأ : ارفع قصاعك ثم أدبر، فاتبعته ، فدخل داراً

ثم دخل حجرة ، فاستأذنت وسلمت ، فأذن لى فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها . فإذا بهو فى صفة فيها بيت عليه سُتَيْر فقال : يا أم كلثوم غداءنا ، فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا فتأكلين معنا من هذا ؟ فقالت إنى أسمع عندك حس رجل قال نعم . ولا أراه من أهل البلد . قالت : لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته . قال : أو ما يكفيك أن يقالَ أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — ثم قال : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا — قال : فأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه وأكمل . فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه . ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه . ثم قال . اسقونا . فجاءوا بعُس من سُلت . فقال اعط الرجل قال : فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته ، فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس . قال : مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثنى عن المهاجرين كيف هم ؟ فقلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم . قال : كيف أسعارهم ؟ قلت : أرخص أسعار ، قال : كيف اللحم فيهم ؟ فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها ، قلت : البقرة بكذا والشاة بكذا . ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة . فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده فى خاصرته . ثم قال : لا أشبع الله إذن بطن عمر ، ثم قال كيف ما جئت به ؟ أما والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة . قال . فارتحلت حتى أتيت سلمة . فقلت : ما بارك الله لى فيما خصصتنى به . اقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك فاقرة فقسمه عليهم .

هذه الحكاية لا تخبرنا بحديث لا نعلمه عن عمر فى زهده وتقشفه فى منزله

وأخذه أهله بذلك ولكنها تنبيء عن زهد فى الدنيا وقد عرضت عليه وخروجه منها وقد تلبست به وتشبثت بأهدابه وذلك ينبيء عن قوة إرادة لا تبلغ إلا بمعونة الله تعالى . فقد كانت الحلية حِلاً بِلا له جاءته عن طيب خاطر من أصحابها رضية بها نفوسهم . ولكنه يرى القوم جند الإسلام وعزه فهو يريد توفير السعادة لهم وإيثارهم بالغنى ليزدادوا رغبة فيما هم بسبيله وهو لا يريد تغيير حاله التى هو فيها لئلا تشغله الدنيا عنهم وتصدف به عن الالتفات إلى أحوالهم — وفوق ذلك فإنه يريد قطع مادة الطموح إلى غنائم المسلمين ونفلهم لئلا يكون أخذ مثل هذه اليوم بحق مدرجة لامتداد يد غيره من بعده إلى أمثالها بغير حق متأولين فى تناول ما يتناولون ما كان من عمر من أخذ بعض الغنائم ولا يبعد أن يتأولوا أن ذلك كان صفياً له . فيأخذوا بحقه ما هو باطل ويستحلوا ما هو محرم . فيكون ذلك مدرجة للفساد وفشو الطمع وحب الأثرة وفى ذلك هلاك الراعى والرعية .

وبما تقدم من الفتوح التى سردناها سقطت مملكة فارس نهائياً بيد المسلمين وصار لهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات والخليج الفارسى ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب المحيط الهندى ومن الشمال بلاد أرمينية . وكان افتتاح ذلك كله فى زمن لم يتجاوز سبع سنين ؛ وكان النصر لهم رفيقا فى كل الوقائع التى واقعوا فيها الفرس إلا قليلا . وكان للمسلمين اسم جميل عند عامة الفرس لما رأوا فيهم من العدل والوفاء وحسن الملكة . وكيف لا يكون ذلك رأيهم وعمر يواليهم بالنصائح والعظات ولا يترك فرصة تمر دون تذكيرهم بالوفاء والعدل وحسن السيرة فيما بينهم وفى أهل ذمتهم .

وقد كان شهربراز مع عبد الرحمن بن ربيعة وجاءت شهربراز ياقوته ثمينة ، فناولها لعبد الرحمن فنظر فيها ثم ردها إليه . فقال شهرباز وهو صاحب الباب : لهذه خير من هذا البلد — يعنى مدينة الباب — وأيم الله لأنتم أحب إلىّ مِلكة

آل كسرى ، ولو كنت فى سلطانهم ثم بلغهم خبرها (الياقوتة) لانتزعوها منى وأيم الله لا يقوم لكم شىء ماوفيتم ووفى ملككم الأكبر .

وإلى هنا ننقل الكلام إلى ماحصل فى أرض الروم فى عهد عمر رضى الله عنه .

الفتوح فى بلاد الروم

لم يتفق المؤرخون على ترتيب الوقائع فى مملكة الروم فبعضهم يقدم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حصول تلك الوقائع ونتائجها : والسبب فى هذا الاختلاف تلاحق الوقائع وتواليها فيما بين السنة ١٣ والسنة ١٤ . فربما كان حصول واقعتين فى وقت واحد فيذكر الراوى إحدى الواقعتين ثم يثنى بالأخرى فيتلقف الكاتب ذلك ويرتبهما على حسب ترتيبها فى الذكر ويقدم إحداهما على الأخرى . فإذا جاء راو آخر وعكس الترتيب فى الذكر تبعه مؤرخ آخر وصار على طريقته . وربما فتح البلد الواحد مرتين وفتح بلد آخر بينهما فيذكر الراوى الفتح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر — ثم يأتى راو آخر ويذكر فتح البلد الآخر ويذكر الفتح الثانى . وهكذا .

قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : أما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم فى أحشاء البلاد . فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل شرحبيل الأردن ، ونزل عمرو ابن العاص العربة من فلسطين وكان يريد البلقاء ومن ثم اختلف المؤرخون فى كيفية ترتيب الوقائع . فمن قائل إن أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ، ومن قائل غير ذلك . والذى قال بالأول بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا فى البلاد وراعهم ماجمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا فأشار عليهم

بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا إلى أبي بكر فأمدّهم بخالد بن الوليد . ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين فتأمر عليهم . إلى أن قال :

مع أن إمعان الأمراء بجيوش المسلمين فى الجزء الجنوبى والجنوب الغربى من البلاد ووصول بعضهم إلى الأردن قرب طبرية والبعض الآخر إلى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين فى عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم فى اليرموك . كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك إنما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر وواقعة أجنادين التى بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة العربة من فلسطين وغيرها ، وأن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً . ويؤيد هذا ما ذكرناه سابقاً عن البلاذرى من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك .

ويدل على أن لجيوش المسلمين مع بعض مدن الشام وبلاده وقائع قبل اليرموك قول القعقاع بن عمرو وقد كان فى جيش خالد الذى جاء من العراق :

بَدَأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذُّهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرَى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشى والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ، ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

فتح دمشق

قدمنا أن وقعة اليرموك كانت فى أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأن الرسول جاء بموت أبي بكر وتولية عمر يوم الواقعة وأسرّ إلى خالد بالأمر وأن خالدا كتم الأمر إلى تمام الوقعة وانتهائها بالفتح .

فلما انتهى أمر اليرموك ، استخلف أبو عبيدة عليها بشير بن كعب الحميرى وسار حتى نزل بالصفر ، فأتاه الخبر بأن فالة الروم نزلوا بفحل وأن الروم توافى مددهم إلى دمشق ، فكتب إلى عمر بذلك ، فأمره عمر بأن يسير فيبد بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل من بفحل بخيل تكون بإزائهم حتى إذا فتح دمشق عاد إلى فحل فنازل من بها . وقد كتبت فى سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) ما يأتى :

البدء بالقوة الكبرى تسير عليه قواد الجيوش وأهل الفنون الحربية فى هذا الزمن . فقد كان من هم قواد الألمان فى الحرب التى أثاروا عجاجها سنة ١٩١٤ والعالم لم يزل يصطلى بناوها إلى اليوم أن يبدؤا بالقوة الفرنسية وهى القوة الحربية الحقيقية فى ذلك اليوم ليسحقوها غير حاسبين للقوة الروسية التى كانت تتجمع فى شرق مملكتهم حساباً لأنها بطيئة الحشد لقلة المواصلات واحتياجها إلى الزمن الفسيح لتستكمل عدتها وتتهيأ لخوض أهوال الحرب حاسبين أنهم يفرغون من الجيش الفرنسى فى زمن يسير ثم يتهيأون للجيوش الروسية على هينهم فلما قامت الجيوش البلجيكية فى سبيلهم وصدتهم عن مباغتة الجيش الفرنسى وعوقتهم نحو سبعة عشر يوماً فاستعد الجيش الفرنسى فيها استعداداً كاملا وصار أداة حرب صالحة ولم يدركوا أربتهم منه ، ورأوا روسيا جادة فى مفاجأتهم على حالهم تلك بجيشها العامل ، كفوا عن الإيغال وعمدوا إلى حرب الخنادق ثم وجهوا إلى الجيش الروسى الهائل جيوشاً نازلته وقهرته ثم صارت الحرب إلى الحال التى هى عليها الآن ونحن فى يوم ٥ مارس سنة ١٩١٨ .

صدع أبو عبيدة بأمر عمر وهو أن يذهب إلى الشام أولا فيبدأ بها فإذا فتحت سار إلى فحل فإذا فرغ من أمرها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمراً بالأردن وفلسطين . فنزل جيش من المسلمين على فحل وخشى الروم أن يصل المسلمون إليهم فبثقوا الماء حولهم فوحلت الأرض وحصروا أنفسهم

بأيديهم وسهلوا المسلمين المقام على حصارهم وكانوا أول محصور

وقام أبو عبيدة عسكراً بين حمص ودمشق لئلا يأتى المدد من حمص إليها وأرسل جنداً آخر ليكون بين دمشق وفلسطين ليصد المدد إن جاء منها . ونزل أبو عبيدة على ناحية من دمشق وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل نازلا قريب حمص .

حصر المسلمون دمشق على هذه الصورة وطمع أهلها فى أن يمدهم هرقل بالجنود فصابروا المسلمين وصبروا على هذا الحصار الشديد سبعين ليلة والمسلمون يزاحفونهم ويرمون عليهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث . وأرسل هرقل لإنجادهم خيلا فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص ويئس القوم من المعونة .

كان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يبيت إلا على تعبية ولا يخفى عليه من أمر الروم بدمشق شىء وقد اتخذ حبالا كهيئة السلالم وأوهاقا . وقد علم أنه وُلد للبطريق الذى على دمشق مولود فصنع طعاما ودعا إليه حُماة المدينة فأكلوا وشربوا وزالوا عن مواقفهم أمنة منهم وثقة بمنعة حصونهم . فانتهز خالد هذه الفرصة ونهض فيمن معه من جنده . وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذهور ابن عدى وأمثالهم وقالوا إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب . فلما انتهى إلى الباب الذى يليه هو وأصحابه رموا الشُّرف بالحبال وعلى ظهورهم القربُ التى قطعوا بها الخندق . فلما ثبت لهم وَهَقَان تسلق القعقاع ومذهور وأثبتا الأوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه . وكان المكان الذى اقتحموا منه أحسن مكان يحيط بدمشق وأشده مُدَّخَلا . ولما استووا على السور حدر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمى مرتقاهم وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال جند كثير فارتقوا فيها . وانتهى خالد فيمن معه إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما دهمهم واشتغل أهل كل ناحية بمن يليهم خشية الاقتحام فلم ينجدوا أهل الناحية التى بها خالد

وأصحابه وكسر خالد ومن معه إغلاق الباب بسيوفهم وفتحوا للمسلمين وأعملوا سيوفهم فى المقاتلة الذين فى ناحية خالد فلم يبق منهم أحد إلا قتل.

لما شد خالد على من يليه وأدرك منهم ما أراد عنوة اجتمع من أفلت منهم إلى الأبواب التى تلى غيره. وكانوا قبل ذلك قد أرسلوهم على المشاطرة فأبوا عليهم ذلك. فلم يدر أهل تلك الأبواب من المسلمين إلا بالروم قد ألقوا إليهم بأيديهم يبذلون ما امتنعوا من الإقرار به من قبل وهو الصلح على المقاسمة وهم لا يدرون سبباً لهذا الرضا بعد التأبى والامتناع. فلما قبلوا منهم قالوا لهم: ادخلوا فامنعوا عنا من بالجانب الآخر. فدخل أهل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة، فالتقى القواد فى وسط دمشق هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً. وأجروا ناحية خالد على صلح أهل الأبواب الأخرى. وكان صلح دمشق على المقاسمة فى الدينار والعقار ودينار عن كل رأس. هكذا ذكر كثير من المؤرخين والظاهر أن رواية المقاسمة على العقار ليست صحيحة بدليل قول عمر لأبى عبيدة «وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثر مشاجرتكم فيها فهى للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس».

وبعد انتهاء فتح دمشق جاء أمر عمر لأبى عبيدة يأمره بصرف جيش العراق إلى العراق فصرفه مع هاشم بن عتبة وأبقى خالد اضاية.

غزوة فحل

لما فتح المسلمون دمشق كان وراءهم جنود الروم فى فِحْل ولا يتسنى لهم الإيغال فى تلك البلاد ووراءهم فى ذلك المكان قوة رومية لا يستهان بها. فقد قالوا إنهم كانوا ثمانين ألفاً قد حصرتهم المياه والوحول والمسلمون بإزائهم

من ورائها ففصل أبو عبيدة بالجيوش وخلف يزيد بن أبى سفيان على دمشق وعلى الناس شرحبيل بن حسنة لأنه ولى الحرب فى الأردن . وجعل خالدا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرا على المجنبتين ، وضرار بن الأزور على الخيل ، وعياض بن غنم على الرجل . ولما انتهوا إلى أبى الأعور السلمى وكان بين الأردن ودمشق ليصد المدد فقدموه إلى طبرية فحاصرها ونزل سائر الجيش على فِحْل .

ولما رأى المسلمون أن الروم فى حرز حريز من الوحل الذى جعل الوصول إليهم مستحيلا كتبوا إلى عمر ليأمرهم بأمره . والمسلمون ناعمون فى ريف الأردن وخيراته والروم فى حرزهم كأنهم دودة القز فى برجها الحريرى ، فهم محرومون من كل شىء فيه نعيم ولا يقدرون على الخروج إلا على غرر .

ضاقت على الروم المذاهب فرجوا أن يصيبوا من المسلمين غرة ويوقعوا بهم وظنوا بالمسلمين الغفلة فخرجوا بقيادة قائدهم سقلار غير أن شرحبيل كان حازماً شديد اليقظة فكان لا يبيت إلا على تعبية واستعداد للحرب . فلماهجم الروم على المسلمين خارج الوحل والماء لم ينظرهم المسلمون بل بادروهم بالشدة وقاتلوهم أشد قتال ليلتهم ويومهم فلما جن عليهم الليل حار الروم وأرادوا الرجوع إلى مكانهم الأول فضلوا ولم يهتدوا إلى الطريق الذى خرجوا منه فانهزموا حيارى وقتل قائدهم الأول (سقلار) وقائدهم الثانى فوقع فيهم الاختلاط وانهزموا فانتهوا فى هزيمتهم إلى الوحل الذى صنعوه بأيديهم ليتقوا به الموت فكان موتهم ذلك الذى جعلوه وقاية لهم . فإنهم لما تورطوا فى الرداغ ركبهم المسلمون وهم لا يردون يد لامس وكان الوحل الذى كرهه المسلمون أكبر عون لهم على الفتك بأعدائهم

ومن هنا ومما كان باليرموك نعلم أن القيادة فى جيوش الروم لم تكن من الحنكة والدربة على الحرب ومكائده فى وزان القيادة فى الجيوش العربية لأن النزول بهم على الواقوصة كان أشد وبالا عليهم من سيوف أعدائهم .

وكذلك بثق الماء حول الجيش فى فحل كان حصاراً لهم فى مقامهم وشركا لهم فى حربهم والله يحكم لا معقب لحكمه .

الوقعة بمرج الروم

علم هرقل بما أصاب جنده فى دمشق والأردن وماعزم عليه أبو عبيدة من قصد حمص فأراد أن يشغل المسلمين بجيش مع قائده ثيودور وآخر بقيادة القائد شنس . ويظهر أن القائدين كانا على اتفاق فيما يصنعان بأن يقف أحدهما لشغل جيش المسلمين فى الوقت الذى يخالف الآخر إلى دمشق وهى فى قلة من الحامية ليأخذها وَينْقُضَ على المسلمين ما أبرموا .

وقد التقى الجيشان بجيش المسلمين فى مرج الروم غربى دمشق فنزل أبو عبيدة بإزاء شنس ونزل خالد بإزاء ثيودور . ولما أصبحوا نازلهم شنس ولم يجد خالد لثيودور أثرا ، وعلم أنه قصد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً باقتفاء أثره .

وعلم يزيد بن أبى سفيان بمقدم جيش الروم فخرج لقتالهم . ولم يشعر الروم بخالد ومن معه إلا وقد أتوهم من ورائهم فأخذوا من بين أيديهم ومن خلفهم فلم ينج منهم إلا الشريد . ونازل أبو عبيدة ثيودور فقتله وهزم جيشه وتبعهم المسلمون يقتلونهم ووصل فل ذلك الجيش إلى حمص .

تحقق هرقل أنهم بعد ذلك موافوه إلى حمص فيئس من بقاء الشام فى يده فودعها الوداع الأخير بقوله (Adeiu Siria) وأمر عامله على حمص بالتحصن وأن يطاول المسلمين حتى يأتى الشتاء وأن لاينازلهم إلا فى يوم بارد فلا يمر الشتاء إلا وقد أهلكهم البرد .

فتح حمص

حمص مدينة بين دمشق وحلب .

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك وقدم إليها السمط بن الأسود الكندى وقدم خالد إلى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع . ونزل أهل بعلبك إلى أبى عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتابا ثم توجه إلى حمص ونزل عليها وقاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم فى كل يوم شديد البرد ولقى المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار . ولما رأوا أن الشتاء قد انصرمت مدته ولم ينصرف المسلمون عنهم اشتد عليهم الأمر ورجعوا إلى ما كان يدعوهم إليه بعض مشايخهم وهم يأبون منه وهو الصلح فطلبوا من أبى عبيدة ذلك فصالحهم على صلح أهل دمشق . ونزل بها السمط بن الأسود الكندى فى بنى معاوية والأشعث بن ميناس فى السكون والمقداد فى بلى ونزل بها غيرهم . وقد كان نزول المسلمين فى كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة .

وقد بعث أبو عبيده بالأخماس والفتح إلى عمر مع عبد الله بن مسعود فكتب إليه عمر أن أقم فى مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فإنى غير تارك البعث إليك بمن يكانفك إن شاء الله .

وغرض عمر من ذلك أن يكون أبو عبيدة فى قوة ومنعة تكف عادية الروم لأن بلده أقرب إلى بلادهم وهى مظنة لأن تكون غرضا لهم ثم بعث أبو عبيدة خالداً إلى الحاضر — حاضر حلب — وكان أصناف من العرب ينزلونه وكان جمع من الروم عليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل قائدهم ولم يفلت من هذا العسكر أحد .

أما عرب الحاضر فاعتذروا إلى خالد بأنهم حشروا كرها ولم يكن من نيتهم أن يقاتلوا فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال : أمَّرَ خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى . وقال فى حقه وفى حق المثنى بن حارثة : إنى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما .

ثم سار خالد حتى نزل على قِنَّسْرِين فتحصن أهلها منه فقال لهم : لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا . فنظر القوم فى أمرهم وعلموا أنهم ليسوا بأقوى من أهل الأمصار قبلهم ، فصالحوه على صلح أهل حمص .

ثم فتحت قيسارية على يد معاوية بن أبى سفيان .

ثم فتحت أجنادين على يد عمرو بن العاص وكان بها قائد يقال له أرطبون هو أدهى الروم وأبعد رجالهم غوراً وأنكاهم فعالا — ولما بلغ عمر بن الخطاب قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج . وكان الأرطبون قد أراد تفريق جنود العرب فوضع بالرملة جنداً عظيما ، وبإيليا جنداً عظيما فكتب عمرو إلى عمر بذلك ووجه جنوداً إلى كل ناحية فيها جند الروم وكتب عمر إلى يزيد أن يوجه معاوية إلى أهل قيسارية ليشغلهم عن عمرو بن العاص فافتتحها كما قدمنا . وتتابعت الإمداد على عمرو فأرسل يمد من أقامهم بإزاء جنود الروم بالرملة وأيلة . ومكث مدة لا يقدر من الأرطبون على سَقطة ولا تشفيه الرسل . فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد .

وقع فى نفس الأرطبون أن الرسول عمرو بن العاص ، أو الرجل الذى يستشيره عمر فى أمر الحرب . فدعا رجل من جنده وأسرَّ إليه كلاماً . وفطن عمرو للأمر . فقال له قد سمعت منى وسمعت منك فأما ماقلته فقد وقع منى موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكاتفه

ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى لقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك. فقال نعم. ودعا رجلا فساره وقال اذهب إلى فلان فرده فرجع إليه الرجل وقال لعمرو انطلق فجىء بأصحابك ، فخرج ورأى أن لا يعود إلى مثلها. وبلغت عمر فقال غلبه عمرو ، لله عمرو — وقد استبعد الأستاذ الخضرى أن يغرر رجل حذور كعمرو بنفسه ويترك جيش المسلمين وهو قائده وروحه ويجعله تحت الخطر ، وإنى أوافقه وأقول ما كان ليفعل هذا التغرير ووراءه رجل يقظ حذر كعمر.

اقتتل الروم والمسلمون فى أجنادين قتالا شديداً وكثرت بينهم القتلى حتى كان هذا القتال فى شدته يشبه القتال فى اليرموك ثم انهزم الأرطبون بجنوده حتى آوى إلى إيليا وأفرج له المسلمون الذين عليها حتى دخلها وأقام بها إلى أن فتحت ونزل عمرو أجنادين.

فتح بيت المقدس

لما انتهى عمرو من أمر أجنادين ترك أهل إيلياء وهى بيت المقدس فى الحصار وأخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها: ففتح غزة ، ولُدّ ، ونابلس وبيت جبرين ، ومرج عيون ، ويافا — فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس والأرطبون ممتنع بها ، فأخذ يخاطبه فى تسليم المدينة فأبى.

وقد جاء فى الطبرى أن عَمراً دعا برجل يعرف الرومية وأمره أن يأتى أرطبون بكتاب من عمرو فيه: جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة ، تجاهلت فضيلتى. وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد واستعدى عليك فلانا وفلانا. لوزرائه. وأمر الرسول أن يقرب ويتنكر

وقال استمع ما يقول حتى تخبرنى به إذا رجعت — فلما جمع أرطبون وزراءه وقرأ عليهم الكتاب أغربوا فى الضحك. وقالوا له: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ — فقال صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف. فكتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول إنى أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاداً قد ادخرت لك فرأيك فى هذه الرواية غرابة ولا يمكن للمؤرخ أن يستند إليها لأنها لم تبن على أساس متين. والذى أراه أنصع، رواية أخرى عن الطبرى: هى أن أبا عبيدة حصر أهل بيت المقدس فطلبوا منه أن يصالحهم على أهل الشام وأن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب. فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة ممداً لهم بعد أن استخلف علياً عليها وقد قال له على أين تخرج بنفسك إنك تريد عدواً كلباً. فقال: إنى أبادر بجهاد العدو موت العباس. إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل.

وكان خروج عمر إلى الشام فى هذه المرة أول خرجة خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويوافوه بالجابية فلقوه بها. فكان أول من لقيه يزيد بن أبى سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فلما رأى عمر ذلك كبر عليه أن يرى القوم فى زينة وزخرف وهم قريبوا عهد برسول الله أو خاف عليهم أن يكونوا قد افتتنوا بالدنيا وزينتها — فنزل عن دابته وأخذ الحجارة ورماهم بها لا يحجزه عنهم مالهم من مكانة شامخة وعز باذخ. وقال: سرع ما لُفِتُّم عن رأيكم. إياى وتستقبلون بهذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين. سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فلم يكن من القوم الا أن قالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامعة وإن علينا السلاح — قال فنعم إذن وركب حتى نزل الجابية وبينما عمر بالجابية إذ فزع الناس إلى السلاح فسأل عن شأنهم فقالوا: ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فإذا

كردوس يلمعون بالسيوف ، فقال : هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم . فإذا هم أهل إيلياء قد جاءوا للصلح .

ذلك أن أهل إيلياء قد اشتد عليهم الحصار وصاروا به فى ضنك شديد وأيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها أنهم مأخوذون ولا مطمع لهم فى إنفاذ دولة الروم إياهم بعد أن دالت فى هذه الناحية دولتهم وزالت عن البلاد سلطتهم وأشفقوا أن لا يعطيهم المسلمون ما أعطوا غيرهم من أهل المدن الأخرى من الأمان لما أسلفوا من شدة قتال وقوة مراس ، ولما بذله المسلمون فى حربهم من الدماء . وربما كان القوم قد ظنوا أن المسلمين يَرَوْنَ أن مدينتهم بها البيت المقدس الذى يرى المسلمون تعظيمه . فخافوا أن يغلبوهم عليه ويزيلوا منه معالم الأديان الأخرى وينتزعوا منهم كنيستهم العظمى وقبلتهم المقدسة ويحرموهم ذلك بحق الفتح فرأوا توكيداً للأمان وزيادة فى توثيق عرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولما ورد أهل إيلياء إلى الجابية أخبروا أنهم نواب الصلح وأن أميرى الجند الرومى قد لحقا بمصر فصالحهم عمر على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها وكتب لهم بذلك كتبا . وكتب لأهل ايلياء كتاباً خاصاً وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (وفى روايه الصوص ولعلها الصحيحة) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله

حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (هكذا فى جميع ما رأيت من التواريخ) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن ابى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ ﻫ .

ولما بعث عمر بأمان بيت المقدس وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية وكان فرسه قد وحى فأتى ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج به فنزل عنه وضرب وجهه بطرف ردائه وقال لاعلم الله من علمك هذا من الخيلاء . ودعا بفرسه فركبه حتى جاء إلى المسجد الأقصى ليلا فدخله وصلى فى محراب داوود ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة وتقدم فصلى بالناس بسورة ص وصدر بنى إسرائيل ثم انصرف فقال : علىّ بكعب (كعب الأحبار) فلما أتى به قال : أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال : إلى الصخرة — فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب . وقد رأيتك وخلعك نعليك . فقال : أحببت أن أباشره بقدمى . فقال : قد رأيتك . بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة . ثم قام إلى كناسة كانت قد كانت الروم دفنت فيها بيت المقدس وهو الهيكل فى زمان بنى إسرائيل وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وحثا فى أصلها وحثا فى قباء . وسمع تكبيرة من خلفه . فقالوا ما هذا : فقالوا كبر كعب فكبر الناس بتكبيره فقال : على به . فأتى فسأله عن

سبب تكبيره . فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبي منذ خمسمائة سنة ، وسرد له خبراً ذكره الطبرى كله من الإسرائيليات التى ابتدعها هو وسواه ولا أصل لها .

إن كعبا — ككل يهودى — فرح بدخول المسلمين إلى بيت المقدس وافتتاحه لأن ذلك يشفى بعض ما فى صدورهم من الغلة والحقد على المسيحية والقائمين بها ، وقد كان بيت المقدس محرماً عليهم دخوله والدنو منه . وهم بذلك الفتح ينالون حرية أداء العبادة فيه وهو معبدهم الأول وبلدهم العتيق فلا غرو أن كانوا أكثر الناس فرحاً بهذا الفتح الذى ينيلهم الحرية الدينية .

والعبرة من هذا الفتح تظهر جلية واضحة من كتاب عمر بالأمان الذى حشوه الرفق والعدل والحرية وصيانة الدماء والحقوق فإن بيت المقدس لم يدخل مدينته أحد من الفاتحين كما دخلها خليفة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ خلقت إلى ذلك العهد . بل كان الفاتح يدخلها مخربا مبيدا مدمرا عاتياً جباراً سفاكا لا رحمة عنده ولا شفقة عليهم لديه . فهذا بختنصر فى الخراب الأول وطيطوس فى الخراب الثانى على رأس سبعين سنة ميلادية قد فعلا الأفاعيل وخربا المدينة والمسجد تخريبا . وأما عمر فقد دخلها كما وصفنا وأعطى أهلها من الأمان ما بينا .

ولما جاءها بعد ذلك (غودوفروا دوبيون) قائد الجيوش الصليبية استن بأهلها سنة وثني بابل ووثني رومة فخرب المسجد وأجزر السيف تسعين ألفاً من أهلها المسلمين .

ولما جاء صلاح الدين الأيوبى وأخذها من الصليبيين دخلها دخولا عمريا وأمن أهلها على نفوسهم وأولادهم ونسائهم وخرجوا منها على فداء طفيف يؤدونه . وقد تجاوز أخوه أبو بكر العادل عن ذلك المقدار لكثير من النساء وكان الثناء عليه عامًّا فى أوروبا وعلى أخيه صلاح الدين .

وفى سنة ١٧ هـ أراد عمر رضى الله عنه أن يزور الشام للمرة الثانية فخرج إليها ومعه المهاجرون والأنصار حتى إذا نزل بسَرْغ على حدود الحجاز والشام لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان الطاعون بالشام . فقال عمر لابن عباس اجمع لى المهاجرين الأولين ، قال : فجمعتهم فاستشارهم فاختلفوا عليه ، فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك . ومنهم القائل : إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه . فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى ، ثم قال لابن عباس اجمع لى مهاجرة الأنصار . فجمعهم له ، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله . فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى . ثم قال : اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش ، فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء . فقال عمر ياابن عباس اصرخ فى الناس فقل إن أمير المؤمنين مصبح على ظهر ، وأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال : أيها الناس إنى راجع فارجعوا . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ قال : نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ؟ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة . ثم خلا به بناحية دون الناس ، فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس . فلما أخبر الخبر قال : عندى من هذا علم ، قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق ، فماذا عندك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم إلا ذلك » فقال عمر : لله الحمد ، انصرفوا أيها الناس . فانصرفوا .

كان حصول الطاعون فى ذلك الوقت بعد المجازر البشرية وكثرة القتلى وتعفن الجو وفساده بتلك الجيف أمراً طبيعياً وبخاصة إذا عرفنا أن وسائل

الوقاية الصحية لم تكن معروفة فى ذلك الزمن . على أن مجرى اجتماع الجيوش الكثيرة فى مكان واحد داع إلى فشو الأمراض والأوبئة . وقد اجتمع فى تلك البلاد كثير من الجنود بين روم وعرب فكان لابد من حصول الأوبئة .

وبعد انصراف عمر حصل الطاعون الجارف المعروف بطاعون عَمَوَاس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبى سفيان ، والحارث بن هشام وقيل استشهد باليرموك . وسهيل بن عمر ، وعتبة بن سهيل وأشراف الناس . ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم : أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل استعال النار فتجنبوا منه فى الجبال . فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه .

أما السر فى اشتداد الطاعون فى دمشق دون سواها من بلدان سورية ، فهو أن أهل دمشق إنما يشربون من النهر (نهر برَدَى) وهو عرضة للتلوث بجراثيم الوباء ونقل العدوى بواسطته سهل جداً وانتشارها مضمون . أما بقية البلاد فيغلب أن يكون شربهم من العُيون وهى أقل قابلية للتلوث ونشر المرض وتعميمه وهو السر أيضاً فى أنهم لما ارتفعوا فى الجبال كان ذلك سبباً لزواله عنهم .

وأهل دمشق الآن لا يشربون من نهر برَدَى وإنما يشربون من ماء عين الفيجة ساقوه فى الأنابيب إلى بلدهم وماء نهر بَرَدَى يدخل فى جميع بيوتهم ولا ينتفعون منه بالشرب وإنما يستعملونه فى غسل الملابس والأوانى ونحوها .

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر فى أمور الناس بعد هذا المصاب الذى دهمهم . فسار حتى نزل الشام ونظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأموات . ثم خطبهم خطبة قال « ألا وإنى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم . إلى أن قال فمن علم

علم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن . فأمره فأذن فما بقي أحد كان أدرك رسول الله وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره صلى الله عليه وسلم .

وفى عهد عمر رضى الله عنه فتحت حلب وقنسرين كما قدمنا وأنطاكية وبلاد سواحل الشام كبيروت وطرابلس وغيرها ، ودانت كل هذه البلاد لحكم المسلمين .

وفى عهده كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص السهمى . وسنفردها بكلام خاص نستوفى الكلام على ذلك متى جاء وقت ذلك :

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب — ومدته لا تزيد عن عشر سنوات . ففتحت فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما فى عصره . وفتحت بلاد الشام ومصر وأديرت هذه البلاد على مقتضى العدل الإسلامى فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة .

ولما كانت حياة عمر ممتازة بكثير من الميزات التى جعلتها أساساً عظيما لكثير من المدنية الإسلامية — حسن بنا أن نورد جملا يتعرف منها مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب سياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

القضـــاء

قدمنا فى الكلام على أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه لم يتخذ قاضياً فى أيام خلافته ، بل كان القضاء فى يده ، فكان الأمير والقاضى والممد . وبعبارة أوضح كانت فى يده القوات الثلاث : وهى القوة التشريعية ، والقوة

القضائية ، والقوة التنفيذية . وليس معنى قولنا إن القوة التشريعية فى يده — أنه كان يأتى الناس بشرع جديد . وإنما معنى ذلك أنه الأمير الذى ينظر فى الكتاب والسنة ويجتهد فى الوقائع التى ليس فيها شىء من النص . وهو الذى يحكم بمقتضى ذلك فهو بهذه المثابة قاض ، ثم إنه يمضى ذلك الحكم فهو منفذ .

وقد قدمنا أيضاً أنه كان يفوض إلى عمر النظر فى الوقائع التى كان يدلى بها الخصوم إليه — غير أنه لم يختصه بذلك ويفرغه له ، ولم يكن لعمر اسم قاض فى زمنه .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كان له فى مسائل الفتوح وتدبير أمور الخلافة التى تشعبت ونمت نمواً عظيما فى عهده ، ما يشغله عن التفرغ للقضاء فرأى أن يفرغ نفسه وبعض أمرائه لما هم بصدده فعين قضاة مختصين بفصل الخصومات بين الناس فولى أبا الدرداء معه بالمدينه ، وولى شريحاً قضاء الكوفة وولى أبا موسى الأشعرى بالبصرة وقيس بن أبى العاص السهمى قضاء مصر وهو أول قاض بها فى الإسلام . أما بقية الأمصار والولايات فكان القضاء فيها إلى الأمير الذى عليها . وإنما كان عمر حريصا على تفريغ نفسه وبعض أولئك العمال والأمراء لما قصده من تفريغ نفسه وذلك البعض للقيام بأعباء السياسة العامة وأشغالها الكثيرة من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة .

وقد كان شريح بن الحارث الكندى قاضى الكوفة من كبار التابعين ظل قاضيا بها خمسا وسبعين سنة لم يتوقف عن قضائه فيها سوى ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه . ومن طرف قضائه أن عدى بن أرطاة دخل عليه . فقال : إنى رجل من أهل الشام . فقال : مكان سحيق . قال : تزوجت عندكم قال : بالرفاء والبنين . قال : وأردت أن أرحلها . قال : الرجل أحق بأهله . قال : وشرطت لها دارها . قال : الشرط أملك . قال : فاحكم بيننا . قال : قد حكمت .

وقد ساق صاحب العقد الفريد حكاية تزوجه بزينب بنت جرير من بنى تميم كيف اضطرته لأن يخطب ليلة زفافها عليه لما بدأته بالخطبة وأنه ظل معها فى أهنأ عيش عشرين سنة لم يعتب عليها فى شيء إلا مرة واحدة — قال وكنت لها ظالما : أخذ المؤذن فى الإقامة بعدما صليت ركعتى الفجر وكنت أمام الحى فإذا بعقرب تدب فأخذت الإناء فأكفأته عليها ثم قلت يازينب لا تتحركى حتى آتى . فلو شهدتنى ياشعبي وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها فدعوت بالكُسْت والملح فجعلت أمغث إصبعها وأقرأ بالحمد والمعوذتين . وكان لى جار من كندة يُفزّع امرأته ويضربها فقلت فى ذلك :

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلت يمينى حين أضرب زينبا
أأضربها فى غير ذنب أتت به ... فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... إذا طلعت لم تبد منهن كوكبا

أما أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه فكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أعرف من ولاهم عمر القضاء أبو موسى الأشعرى ، وكان مع ذلك ذا بلاء فى الحروب وقيادة الجند وله أثر جميل فى فتوح فارس . وقد كتب إليه عمر رضى الله عنه كتابه المشهور فى القضاء يبين كثيراً من نظام القضاء وأصوله وهو يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل القضاة بمقتضاها . وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك . أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة[1] فافهم إذا أدلى إليك[2] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين

---

(١) يريد أن يبين له المادة التى يقضى بها وهى لا تعدو ما حده الله وهذا ما أشار اليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسوله وهى ما أشار إليه بقوله وسنة متبعة .

(٢) يريد أن يدلى بحجة مهما كان مصيبا وقوله حقا واضحاً فإن كلامه لا يسمعه إذا لم يكن لكلامه نفاذا إلى قلب القاضى وذلك لا يكون إلا بالتقيد لما يقوله الخصوم

الناس(١) فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا(٢) . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل(٣) الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة(٤) . ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها . واجعل من ادعى حقا غائبا أمدا ينتهى إليه فإن أحضر بينته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى(٥) . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات

---

(١) هذا أساس المساواة التى جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضى إذا كان له ميل مع أحد الخصمين فشت قالة السوء فيه وإن نجا من عواقبها اليوم فليس بناج غداً .

(٢) هذا أمر يوافقه ما اتفقت عليه جميع القوانين من أن كل صلح يخالف فيه القانون العام فهو باطل لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف عا شاء فانه لا يملك حق الشارع الذى راعى بتشريعه العام حق الجمهور .

(٣) يريد بذلك أن القاضى لا يتقيد بما فهمه من النصوص فى قضية حكم به . بل إذا ظهر له وجه الخطأ فى حكمه الأول كان عليه أن يحكم بما ظهر له من الصواب فيما يكون لديه مما يشبه القضية التى حكم فيها خطأ أولا . لأن الخطأ لا يكون قاعدة . ولأن عمر حكم فى قضية بحكم ثم بدا له الصواب فى قضية تشبهها فلم يغير الحكم السابق . وحكم على مقتضى الصواب فى اللاحق ، وقال : ذاك على ما قضينا وهذا ما نقضى

(٤) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من أجله شرع الحكم . ولهذا يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفا بأسرار التشريع حتى يتسنى له هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره فى تفسير أو تأويل .

(٥) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلبه الخصم وكان لطلبه سبب معقول . والذى ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه ثم تقييده بأمد ينتهى إليه إنما كان دفعاً للمشقة التى تحصل لأحد الخصمين بطلب التأجيل من خصمه الآخر فى كل جلسة ، فيطل أبد الدهر تحت رحمته — لهذا قيده بأمد يستحل عليه القضية إذا لم يثبت حقه فيه .

والأيمان . وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم به الله الأجر ويحسن به الذكر . فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانهُ الله ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

وهذا الكتاب قد اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظمهم القضائية، وهو كتاب جليل خليق بذلك .

لم يكن القضاء فى زمن عمر إلا سهلا بسيطاً مجرداً عن النظم الوضعية الكثيرة ولم يكن للقاضى كاتب ولا سجل ولم توضع للمرافعات أصول كالتى وضعت الآن . فلم تكن الدعاوى بصيغة خاصة وأركان معينة ولا بد من سبق إعلان فى مدة خاصة إلى آخر ما وضع من الناس ثم صار عمدة فى القضاء أكثر من الحكم الشرعى المقصود .

سيرة عمر فى عماله

معلوم أن الخليفة فى الأمة قائم بين الله وبين عباده فى إقامة العدل وتأييد الحق وإقامة الدين وسياسة الدنيا به وإلزام كل إنسان حد ماله وما عليه دون بغى عليه أو استطالة منه على سواه .

ولما كان القائم بالخلافة يستحيل عليه أن يباشر كل شىء من ذلك فى البلدان المختلفة والأصقاع النائية فى ملك مترامى الأطراف كان لا بد من تفويض ذلك منه إلى عمال يقومون عنه بذلك الأمر فى نواحيهم ويكونون بينه وبين الرعية يطالعونه بأمورهم ويسوسونهم بسياسته .

ولا يعزب عنا أن عمر كان حريصا على اتباع الكتاب الكريم فيما جاء

به والاستنان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قول أو عمل يعلم أنه قاله أو عمله سائراً بسيرته بين الناس سائسا لهم بسياسته ومتحريا لما أخذ به أبو بكر من ذلك . وقد كان حريصاً كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقاً لحسن ملكة الإسلام وسماحة الدين وعدله . ويعتد نفسه شريكا للعامل فى كل هفوة يهفوها قسيما له فى كل جريمة يقترفها ، إنما يأتى ذلك بماله من السلطان الذى يستمده منه ، ويرى نفسه مسؤولا أمام الله عن ذلك .

قال الأستاذ الخضرى : كان عمر ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الأمراء . فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس . فكان حب المساواة لا يعدله شىء من أخلاقه : إذا اشتكى العامل الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يسوى بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله .
وإنى أقول : إن هذا الرأى الذى كان يراه عمر واستغرق وجدانه ومشاعره هو الرأى الذى ينص عليه فى قوانين أكثر الأمم عدالة وأسماهم حرية وأحرصهم على المساواة بين أفراد الأمة بعد أن أغرقوا فى العلم والمدنية وساروا فى الحضارة والفلسفة الاجتماعية شوطا بعيداً وأجروا فى سبيل تلك الحرية والمساواة والعدالة أنهارا من الدماء . وأزاروا المقابر عشرات الألوف فى سبيل تحقيق غرضهم وإن القوانين التى أخذت أخذ هؤلاء الناس واقتبست من قواعدهم ، ثم استثنت بعض ذوى المقامات وأخرجتهم من حكم القانون العام تدل بأوضح دلالة على أن فيها عرقا ينبض إلى الاستبداد والاستبداد ، إن لم نقل إنها تميل إلى الاستنبات بجعل فريق من الناس فى نظر قليل منهم كأنواع النبات التى ينصرف فيها مالكها بما يشاء ويهوى ـ وليس عمر بدعاً فيما كان يصنع : فقد كان مظهراً لا مبتدئاً .

فقد تقرر ذلك بمقتضى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبمقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع « لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » وإنما جعل هذا الخلق ظاهراً فى عمر أن الفتوحات قد كثرت والملك قد اتسع فكثرت العمال وطال زمن عمر وحدثت الأحداث وظهرت خطته فى ذلك واضحة .

ومعلوم أن سواس الأمم يختلفون فى شأن مؤاخذة العامل ذى السلطان بما يصدر منه من الهفوات ومجازاته بما يجترم من السيئات لأن فريقا يرون أن التجاوز عن سيئاته وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه فى نظر الرعية . ومن هذا القبيل سياسة الدولة الإنجليزية مع عمالها فى المستعمرات لا تكسرهم أمام المحكومين ولا تؤاخذهم بما يصدر منهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مدرجة لكثرة مطالب الرعية وكيدها للعمال وتجنيها عليهم أما فى بلاد الإنجليز أنفسهم فإن الحاكم إذا تعدى حد عمله وسام أحد الرعية بأذى فإن القضاء له بالمرصاد والقانون يوفيه جزاءه العادل . وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله فى أيام أهل الردة وقيام الاضطراب فى كل ناحية . وهى حال خاصة يغتفر فيها ما لا يغتفر فى غيرها . وكان عمر يخالفه فى هذا النحو من السياسة ويشير عليه بالاقتصاص من كل مخالف . وإن ما ذكرناه من إحضار سعد بن أبى وقاص من الكوفة لشكوى رفعها بعض من ألبوا عليه فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة إليه إذ كانت البعوث تضرب على الناس وهم فى التهيؤ لمناهضة العجم الذين جمعوا الجموع لحرب المسلمين وإخراجهم من فارس فلم يكرثه ذلك ولم يشغله عن النظر فى شكوى الشاكين وسعد من نفس عمر بالمنزلة التى دفعت به إلى جعله من أصحاب الشورى الذين ينتخب الخليفة منهم من بعده . وقد قال المؤلبين : « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد — يعنى الفرس — وايم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم » . وقد كانت

مصلحة العامة عنده فوق كل شيء[1] .

كان عمر شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ولا يتركون خبر سوء يبلغه عن أحدهم دون تحقيقه والتثبت فى شأنه تثبتاً لا يدع للشك مجالا ولا يغفل أن يرسل إليهم الأوامر تباعا أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا ولا يغدروا .

ولما غدر الهرمزان بعد العهد خشى أن يكون ذلك من ظلم أصابه من المسلمين فاستقدم وفداً من البصرة فيهم الأحنف بن قيس وسأله عن غدره أعن ظلم ؟ قال : لا . فكتب إلى عتبة بن غزوان زيادة فى الوصية ومبالغة فى التوكيد : « اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً » .

وبلغه أن حرقوصا عامله على الأهواز نزل جبلا كؤوداً يشق على من رامه والناس يختلفون إليه فكتب إليه « أما بعد : بلغنى أنك نزلت منزلا كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة . فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا . ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدَرَ دنياك وتذهب آخرتك » .

وخطب عمر فقال : « يا أيها الناس ، إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنهُ منه » فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجلا من أمراء المسلمين على رعيته وأدب

---

(١) ومن ذلك أنه جلب أبا موسى من البصرة حين شكاه الرحل العنزى .

بعض رعيته إنك لتُقِصُّه منه ؟ قال : أى والذى نفس عمر بيده إذن لأُقِصَّنَّه منه ، وكيف لا أُقِصُّه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمّروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله : اللهم إنى لم أبعثهم ليضربوا أبشَارهم . مَن ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى . وعن أبى رواحة قال : كتب عمر بن الخطاب إلى العمال : « اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » .

وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : إنى لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها . جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم .

وكان عمر يأمر عماله فى كل سنة أن يوافوه فى الموسم ومن كانت له شكوى أو مظلمة وافاه إلى موسم الحج ورفعها على العامل بحضرته . وهناك ترد إلى المظلوم ظلامته ويُشكيه من خصمه . فكأن العمال يخافون الافتضاح فى موقف الحج على رؤوس الأشهاد ويحدو بهم ذلك الخوف إلى الابتعاد عن الظلم .

ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم فى الفتوح وأثر كبير فى نصرة الدين . فهذا سعد بن أبى وقاص من أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوّخ الفرس وممصر الكوفة ، اشتكى عليه بعض رعيته فأرسل محمد بن مسلمة يحقق الشكاية علنا وجاء بسعد وخصومه إلى عمر فوجده بريئاً من كل ما قرف به ولكنه عزله احتياطيا . وأوصى عند وفاته أن يولى لأنه لم يعزله لجناية أو خيانة .

والمغيرة بن شعبة ، كان أميراً على البصرة وهو ذو بلاء وغناء فى نصرة الدين وفتوح فارس وغيرها . اتهمه بعض من كان معه بتهمة شنيعة فلم يلبث أن أرسل إليه كتابا عاتبه فيه واستحثه وعزله وأمّر غيره . وهو « أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً . فسلم مافى يدك والعجلَ العجل » . فقدم على عمر ومعه الشهود الذين شكوه فلم تثبت التهمة عليه وأقام عمر الحد عليهم بما فرضه الله لمثلهم .

وهذا عمار بن ياسر ، كان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين أنهى إلى عمر قوم من الكوفة أنه لا يحتمل ما هو فيه من الولاية عليهم وأنه ليس بأمير يقدر على هذا العمل . فأمره عمر بأن يقدم عليه فى وفد من أهل الكوفة ، فسألهم عمر عما يشكون من عمار فقال قائلهم . إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم : إنه لا يدرى علام استعمل ؟ فاختبره عمر اختباراً يدل على سعة علمه بفارس ونواحى الكوفة وتصوره موقع كل بلد . فلم يحسن عمار الإجابة فى بعض ما سئل عنه فعزله . ثم دعاه بعد ذلك : فقال له أساءك حين عزلتك ؟ فقال : والله ما فرحت حين بعثتنى ولقد ساءنى حين عزلتنى . فقال : لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنى تأولت قوله تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »

جاء فى كنز العمال عن عاصم بن أبى النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم : أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج النـاس ، إن فعلتم شيئاً من ذلك حلت بكم العقوبة .

أما انتخابه للأمراء وتحريه لأن يكونوا ذوى عفة وقناعة ، فكان على أتمه وقد تيسر له من هذه الطائفة ما لم يتيسر لغيره . وكان كثير من عماله ينهجون منهجه ويترسمون خطواته فمن عماله سلمان الفارسى على المدائن كان يلبس

الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير . ولما حضرته الوفاة بكى وقال له سعد بن أبي وقاص : يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلاّ المخفون . وأرى هذه الأساودة حولى . فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة وكوة ومطهرة . وكان أبو عبيدة بن الجراح عامله على الشام يظهر الناس وعليه الصوف الجافى. فعذل فى ذلك فقال: ماكنت بالذى أترك ماكنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان عامله على حمص سعيد بن حذيم . فشكاه أهل حمص إلى عمر وسألوه عزله . وكان عمر يعتقد أنهم ظالمون له فقال اللهم لا تفلّ فراستى فيهم وجمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه ؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول يا سعيد ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلى خادم . فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج إليهم . قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا . إنى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم . قال : ماذا تنقمون منه ؟ قالوا يوم فى الشهر لايخرج إلينا ؟ قال : نعم . ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى . فقال عمر : الحمد لله لم يفلّ فراستى فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً . وبعث إليه بألف دينار يستعين بها فأبقى منها يسيراً وفرق سائرها فى اليتامى والفقراء والمساكين ولم يغير من عادته .

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة فى معصية لم يمهله أن يعزله . لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الإبقاء عليه مع ضرر الرعية . من ذلك أنه استعمل النعمان بن نضلة على ميسان من بلاد فارس وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء إن حليلها بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
إذا شئتُ غنتنى دهاقين قرية وصناجة تشدو على كل ميسم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ولا تسقنى بالأصغر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فقال عمر أي والله إنه ليسوءنى ذلك . وعزله . فقدم على عمر وقال : والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكنى كنت، امرءاً شاعراً وجدت فضلا من القول فقلت فيه الشعر . فقال عمر : والله لا تعمل الى على عمل ما بقيت وقد أشار المعرى إلى هذه الحادثة بقوله :

أنعمان ما سر ابن حنتمة الذى سررت به من شرب ما فى الحنائم

قال الأستاذ الخضرى ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به فى كل أيامه إلا القليلين، وفى مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

كان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشاً عاماً يرسله إلى كل بلد اشتكى على أميره وكان عمر يثق به ثقة تامة وكان أهلا لذلك منه . وقد كان من رأيه أن يحقق الأمر تحقيقاً علنياً على ملأ من الأشهاد إذ لا محل للتأثير فى الشهود والخصوم لأن يد عمر كانت قوية جداً وقد زاد فى حرية الناس كثيراً ، فما كان أحد يخشى أميراً ولا عمر بن الخطاب . اللهم إلا المريب فإن عقابه عليه كان صارما .

ومما ساس عمر به عماله أنه كان يحصى عليهم أموالهم قبل توليتهم . فإذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادرهم عليه كله أو بعضه — ذلك أنه كان يرى أن لا يتناول العامل من مال الأمة فوق كفايته . فإذا تأثل مالا كان بذلك إما مريباً أخذه من غير حله فبيت مال المسلمين أولى به وفيهم اليتيم والمسكين والضعيف وذو الحاجة . وإما أن يكون راتبه فوق كفايته والمسلمون أولى بما فضل عن كفاية العامل الذى يعمل بالأجر — فمن ذلك أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال : ما هذا ياعتبة ؟ قال . مال خرجت به معى وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه ؟ فصيره فى بيت المال .

ومن ذلك أن خالد بن الوليد أدرب هو وعياض بن غنم إلى بلاد الروم ـ ثم انتجع الأشعث بن قيس خالداً من العراق فوصله خالد بعشرة آلاف درهم وكان عمر كما نعلم لا يخفى عليه شيء فى عمله ، فكتب إليه بخروج من خرج من العراق إلى الشام وبجائزة من أجيز . فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ (يعنى المغنم) فإن زعم أنه من إصابة فقد أقر بخيانة . وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واضمم إليك عمله . فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر . فقام البريد فقال : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً . فقام بلال إليه وقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته فقال ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا . بل من مالى . فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بعمامته بيده وقال « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » . وأقام خالد لا يدرى أمعزول هو أم غير معزول ؟ وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكان عمر لما أبطأ عليه علم بالذى كان . فكتب إلى خالد بالقدوم عليه . فعتب خالد على أبى عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر . ثم إن خالداً قدم إلى المدينة على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر . فقال عمر : من أين هذا الثرى ؟ قال من الأنفال والسهمان ما زاد على الستين ألفاً فهو لك . فقوّم عروضه فكانت ثمانين ألفا أدخل منها بيت المال عشرين ألفا . ثم قال : يا خالد والله إنك على لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شيء . وكتب عمر إلى الأمصار « إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه وأن يبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة » . ويدل على أنه عمل ما عمل لا عن خيانة أو ريبة ، أن عمر قام يوماً خطيبا فقال من خطبته

« وإنى أعتذر إليكم من خالد بن الوليد فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فنزعته وأمرّت أبا عبيدة » والذى أفهمه من قوله هذا أنه لو تحرى بالعطاء أهل الضعف والحاجة من المهاجرين ، ولم يضع عطاءه فى الأشعث بن قيس ونحوه ، لم يجد عمر عليه سبيلا .

ولقد سمع هذه الخطبة أبو عمرو بن حفص بن المغيرة — وهو ابن عم خالد — فقام فقال : والله ما اعتذرت ياعمر ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفا سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت رحما وحسدت ابن العم . فقال عمر إنك قريب القرابة حديث السن مغضب فى ابن عمك . ومن كلام عمر — وقد طُعن — «لو أدركت خالد بن الوليد لوليته فإذا قدمت على ربى فسألنى من وليت على أمة محمد ؟ قلت أى رب سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين » وما كان فإنى أفهم أن عمر كان متحاملا على خالد

وقد ورد أن عمر قاسم سعد بن أبى وقاص ماله وكذلك عمرو بن العاص . قد يجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ، ولكن عمر (كما قال الأستاذ الخضرى) كان يعرف مَن من عماله يستحق هذه العقوبة أن تقع عليه . إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها ؟ لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ، ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة .

معاملة عمر للرعية : كانت رأفة عمر ورقته على عامة الناس فى وزان ما كان عليه من الشدة على عماله فكان عمر شديد الاهتمام بأمر الرعية دائم العناية بما يصلحهم وكان يحس من ذلك بمسؤولية عظمى . فكان يقول لو أن جملا

هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب (يعنى نفسه) وقد قال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقديد ، فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضا حتى توفى . وقال الحسن البصرى : قال عمر : لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى فأما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين . ثم عدّد الأمصار الكبرى يقيم فى كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) .

وروى أسلم : قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال : ياأسلم أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون . فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول النار) قالت المرأة : وعليك السلام . فقال أأدنو؟ قالت أدن بخير أودع فقال مابالكم ؟ قالت قصر بنا الليل والبرد . قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت الجوع . قال وأى شىء فى القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر . فقال : أى رحمك الله مايدرى عمر بكم . قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا . فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال احمله على . قلت أنا أحمله عنك قال احمله على (مرتين أو ثلاثاً) كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال أخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لاأم لك ، فحملته عليه . فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى أتينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول ذرى على وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج أدم القدر وقال إبغينى شيئا . فأتته بصحفة فأفرغها فيها وجعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك

فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه . فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بالأمر من أمير المؤمنين . فيقول: قولى خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع . فجعلت أقول إن ذلك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم .

ومعلوم أن الحوادث الصغيرة كهذه الحادثة تدل على روح الرجل وأحواله النفسية وتنبىء عن شفقته وخوفه أن يكون مقصراً فى حق من وليهم من الرعية ونحن نخجل فى عصرنا هذا ، لأننا لا نجد أميراً كبيراً من الناس يهتم بمرؤوسه عشر معشار هذا الاهتمام ، ولو أن امرأة كهذه رآها مدير أو مأمور لكان أقرب شىء يعمله لها أن يكتب لها محضر تشرد ويقدمها للقضاء ليحكم عليها .

وخطب مرة فقال : أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكنى عمر مهما محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ، ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير ؟ فربى المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده .

وكان رحمه الله ذا سياسة حسنة فى تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة . جاء فى كنز العمال من حديث عتبة بن مسعود قال سمعت : عمر بن الخطاب يقول : إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقربناه وليس لنا من سريرته شىء الله يحاسبه فى سريرته ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة . فهو بهذه

المثابة يهديهم أمثل الطرق ويحذرهم المزالّ ويواليهم بالنصائح ويرشدهم إلى محجه الخير الواضحة ويبصرهم سنن السعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف ، وبخاصة قريش فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة فإنهم قدوة الناس وأئمة العرب .

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش : بلغنى أنكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ، من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس وأيم الله إن هذا لسريع فى دينكم . سريع فى شرفكم . سريع فى ذات بينكم . ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول : هذا رأى فلان . قد قسموا الإسلام أقساما . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس اللهم ملونى ومللتهم وأحسست من نفسى وأحسوا منى ، ولا أدرى بأينا يكون الكون ؟ وقد أعلم أن لهم قبيلا منهم فاقبضنى إليك .

ومن جميل سياسته أنه كان لا يرضى من عماله الشدة فى استيفاء الحقوق والتزيد على ما أمر الله أن يؤخذ الناس به ، بل كان يوصيهم بالرفق والأناة والعدل وعدم الإيغال فى العقوبة .

عن ابن عمر قال : كنت مع عمر فى حج فإذا نحن براكب ، قال عمر : أرى هذا يطلبنا . فجاء الرجل فبكى . قال : ما شأنك ، إن كنت غارما أعناك وإن كنت خائفا آمناك إلا أن تكون قتلت نفسا فتقتل بها ، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم ؟ قال : إنى شربت الخمر وأنا أحد بنى تميم وإن أبا موسى جلدنى وحلقنى وسود وجهى وطاف بى على الناس . وقال لا تجالسوه ولا تواكلوه فحدثت نفسى بإحدى ثلاث : إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فتحولنى إلى الشام فإنهم لا يعرفوننى ، وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب . فبكى عمر وقال . ما يسرنى أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا وإنى كنت لأشرب الناس لها فى الجاهلية وإنها ليست كالزنا . وكتب إلى

أبى موسى ما صورته سلام عليك . أما بعد ، فإن فلان ابن فلان التميمى أخبرنى بكذا وكذا وأيم الله إنى إن عدت لأسوّدَن وجهك ولأطوّفنّ بك فى الناس ، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول بعد ، فأمُرِ الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر وأعطاه مائتى درهم .

ومع أن عمر قد أرخى للناس طول الحرية وأجرهم رسن المساواة وفرش للعامة صدره ، فقد كان مهيباً فيهم حتى امتلأت صدورهم بهيبته . لم يجرد عليهم سيفاً ولم يرفع عليهم سوطاً وإنما كانت له درة وهى عصا صغيرة كالمخصرة يستعملها فى تأديب من استحق الأدب منهم وكانت فى يده على الدوام أنى سار . وكان الناس يهابونها أكثر مما يخيفهم السيوف .

روى الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى . فقال : أمط الطريق . فلما كان فى العام المقبل لقينى . فقال : يا سلمة تريد الحج ؟ فقلت : نعم . فأخذ بيدى فانطلق إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك . قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها . قال : وأنا ما نسيتها . فكان عمر مؤدباً حكيما . قال الخضرى : ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القليل من كبار الصحابة .

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه . فعلاه عمر بالدرة . وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك . والذى حمل عمر على أن يأتى إلى سعد ما أتى ، غضبه منه لمزاحمته الناس مدلا عليهم بفضله وسابقته وعمر يعشق المساواة ويكره الإدلال على الناس . وقد كانت الرعية كما قلنا تهابه مهابة شديدة .

روى أسلم أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا . فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك ؟ والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله وأيم الله لأنا أشد منهم فرَقا منهم منى .

عفة عمر عن مال المسلمين

كان عمر قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وحشونة العيش حتى ساوى البائس الفقير الذى إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع . لم تشره نفسه إلى رقيق العيش ونعيم الحياة الدنيا . ولم يهم بمكاثرة الناس فى المال ويرى مال المسلمين مرتعا وبيلا على من رعاه فقتر على نفسه تقتيراً جعله موضعاً للانتقاد واعتراض المعترضين — وقد بلغ من شدة احترازه عن أخذ مال المسلمين أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله . فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته . بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال فإذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه .

رأى بعض أصحاب رسول الله ما يعانيه أمير المؤمنين من جهد العيش فاجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير . وقالوا : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه . فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء . فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها مما اعتزموا عليه وأوصوها ألا تخبر بهم عمر ولقيته حفصة وقالت له فى ذلك فغضب وقال : من هؤلاء ؟ لأسوءنهم . قالت لا سبيل إلى علمهم قال أنت بينى وبينهم . ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملبس ؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما

للوفد والجمع. قال: فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : حرفا من شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها . قال : فأى مبسط بسط عندك كان أوطأ ؟ قالت: كساء ثخين نربعه فى الصيف فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه . قال : فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية . وإنما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم أتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما .

كان عمر مع ذلك لا يسوغ أحداً من أهل بيته أن ينتفع بشىء ليس له فيه حق . روى مالك فى الموطأ أن عبد الله وعبيد الله ابنى عمر خرجا فى جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى وهو أمير البصرة . فرحب بهما وسهل . ثم قال . لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به . ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح ، فقالا وددنا ذلك . ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه ؟ قالا لا . فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين أسلفكما ، أديا المال وربحه . فأما عبد الله فسكت ، وأما عبيدالله فقال : ماينبغى لك ياأمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه . فقال عمر أديا فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله . فقال رجل من جلساء عمر : ياأمير المؤمنين لو جعلته قراضا . فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال . قالوا وهو أول قراض فى الإسلام .

وقد ذكر الأستاذ الخضرى فى محاضراته أنه — لما ترك ملك الروم الغزو

وكاتب عمر وقاربه وسير إليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحناش من أحناش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت: هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر. فلما انتهى به البريد إليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة. فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال: إنه لاخير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى. قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم. فقال قائلون: هو لها بالذى لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولاتحت يدك فتتقيك. وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً، فقال: ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها فى صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها. اه. ولو أن عمر أرخى العنان لنفسه أو لأهل بيته لرتعوا ولرتع من بعدهم وكان مال الله تعالى حبسا على أولياء الأمور. ومن القواعد الطبيعية المؤيدة بالمشاهد أن الحاكم إذا امتدت يده إلى مال الدولة اتسع الفتق على الراتق واختل بيت المال أو مالية الحكومة وسرى الخلل فى جميع فروع المصالح وجهر المستسر بالخيانة وانحل النظام.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً فى حقوقهم دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه. وإذا كان حاكما حدبوا عليه وأخلصوا فى طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم.

وقد كان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال: إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لاأجد أحداً منكم يفعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

ما كان عمر مع ذلك الذى يضيق على العامة أو يأخذ الرعية بمذهبه بل كان

يرى أن يحملهم على الجادة الوسطى وأن يتنعموا بالطيبات وإنما كان يأخذ عماله بمذهبه . فقد كتب أبو عبيدة إلى عمر كتابا يخبره فيه بأنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها وخوف إخلاد الجند إلى الراحة . فكان من كتاب عمر إليه : وأما قولك إنك لم تقم بأنطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات . فقال تعالى فى كتابه العزيز « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم » وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة .

ميل عمر للاستشارة وقبوله النصح . كان عمر لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ولا يستبد عليهم فى شأن من الشئون العامة . فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويحيل الرأى معهم فيه ويستشيرهم . ومن مأثور قوله : لا خير فى أمر أبرم من غير شورى . وكان مسلكه فى الشورى جميلا . فإنه كان يستشير العامة أول أمره فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله وأصحاب الرأى منهم ثم يفضى إليهم بالأمر ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأى محمود ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه : وعمله هذا يشبه النظامات الدستورية فى كثير من الممالك النظامية إذ يعرض الأمر على مجلس (النواب) مثلا ثم بعد أن يقرر بالأغلبية يعرض على مجلس آخر يسمى فى بعضها مجلس الشيوخ وفى بعضها مجلس اللوردات فإذا انتهى المجلس من تقريره أمضاه الملك . والفرق بين عمل عمر وعمل هذه الممالك أن هذا الأمر كان اجتهادا منه وبغير نظام متبع ، أو قوانين مسنونة . وأما فى الممالك المتمدنة اليوم فالأمر يجرى على نظام وقوانين . ومن قوله فى الشورى : يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر مااجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لهم . فهو

فى قوله هذا قد جعل أولى الأمر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع للإمام فيما أخذ به من رأى أولى الرأى .

وكثيراً ما كان يجتهد فى الشىء ويبدى رأيه فيه ثم يأتى أضعف الناس فيبين له وجه الصواب فيقبله ويرجع عن خطأ ما رأى إلى صواب ما استبان له .

رأى الناسَ بعد توالى الفتوح وكثرة الأموال لديهم قد غالوا فى مهور النساء فلم يعجبه ذلك من أمرهم وعزم على أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس . فنادته امرأة من أخريات المسجد قائلة كيف: وقد قال الله تعالى: « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فالله يعطينا بالقنطار وأنت تمنعنا الدراهم يا عمر ؟ فقال . أصابت امرأة وأخطأ عمر . وكان يطلب من الناس أن يفضوا إليه بصائحهم ويبينوا له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافا عن القصد . قد ورد أنه قال مرة فى خطبة « أيها الناس إن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقوّمونى » فقال له رجل من آخريات المسجد : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . وفى المناقب عن الحسن رضى الله عنه قال: كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شىء فقال له الرجل : اتق الله . فقال رجل من القوم أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال عمر دعه فليقلها لى . نعم ما قال . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها .

وقد كان لعمر خاصة من علية الصحابة وذوى الرأى . منهم العباس ابن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه فى سفر أو حضر وعثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم . كان يستشيرهم ويرجع إلى رأيهم .

رأىُ عمر فى الاجتماعات — كان عمر رضى الله عنه يرى أن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد لا يغشى تلك المجالس سواهم أمر غير لائق . لأنه كان يعتبر علية الناس وذوى فضلهم بمنزلة المربى للعامة يقتدون

بهم ويترسمون خطواتهم فإذا دفعت العامة عن غشيان مجالس أولى الفضل فاتت الفائدة المقصودة ، ووجدت هوة بعيدة الغور بين الفريقين . ثم يتبع ذلك أن المجالس يدور فيها الكلام على أنحاء وفنون . فإذا نقل مايدور فيها إلى الناس نقل على غير وجهه وصرف عن منحاه وظنت بالمجالس وأهلها الظنون . وكان ذلك أدعى إلى سقوط منزلتهم . وفوق هذا فإن ذلك يدعو إلى الاختلاف والتدابر والتناكر لأن من يغشون مجلساً يدلون بعميد ذلك المجلس وكبيره . وذلك مؤد إلى النفاسة وقد نهى عمر عن ذلك ناساً من قريش فيما قدمنا عن ابن عباس . قال الأستاذ الخضرى : والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتى قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس فى الدين اختلافاً عظيما .

تدوين الدواوين وفرض العطاء

أترك الأستاذ الخضرى يتكلم على تدوين الدواوين قال :

من البديهى أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان . وقد كانت دولة الإسلام فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر فى مبادىء الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التى كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء وأما الغنائم والفىء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التى يبعث بها للمدنية إلى صرف العناية وترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم . وإنما كانت العناية منصوفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية .

ولما توسع المسلمون بالفتح وانتشروا فى الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت فى مناحى العمران وأخذ يزداد اليه من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ، ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها وتوزيع

الأعطيات على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها فى قيود خاصة دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم فى كيفية تدوين الديوان فقال على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان : أرى مالا كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر وقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً فدون ديواناً وجند جنداً فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما فى القاموس وتوسعوا بمساه بعد فأطلقوا على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ثم على المكان الذى يكون فيه الديوان ديواناً .

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر إلى عهد عبد الملك بن مروان بالشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق ونقل عبد الملك فى الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج فى العراق إلى العربية .

الوصف على الجملة :

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشىء فى موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحى إليه الأحوال التى هو فيها . عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها فى الطريق الذى لا تألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان ولذلك نقول : إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التى تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة فى الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذى يفنى فى مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كما لأدناهم مع تحمله مشقات

الحياة وأتعابها . العربي يستدعي سياسته حكمة عالية : فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك ، وإن لنت معه ليكون رجلا نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ، ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا فى رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه .

نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التى كان بمجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أى خليفة فى أى زمن من الأزمان حتّى وقتنا هذا والسبب معقول .

بيت عمر :

تزوج عمر فى الجاهلية زينب ابنة مظعون من بنى جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين وتزوج فى الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبد الله وقد فارقها فى هدنة الحديبية تزوج قرَيبة ابنة أبى أمية من بنى مخزوم وقد فارقها فى الهدنة وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصما وهذه طلقها وتزوج أم كلثوم بنت علىّ فولدت له زيداً ورقية ومات عنها وتزوج لهية وهى امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو .

وخطب أم كلثوم بنت أبى بكر وهى صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت : الأمر إليك : فقالت أم كلثوم : لاحاجة لى فيه . فقالت عائشة : ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ فقالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته . فقال أكفيك فأتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين بلغنى خبر . أعيذك بالله منه ؟ قال ما هو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال : نعم أورغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ قال : لا واحدة .

ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك ؟ قال : فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنالك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

مقتل عمر

بينما المسلمون مغتبطون بما يفتح عليهم من الأمصار والمدن والممالك شرقى بلاد العرب وغربيها وشماليها إذ فوجئوا بأمير المؤمنين مضرجا بدمه فى محرابه فتبدل صفوهم كدراً وسرورهم حزناً على هذا الخليفة الراشد العادل التقى .

إن رضى الخلائق غاية لا تدرك : فعمر وإن كان أرضى بعدله الخلاق سبحانه وتعالى وشمل عدله من قرب منه ومن نأى عنه من رعيته ، ولكن قلوباً من غير أهل الإسلام كانت مشتملة على مطوية حقد له ، مفعمة بالسخط منه .

كان بالمدينة ملك من ملوك الفرس قد أضاع ملكه وتاجه وعرف المسلمون فيه نكث العهود والخيسَ بالمواثيق والحنث بالأيمان . قد جمع إلى ذلك الخب والدهاء وقد أقام بالمدينة واحداً من الجمهور لا ميزة له على أحد من الناس بعد ذلك العز الباذخ والسلطان العظيم . وهو يسمع بالفتح فى بلاده الفارسية يعقبه الفتح والنصر يحوزه المسلمون يتبعه النصر والغنائم يحوونها يمنة ويسرة فيودع ذلك قلبه حسرة . وكان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذون منهم الموالى وقد دفت منهم دافة إلى المدينة وأقاموا بها فى أكناف ساداتهم وخدمة مواليهم وقد كان كثير منهم يختلفون إلى ذلك الملك الذى كان فيهم

وهو الهرمزان . وقد كان من سبايا فارس رجل يقال له أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة وكان حاقداً على المسلمين صنعهم ببلاده ويتمنى لو جعلهم الله فى نفس واحدة ليشتفى منهم بالقتل دفعة واحدة . وكان لما ورد على المدينة سبايا جلولا ، يمسح رؤوسهم ويقول : أكلَ كبدى عمر . ذلك أن عمر هو الذى يزجى الجيوش إلى فارس ويصرفها إلى البلاد ، وأمرها إليه فى الإصدار والإيراد .

وبينما عمر يطوف يوماً فى السوق إذ جاءه فيروز الملقب بأبى لؤلؤة ، وكان نصرانيا ، فقال ياأمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شُعبة فإن على خراجاً كثيرا . قال كم خراجك ؟ قال درهمان فى كل يوم . قال : وايش صناعتك قال : نجار نقاش حداد . قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال . قد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلتُ . قال : نعم . قال : فاعمل لى رحى . قال : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب . ثم انصرف عنه فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفا . ثم انطلق عمر إلى منزله . فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال : يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام ؟ قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوراة . فقال عمر : آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحيلتك وإنه قد فنى أجلك . وعمر لا يحس وجعاً ولا ألما . فلما كان من الغد غدا عليه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان . ثم جاءه من غد الغد وقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها . ذلك أن كعبا رجل يهودى رأى الإسلام يعلو ويتزايد أمره ولم يقف فى سبيل نموه شىء ولا دين فى بلاد العرب وخارجها . وأسلم لشيئين أولهما أنه رأى اليهودية تضؤل وتضمحل أمام الإسلام فى بلاد العرب والنصرانية ضاغطة عليها فى سورية وبقية المملكة الرومانية . والتظاهر بالإسلام يكسبه عزاً لم يكن له فى قومه ثانيهما أن الرجل

من اليهود أهل الكتاب الأول والعلم أيام جاهلية العرب . والتوراة بلسانه دون لسان العرب . وفى أسفارها من المعميات والألغاز ما لا يمكن أن يفقهه العرب ولو لقنوا العبرية فهى إذن مجال فسيح للكذب يلقيه إلى المسلمين ليفسد عليهم أمرهم ويعمى عليهم سبيل الهدى . فهو بذلك أراد أن يضرب عصفورين بحجر . وكذلك كان . فإن الرجل نال بين المسلمين مركزاً عظيما . وقد كان كثير يرون أن التوراة فيها علم كل شىء وإنه صادق فيما يخبر به ، وبخاصة بعد أن تحقق قوله فى عمر . والرجل قد أفاض على المسلمين ثروة واسعة من الإسرائيليات التى ندرى نحن حقيقتها وكان هو لا يدرى من حقيقتها شيئاً سوى أنه مبتدعها . وكان يسند كلامه إلى التوراة والتوراة خالية مما كان يموه به على الناس . وهذه التوراة بين أيدينا نقرؤها وليس فيها شىء مما كان يقوله هذا الرجل لمعاصريه وهو بالأساطير أشبه .

بعد أن تمهد هذا أقول : إن حكاية إخباره بمصرعه على هذا الوجه المروى لو كانت صحيحة ، لم يبق عند الواقف عليها شك فى أن هذا الرجل كان واقفاً على ما دبره فيروز أبو لؤلؤة من اغتيال عمر ، وأن خطة السير للوصول إلى قتله كان كعب الأحبار عارفاً بها واقفاً عليها وقوفاً تاما . وإنما أراد بإخبار عمر على هذا الوجه ، أن تزيد منزلته عند المسلمين وينال الحظوة فيهم وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولا . ولو وجد محقق ذكى وعرض عليه أمر كعب الأحبار وما أخبر به عمر قبل القتل ما نجا كعب من النكال ولعد شريكا للجانى ولكان حقيقاً أن ينفذ فيه قانون الاتفاقات الجنائية الذى شرع فى مصر سنة ١٩١٠

كان بالمدينة رجل من نصارى الأنبارى أقدمه سعد بن أبى وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة اسمه جفينة . وناحية الأنبار كانت تابعة للفرس وللرجل بهم إلف ، فكان يجتمع بالهرمزان ، وفيروز أبى لؤلؤة وقد روى أن عبد الرحمن بن أبى بكر مر بالهرمزان وأبى لؤلؤة وجفينة

يتناجون وهم جلوس فلما رأوا عبد الرحمن قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، وهو الخنجر الذى قتل به عمر بعد ذلك .

من اجتماع هذه الأحوال والمناسبات أرى أنه لايكون بعيداً من الصواب من بعد قتل عمر نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائى غمس يده فيه كل من(١) الهرمزان (٢) فيروز أبى لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة (٣) جفينة الأنبارى (٤) كعب الأحبار اليهودى . ولو كان المسلمون فى شريعتهم إيجاب العقوبة بالقرائن ووجد من يحقق مع من بقى منهم بعد مقتل عمر لكان من المحتمل جداً أن يعاقب كل منهم على ذلك الاتفاق الأثيم . لأنهم فى ذلك الوقت يعتبرون من الرعية المسالمين لا الأعداء المحاربين فليس لهم عذر ولا شبهة عذر فى تدبير ذلك الجرم الفظيع .

كيف قتل عمر ؟

قال الطبرى : فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت جاء فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته وقتل معه كليب بن أبى بكير الليثى وكان خلفه . فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال : أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هوذا . قال تقدم فصل ، فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح . ثم احتمل فأدخل داره فدعا عبد الرحمن بن عوف .

ثم نادى عمر ابنه عبد الله وقال اخرج فانظر من قتلنى فقال : يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فحمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله تعالى سجدة ثم قال : يا عبد الله ائذن للناس فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه فيقول : عن ملأ منكم كان هذا ؟ فيقولون معاذ الله .

وقد دخل فى الناس كعب الأحبار فقال « الحق من ربك فلا تكونن من

الممترين ، قد أنبأتك أنك شهيد فقلت من أين لى الشهادة وأنا فى جزيرة العرب .

ويقال إنه لما نظر عمر إلى كعب قال :

فأوعدنى كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ماقال لى كعب

وما بى حذار الموت ، إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فقال : أى الشراب أحب إليه فجىء له بنقيع التمر فسقاه فخرج على حاله من الجرح ثم سقاه اثنين فخرج على حاله فأيقن أنه ميت ولم يجد للقضاء حيلة . وقد توفى عمر ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء فى حجرة عائشة مع صاحبيه بعد أن استأذن عائشة فى ذلك عقيب أن طعن — ولما أدرج فى كفنه ابتدر على وعثمان الصلاة عليه فقال عبدالرحمن بن عوف : إنكما حريصان على الإمارة . ليس لكما ذلك وإنما هو لصهيب لأنه قد أمره أن يصلى بالناس . فتقدم صهيب فصلى عليه ثم حمل إلى حجرة عائشة فوورى التراب . وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه فى أشهر الأقوال .

أما أبو لؤلؤة فقد جهد الناس أن يقبضوا عليه فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلا بجراحات وأعياهم أمره فجاء رجل من بنى تيم وألقى عليه رداء ، فلما علم أنه مأخوذ قتل نفسه .

كيف انتخب عثمان ؟

لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قيل له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت . قال من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى

أبي حذيفة حيا استخلفته . فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : إن سالماً شديد الحب لله — فقال له رجل : أدلك عليه . عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله . والله ما أردت الله بهذا . ويحك . كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ لا أرب لنا في أموركم . ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شراً فشر عنا إلى عمر . بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد . وأنظر فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولن يضيع الله دينه فخرجوا .

وكأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يقضي عمر نحبه بدون استخلاف فينتشر أمر المسلمين لتطلع كثير من الصحابة إلى هذا الأمر فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، فراحوا إلى عمر كرة أخرى ، وقالوا : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً . فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر أولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق (وأشار إلى علي) ودهمتني غشية فرأيت رجلا دخل جنة قد غرسها فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيره تحته فعلمت أن الله غالب أمره ومتوف عمر فما أريد أن أتحملها حيا وميتا ، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنه ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله ولكن الستة : علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواري رسول الله وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله . فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوا واليا فأحسنوا موازرته وأعينوه وإن ائتمن أحداً منكم فليؤد إليه أمانته . وخرجوا . ولقي العباس عليا فقال له لا تدخل معهم . قال أكره الخلاف . قال : إذا ترى ما تكره .

والذي أراه أن العباس غلب على ظنه أن القوم يفضلون اختيار غير علي

فإذا حدث ذلك وهو واحد منهم كان عليه فى ذلك غضاضة ورأى ذلك غصة لا يسيغها على إلا على ألم ، ولكنه إذا نفض يده من الأمر واختير واحد من جماعة ليس على واحداً منهم لم يكن الإيثار ظاهراً ولا غضاضة عليه فى ذلك فأراد أن يحطاط لابن أخيه هذا الاحتياط .

فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعدا وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام . فقال : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض . إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا رجلا منكم . ثم قال : لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريبا . ثم وضع رأسه وقد نزفه الدم . فدخلوا فتناجوا ، ثم ارتفعت أصواتهم . فقال عبد الله بن عمر . سبحان الله . إن أمير المؤمنين لم يمت بعد ، فأسمعه فانتبه . فقال : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب . ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شىء له من الأمر وطلحة شريككم فى الأمر . فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم . ومن لى بطلحة ؟ فقال سعد بن أبى وقاص : أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله فقال عمر: أرجو أن لا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين : على وعثمان ، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين . وإن ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق . وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالى . فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ونعم ذوى الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبى طلحة الأنصارى : ياأبا طلحة ، إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلا من الأنصار فاستحث هؤلاء

الرهط حتى يختاروا رجلا منهم . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم . وأحضر عبد الله بن عمر وقم على رؤوسهم . فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسهما بالسيف . فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر . فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر . فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

انتخاب خليفة عمر

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة وهم خمسة ، معهم عبد الله بن عمر وطلحة غائب ، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم . وجاء عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب . فأقامها سعد وقال : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى الشورى . فلما أخذوا فى إجالة الرأى بينهم تنافسوا فى الخلافة وكثر بينهم الكلام . فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها ، لا والذى ذهب بنفس عمر لاأزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ثم أجلس فى بيتى فأنظر ماذا تصنعون ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فقال عثمان : أنا أول من رضى فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أمين فى الأرض أمين فى السماء . فقال القوم : قد رضينا وعلى ساكت فقال : ماتقول ياأبا الحسن ؟ فقال : لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولاتخص ذا رحم ولاتألوا لامه . فقال عبد الرحمن : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لاأخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله .

تقلد عبد الرحمن الأمر على أن يختار أفضل أهل الشورى ، وخلا بعلى وقال له : إنك تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقك وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد . ولكن ، أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر. من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال : عثمان ثم خلا بعثمان فقال له : تقول شيخ من بنى عبدمناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه لى سابقة وفضل — لم تبعد . فلم يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : على ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به عليا فقال : عثمان ثم خلا بسعد وقال له مثل ذلك فقال : عثمان . فلقى على سعدا فقال له « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم أمى حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان على ظهيراً فإنى أدلى بما لا يدلى به عثمان .

لم يقتصر عبد الرحمن على ماقدمنا فى الاستشارة فى هذا الأمر بل دار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان . حتى إذا كانت الليلة التى ينتهى فى صبيحتها الأجل أتى دار المسور بن مخرمة وهو ابن أخته فأيقظه عبد الرحمن وقال له : ألا أراك نائما ولم أذق فى هذه الليلة كثير غمض انطلق فادع الزبير وسعداً فدعاهما . فبدأ بالزبير فى آخر المسجد فى الصفة التى تلى دار مروان . فقال للزبير : خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر . قال نصيبى لعلى . وقال لسعد : أنا وأنت كلالة : فاجعل نصيبك لى فأختار ، قال . إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى ، أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا فقال عبد الرحمن يا أبا اسحق إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ، قال : لا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد .

ومن هذا نرى أن الزبير وسعد حالا عن رأيهما الذى قالاه لعبدالرحمن أولا لأنهما كانا قد أشارا عليه بعثمان لو لم يحضر كل منهما الأمر ، وإنى لا أدرى السبب

فى هذا العدول وغاية ما يمكننى أن أقوله أن كلا منهما راجع فكره ونظر إلى مصلحة المسلمين ، فرأى أن عليا يكون فى سيرته أقرب إلى منهاج عمر من القوة على الحق والبعد عن الانغماس فى الدنيا والاغترار بزينتها ، وأن عثمان فيه رقة ورأفة وقد أخذت منه الشيخوخة مأخذها ومن كان كذلك كان أقرب إلى استكفاء غيره والركون إلى مشورة سواه وهم لا يدرون من يكون ذلك الكافى ؟ ولا يثقون بمنهج المشير — أو يكون على قد أثر كلام على فى سعد — ثم أرسل المِسْور إلى على فجاء فناجاه طويلا ، ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح وكان على لا يشك فى أن الأمر له — فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد — فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله ، فقال : أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا . فقال أشيروا على بغير هذا . فقال عمار : إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا فقال المقداد بن الأسود صدق عمار إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقال عبد الله ابن أبى سرح : إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله ابن أبى ربيعة صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا ، فشتم عمار ابن ابى سرح ، وقال : متى كنت تنصح المسلمين ؟ فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ فقال رجل من بنى مخزوم : لقد عدوت طورك يا ابن سُمَيَّة وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ، فقال سعد ابن أبى وقاص : يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ودعا عثمان . فقال

له مثل ما قال لعلى ، قال : نعم فبايعه . فقال : على حَبْوَته حبوَ دَهْرٍ ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون : والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك والله كل يوم هو فى شأن ، فقال عبد الرحمن يا على لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج على وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله . فقال المقداد : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال : يا مقداد ، والله لقد اجتهدت المسلمين .

قدم بعد ذلك طالحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان ، فقيل له : بايع عثمان فقال : أ كل قريش راض به ؟ قالوا : نعم فأتى عثمان ، وقال له عثمان : أنت على أمرك إن أبيت رددتها قال : أتردها ؟ قال : نعم ، قال : أ كل الناس بايعوك ؟ قال : نعم ، قال : رضيت لا أرغب عما قد أجمعوا عليه وبايع . وقد ورد أن المغيرة بن شعبة قال لعبد الرحمن أصبت إذ بايعت عثمان ، وقال لعثمان لو بايع غيرك ما رضينا فقال له عبد الرحمن : كذبت يا أعور والله لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة .

وروى الطبرى فى خبر أن عليا تلكأ فى بيعة عثمان فقال عبد الرحمن ابن عوف : ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خدعة وأيما خدعة .

الحالة العامة فى عهد عمر

إن الحالة العامة للمسلمين على عهد عمر بن الخطاب تختلف عنها فى عهد أبى بكر فقد تقوى فى عهد عمر الدين وصارت كلمته العليا فى جزيرة العرب وتوطد الملك للمسلمين وشيدت دعائم الدولة ونسى العرب ما كان بينهم فى الجاهلية من الانقسام والتفرق ومحاربة بعضهم بعضاً وزالت عن أعينهم غشاوة الجهل بأمور الدول وتجردوا عن كثير من تلك السذاجة التى كانت فيهم ،

وصارت الأمة الإسلامية سائسة ملك وربة سطوة ومؤسسة دولة ومقننة قانون وصاحبة دين أهاب بها إلى الجد وحملها على مزاحمة أمم التاريخ بالمناكب حتى وسمت بأنها أعظم الأمم .

فى عهد عمر كانت حياة الأمة نامية نمواً عجيباً يتدفق فيضها الحيوى فى جميع عناصرها وأعضائها تدفقا ينعش كل جزء من أجزائها وينمى ذلك الجسم نمواً سريعا يؤذن بانقلاب فى العالم تهتز له أعصاب دول الأرض ويتناول أهل المشارق والمغارب — فاندفعت الأمة فى عصره بما استحدثه فيها الدين من الاتحاد القومى وما رسخ فى اعتقادهم من أنهم الأمة الوارثة للأمم ، وأن الله تعالى سيمكن لها فى الأرض ويجعل أهلها أئمة ويجعلهم الوارثين . فسال سيلهم على أطراف الممالك المجاورة لهم وهم الفرس والروم ، فزلزلوا سلطان فارس وتغلغلوا فى أحشائها وطم سيلهم على بلادها وطغى على ما جاورها من البلدان النائية والأمصار المترامية ووطئت خيلهم بلاداً لم يمر اسمها على خاطرهم وشردوا حامل تاج ملك فارس وثلوا عرشه وأزعجوا القواد والرؤساء حتى درس ذلك الملك وصيروا تلك الدولة الساسانية تاريخا يُعتبر كأن لم تغن بملوكها البلاد ولم تَعنُ لهيبتهم وجوه العباد .

وأما الدولة الرومانية فقد انتقصوا أطرافها وقلصوا ظلها عن الجزيرة وسورية وجزء من أرمينيا وجميع مصر وبرقة . وفى كل آن لهم غارات فى قراهم وفتكات فى جنودهم وأحشاء بلادهم ويغزونهم فى عقر دارهم وبمرأى ومسمع من عاصمة ملكهم ومستقر عزهم ، بجنود أقل من جنودهم عدداً وعدة ، وهم فى كل مرة يواتيهم الظفر ويسعفهم النصر .

كانت الممالك المجاورة للعرب قد تأصلت فيها جذور الاستبداد ورتم أهلها الاستعباد وقد نسى الرومان معنى الحرية التى جاهد آباؤهم فى سبيل إحرازها جهاد الأبطال وانتزعوا حريتهم من أيدى الأباطرة انتزاعا — وقد بخع الفرس بنفوسهم للملوك والرؤساء واستُعبدوا لأشراف البلاد . وقد تساوى الفرس والروم فى فقدان مبدأ الاعتماد على النفس وحب الاستقلال

الذاتى فى أصول حياتهم وفروعها — ولكن العرب الذين جاسوا خلال ديارهم وألقوا رحالهم بينهم جاءوا إليهم حاملين للحرية التى امتزجت بدمائهم وخالطت جواهر نفوسهم . حتى بلغ من أمرهم أنهم لا يطيقون من أميرهم أن يتفوق عليهم فى شىء من الأشياء . وقد شكا بعض العرب أبا موسى أمير البصرة لأن له جارية يقال لها عقيلة يرفع لها جفنة لغدائها وجفنة لعشائها وهم لا يقدرون على مثل ذلك — وقد كان من ورائهم عمر بن الخطاب يُقِيدُ العامة من الأمراء — ويقول بملء فيه على المنبر : من ظلمه أميره فلا إمرة له عليه دونى .

نفث العرب الفاتحون فى روع أهل البلاد المفتتحة روحا جديدة وذوقوهم حلاوة الحرية الشخصية . وأشعروا نفوسهم أنهم بشر لا ينحطون فى الحقوق العامة عن مرتبة الأمراء ، حتى بلغ من أمر أحد المصريين أنه لما أهين من ابن عمرو بن العاص أمير مصر شخص إلى مقر الخلافة يشكو ابن الأمير . فأقاده عمر منه دون محاباة ولا مجاملة لأبيه ولا مراعاة لمكانته وسابقته وحسن بلائه .

عدل شامل ينعم به الموالى ، ويغتبط به العدو ويفيضه عمر على الرعية ما بين برقة ونهر جيحون غربا وشرقا ، وما بين القوقاز والأناضول شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، لا يشعر أحد من الرعية بتميز أحد عليه إلا بالتقوى وحسن البلاء .

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة فأشعرت قلوبهم لزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة كما هى سنة الوجود . وليس فى أيديهم من أدوات تلك الحياة سوى الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر . والشرع الإلهى الذى أطلق عقولهم من أسر التقليد وأخرجهم من الظلمات إلى النور . فأخذوا بحكم الطبيعة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدأوا يبارونهم فى مضمار الحياة . وكان أول شىء طمحت نفوسهم إليه تقليد مجاوريهم فى فنون القتال ومحاذاة الروم وفارس فى استصناع الآلات الحربية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا للفتوح عدتها — ثم تطرقوا إلى الأمور

السياسية والإدارية يحتذون مثالهم فيها ويترسمون خطواتهم فى العمل بها . فوضع عمر التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما كان موجوداً عند الدولتين : الفارسية والرومية . ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ، وفرض العطاء وقرر مصرف الفيء فى غير سرف ولا تقتير ، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف فى حقوق الرعية ولا غبن على الدولة . فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران فى أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة إلى الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتحوشن بعض الشيء فى المأكل والملبس ، والتوسط فى العيش ، والقصد فى الإنفاق وعدم التبسط فى البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر ، كما يتبين ذلك من صنعه مع خالد إذ أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف . فكان ذلك سبباً لاعتقاله بفضل عمامته وتقريره عن الدراهم التى أجاز بها ؛ أمن إصابة أم من ماله وعزله على كل حال إذ أقامه عمر بين الخيانة والإسراف وكل لا خير فيه .

ومن جهة أخرى فإن عمر لم يدع للعرب فى مدته فرصة تمكنهم من الإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل النعم والسكون تحت كنف الأمصار والتبسط فى نعيم الحياة وزخرف العيش . بل دفع بهم فى معترك الحياة الحضرية وزج بهم فى معترك الحروب فى وقت واحد . وكانت الحروب أكبر همهم والتغلب على العدو آثر شيء لديهم فشغلهم عن النعيم والرفاهة بالفتوح وألهاهم بادخار الغنائم عن التمتع بها . وأرجأوا ذلك ريثما يفلوا من غرب الدول المجاورة لهم ويأمنوا غائلة الأمم المغلوبة وانتقاضها عليهم .

استفاد العرب من هذه السياسة العمرية فى أحوالهم الاجتماعية ولم يسمع فى زمنه ناعق بفرقة ولا صائح بانقسام ولا داع إلى تناور وتدابر ولا هاتف بعصبية بل كان جزاء من يفعل ذلك الضرب بالسيف — ولكن اندفاع القوم إلى الفتوح وتفرقهم فى أنحاء الممالك وتعجلهم الظهور قبل تأصل الدين فيهم وتمكنه من نفوس عامتهم . نشأ عنه بعد ذلك تشويش فى الدين والملك — ومن

ذلك عدم الإجهاز على الوثنية ومحو أثرها من البلدان المفتتحة مع دخول كثير من أهلها فى الإسلام . فاختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر كرة ثانية مصطبغة بصبغة أخرى نتج عنها تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين وبخاصة بين الأعاجم من المسلمين أو الذين ظهروا بمظهر الإسلام واتسموا بسمته .

ومن المعلوم أن الإسلام طم على البلاد بسرعة مدهشة فائقة الوصف . والشيء إذا سار بسرعة لم يكن طروء الخطأ والفساد فيه مأموناً . كما لو ضاعفت النار بشيء تريد نضجه فإنه وإن نضج ظاهره فى وقت قريب فإن باطنه لم يزل نجا لا أثر للنضج فيه . ولهذا كانت سرعة تأخر الأمة العربية فى الحضارة والرقى بمقدار تقدمها فى ذلك وسرعة فتحها للبلاد .

والذى يمكن أن يكون عذراً لعمر أن سياسته فى تعجل الفتح أول الأمر كان لها فائدة جليلة فى ذلك الحين . وذلك أنه دفع بالقوم إلى الفتح فى إبان الظهور واتقاد جمرة الحماسة فى النفوس قبل أن تطفأ تلك الوقدة وتنحل عقدة الإخاء بين قبائل العرب وتتراخى أسباب الألفة فأراد أن يساجل القوم قبل أن يلتئم شملهم ويكاثروا العرب بما لا قبل لهم به — فلما نال القصد وأدرك الغاية عمد إلى الإرعاء عليهم وهم بان لا يرخى لهم طول الفتوح وأن يقنعوا بما أحرزوا ولكن القوم أخطروه بما كان يبدو منهم من الانتقاض ونكث العهود إلى الإذن للمسلمين بقطع مادة الفساد .

ومما يدل على أن عمر كان يسوق الأمة إلى المدنية سوقاً تدريجياً ، ولم يكن يريد بهم الاقتحام فى تيارها ما كان منه حين ورد عليه الأحنف بن قيس فى وفد من أهل البصرة فتكلم عنهم فقال : ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة . وإنما ينظر الوالى فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بآذانهم وإنا لم ننزل منزلا بعد منزل حتى أرزنا إلى البر . وإن إخواننا

من أهل الكوفة نزلوا فى مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب فتأتيهم ثمارهم غضة ولم تخضد وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سَبِخة هشاشة زعقة نشاشة طرف لها فى الفلاة وطرف لها فى البحر الأجاج يجرى إليها ماء جرى فى مثل مرىء النعامة دارنا فخمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا فى أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها فقال عمر . هذا الغلام سيد أهل البصرة . وأمسكه سنة لئلا يحمل الناس على فضل عقله . فيطلب منهم مثل ما عنده فيورطهم . وكذلك فعل مع زياد حين أوفده عليه أبو موسى واحتبسه . فسأله زياد عن السبب . فقال : كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك .

ترجمة عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى ، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف . يكنى أبا عبد الله وابا عمرو ، وثانيهما أشهرهما ، ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل . وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف . وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان عثمان تاجراً وقد ذهب إلى الشام مرة فى تجارته . وقد أدرّ الله تعالى عليه أخلاف الخير فقد كان واسع الثروة كثير المال — وقد شبّ على كريم الشيم وحسن السيرة عفيفاً حياً محبباً فى قومه مأموناً عندهم أثيراً لديهم . أخرج ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان فى قريش محبباً يوصون إليه ويعظمونه . وإن كانت المرأة من العرب لترقص ولدها وهى تقول :

أحبــــك والرحمن حب قريش عثمان

أجاب عثمان إلى الإسلام بدعوة من أبى بكر وكان إسلامه مع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . فهو من السابقين الأولين الذين أحرزوا فضل السبق وفخر القيام بنصرة الدين . وقد روى ابن الأثير فى أسد الغابة عن ابن عباس أن قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) نزلت فى عشرة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود .

كان عثمان فى صحبته محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كريماً عليه وقد أصهر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته رقية بعد إسلامه . ولما ناله الأذى من قريش فى الإسلام هاجر بها إلى الحبشة . وفى ذلك قال رسول الله

« صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » يشير إلى قوله تعالى « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى » ثم رجع من الحبشة إلى مكة . فلما كانت الهجرة إلى المدينة هاجر إليها — وهى الهجرة الثانية — وقد بقيت رقية معه إلى أن توفيت بالمدينة فى اليوم الذى أظفر الله المسلمين على مشركى قريش ببدر . ولم يشهدها عثمان لأنه كان قائماً على تمريض زوجته . ولكن رسول الله أسهم له مع الغانمين فعد بدريا .

شهد عثمان مع رسول الله جميع مشاهده إلا بدرا كما قدمنا وقد زوجه رسول الله بابنته أم كلثوم : ولهذا كان يلقب بذى النورين لأنه كان ختن رسول الله فى ابنتيه رقية وأم كلثوم إلى أن توفيت فى السنة التاسعة من الهجرة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن لنا ثالثة لزوجناك . وهذا يدل على شدة حب رسول الله له وثقته به وسمو مكانته عنده .

ولما كانت بيعة الحديبية كان عثمان سفير رسول الله إلى قريش فلما شاع أن قريشاً غدرت بعثمان بايع أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان ثم علم حينذاك أن عثمان حى فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله » ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال بيده اليمنى : « هذه يد عثمان » فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

كان عثمان كريم النفس جواداً بماله سخى اليد فى طاعة الله عز وجل وإعلاء دينه حتى أنه بذل فى تجهيز جيش العسرة من ماله ما لم يبذله أحد فقد جهز ذلك الجيش بألف بعير وخمسين فرساً — وقد أخرج الترمذى عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره فجعل رسول الله يقلبها ويقول « ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم » مرتين .

ومن مسارعته إلى البذل ابتغاء وجه الله تعالى أن بئر رومة كانت ركية

ليهودى يبيع المسلمين ماءها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشترى بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائلهم وله بها مشرب فى الجنة فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها . فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان ، إن شئت جعلت على نصيبى قرنين وإن شئت فلى يوم ولك يوم قال بل لك يوم ولى يوم . فجعل المسلمون إذا كان يوم عثمان استقوا ليومين . فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت على ركيتى فاشتر النصف الآخر . فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم وصارت كلها للمسلمين .

ومن هذا القبيل أن رسول الله قال : من يزيد فى مسجدنا ؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده فى المسجد .

وكان عثمان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لأبى بكر ثم لعمر أمينا كاتبا يستشار فى مهام الأمور ويؤخذ رأيه فى جلائل الأعمال ولما قتل عمر رضى الله تعالى عنه كان أحد الستة الذين قال فيهم عمر : إن رسول الله مات وهو عنهم راض وإنهم رؤساء الناس والناس لهم تبع . وكانت استشارة عبد الرحمن بن عوف للناس فى شأن من يلى الخلافة تنجلى فى الغالب عن أن أكثر المشيرين يطلبون تولية عثمان وقد بويع بالخلافة بعد ذلك فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م) .

أول قضية نظر فيها عثمان

قدمنا أن أبا لؤلؤة فيروز الفارسى غلام المغيرة بن شعبة هو الذى قتل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وقد قتله رجل من بنى تيم أو قتل نفسه لما أعيا القوم القبض عليه ، وقد قتل رجلا من المسلمين وجرح ثلاثة عشر رجلا — فلما كان ذلك جاء عبدالرحمن بن أبى بكر وأخبر أنه رأى أبا لؤلؤة قبل قتل عمر بيوم ومعه جفينة وهو رجل نصرانى من أهل الأنبار جاء به سعد بن أبى وقاص

ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة الكتابة ومعهما الهرمزان ذلك الملك الفارسى - وحاله كما وصفنا — وهم نجى فلما زهقهم عبد الرحمن قاموا وسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ثم قال فانظروا بأى شىء قتل فجاءوا بالخنجر الذى قتل به عمر فإذا هو بالصفة التى وصفه بها عبد الرحمن . سمع ذلك عبيد الله بن عمر فاعتقد أن أباه قتل بممالأة هؤلاء الثلاثة وأنهم شركاء فى دمه . فأمسك حتى إذا مات عمر — اشتمل عبيدالله على سيفه فأتى الهرمزان فقتله فلما عضه السيف قال لا إله إلا الله ثم مضى حتى أتى جفينة فعلاه بالسيف فصلب بين عينيه ثم قتل ابنة أبى لؤلؤة . ولما علم صهيب بذلك بعث إليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول السيف : بأبى وأمى . حتى ناوله إياه وثاوره سعد بن أبى وقاص وجذبه من شعره وأخذ به حتى جاء به إلى صهيب فحبسه فى دار سعد بن أبى وقاص حتى إذا انتهى عثمان من البيعة دعا بعبيد الله بن عمر . وقال لجماعة المهاجرين والأنصار وهو جالس فى ناحية المسجد أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام مافتق . فقال على أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى .

إن عبيد الله يعتبر من الوجهة الشرعية قاتلا قتل عمداً ولا يمكن أن يعتبر عمله هذا قصاصاً لأنه قتل غير القاتل ومن قتلهم لم يثبت عليهم الاشتراك فى الجناية ثبوتاً شرعياً ولا يتولى القصاص إلا بعد الحكم ولو ثبت اتفاقهم على هذه الجناية لم يكن الحكم الشرعى مبيحا لقتل من قتل والشرع لا يأخذ فى الحدود والعقوبات بالقرائن التى من هذا القبيل فكان عبيد الله مستوجبا للقصاص بلا شبهة — ولم يكن ماأشار به عمرو بن العاص من أن ذلك الأمر حدث فى غير سلطان عثمان كافيا فى نجاته من العقاب ولو أن عمر كان حيا وقد صنع ابنه ماصنع لأمضى فيه حكم الله — غير أن عثمان رأى مارآه بعض المهاجرين من استفظاع

على أثر مقتل أبيه وأن يكون بدء خلافته إدخال المصيبة على آل الخطاب خاصة من بين المسلمين فرأى للخروج من هذا المازق أن يجعلها دية فى ماله وهو تخلص حسن — وكان رجل من الأنصار يقال له زياد ابن لبيد البياض إذا رأى عبيد الله يقول :

ألا يا عبيـــد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دما والله فى غـــير حله حراما وقتل الهرمزان له خطر
على غير شىء غير أن قال قائل أتتهمون الهرمزان عـــلى عمر ؟
فقال سفيه والحوادث جمـــة نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد فى جوف بيته يقلبها ، والأمر بالأمر يعتـــبر

شكا عبيد الله زياد بن لبيد إلى عثمان فنهاه فقال :

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنـــه وأســـباب الخطأ فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغـــير حق فمالك بالذى تحكى يدان

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشد به .

إن الهرمزان وجفينة قتلا مظلومين شرعا ولكن الظروف التى وجد فيها الهرمزان وما يحتف بسيرته من الغدر المتكرر وماوراه عبد الرحمن بن أبى بكر لا توجد فى القلب موضعا للأسف لما لقيه وعندى أنه لو وجد محقق ماهر لأثبت اشتراك الهرمزان وجفينة وأبى لؤلؤة وكعب الأحبار فى المؤامرة لاغتيال عمر .

أول خطبة لعثمان

قال الطبرى — لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو اشدهم كآبة فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال « إنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لايغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها . واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عز وجل « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » — وذكر غير الطبرى أنه ارتج عليه .

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

لما ولى عثمان الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار كتاباً عاماً صورته :

« أما بعد . فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور « أما بعد . فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه » .

وكتب إلى عمال الخراج (أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق واعطوا الحق به . والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم .

والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار « أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكفر فى العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » .

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه :

(١) مكة ، وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعى .

(٢) الطائف ، وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى .

(٣) صنعاء ، وأميرها يعلى بن مُنبه حليف بنى نوفل بن عبد مناف .

(٤) الجند ، وأميرها عبد الله بن أبى ربيعة .

(٥) البحرين وما والاها ، وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى — وهذه الخمس فى جزيرة العرب .

(٦) الكوفة ، وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى .

(٧) البصرة ، وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى .

وهاتان بالعراق :

(٨) دمشق ، وأميرها معاوية بن أبى سفيان الأموى

(٩) حمص ، وأميرها عمير بن سعد .

وهاتان بالشام .

(١٠) مصر ، وأميرها عمرو بن العاص السهمى .

الفتوح فى زمن عثمان

إن جنود الإسلام كانت فى زمن عمر قد فتحت المملكة الفارسية جميعها وبلاد سورية كذلك ومصر . غير أن بعض مافتح لم يكن الأمر فيه موطداً توطيداً تاما : بل كان أهله يجيبون كل داع إلى شق العصا وخلع اليد من الطاعة فكانت الجنود الإسلامية تقوم بردهم إلى الطاعة فى زمن عثمان وتثبت حكم الإسلام فيها — ولهذا يكون إرجاع تلك البلاد إلى الطاعة فتحاً على التحقيق وللسلمين فى عهد عثمان فتوح فى بلاد لم تطأها أقدام جنود الإسلام من قبل وسنذكر ذلك إن شاء الله .

إن صديقنا الفاضل رفيق بك العظم لم يمر فى كتابه (أشهر مشاهير الإسلام) بروايات المؤرخين فى الفتح الإسلامى مروراً بسيطاً بل وقف وقفة المدقق الباحث وقد تسنى له الوقوف على تواريخ الأمم التى كان الفتح الإسلامى فى زمن عثمان موجها إليها . وقد أتيح له تحقيق واف شاف فى فتوح بلاد أرمينيا أحببت أن ألم به وأجعله عمدة كلامى فى هذا الباب سواء كان ذلك بأخذ العبارات بنصها أو تلخيصها بحسب ماأراه .

فتح أرمينيا والقوقاز فى عهد عثمان

تحد أرمينيا شمالا بالبحر الأسود وكرجستان . ومن الشرق بكرجستان أيضاً وجزء من بلاد فارس . ومن الجنوب بكردستان والجزيرة . ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود أرمينيا الآن — والعرب كانوا يتوسعون فى هذا الاسم . فربما أدخلوا فى أرمينيا قسما من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو « أران » المشتمل على مقاطعة أريوان وتفليس . وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا إلى داغستان . وشرقا إلى أذربيجان وبحر الخزر . وأما من جهة الجنوب فكانوا يدخلون فيها قسما من كردستان وهو عمالة بتليس

وربما جعلوها من أرمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة . ولهذا لم يذكر مؤرخو العرب فتح القوقاز على حدة . بل جعلوه مضمونا إلى فتح أرمينيا .

قال : وقبل أن أبسط الكلام فى جغرافية القوقاز أذكر هنا بعض الأمكنة الشهيرة فى أرمينيا زيادة فى الإيضاح .

فمن مدن أرمينيا الشهيرة : خلاط . وقاليقلا — (التى هى أرزروم أو أرزن الروم كما يقول أبو الفداء (وإلى جهة الغرب منها أرزنجان . ثم أرجيش على بحيرة وان . ووان — وهى فى الطرف الشرقى من البحيرة المسماة باسمها . وفى الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الجودى — أوارارط الذى استوت عليه سفينة نوح ومن أنهارها الفرات وأراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب أرزروم ويمر فى مقاطعتى القارس وأرزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقى مع نهر كور الآتى من أعالى القارص وتفليس ويصبان فى بحر الخزر .

أما بلاد القوقاز — حالا — فتحد شمالا ببلاد الروسيا (ونحن الآن لاندرى أى حكومة من الحكومات الروسية تجاورها من الشمال بعد أن انقسمت روسيا إلى حكومات عديدة ، والحدود لم تحدد إلى الآن ولم ترسم خريطة للممالك ، وقد دخل فى تركيا بعض هذه البلاد فقد استولت على باطوم والقارص وأردهان ، ودخل فى حكمها مدينة باكو على بحر الخزر ، وإلى الآن فى يوم ١٢ مارس سنة ١٩١٨ لم تجل الحال تماما) وجنوبا العجم وتركيا وآسيا (وعلى ماقدمنا تكون أرمينيا القوقازية التابعة لتركيا) وشرقا بحر الخزر الذى يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغربا البحر الأسود . ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أرّان) من تسمية الكل باسم الجزء .

فمن أقسام البلاد الجنوبية أيبريا أو كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور

وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالا إلى داغستان[1] ويظهر من سياق خبر الفتح فى تاريخ البلاذرى أن العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وأنه يمتد غربا إلى آسيا الصغرى — ومن مدن الران الشهيرة الروان، وفيها كنيسة كبرى للأرمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب. أو باب الأبواب (دربند) والبيلقان. قال الإصطخرى: ليس فى ارّان مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس. ومن أقسامه الشمالية — بلاد الجركس. ويجرى فيها نهر قوبان الذى يصب فى البحر الأسود ونهر كوما — وترك (ته رك) اللذان يصبان فى بحر الخزر. ومن أقسامه داغستان على بحر الخزر، وفيها يجرى نهر سمور فى السهول الواقعة شمال داغستان. ومن مدنها الشهيرة باكو التى فيها منابع النفط (ولعلها التى يسميها القرمانى فى جغرافيته. باكوية.) — ودربند على شاطىء بحر الخزر وهى ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذى اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى بجيشه إلى السهول الشمالية حيث قتل على نهر. ترك. الذى يسميه العرب نهر بلنجر.

لا خلاف بين المؤرخين فى أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين أولاهما على عهد عمر بن الخطاب والثانية على عهد عثمان بن عفان. وقد أيد هذا الكلام تواريخ الأرمن وأشار إليه القس جبرائيل الخابجى فى مختصر تاريخ الأرمن وإن لم يذكر أسماء الفاتحين فى المرتين ولم يعين السنين بالضبط. أما ديفرچى فقد عين مدة الخليفة فأخطأ: والثابت عند مؤرخى العرب أن فتح تلك البلاد فى عهد عمر كان سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م وأما فتحها فى عهد عثمان فكان فى سنة ٢٦ هـ ٦٤٦ م — كما يعلم من مقارنة التواريخ وجعل الطبرى ذلك سنة ٣١.

كان بكير بن عبد الله وعتبة بن فرقد قد فتحا فى خلافة عمر بلاد أذربيجان الواقعة شرقى بلاد أرمينيا — فكتب بكير بالفتح إلى عمر. فكتب عمر

---

(١) تكتب فى التركية بالطاء وتنطق دالا معجمة

إلى سراقة بن عمرو بغزو الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وعلى مجنبتيه ابن أسيد الغفارى وبكير بن عبد الله المتقدم ، وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة — وكتب إلى حبيب بن سلمة الفهرى أن يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة . فلما نهض سراقة من البصرة لوجهه ، تقدم عبد الرحمن إلى أرمينيا الشرقية وفتحها حتى وصل إلى الباب « دربند » على شط بحر الخزر وعليها شديار فكاتبه واستأمنه « كما قصصنا ذلك من قبل » — ولما فرغ سراقة من الباب بعث الأمراء والقواد إلى ما يليه من بلاد أرمينية . وأرسل بكير ابن عبد الله إلى موقان وحبيب بن سلمة إلى تفليس عاصمة كرجستان . وحذيفة ابن اليمان إلى بلاد جبال اللان « القوقاز » . فاشتبكت جنوده فى أرمينيا وأطرافها مع الأمير أوهان بن كامساركان — وأخيه ديران — فقتلا وتشتت جندهما بخيانة أحد قواد الأرمن المسمى ساحور ، فإنه خان أوهان ، وانضم بجيشه إلى العرب ، كما يقول ديفرجى وصاحب تاريخ الأرمن .

أما حبيب بن سلمة الفهرى الذى قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له ثيودور أحد أمراء البلاد ، وكانت البلاد منقسمة على بعضها ، وبذلك سعى فى جمع كلمة الأمراء فى أرمينيا ودخولهم تحت لوائه لصد المسلمين ففشل فيما حاول وكان البطريك استراس يؤازره ويعضده — فلما رأى أن الأمر على غير ما يشتهى أصابه الغم الشديد ومات غماً وكمداً .

بينما الأرمن مهتمون فى إقامة بطريك — غير استراس إذ فاجأهم المسلمون بقيادة حبيب بن سلمة وحاصروا مدينة ، دوفان ، أو — تفين — وفيها كرسى البطريك ويقول ديفرجى : إن حصارها بدأ فى نوفمبر سنة ٦٣٩ ذى القعدة سنة ١٨ هـ واستمر إلى اليوم السادس من يناير سنة ٦٤٠ م ٥ المحرم سنة ١٩ هـ ففتحها حبيب ثم أخذ فى إتمام فتح أرمينيا وكردستان ، ففتح وان ، وبخشوان ، وسيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون « أراس وأراكس » — ثم سار إلى أرمينيا الغربية ثم عطف على إيبريا

التى هى جزء من كرجستان الحالية وأخذ عاصمتها وسائر مدنها الكبرى — وفى أثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر على ثغر الباب وأمره بغزو الترك ، فسار شمالا مجتازاً مدينة الباب وبلادها بعد أن استخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شاطىء بحر الخزر وكان سكانها على جانب عظيم من التوحش والجهالة . وبعد أن اجتاز الباب أوغلت خيله فى السهول الشمالية إلى مائتى فرسخ من بلنجر (تهرك) ثم عاد ولم يَقُم له أحد من أهل تلك الناحية . وقد حكى الطبرى : أن أهل تلك الناحية كانوا يعتقدون أن هؤلاء العرب يموتون ولا يقطع فيهم السلاح . فكانوا يهربون منهم فى الآجام والغياض ، ثم عاد عبد الرحمن إلى الباب . وجعل يردد غزواته فى تلك الناحية إلى أن جَرَّب أحد أهل تلك البلاد قتل المسلمين بأن كمن فى إحدى الغابات ورمى رجلا منهم فقتله . فأخبر قومه بأن هؤلاء المسلمين كالناس يُقتلون ويموتون . فطمعوا فى المسلمين واجتمعوا لقتالهم . وقد قتل عبد الرحمن بن ربيعة فى إحدى الوقائع فى بلادهم زمن عثمان . وقد قال الطبرى : إنهم احتفظوا بجسم عبد الرحمن يتبركون به ويستسقون ويستنصرون به إلى الزمن الذى أدركه الطبرى وكان على نهر (تهرك) وأخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان إلى جرجان بأن دار على شواطىء بحر قزوين — وبعضهم سلك طريق الباب إلى أرمينيا .

فكان فتح عبد الرحمن قد بلغ إلى شمالى بلاد القوقاز فى شرق أرمينيا مما يلى بحر الخزر . وأما حبيب فقد بلغ فى فتوحه شمال القوقاز أيضاً مما يلى البحر الأسود كل ذلك فى خلافة عمر فيما بين سنتى ١٨ و ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح لم يكن إلا فتحاً هيناً غير موطد الدعائم . بل كان فتحاً على الجزية — ولم يكن عند المسلمين من الجند العدد الكافى لسد هذه الثغور وتوطيد الأمن فيها وتثبيت كلمة المسلمين فى نواحيها المتنائية وأطرافها المترامية . وقد كان عمر

يظن ذلك كما روى ذلك العلامة ابن خلدون . وقد صدق ظنه — فقد قال ديفرچى : إن المسلمين قد اضطروا عقب ظهور الخزر على نهر ترك — إلى الجلاء عن كل أرمينيا ثم عادوا إليها بقوة أعظم سنة ٦٤٦ - سنة ٢٦ ﻫ وهى السنة التى وجه فيها عثمان حبيبا وسلمان إلى استرداد البلاد وفتح أرمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الأول تمهيداً للفتح الثانى الذى صارت به البلاد تابعة للدولة الإسلامية ولم تنتقض إلا فى فترات قليلة ثم استتب فيها الأمر للمسلمين .

وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الأرمن إلى تسليم الأرمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد سنباط بن فارازديروس الذى كان واليا من قبل قيصر القسطنطينية إذ كان الأرمن طلبوا واليا من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التى كانت متسلطة عليهم ، وزار سلطانها بعد أن بدأت حروبها مع المسلمين فولى الإمبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مدة سنة ومات وخلفه ابنه سنباط .

فى خلافة عثمان انتقضت أرمينيا ، والظاهر أن ذلك كان لضعف حاميتها وقلة عددهم وكثرة أهل البلاد ورغبة كبرائهم فى التخلص من أيدى المسلمين ، وساعد على ذلك بعد البلاد عن مركز قوة المسلمين وإبطاء النجدة عنهم ، وكان عثمان قد جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها ، وأمره أن يغزو شمشاط وهى أرمينيا الرابعة أو يغزيها ، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهرى قد فتحها مع عياض بن غنم فى خلافة عمر فوجهه معاوية فى ستة آلاف مقاتل لفتح أرمينيا فنهض إليها حتى أناخ على قاليقلا سنة ٢٦ ﻫ وأقام عليها حتى خرج إليه أهلها طالبين الصلح على الأمان والجزية فأجابهم إلى ذلك وجلا من جلا وأقام من أقام .

أقام حبيب بقاليقلا بعد افتتاحها ، وبلغه أن الموريان بطريق أرمينياقس قد جمع جموعا عظيمة وانضمت إليه أهل اللان وأفخاز وسمندر من الخزر — فكتب إلى عثمان يسأله المدد — فكتب عثمان إلى معاوية أن يمده بقوم من أهل

الشام والجزيرة ممن يرغب فى الجهاد فأمده بألفى رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها - وكتب عثمان أيضا إلى سعيد بن العاص أمير الكوفة أن يمد حبيب بن مسلمة بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى وكان غزءاً صاحب إقدام ومكيدة فى الحرب - فسار إليه سلمان بستة آلاف من جند الكوفة وأقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات . وقد أبطأ على حبيب المدد ، ورأى حبيب أن يبيت أعداءه على ما بجنده من قلة عله أن يصيب منهم غرة قبل أن يقووا عليه ، فبيتهم واجتاحهم وقتل قائدهم .

ومما يؤثر من شجاعة النساء . وقوة جيش بعضهن ، أن أم عبد الله الكلبية زوج حبيب قالت له ليلة أن قام لتبييت جند الروم : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية (يعنى الموران) أو الجنة . فلما انتهى إلى السرادق وجدها عنده ولما ورد سلمان بجنوده وقد فرغ حبيب من أمر عدوه أراد سلمان أن يتأمر على حبيب ومن معه من الجند كما جرت به العادة من أن هذه الناحية كان غزوها لأهل الكوفة والأمير منهم من قبل ، فأبى عليه حبيب ذلك حتى قال أهل الشام : لقد هممنا بضرب سلمان ، فقال أوس بن مغراء وهو من جند سلمان :

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم   وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا   وهذا أمير فى الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته   ليالى نرمى كل ثغر وننكل

ومن ثم افترق القائدان ، فأخذ حبيب فى افتتاح أرمينيا العربية ، وسلمان فى افتتاح أرمينيا الشرقية .

فسار سلمان إلى أران ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحا واشترط على أهلها الجزية والخراج . ثم أتى بردعة وعسكر على نهر الثوثر ، على فرسخ منها فامتنعت عليه وعاناها أياما فصالحه أهلها على صلح أهل البلقان . وفتحوا له

أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق فى أران ـ ودعا أكراد البوسنجان (أو البلاسجان) إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى البعض الصدقة ممن دخلوا فى الإسلام ثم سار إلى مجمع نهر الكرّ (كور بالكاف الثقيلة) والرس (أراس) فعبر الكر ففتح «قبالة» وكل البلاد التى على الضفة الشماليه من نهر الكر ـ ويسميها ديفرچى بلاد سشاكى ـ ثم دخل بلاد سشيوان ، وصالحه صاحب شكن وشيران والباب . ومن هنا اختلف المؤرخون فبعضهم يقول : إن سلمان انتهى إلى مدينة الباب ولم يتجاوزها ، ومن هذا الفريق ابن خلدون وهو الظاهر . لأن ماوراء الباب أمم كثيرة قوية وإنما كان خوفهم من المسلمين واعتقادهم أنهم لا يموتون لأن الملائكة تؤيدهم وتعينهم هو الذى يدفع بهم إلى الهرب من أمامهم . فلما أنسوا بهم وعرفوا أنهم يموتون اجتمعوا واعتزموا على قتالهم ولم يكن مع سلمان سوى ستة آلاف وهو عدد قليل إذا أو هنه بالغزو فيما وراء الباب لم يؤمن أن يعود القوم إلى حالهم من الانتقاض

أما حبيب بن سلمة فسار من قاليقلا بعد وصول المدد إليه ونزل (مربالا) فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم الذى أمنه به على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على أتاوه فأنفذه حبيب له ، ثم نزل منزلا بين الهرك ودشت الورك ، فأتاه بطريق خلاط بالمال وهدية فلم يقبلها . ونزل خلاط ، ثم سار إلى الصيانة فلقيه صاحب مكس وهى ناحية من نواحى البسفرجان فقاطعه على بلاده وكتب له كتاب صلح وأمان . ووجه إلى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم اجتاز نهر الرس وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحى . حتى بلغ سراج طير وبفروند . فأتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على إتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقراهم ومعاونتهم على أعدائهم وكتب لهم .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهرى لنصارى

أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم إنى آمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج . شهد الله وكفى به شهيداً » وختم حبيب بن مسلمة .

وأتاه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم ثم سار إلى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم له هدية وسأله كتاب صلح وأمان . فكتب :

« أما بعد : فإن نقلى « نقولا » رسولكم قدم علىّ وعلى الذين معى من المؤمنين فذكر عنكم أننا أمة أكرمنا الله وفضلنا · وكذلك فعل الله . وله الحمد كثيراً وصلى الله على محمد نبيه خيرته من خلقه وعليه السلام — وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا . وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فإن قبلتم ووفيتم به وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى » .

وقد كان أمراء الإسلام لايقبلون الهدايا وإنما يحسبونها لأهل الذمة من جزيتهم ولم يقبلها من أهل الذمة إلا عبد الله بن عامر وهو أمير على الكوفة ، فقالوا فيه : ضمها القرشى وكان مضما .

ثم أن حبيباً سار إلى تفليس عاصمة كرجستان فصالحه أهلها وكتب لهم :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس منج منجليس من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على إقرار بالصغار والجزية على أهل كل بيت دينار وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوت تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفرقهم استكثاراً منها ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب . وإن انقطع برَجُلٍ من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين إلا أن يحال دونهم ، وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فإخوانا فى الدين وإلا فالجزية عليكم

وإن عرض المسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم : هذا لكم ، وهذا عليكم . شهد الله وكفى به شهيداً » .

ثم إن حبيباً صار يفتح فى بلاد أرمينيا الغربية مما يلى البحر الأسود حتى انتهى إلى بلاد القوقاز فى شمال أرمينيا كما انتهى إلى مثل ذلك سلمان فى شرقيها مما يلى بحر الخزر .

تتمة فتح بلاد فارس

إن بلاد الفرس أو المملكة الفارسية كانت فى أيام العرب تشتمل على بلاد وأرض أوسع مما نسميه اليوم بلاد الفرس ، فقد كان يدخل فيها بلاد البلوجستان ، وبلاد الأفغان وأقليم أذربيجان وكردستان وبعض أرمينيا وهو الجزء الشرقى منها مما يلى بحر قزوين . وفى مدة عمر بن الخطاب قد فتح المسلمون أكثر ذلك كله . غير أن بعض هذه البلاد قد توطد فيه ملك المسلمين وهو ما يلى ناحيتهم ، وبعضه لم يتوطد فيه الملك وهو ما بعد عنهم كجهات المروين وطخارستان وبلخ وسجستان وبعضها لم يكن فتح من قبل .

وقد كان العرب يقسمون المملكة الفارسية إلى أقسام كثيرة يسمونها كورا .

« فالقسم الشمالى منها ، مما يلى أرمينيا غرباً والقوقاز شمالا يعرف بكورة أذربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز ، وزنجان ، والبر ، والموقان ، والطيلسان . وإلى الشرق منها قزوين الواقعة شمال بلاد الجبل ، وكانت تسمى بلاد الديلم . ثم إلى شرقى هذا القسم فى الجهة الجنوبية من بحر قزوين ، طبرستان وجرجان . ومن مدنها ، الشهيرة دماوند — أو دنباوند — واستراباذ والدامغان .

وقومس فى جهة الجنوب أبيورد ، ونسا ، وسَرَخْس ، ومرو الشاهجان فى جهة الشمال والشرق من هذا القسم . والجزء الغربى منه يعرف الآن بمازندران .

« والقسم الغربى منها » يعرف بالعراق العجمى وخوزستان ، وبلاد الجبل — ومن مدن العراق العجمى الشهيرة : المدائن ، والنهروان على نهر دجلة ، ومناذر ، وقصر شيرين ثم نهاوند . وقاشان ، وأصفهان من بلاد الجبل ، والأهواز ، ورامهرمز والسوس وجند يسابور من خوزستان .

« والقسم الجنوبى منها » يعرف بفارس وكرمان ومكران أو كورة السند « تعرف الآن ببلوجستان » وسجستان وهى بين مُكران وخراسان — ومن مدن فارس الشهيرة : اصطخر ، وپسا ، ودار ابجرد ، وكازرون ، وجور ثم جيرفت ، وهميد ، والسيرجان من مدن كرمان ، ثم مُكران ؛ وقندابيل ، وفنزبور ، وأرمائيل وبيرون ، والديبل « ثغر على المحيط الهندى من كرمان أو السند » ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان « لعلها صحراء لوط » وزرنج التى يؤخذ منها إلى وادى سناروز ، والكش من ناحية الهند ـشت ، وناشرورز من سجستان .

« والقسم الشمالى الشرقى » يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان ، وهذا القسم أكثره واقع فى أفغانستان الآن ، وكان العرب يقسمونه إلى أقسام كثيرة أو كور فمنها . كورة مرو ، وهراة ، وطوس ، ونيسابور من ولاية خراسان ، وغزنة وكابل من زابلستان . وبلخ من طخارستان ، وأشهر مدن جراسان : نيسابور الواقعة فى الجهة الشمالية الغربية ، ومن خراسان وطوس إلى الشمال منها أيضاً . ومن مدن نيسابور وزام ، وبشت ، وباخرز ، وجوين ، وأبْرشهر ، وبيهق ، واسفرائن ، وأرغينان وغيرها . ثم هراة ، ومرو الروذ فى الجهة الشرقية من خراسان ، ومدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وطاغون ، وسنج ، وغيرها . أما طخارستان الواقعة شرقى خراسان وشمال زابلستان

وجنوب الصاغانيان فإن من مدنها الشهيرة : بلخ وهى عاصمتها وتعد الآن من بلاد التاتار الجنوبية الواقعة جنوبى نهر جيحون . والجورجان . والفارياب والطالقان . وغيرها . وأما زابلستان : فمن مدنها . كابل وغزنة .

وقد تقدم الكلام فى فتح الجزء الأكبر من هذه الجهات فى خلافة عمر ابن الخطاب .

فى السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان انتقضت آمد وبلاد الأكراد . فعزم أبو موسى الأشعرى والى البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم إلى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلا بعد أن كان يحض الناس على الجهاد والنهوض إليه مشياً . فتألب عليه أهل البصرة . وذهب منهم وفد إلى عثمان فاستعفوه من أبى موسى وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبى . فقال عثمان : من تحبون ؟ فقال غيلان : فى كل أحد عوض عن هذا العبد الذى أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . وقال إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مُهْتَراً كان فيه عوض منه ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه . وقال : أما منكم خسيس فترفعوه . أما منكم فقير فتجبروه يا معشر قريش ؟ فعزله عثمان ، وولى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشى . وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبى موسى وجند عثمان بن أبى العاص من عمان والبحرين . فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة . ولم يدع كورة إلا أصلحها . ثم ولى عليها فى السنة التالية أَمَيْنَ بن أحمر اليشكرى وعلى كَرْمان عبد الرحمن بن عبيس . واستعمل على سجستان عبد الله بن عمير الليثى فأثخن فيها إلى كابل . ثم عمران بن الفضيل البُرْجُمى وعلى مُكران عبيد الله ابن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر .

ثم إن أهل فارس ثاروا وانتقضوا على عبيد الله بن معمر فسار إليهم والتقى

معهم على اصطخر فقتل عبيد الله . وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاصي وعلى مجنبتيه أبو بَرزة الأسلمى ومعقل بن يسار . وعلى الخيل عمران بن حصين . وكلهم له صحبة . فلقيته جموع الفرس بإصطخر فهزمهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وأخذ المدينة عنوة . ثم قصد إلى دار أبجرد ثم إلى مدينة جور وكان هرم بن حيان على حصارها فلما جاء ابن عامر فتحها ورجع إلى اصطخر وقد انتقضت ثانياً فحاصرها حصاراً طالت مدته ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة وأوقع بأهلها وقعة شديدة وهلك فيها أكثر أهل البيوت والأساورة لأنهم كانوا قد لجأوا إليها ووطىء عبد الله ابن عامر أهل فارس وطأة صاروا منها فى ذل . وكتب إلى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حسان اليشكرى وهرم بن حيان العبدى والخريت بن راشد والمنجاب بن راشد والترجمان الهجيمى . وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف بن قيس على المروين . وحبيب ابن قرة اليربوعى على بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وأمَين بن أحمر على طوس . وقيس بن هبيرة السلمى على نيسابور . ثم إن عثمان رضى الله عنه قبل موته جمع هذه الولاية لقيس بن هبيرة ، واستعمل أمَين بن أحمر على سجستان .

ولما رجع بن عامر إلى البصرة بلغه نقض أهل خراسان للذمة ونكثهم للعهد . فجاءه الأحنف بن قيس وقال له . أيها الأمير إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فإن الله ناصرك ومعز دينه . فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثى وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمى وتقدم هو إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير أمراءه إلى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت . ثم تقدم وقد سير عبد الله بن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة كذلك وأعمالها .

وقد سير عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلثمائة ألف درهم ثم مضى إلى مرو الروذ فقاتله أهلها ثم صالحوه وسير سرية فاستولت على رستاق «بغ» فعظم الأمر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الطاغنيان من (تركستان الشرقية) فقاتلهم الأحنف قتالا شديداً حتى هزمهم وفل جموعهم وفتح تلك الناحية — ثم سار إلى بلخ وهي عاصمة طخارستان ففتحها — ثم قصد خوارزم على نهر جيحون (فى تركستان الغربية) فاستعصت عليه فعاد إلى بلخ.

أما مجاشع بن مسعود السلمى فتوجه إلى كرمان فأتى فى طريقه هيد فافتتحها ثم قصد السيرجان وهى مدينة كرمان فحاصرها أياما ثم فتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار فى نواحى كرمان ومدنها وقراها فدوخ أهلها وافتتح تلك المدن وأخضع أهل تلك النواحى وقد هرب كثير من أهل كرمان إلى مكران وسجستان فأقطعت العرب أرضهم فعمروها واحتفروا لها القنى وأدوا العشر عنها.

وأما الربيع بن زياد الحارثى الذى سار إلى فتح سجستان، فإنه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهى غير قوهستان) فأتى حصن زالق وأغار على أهله فأسر دهقانها فافتدى منه بأن غرز عنزة (أطول من العصى وأقصر من الرمح) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح أهل فارس — ثم فتح كركويه. ثم أتى روشت بقرب ذرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها — ثم أتى ناشرواذ ثم زرنج فناوله أهلها وقاتلوه فهزمهم وصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب إلى وادى سناروز ثم رجع وأقام فى زرنج سنة وعاد إلى ابن عامر بعد أن استخلف عليها عاملا. فأخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا — فولى ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة ابن حبيب عبد شمس على سجستان فخرج إليها وحاصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفى ألف درهم وغلب عبد الرحمن على مابين زرنج والكش من ناحية الهند،

وغلب من ناحية الرخج على مابينه وبين الدوان . ولما انتهى إلى الدوان حصرهم فى جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر . وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع — وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة ، ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أمين بن أحمر وانصرف فعاد القوم إلى العصيان .

ولما تم لابن عامر هذا الفتح العظيم قيل له : لم يفتح لأحد مافتح عليك . قال لاجرم ، لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرما من موقفى هذا . فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان . واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم وخرج بن عامر منها فى سنة ٣٢ فجمع قارن وكان من كبار قواد الفرس جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل فى أربعين ألفا — فقال قيس لعبد الله بن خازم : ماترى ؟ قال أرى أن تخرج من البلاد وتخليها فإنى أميرها إذا كانت حرب وأخرج كتابا من عبد الله بن عامر قد افتعله فكره قيس مشاغبته وخلاه والبلاد وذهب إلى ابن عامر فلامه واعتذر قيس مما كان من أمر الكتاب .

أما عبدالله بن خازم فسار إلى قارن فى أربعة آلاف وأمر الجند أن يحملوا الودك . فلما قرب من عسكر قارن قال ليدرج كل منكم على زج رمحه ما كان معه من قطن أو خرقة أو صوف ثم أوسعوه من الودك من دهن أو زيت أو إهالة أو سمن وسار حتى إذا أمسى قدم مقدمة ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النيران فى أطراف الرماح وجعل يقتبس بعضهم من بعض . فأتوا عسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهم آمنون من البيات فرأوا النيران يمنة ويسرة ترتفع وتنخفض وتميل فى كل ناحية فقاموا على دهش فهاجوا وهالهم الأمر وتقدمت المقدمة تناوشهم ثم غشيهم ابن خازم فى جنده فقتل قارن وانهزم جنده فتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا وغنموا عسكرهم وسبوا سبيا كثيراً وكتب بالفتح إلى ابن عامر فرضى وأقره ومازال بها إلى أن انتهت وقعة الجمل .

كانت هذه النواحي مغازي أهل البصرة

وأما أهل الكوفة فكانت مغازيهم بناحية أذربيجان وأرمينيا كما قدمنا . وفي ناحية طبرستان — فإن سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة ٣٠ سار يريد خراسان بجيش فيه جماعة من أبناء أصحاب رسول الله منهم حذيفة بن اليمان والحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن الزبير وغيرهم وكان ابن عامر قد خرج من البصرة يريد خراسان أيضاً فلما وصل سعيد إليه وجده قد نزل ابرَشْهَر . فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف درهم - ثم إلى طميسة وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر فقاتله أهلها قتالا شديداً حتى وصل صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه بالسيف فخرج من تحت مرفقه. وحاصرهم فسألوا الأمان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالا - ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها . فربما أعطوا الإتاوة عفواً وربما منعوا فلم يعطوا إلا بعد قتال . وظل أهل بلاد جرجان وطبرستان على شيء من الاستقلال والنزوع إلى الشغب والإباء عن الخضوع لدولة الخلافة مدة الخلفاء الراشدين وصدرا من الدولة الأموية حتى أخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

والذي يظهر للمطلع على التاريخ أن جيوش المسلمين فيما يلي فارس أو المملكة الفارسية كانت قد ضخمت وكثرت كثرة غير متناسبة مع عددهم عند ابتداء الفتح أيام القادسية يدل على ذلك ما أورده الطبري من أبيات لابن جعيل مدح بها سعيد ابن العاص أمير الكوفة لما عاد من غزوة في جهات جرجان وطبرستان يقول فيها :

فنعم الفتى إذ جال جيلان دونه وإذ هبطوا من دستبى ثم أبهرا

تعلم سعيد الخير إن مطيتى إذا هبطت أشفقت من أن تعقرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية تجرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذى ماساس قبلك واحد ثمانين ألفاً دارعين وحسرا

الفتح فى مملكة الروم زمن عثمان

كانت دولة الرومان على أشد الحذر من جيوش المسلمين ناظرة إليهم فى كل حين من عهد اقتطاعهم سورية ومصر من جسم سلطنتهم. وقد عرف قواد المسلمين ذلك الحذر منها فاتجه تيار فتوحهم إلى جهات فارس وأرمينيا فترة من الزمن. إلى أن جاءت سنة ٢٥ و ٢٦ — فعقد معاوية بن أبى سفيان عزيمته على منازلة دولة الروم فى إقليمى قبادوكيا فى الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلى أرمينيا — وفريجيا من المقاطعات الوسطى من آسيا الصغرى فأخذ «عمورية» من مدن فريجيا الكبرى على حدود غلاطية ولم يوغل فيما وراء ذلك. ولعل السبب فى عدم إيغاله فى تلك الأصقاع علمه بشدة حذر الروم واستعدادهم للدفاع عن بلادهم بالقوى الكبيرة مع قرب تلك النواحى من عاصمة ملكهم وسهولة حشد الجيوش عليهم. فهو إذا أقدم فى ذلك الزمن كان ثمن الفتح غالياً — وقد قدمنا ما كان من إرساله حبيب بن مسلمة إلى أرمينيا.

كان معاوية ذا شغف زائد بالإجهاز على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية وهو يعلم شدة حذر الروم ويقظتهم ويعلم ما عليه بلاد الأناضول من كثرة الجبال ووعورة الطرق. فبلوغ غرضه من طريق البر دونه أهوال مصاعب لا قبل لجيوش الشام فى ذلك الحين بتذليلها، فاتجه تيار تدبيره الى البحر يريد أن يبلغ حاجته فيه بحمل المسلمين على إثباجه والاستيلاء على المراكز المهمة والنقط النافعة فى الغزو البحرى تمهيداً للقيام بعمله الهائل.

كانت هذه الفكرة تهجس فى خاطر معاوية من أيام عمر بن الخطاب فكتب إليه يرغبه فى أن يأذن له فى فتح قبرص ويذكر له قربها من الساحل وسهولة ذلك عليه وقال : إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم (أهل قبرص) وصياح دجاجهم[1] فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر ولكنه اتهمه وكتب إلى عمرو بن العاص — أن صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه — فكتب إليه عمرو : « إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرّق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق » فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية « إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شىء على الأرض يستأذن الله فى كل يوم وليلة فى أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمل الجنود فى هذا الكافر المستعصب . وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم . فإياك أن تعرّض لى وقد تقدمتُ إليك . وقد علمتَ ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك » .

سكت معاوية بعد كتاب عمر على مضض فى النفس إلى أن كان زمن عثمان فاستأذنه . وبعد لأى ما أذن له فى غزو الروم فى البحر وذلك سنه ٥٢٧ ، وشرط عليه عثمان أن يندب الناس للغزو ، وأن لا ينتخبهم ولا يقرع بينهم . فمن انتدب جهزه وأعانه فأعد معاوية لذلك أسطولا فى سواحل الشام وأرسل إلى عبد الله بن أبى سرح عامل مصر يومئذ أن يجهز أسطولا آخر ففعل واجتمع الأسطولان على قتل أهل قبرس . وبعد أن دافع أهلها دفاعاً شديداً وقاتلوا المسلمين أشد قتال صالحوا على سبعة آلاف دينار فى كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لايمنعهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم . وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم إليهم . ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم . وليس لذلك معنى سوى أن قبرس صارت بذلك محطة حربية ومستودعاً للمسلمين فى البحر الأبيض المتوسط ونقطة اتصال بين أهل الشام وبين أساطيلهم التى ابتدأت تمخر فى ذلك البحر

(١) الجزيرة التى يسمع ذلك منها إنما هى جزيرة ادواد .

وتلجأ إلى تلك الجزيرة عند الحاجة . وكان الفتح سنة ٢٨ وحضره من أصحاب رسول الله جماعة منهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت سلمان . ومن هذا التاريخ صارت دولة الإسلام دولة بحرية كما هى دولة برية وذلك أمر طبيعى لمملكة أحرزت من الشواطىء الواسعة ما أحرزت دولة الخلافة . فإنه قد صار لها شواطىء سورية ومصر وبرقة إلى إفريقية (تونس) فى هذا الزمن القليل . وهذه الشواطىء تحتاج إلى الحماية من غارات الأعداء من الرومان وهم أمة عريقة فى البحرية وقيادة الأساطيل .

وقد كان أمير البحر الذى قاد الأساطيل لمعاوية عبد الله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة فى البحر . ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب . وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فى جنده وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم وقد أجاب الله تعالى دعوته فى جنده دونه .

وقد طار لعبد الله بن قيس ذكر فى سواحل الروم وشواطىء البحر الأبيض المتوسط واشتهر شهرة عظيمة جداً — حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج فى قارب طليعة فانتهى إلى المرقى من أرض الروم وعليه سؤال يعترون بذلك المكان فتصدق عليهم . وكان معطاءاً كريماً فنم عليه جود كفه — فإن امرأة من السؤال رجعت إلى بيتها وقالت للرجال : هل لكم فى عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : فى المرقى . قالوا : أى عدوة الله ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبختهم وأعلمتهم أنها سألته فأعطاها عطاء ملك ولم يكن عطاء تاجر . فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه ، فجاؤا حتى أرقوا والخليفة منهم عن قيس سفيان بن عوف الأزدى فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يبعث بأصحابه ويشتمهم فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ، ما هكذا كان يقول حين يقاتل . فقال سفيان وكيف كان يقول ؟ قالت : الغمرات ثم ينجلينا ، فترك ما كان يقول إلى ما قالت ، وأصيب فى المسلمين ناس يومئذ .

وقد ذكر سيديو فى تاريخه أن معاوية فتح سنة ٢٩ هـ جزيرة إقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ، ولم يقل بذلك مؤرخو العرب والظاهر أن هذه الجزر فتحها معاوية فى خلافته أيام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لأسطولها العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتى خبر ذلك كله فى سيرة معاوية اهـ ، من أشهر مشاهير الإسلام .

مقتل يزدجرد

من الأحداث فى عهد عثمان مقتل يزدجرد وانتهاء الملك فى فارس .

اضطربت كلمة المؤرخين فى مقتل يزدجرد ملك الفرس ورويت فى ذلك روايات عديدة رواها الطبرى وتابعه عليها ابن الأثير . أقربها أن يزجرد عزم على قصد خراسان ليجمع الجموع ويسير بهم إلى العرب فسار إلى مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين ومعه فرخزاد أخو رستم . فلما اعتزم القدوم إلى مرو كاتب ملك الصين وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم .

وكان الدهقان بمرو ماهويه أبو براز وقد جعل ماهويه ابنه محافظاً للمدينة وقد أراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه إلى ابن أخيه سنجان وشعر بذلك ماهويه فأسرّ إلى ابنه بمنع يزدجرد عن دخول مرو وأخذ ماهويه فى العمل على إهلاك يزدجرد فكتب إلى نيزك طرخان من ملوك الترك يدعوه إلى الاتفاق على قتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه ويضمن له ألف درهم فى كل يوم إن أعانه على ما طلب . فأجاب نيزك إلى ذلك وكاتب يزدجرد يبذل له المعونة والنصرة إذا نحى عنه فرخراد وجنده . واستشار يزدجرد أصحابه فكل أشار برأى فتنحى عنه فرخزاد وجنده وجاء نيزك فى جند واستقبل الملك

ماشياً فأمر له بفرس ودخل عسكر نيزك فى موكب حافل تعزف فيه الموسيقى . فلما توسط الملك عسكر نيزك قال له فيما يحدثه : زوجنى إحدى بناتك حتى أناصحك فى قتال عدوك . فغضب منه يزدجرد وسبه . فعلاه نيزك بمقرعة ففر منه وقتل أصحاب نيزك أصحاب يزدجرد وانتهى الفرار بالملك إلى بيت طحان أو صانع أرحاء على نهر المرغاب (نهر الطير) فمكث عنده ثلاثة أيام لا يأكل والطحان أو صانع الأرحاء لا يعلم من أمره شيئاً . فقال له : أخرج أيها الشقى فكل طعاماً فقد جعت . فقال : إنى لا أصل إلى ذلك إلا بزمزمة وهى أدعية وصلوات يقوم رجال الدين من المجوس بتلاوتها على الطعام قبل الأكل فأحضر له رجلا فزمزم له ، وأكل . فلما رجع المزمزم سمع الناس يتحدثون بهرب يزدجرد واختفائه فسأل عن حليته فوصف له فأخبر الناس بمكانه وانتهى الخبر إلى ماهويه أبو براز فأرسل أحد الأساورة ليقتله . فأنكر الطحان أن يكون عنده . وقال رجل : إنى أشم هاهنا ريح المسك ودخلوا بيت الطحان فإذا يزدجرد قد نزل فى النهر فجروا طرف ثوبه فأخرجوه . فأراد أن يفتدى من قاتله بخاتمه ومنطقته وفيهما غنى الدهر لمن أخذهما فلم يقبل وطلب منه أربعة دراهم على أن يتركه فلم يجدها فطلب أن يذهب به إلى الدهقان أو إلى العرب فإنهم يستبقونه فلم يقبل منه وقتله وألقاه فى المرغاب .

ويقول سيديو فى تاريخه : إن ملك الصين المسمى تاى تسُنغْ أمد يزدجرد بالجنود وأنه هو الذى سلط عليه من قتله على شاطىء المرغاب . وانقضت بقتله الدولة الساسانية التى استمرت زاهية وأعلامها خافقة على تلك الممالك نحو تسع وعشرين وثلاثمائة سنة . وقال ابن الأثير : وسمع بقتله مطران كان بمرو فجمع النصارى وبنوا له ناووساً وأخرجوه من الماء وكفنوه . وكان ملكه عشرين سنة : منها أربع سنين فى دعة وست عشرة سنة فى تعب من

محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه ، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك ، وصفا الملك بعده للعرب وذلك سنة إحدى وثلاثين ﻫ .

اجتماع أعمال سورية كلها لمعاوية

كان معاوية بن أبى سفيان عاملا على الأردن فى عهد عمر بن الخطاب وكان أخوه يزيد بن أبى سفيان أميراً على دمشق فلما مات نعاه عمر إلى أبى سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين ؟ قال . معاوية . فقال : وصلتك رحم . ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردن .

وقد كان عياض بن غنم خال أبى عبيدة بن الجراح ومن أبناء عمومته وكان فى عهد عمر بن الخطاب قد ولى عملا بالجزيرة وكان شجاعا وقائداً بارعا . فبلغ عمر عنه إتلاف للمال فأحضره عمر وألبسه جبة صوف وأعطاه عصى وجاءه بصرمة من الغنم وقال له : ارع فإن أباك كان راعياً . وبعد مدة صرفه إلى الشام فلحق بأبى عبيدة وكان جواداً كريماً مشهوراً لا يليق شيئاً ولا يمنع أحداً سأله معروفاً . فلما حضر أبو عبيدة استخلف عياضاً على عمله فأقره عمر . وكلم عمر فى ذلك وقيل له عزلت خالداً أو عبت عليه العطاء . وعياض أجود العرب وأعطاهم لا يمنع شيئاً يسأله . فقال عمر عياض فى ماله حتى يخلص إلى مالنا وإنى مع ذلك لم أكن مغيراً أمراً قضاه أبو عبيدة . ومات عياض بعد ذلك . فولى عمر مكانه على حمص سعيد بن جذيم الجمحى ثم مات فولى مكانه عمير بن سعد الأنصارى وتوفى عمر وهو على حمص ثم إن عمير بن سعد مرض مرضاً شديداً وأضنى فاستعفى عثمان واستأذنه فى الرجوع إلى أهله فأذن له ، وضم عمله إلى معاوية فكان له حمص ويتبعها قنسرين ودمشق والأردن .

وكان عبد الرحمن بن علقمة بن مجزز الكنانى على فلسطين . فلما مات فى أيام عثمان ضمت فلسطين إلى معاوية وبذلك اجتمعت له كل ولايات سورية وكان معها جزء من الجزيرة .

الفرقة العربية وأسبابها ونتائجها

لا بد لمن يريد أن يتكلم على الأمور التى كانت سبباً لتفريق وحدة المسلمين وتشعب آرائهم فى السياسة ، ولم تقتصر على ذلك حتى أنبتت لهم شعباً فى الدين ومزقتهم كل ممزق . أقول : لا بد لمن يريد ذلك من السير بالأمور من مبدئها والإتيان عليها واحدة واحدة . وأن يبدأ ذلك بأحوال المسلمين فى أمصارهم ومنشأ ما كان بينهم وبين ولاتهم وما لهجوا به فى حقهم وما عابوه عليهم ليكون ملماً بالأحوال بدأ ونهاية — هذا وقد أسهب المؤرخون وأصحاب السير والأخبار فى أسباب الفتن والفرقة إسهاباً كثيراً . وقد جاء الطبرى بالكثير من ذلك فى أخبار مفرقة . ونسق العلامة بن خلدون أحوال الأمصار وأسباب الفتنة ومبادئها نسقاً بديعاً فى تاريخه وألم بشيء من ذلك فى الجزء الأول . وقد حذا حذوه الأستاذ الخضرى وجاء فى محاضراته من ذلك بالكثير الطيب . وكذلك صاحب أشهر مشاهير الإسلام فقد جمع فى هذا الباب شيئاً كثيراً وأبدى آراء سديدة . وقد جاء ابن الأثير فى هذا الباب أيضاً بشيء كثير . وهذه الكتب التى اخترتها مادة لما أورده فى هذا الباب وعمدة أرجع إليها وأنقل عنها مع ما يبدو لى من التعديل أو التحوير أو الزيادة أو نحو ذلك والله المستعان .

هل كان عثمان مسيئاً إلى الناس أو نقص عنهم الرزق فى عهده ؟

روى الطبرى عن الحسن البصرى قال : كان عمر بن الخطاب قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل . فشكوه . فبلغه . فقال : « ألا إنى قد سَنَنْتُ الإسلام سنّ البعير يبدأ فيكون جَذَعا ثم

ثنيًا ثم رُبَاعِيًا ثم سَدِيساً ثم بازلاً . ألا فهل يُنْتَظَر بالبازل إلا النقصان . ألا وإن الإسلام قـــد بَزَلَ . ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حي فلا . إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلى النار » . فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر . فانساحوا فى البلاد . فلما رأوها ورأوا الدنيا ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام فكان مغموما فى الناس وصاروا أوزاعا إليهم وأمّلوهم وتقدموا فى ذلك . فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم ، وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم . فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة .

وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم فى المدينة فامتنع عليهم وقال : إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد . فإن الرجل ليستأذنه فى الغزو — وهو ممن حبس من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة — فيقول قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك . فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر — وروى الطبرى بسنده قال : لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار وانقطع إليهم الناس .

والمطلع على ما تقدم يرى أن رأى عمر فى الحجر على قريش أوثق من رأى عثمان فى إرخاء الحبل لهم . ذلك أن قريشا (كما قال الأستاذ الخضرى) كانت بحسب القاعدة التى كانت متبعة كأعضاء الأسرة التى لها الأمر . كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم وهم مع ذلك متباعدو العشائر . ومحيط المدينة ضيق عن تدبير ما يمكن أن يختلج فى النفوس من الشغب على الخليفة . أو ما يمكن أن يأتيه آت لإفساد ذات البين .

وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : أجمع الرواة وأهل الإخبار على أن عثمان قضى الشهر الأكبر من خلافته وهو أحب إلى الناس من عمر لشدته ورأفة عثمان ولينه . وإقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم فى المعيشة وامتلاء أيديهم من المغانم . لكن غلب عليه بنو أمية فى أواخر مدته . فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالأموال الكثيرة فانحرفت عنه من أجل ذلك القلوب ونظرت إليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الأمصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس فى غمار فتنة عمياء كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوة والأثرة على الملك إلى اليوم .

أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال : أدركت عثمان — على مانقموا عليه — قل مايأتى على الناس يوم إلا ويقسمون فيه خيراً ، فيقال لهم : يامعشر المسلمين أغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال : أغدوا على أرزاقكم فيأخذوها وافرة . ثم يقال على السمن والعسل . الأعطيات جارية والأرزاق دارة والعدو منفى وذات البين حسن والخير كثير : ومامؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان : ألفته ونصيحته ومودته . قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة فإذا كانت أن تصبروا . قال رسول الله لأسيد بن حضير « ستلقون بعدى أثره ، قال فما تأمرنا ؟ قال تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » قال الحسن : لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بأمر الله ورسوله لو سعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير . قالوا لا والله مانصابرها فوالله ماردوا ولا سلموا . والأخرى كان السيف مغمداً عن أهل الأسلام ، ماعلى الأرض مؤمن يخاف أن يسل عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم ، فوالله مازال مسلولا إلى يوم القيامة اهـ

لم يكن عثمان بالذى ينتهى عند حد الإذن لقريش بالانسياح فى البلاد بعد الحجر الذى ضربه عليهم عمر ، بل ساعدهم على ذلك حاسبا أنه يقمع بهم الفتنة

ويخمد بهم نار الفرقة إذا شبت ويثبت بهم أركان الدولة فكانوا أول جان عليه اجتهاده، ذلك أنه فى سنة ثلاثين أنبأه سعيد بن العاص بأحوال الكوفة ومايشيمه فى أهلها من بوارق الفتن واستعدادهم للشر، فكان فيما قاله عثمان لأهل المدينة أن الناس يتمخضون بالفتنة وإنى والله لأتخلصن لكم الذى لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك. فهل ترونه؟ حتى يأتى من شهد مع أهل العراق الفتوح فيقيم معه فى قلاده: فقام اولئك وقالوا: كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين ياأمير المؤمنين؟ فقال: نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز. ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن فى حسابهم. فاغتنم بعض قريش ذلك وتأثلوا العقار والمزدرعات وبادلوا من لم يهاجر على سهمانهم بالعراق بما لهم بالحجاز.

ومن ذلك أن طلحة بن عبيد الله جمع ماله من سهمان خيبر وغير ذلك مما له بالحجاز واشترى به من نصيب من شهد القادسية والمدائن ولم يهاجر إلى العراق النشاسنج. واشترى مروان بما كان أعطاه عثمان نهر مروان وهو يومئذ أجمة، واشترى رجال من القبائل بالعراق بأموالهم التى لهم بجزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف، فهذا سبب أيضا من الأسباب التى وجد بها رجال قريش سبيلا للوجود فى الأمصار. روى الطبرى بسنده قال: اشترى هذا الضرب رجال من كل قبيلة ممن كان له هناك شىء فأراد أن يستبدل به فيما يليه، فأخذوا وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

إلا أن الذين لاسابقة لهم ولا قُدمة لايبلغون مبلغ أهل السابقة والقُدْمة فى المجالس والرياسة والحظوة ثم كانوا يعيبون التفضيل ويجعلونه جفوة وهم فى ذلك يختفون به ولايكادون يظهرونه لأنه لاحجة لهم والناس عليهم فإذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابى أو محرر استحلى كلامهم، فكانوا فى زيادة وكان الناس فى نقصان حتى بلغ الشر

كان المسلمون فى أيام عمر لا يعرفون للشقاق معنى ، ولا يختلفون فيما بينهم على شيء لفقدان الدواعى إلى ذلك ، وأكبر دواعى نزوع العرب إلى الشر اختلاف رؤسائهم وتنازع كبرائهم ، ثم لا توجد يد قوية شديدة البطش تقف بالمتنازعين عند الحد الذى لا ينبغى أن يتجاوزوه . وقد كان عمر ذلك الخليفة الحازم ، لا تفزعه الأهوال ، ولا تتكاءده الكوارث ولا يهاب عظيما لعظمته . ولا يحجم عن اجتثاث الفتنة من أصولها ويضرب على يد النازع إليها ولو كان آثر الناس لديه وأكرمهم عليه . فكانت روحه تخيف الرؤساء وذوى المطامع . فلا يجد أحد منهم سبيلا إلى نزاع أو شر — هذا إلى ما وقر فى أنفس القوم من الألفة التى عقدها الإسلام بينهم وانشغال أكثر الناس بالجهاد والفتح الذى تتوالى أخباره . ومعلوم أن مسائل الحرب تصرف أفكار الناس إلى التحدث بها والنظر فى نتائجها وعواقبها . إلى ما يتبع ذلك من بسالة الجند وبراعة القواد . وبخاصة إذا كان الجيش منتصراً ظافراً . فإن تلك الأحوال تميت الشقاق ولا تحييه . ولو كان عثمان من ذوى السياسة العالية لرمى بالجنود وكثيرى الكلام فى حرب ضروس يوجه بهم إليها ، ويشغلهم بأنفسهم عنه .

وقد قال العلامة ابن خلدون : لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم . وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلا منهم . وكانت لهم فى الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحى وتنزل الملائكة

فلما انحصر ذلك العباب وتنوسى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار وقريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه . ووافق ذلك أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن فى ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطوات والاستبطاء عليهم فى الطاعات والتجنى بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون فى النكير على عثمان وفشت المقالة فى ذلك فى أتباعهم وتنادوا بالظلم من الأمراء فى جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا وأفاضوا فى عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر فلم يجدوا أثراً لظلم ولا ظلا لعسف أو جور .

قد آن لنا أن نلم بأحوال المسلمين فى الأمصار وما كان يعمل فيهم من العوامل التى أدت إلى إشعال نار الفتنة وتأريث جاحمها حتى تأججت وأكلت كل أخضر ويابس وأعيا إطفاؤها ونتج عنها أشأم ثورة ثارت فى الإسلام والمسلمون يجنون منها اليوم شر ما يجنى ويقاسون أشد ألم من جرائها .

الكوفة

إن الكوفة أول مصر نزغ الشيطان بين أهله فى الإسلام . وكان بدء ذلك أن سعد بن أبى وقاص كان أمير الكوفة فى خلافة عثمان بوصية من عمر وكان عبد الله بن مسعود أمين بيت المال فاستقرض سعد من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا . فلما جاء الأجل أتى ابن مسعود إلى سعد وقال له : أد المال الذى قبلك . فقال له سعد : ما أراك إلا ستلقى شرا هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل ؟ فقال : أجل ، والله إنى لابن مسعود وإنك لابن حمينة فقال هاشم بن عتبة بن أبى وقاص : أجل ، والله إنكما لصاحبا رسول الله

صلى الله عليه وسلم يُنْظَرُ إليكما . فطرح سعد عوداً كان فى يده — وكان رجلا فيه حدة — ورفع يده وقال : اللهم رب السموات والأرض . فقال عبد الله ويلك قل خيراً ولا تلعن . فقال سعد : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لاتخطئك . فولى عبد الله سريعاً حتى خرج . ولم يتيسر لسعد الإسراع بأداء المال فاستعان عبد الله بأناس على استخراج المال من سعد واستعان سعد بأناس على استنظاره . وافترقوا وبعضهم يلوم سعداً وبعضهم يلوم عبدالله ووصل الخبر بذلك إلى عثمان فغضب عليهما وهم بهما ثم ترك ذلك . وعزل سعداً وأخذ ماعليه وأقر عبد الله بن مسعود وتقدم إليه فى ذلك .

ولما عزل عثمان سعدا ولى الوليد بن عقبة الكوفة — وكان قبل ذلك عاملا على الجزيرة من عهد عمر — فلما قدم الوليد كان أحب الناس فى الناس وأرفقهم بهم . فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب .

حدث فى أثناء ولاية الوليد أن شباباً من شباب الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعى داره وكاثروه ونذر بهم فخرج إليهم بسيفه فلما رأى كثرتهم استصرخ وكان أبو شريح الخزاعى جاراً له وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل أهله من المدينة إلى الكوفة ليكون قريباً من الغزو. فلما سمع استصراخ ابن الحيسمان أطل هو وابنه فإذا هو بأولئك الشباب يقولون لجاره لا تصح فإنما هى ضربة حتى نريحك وضربوه فقتلوه وأبو شريح يصيح بهم وأحاط الناس بهم فأخذوهم وفيهم زهير بن جندب الأزدى ومورع ابن أبى مورع الأسدى وشبيل بن أبى الأزدى فى عدة فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه فقتله بعضهم . فكتب الوليد إلى عثمان فيهم وارتحل إليه أبو شريح ونقل أهله إلى المدينة ولهذا الحديث لما كثر أحدثت القسامة وأخذ بقول ولى المقتول ليفطم الناس عن القتل عن ملأ من الناس يومئذ وقال عثمان القسامة على المدعى عليه وعلى أوليائه يقسم منهم خمسون رجلا إذا لم تكن بينة فإن نقصت قسامتهم أو إن نكل منهم رجل واحد ردت قسامتهم ووليها

المدعون فإن حلف منهم خمسون استحقوا وقد ثبت القتل على هؤلاء النفر . فكتب فيهم الوليد إلى عثمان فكتب إليه فى قتلهم فقتلوا على باب القصر فى الرحبة — وقد قال فى ذلك عمرو بن عاصم التميمى :

لا تأكلوا أبدا جيرانكم سرفا أهل الدعارة فى ملك ابن عفان
وقال : إن ابن عفان الذى جربتموا فطم اللصوص بحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً فى كل عنق منهم وبنـــان

ولما قتل هؤلاء الرهط قصاصا بمن قتلوا اضطغن آباؤهم على الوليد لذلك وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به — وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم أبوزبيد الطائى كان رجلا نصرانياً معروفاً بشرب الخمر . قد عرفه الوليد أيام نصرانيته وكان مقامه فى تغلب أخواله أيام كان الوليد أميرا عليهم بالجزيرة وكان يغشى الوليد بالجزيرة أيام كان فيها وبالمدينة إذ كان بها . فلما جاء الوليد الكوفة قدم عليه أبو زبيد وكان للوليد عنده يد حين أسلم إذ اضطهده أخواله كراهة لدخوله فى الإسلام فأخذ له الوليد بحقه فشكرها له أبو زبيد وانقطع إليه وجاء إليه الكوفة مسلماً معطها على مثل ماكان يأتيه بالجزيرة والمدينة وقد حسن إسلامه فاستدخله الوليد وكان عربيا شاعراً . فأتى آت أبا زينب وأبا مورع وجندبا وهم يحقدون عليه مذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون . فقال هل لكم فى الوليد يشارب أبا زبيد ؟ فثاروا فى ذلك وقالوا لأناس من أهل الكوفة هذا أميركم وأبو بكر زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم إلى منزل الوليد وليس عليه باب واقتحموا عليه فلم يفجأ إلا بهم فنحى شيئا فأدخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه لايؤامره فإذا طبق عليه تفاريق عنب وإنما نحاه استحياء من أن يرى طبقه وليس عليه إلا تفاريق عنب وأقبل الناس على المرجفين بسيوفهم ويلعنونهم : وأقبل آخرون يقولون فيه . فدعاهم ذلك إلى التجسس والبحث .

ستر عليهم الوليد وطوى ذلك عن عثمان ولم يشأ أن يدخل بين الناس فى ذلك

بشيء فسكت وصبر . وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا: الوليد يعتكف على شرب الخمر . فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ونمى كلامه إلى الوليد فعاتبه : وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت على ؟ أى شيء أستتر به ؟ إنما يقال هذا للمريب . فتلاحيا وافترقا على تغاضب . وأذاع المرجفون بعكوفه على الخمر وطرحوه على ألسنة الناس .

وقد أتى الوليد بساحر وهو على الكوفة . فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حده فقال : وما يدريكم أنه ساحر ؟ قالوا يزعم ذاك . قال أساحر أنت ؟ قال : نعم قال وتدرى ما السحر ؟ قال نعم وثار إلى حمار لجعل يركبه من قبل ذنبه ويريهم أنه يدخل من فمه ويخرج من أسته ويدخل من أسته ويخرج من فمه . فقال ابن مسعود فاقتله . فانطلق الوليد ، فنادوا فى المسجد أن رجلا يلعب السحر عند الوليد .

فجاء جندب — واغتنمها — يقول أين هو حتى أريه فضربه فقتله ، فاجتمع عبد الله والوليد على حبسه وكان جندب يعتذر بأنه ما كان يعلم أن الوليد سيقيم الحد على ذلك الساحر وأنه ظن أنه عطل حده فأراد أن يستوفيه . وكتب الوليد إلى عثمان فأجاب : أن استحلفوه بالله ما علم برأيكم فيه وأنه لصادق فيما ظن من تعطيل حده وعزروه وخلوا سبيله . وتقدم إلى الناس فى أن لا يعملوا بالظنون وأن لا يقيموا الحدود دون السلطان وإنا نقيد المخطىء ونؤدب المصيب .

فعل به الوليد ما أمر به عثمان ، وغضب لجندب أصحابه ، واتفقوا فيما بينهم على الكيد للوليد بالذهاب إلى المدينة وشكوى الوليد إلى الخليفة واستعفائه منه . لجاءوا عثمان فقال لهم تعملون بالظنون وتخطئون فى الإسلام وتخرجون بغير إذن ، ارجعوا . فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبق موتور فى نفسه إلا أتاهم ، فاجتمعوا على رأى فأصدروه ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الأزدى وأبو مورع الأسدى وبقيا معه إلى أن نام فسلا خاتمه من أصبعه وهو نائم . فلما لم يجد خاتمه بعد أن استيقظ. سأل جاريتين له فقالتا

جاءك رجلان وأحدهما كانت يده على يدك ثم حلتاهما له فعرف أنهما أبوزينب وأبومورع وقال : قد أرادا داهية فليت شعرى ماذا يريدان وطلبهما فلم يجدهما . وكان وجههما المدينة فقدما على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال فقال من يشهد قالوا أبو زينب وأبو مورع . وكاع الآخران فقال كيف رأيتماه ؟ قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر . وفى رواية اعتصرناها من لحيته وهو يقيئها . فقال : ما يقىء الخمر إلا شاربها . فبعث إليه فلما قدم الوليد رآهما عند عثمان فقال :

ما إن خشيت على أمر خلوت به   فلمْ أخفك على أمثالها حارِ

وحلف الوليد وأخبره خبرهم فقال عثمان نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخى . وأمر سعيد بن العاص فجلده أربعين فأورث ذلك عداوة بين ولديهما والصحيح أن الذى جلده عبد الله بن جعفر إذ أبى الحسن أن يتولى ذلك . وعزله عثمان عن الكوفة — وقد كان الوليد مظفراً فى الغزو ما قصر فيه ولا انتقض عليه أحد حتى عزل وكان مما زاده عثمان بن عفان على يده أيام ولايته على الكوفة أن رد على كل مملوك بها مبلغاً يستعينون به من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم . وأورد الطبرى أن الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك كانت تسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن :

يا ويلنا قد عزل الوليد   وجاءنا مجوعا سعيد

ينقص فى الصاع ولا يزيد   فجوع الأماء والعبيد

وقال بعض شعراء الكوفة :

فررت من الوليد إلى سعيد   كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا

بلينا من قريش كل يوم   أمير محدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشى   وليس لهم فلا يخشون نار

ولى عثمان بعد الوليد سعيد بن العاص وكان بقية العاص بن أمية وكان

أهله كثيراً تتابعوا وكان يتيما نشأ فى حجر عثمان فلما فتحت الشام قدمها على معاوية فسأل عنه عمر فيما يتفقد من أمور الناس . فقالوا : يا أمير المؤمنين هو بدمشق عهد العاهد به وهو مأموم بالموت . فأرسل إلى معاوية : أن ابعث إلى سعيد بن العاص فى منقل فبعث به إليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى عوفى من مرضه . فقال له عمر : يا ابن أخى قد بلغنى عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك الله خيراً . ثم قال له : هل لك زوجة ؟ قال لا . فقال لعثمان : يا أبا عمرو ما منعك من هذا الغلام أن تزوجه ؟ قال : قد عرضت عليه فأبى . وبعد ذلك خرج عمر يسير فى البر فانتهى إلى ماء فلقى عليه أربع نسوة . فقمن له فقال : ما لكن وما أنتن ؟ فقلن بنات سفيان بن عويف . وقالت أمهن : هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء فضعهن فى أكفائهن . فزوج سعيد بن العاص إحداهن وعبد الرحمن بن عوف الأخرى والوليد بن عقبة الثالثة ، ثم أتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلى فقلن هلك رجالنا وبقى الصبيان فضعنا فى أكفائنا فزوج سعيد بن العاص إحداهن وجبير بن مطعم الأخرى وقد كان عمومته ذوى بلاء فى الإسلام وسابقة حسنة وقُدْمَةٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس .

قدم سعيد أميراً على الكوفة . ومعه أولئك النفر الذين كادوا للوليد . ومنهم مالك المعروف بالأشتر النخعى . وأبو خُشّة الغفارى وجُنْدب بن عبد الله وأبو مصعب بن جثامة . فصعد سعيد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكنى لم أجد بدأ إذا أُمِرْتُ أن آتمر . ألا إن الفتنة قد أطْلَعَتْ خطمها وعينيها ووالله لأضربن وجهها أو تعيننى ، وإنى لرائد لنفسى اليوم — ونزل . وسأل عن أهل الكوفة ، وأقيم على حالها وما عليه أهلها . فكتب إلى عثمان بالذى انتهى إليه : إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمَةِ — والغالب على البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى

شرف وبلاء من نازلتها ولا نابتتها . فكتب إليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعا بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل . فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل أيام القادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبىء عن الجسد . فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة . وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين فى سمره . فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار . فانقطع إلى ذلك الضرب حزبهم وفشت القالة والإذاعة . وذلك أمر طبعى . لأن أولئك الشاغبين الذين أزالوا سلطان الوليد كانوا يرون أقل جزاء لهم من سعيد أن يشركهم فى سلطانه ولا يصدر إلا بإذنهم ولا يورد إلا عن رأيهم . فلما فاتهم ما أملوا فى سلطانه عادوا سيرتهم الأولى .

كتب سعيد إلى عثمان بأمرهم . فلما وصل إليه كتابه نادى مناديه : الصلاة جامعة . فاجتمعوا فأخبرهم بالذى بلغه سعيد من أول ولايته وبما كتب به إليه وبما جاءه من القالة والإذاعة . فقالوا أصبت فلا تسعفهم فى ذلك ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل . فإنه إذا نهض فى الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها . وقد أشار عثمان على من بالمدينة أن يستبدلوا بأموالهم فى الحجاز وجزيرة العرب أموالا بنواحى الكوفة وفارس على النحو الذى أوردنا . وقصده من ذلك أن يوجد فى هذه الأمصار قوما من أهل السابقة والفضل ليكونوا سادتهم وقادتهم وتنقطع أطماع غيرهم فى السياسة والرياسة . فلم يجد ذلك نفعا . بل زاد الأمر ونما غرس الفساد .

كان سعيد بن العاص لا يغشاه إلا نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسية والقراء والمتسمتون . وكان هؤلاء دخلته إذا خلا فإذا جلس مجلسا عاماً دخل عليه كل أحد . فجلس للناس يوما ، فبينما هم جلوس يتحدثون قال حبيش الأسدى : ما أجود طلحة بن عبيد الله . فقال سعيد : إن من له مثل

التشاسنح لحقيق أن يكون جواداً ، والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً ، فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث : والله لوددت أن هذا الملطاط لك — يعنى ما كان لآل كسرى على الفرات الذى يلى الكوفة — قالوا : فض الله فاك والله لقد هممنا بك ، فقال : أبوه حبيش : غلام فلا تجاوزه . فقالوا يتمنى له من سوادنا ؟ فقال . ويتمنى لكم أضعافه . فقالوا : لا يتمنى لنا ولا له فقال ما هذا بكم ! فقالوا أنت والله أمرته بها وثار إليه الأشتر وابن ذى الحنكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابىء فأخذوه وهب أبوه ليمنعه منهم فضربوهما حتى غشى عليهما وجعل سعيد يناشدهم وهم لا يلتفتون إليه حتى اشتفوا منهما . وسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا وفيهم طلحة فأحاطوا بالقصر وكثرت القبائل . ففزع الضاربون إلى سعيد وقالوا أفلتنا وتخلصنا ، فخرج سعيد إلى الناس ، فقال : أيها الناس قوم تنازعوا وتهاووا وقد رزق الله العافية ثم قعدوا وعادوا فى حديثهم وتراجعوا وسألهم وردهم ولما أفاق الرجلان قال لهما : أبكما حياة ؟ قالا : قتلتنا غاشيتك ، وقال : لا يغشونى والله أبداً فاحفظا على ألسنتكما ولا تجرئا على الناس . ففعلا . وحفظ عن سعيد أنه قال : إنما هذا السواد بستان قريش ، وكان حاضراً مالك بن كعب الأرحبي والأسود ابن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان ومالك الأشتر وغيرهم فزادوا عليه وأساءوا إلى صاحب شرطته فمنعهم سعيد أن يسمروا عنده .

ولما انقطع رجاء أولئك النفر من غشيان مجلسة وقعدوا فى بيوتهم أقبلوا على الإذاعة وشتم عثمان وسعيد حتى لامه أهل الكوفة فى إرخاء الحبل لهم والسكوت عنهم على ما بهم من شر وكتب سعيد وأشرافهم إلى عثمان فى إخراجهم من الكوفة فكتب إليهم : إذا اجتمع ملأكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية . فأخرجوهم إليه فذلوا وانقادوا وخرجوا حتى أتوه . وقد كتب عثمان إلى معاوية . أن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة فرعهم وقم عليهم فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم وإن أعيوك فارددهم عليهم . فلما قدموا على معاويه رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم وأجرى

عليهم بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم بالعراق وجعل يتغذى معهم ويتعشى كذلك وطمع فى أن يكون إكرامه لهم قد أصلح من شأنهم . فقال لهم يوماً : إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم . وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشاً . وإن قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم . إن أئمتكم لكم اليوم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤنة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم . فقال رجل من القوم وهو صعصعة : أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها فى الجاهلية فتخوفنا أما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا . فقال معاوية عرفتكم . الآن علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلا أعظم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرنى الجاهلية وقد وعظتك وتزعم لما يجنيك أنه يخترق ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة أخزى الله أقواما أعظموا أمركم ورفعوا إلى خليفكم . افقهوا ولا أظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز فى جاهلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل ولم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ولكنهم كانوا أكرمهم أحسابا وأمحضهم أنسابا وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا فى الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضا إلا بالله الذى لا يستذل من أعز ولا يوضع من رفع فبوأهم حرما آمنا يتخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عربا أو عجما سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر فى بلده وحرمته بدولة إلا ما كان من قريش فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل حتى أراد الله أن يتنقذ من أكرم وتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير من خلقه ثم ارتضى له أصحابا فكان خيارهم قريشا ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا عليهم فكان الله يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم بالله فتراه لا يحوطهم

وهم على دينه وقد حاطهم فى الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم ؟ أف لك ولأصحابك . ولو أن متكلما غيرك تكلم ، ولكنك ابتدأت .

وأما أنت ياصعصعة فإن قريتك شر قرى عربية أنتنها نبتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً . لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سب بها وكانت عليه هجنة ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً وألأمه أصهاراً نزاع الأمم وأنتم جيران الخط وفعلة فارس . حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ونكبتك دعوته وأنت نزيع شطير فى عمان لم تسكن البحرين فتشركهم فى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأنت شر قومك حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التى كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجاً وتنزع إلى اللآمة والذلة ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولا يمنعهم من تأدية ماعليهم إن الشيطان عنكم غير غافل قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس وهو صارعكم . لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء قضاه الله ولا أمراً أراده الله ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى . ثم قام وتركهم .

سمع القوم قوله فتذمروا وتقاصرت إليهم نفوسهم . ثم جاءهم معاوية فقال : لاوالله لاينفع الله بكم أحداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة ولكنكم رجال نكير . وبعد فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليسعكم ماوسع الدهماء ولايبطرنكم الأنعام فإن البطر لايعترى الخيار اذهبوا حيث شئتم فإنى كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم .

ولما أرادوا الخروج دعاهم وقال لهم : إنى معيد عليكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولانى وأدخلنى فى أمره ثم استخلف أبو بكر فولانى ثم استخلف عمر فولانى ثم استخلف عثمان فولانى فلم أل لأحد منهم ولم يولنى إلا وهو راض عنى وإنما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها . وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به فلا تعرضوا

لأمور وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدى للناس سرائركم وقد قال عز وجل « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنوا وهم لا يفتنون » .

ثم كتب معاوية إلى عثمان يقول : إنه قدم على قوم ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل . لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فانهَ سعيدا ومن قِبَله عنهم فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير .

خرج بعد ذلك القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا إلى الكوفة فإنهم يشمتون بكم وميلوا بنا إلى الجزيرة ودعوا العراق والشام فأووا إلى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وكان على حمص فدعا بهم وقال يا ألة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلا . قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ نشاط . خسَّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم . يامعشر من لا أدرى أعرب أم عجم لا تقولوا لى مايبلغنى أنكم تقولون لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجمات . أنا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغنى ياصعصعة بن ذل أن أحداً ممن معى دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم . فإذا مر به قال يا ابن الحطيئة أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ؟ مالك لا تقول ما كان يبلغنى أنك تقول لسعيد ومعاوية ؟ فيقول ويقولون . نتوب إلى الله . أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم . وسرح الأشتر إلى عثمان بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه وقال لهم : ماشئتم فأخرجوا .

وجاء الأمر من عثمان بإعادتهم إلى الكوفة ولكنهم أشفقوا من ذلك فبقوا فى الجزيرة .

وفى تلك الأثناء فرق سعيد العمال والأمراء فيما يليه من فارس نخلت الكوفة من الرؤساء والأشراف وأهل السابقة . وكان سعيد قد خرج إلى

عثمان فلم يفجأ الناس إلا بهم قد عادوا إلى بغيهم وفسادهم . ولما أراد سعيد العودة إلى الكوفة تلقوه من الجرعة وردوه لا يريدون دخوله عليهم أميراً . فعاد إلى عثمان . فلم يغير من إرادة القوم وأرادوه على أن يولى عليهم أبا موسى الأشعرى فنزل عند مايريدون وولى عليهم أبا موسى وصرف سعيداً عنهم .

هكذا كانت الحال فى الكوفة : غلب فيها الغوغاء على أهل الحلم ، وضعف سلطان الأمراء ، وقلت الطاعة ولم يبق لها فى قلوب القوم من أثر .

البصرة

البصرة هى الحاضرة الثانية للعراق ولم تكن الحال فيها بأحسن من الحال فى الكوفة ، فقد أوردنا فيما سبق تجنيهم على أبى موسى وعيبهم له حتى عزل واستبدل به عبد الله بن عامر . فكان له فى أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من إمارته وقد بلغه أن فى عبد القيس رجلا نازلا على حُكيم بن جبلة وكان حكيم رجلا لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى فى أرض فارس فساداً ، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويعيث فى الأرض ويصيب ماشاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى عبد الله بن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشداً فكان لايستطيع أن يخرج عنها . فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يطرح للناس ولا يصرح ويلقى إليهم تعاليم خبيثة . وأصل هذا الرجل يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم : عجيب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد . فيقبل منه الناس ذلك لأنهم من الجهلة الذين لم يتحققوا بالدين ولم ينلهم تهذيب الصحبة ولم يروضوا أنفسهم على الاقتداء . ثم يقول لهم عجباً لكم أيها المسلمون ! يكون فيكم أهل بيت نبيكم يقصون عن أمركم ؟ إلى مايماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ما هو قريب من

ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته . فنمى إلى ابن عامر شيء من خبره . فأحضره وسأله من أنت ؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك . فقال مايبلغنى ذلك فاخرج عنى . فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى الشام ثم إلى مصر . وهناك وجد مهداً وطيئاً وجواً صالحاً وثرى ثرياً يجود فيه نبات بذره . بعد أن نفث مانفث بالعراق فنما زرعه وأينع .

كان حمران بن أبان تزوج امرأة فى عدتها فنكل به عثمان وفرق بينهما وسيره إلى البصرة فلزم عبد الله بن عامر فتذاكروا يوماً الركوب والمرور بعامر ابن عبد قيس وكان رجلا عابداً منقبضا عن الناس على جانب من الصلاح والخير . فقال حمران : ألا أسبقكم فأخبره ؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ فى المصحف ، فقال : الأمير أراد أن يمر بك فأحببت أن أخبرك ، فلم يقطع قراءته ولم يقبل عليه . فقام من عنده خارجا . فلما انتهى إلى الباب لقيه ابن عامر فقال : جئتك من عند امرىء لايرى لآل إبراهيم عليه فضلا . واستأذن ابن عامر فدخل عليه وجلس إليه فأطبق عامر المصحف وحدثه ساعة . فقال له ابن عامر : ألا تغشانا ؟ فقال : سعدُ بن أبى العوجاء يحب الشرف : فقال : ألانستعملك ؟ فقال : حصين ابن أبى الحر يحب العمل . فقال : ألا نزوجك ؟ فقال : ربيعة بن عِسْل يعجبه النساء . فقال ابن عامر : إن هذا يزعم أنك لاترى لآل إبراهيم عليك فضلا ؟ فصفح المصحف ، فكان أول ماوقع عليه وافتتح منه « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين »

فلما رُدَّ حمران إلى المدينة تتبع ذلك منه فسعى به وشهد له أقوام . فسيره عثمان إلى الشام ، وكان ما سعوا به عند عثمان أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة وكان مع عامر انقباض وكان عمله كله خفية . فلما قدم على معاوية وافقه وعنده ثريدة فأكل أكلا عربياً ، فعرف أن الرجل مكذوب عليه . فقال معاوية : يا هذا هل تدرى فيم أخرجت ؟ قال : لا . قال : أبلغ الخليفة أنك لا تأكل اللحم ورأيتك وعرفت أن قد كذب عليك ، وأنك

لاترى التزويج ، ولا تشهد الجمعة . قال : أما الجمعة فإنى أشهدها فى مؤخر المسجد ثم أرجع فى أوائل الناس ، وأما التزويج فإنى خرجت وأنا يخطب على . وأما اللحم فقد رأيتَ ولكننى كنت أمرأ لا آكل ذبائح القصابين منذ رأيت قصابا يجر شاة إلى مذبحها ثم وضع السكين على مذبحها فما زال يقول النـّفاق حتى وجبت . فقال : فارجع . فقال : لا أرجع إلى بلد استحل أهله منى ما استحلوا ، ولكنى أقيم بهذا البلد الذى اختاره الله لى .

مصر

أما الأمر فى مصر فكان أشد منه فى العراق . فإن عبد الله بن سبأ لما جاء إليها ألقى بذور فتنته وأذاع بين الناس تعاليمه ، بعد أن استفسد كثيراً من أهل البصرة والكوفة ، وخاب أمله من أهل الشام ، فكان يقول لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع والله تعالى يقول : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبل ذلك عنه وبذلك وضع لهم الرجعة فتكلموا فيها بالأخذ والرد طبعاً . ثم قال لهم بعد ذلك أنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى وكان على وصىّ محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر الأمة ؟ ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا وصى رسول الله ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر . فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه . ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم . وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر ما يصنعون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون . فيقول أهل كل مصر

إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفى عافية مما فيه الناس .

المدينة مجتمع المهاجرين والأنصار ومركز الخلافة ، ووجوه أهل الأمصار إنما تتجه بالشكاية فى المهمات إليها ويعولون على أهلها فى إزاحة ما بهم من غمة وتفريج ما لحقهم من كرب ، وأهل المدينة يحسون بذلك من أنفسهم ومن أهل الأمصار . فلا غرو أن حرك ذلك من نفوسهم ودفعهم ذلك إلى مخاطبة أمير المؤمنين عثمان بما دخل على الناس من عماله مما شرحته الشكوى من كل ناحية وصوب — فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس ما يأتينا ؟ قال : لا ، والله ما جاءنى إلا السلامة . فقالوا : إنا قد جاءنا كيت . وكيت وأخبروه بالذى أسقطوا إليهم . فقال : أنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على . فقال نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

رأى عثمان صواب ما أشاروا به . فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر وعبد الله ابن عمر إلى الشام وفرق رجالا سواهم فى جهات أخرى ، فذهب كل رجل لطيته ثم رجعوا جميعاً قبل عمار وقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم . وقالوا جميعاً : الأمر أمر المسلمين . إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم . واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل . فلم يفاجأهم إلا كتاب من عبد الله بن أبى سرح يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه . منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسُودان بن حمران وكنانة بن بشر وكان كنانة من المؤلبين على عثمان .

أقول : أما أشد المؤلبين على عثمان بمصر . فهما رجلان : أحدهما محمد بن أبى حذيفة ، وكان الذى أغراه بذلك أنه كان يتيماً فى حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم . فسأل محمد عثمان العمل حين ولى ، فقال : يا بنى لو كنتَ رضا ثم سألتنى العمل لأستعملتك ولكن لست هناك . قال فأذن لى

فلأخرج فلأطلب ما يقوتنى . قال اذهب حيث شئت . وجهزه من عنده وحمله وأعطاه . فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير على عثمان أن منعه الولاية . ولا يبعد أن يكون لتولية عبد الله بن عامر أثر فى زيادة حقده على عثمان وإيغاله فى بغضه والكيد له .

ثانيهما محمد بن أبى بكر — ومحمد بن أبى بكر من الإسلام بالمكان العظيم غير أنه قد غره أقوام فطمع وكانت له دالة بمكان أبيه من رسول الله وسابقته وخلافته وأخوة عائشة أم المؤمنين . فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع محمد بن أبى حذيفة إلى محمد بن أبى بكر وقد ألف بينهما بغض عثمان ومكن بينهما الصداقة .

وأول ما ظهر ذلك منهما حين ركب الناس البحر سنة ٣١ فى غزوة ذات الصوارى وسيأتى خبرها . إذ صلى عبد الله بن أبى سرح بالناس العصر ، فكبر محمد بن أبى حذيفة تكبيراً رفع صوته به حتى فرغ عبد الله بن سعد من صلاته فقال له : ما هذه البدعة والحدث ؟ فقال محمد بن أبى حذيفة : ما هذه بدعة ولا حدث وما بالتكبير بأس . فقال : لا تعودن . فلما صلى المغرب عاد فكبر بصوت أرفع . فارسل إليه : إنك لغلام أحمق ، أما والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوطك (يريد تقييده) . فقال محمد بن أبى حذيفة : والله مالك إلى ذلك سبيل ولو هممت به ما قدرت عليه . قال فكف خير لك . وركب محمد فى مركب ليس فيه معه مسلم وإنما فيه القبط وركب معه فيه محمد بن أبى بكر .

فلما أذن الله بهزيمة الروم ورجع المسلمون جعل محمد بن أبى حذيفة يقول للرجل أما والله لقد تركنا خلفنا جهادا . فيقول الرجل وأى جهاد ؟ فيقول : عثمان بن عفان فعل كذا وكذا . وأظهر هو ومحمد بن أبى بكر عيب عثمان وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر وإن دم عثمان حلال . ويقولان : استعمل عبد الله بن سعد رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما وأدخلهم .

ونزع أصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر — وكانا حين التقى الجمعان أنكل المسلمين فى القتال . فقيل لهما فى ذلك . فقالا كيف نقاتل مع رجل لا ينبغى لنا أن نحكمه ؟ عبد الله بن أبى سرح أستعمله عثمان وعثمان فعل وفعل . فأفسدا أهل الغزاة . وعلم بذلك عبد الله بن سعد فأرسل ينهاهما أشد النهى .

أما سبب ميل عمار بن ياسر إلى المؤلبين على عثمان والطاعنين فيه فإنه كانت عنده موجدة على عثمان . سببها أنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب كلام أدى إلى تقاذفهما . فضربهما عثمان على ذلك . وقليل من كان فى قلبه موجدة على إنسان ثم لا يصيخ إلى القول فيه والعيب له .

الشام

أما الحال فى الشام فقد كانت أحسن منها فى هذه الأمصار التى ذكرنا — ذلك أن معاوية من الحزم والضبط بالمكان الذى لا يجهل . ومثل بضاعة ابن السوداء لا تجد نفاقا تحت رعايته وإذا وجدت فإنه يعاجل الداء بحسمه .

كان بالشام حادثة استغلها الثوار المؤلبون فى التشنيع على عثمان والتاريث له ولعماله غير أن معاوية استأصل الداء من ناحيته ونحى عنه ما ابتلى به غيره من العمال . ولذلك بقى أهل ولاياته الوسعة على طاعته والولاء له ملقين إليه بالمقاليد يصرفهم كما يهوى وهم لا يخالفون عن أمره ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ولم تخبث نفوسهم بما خبثت نفوس الناس فى الأمصار .

ذلك أن ابن السوداء لما جاء إلى الشام وهو من الخبث والدهاء بحيث يعرف مأتى الأمور ويأتى إلى كل شىء من بابه ويفضى إلى كل رجل بما يغلب على ظنه أنه يوافقه . فهو إنما يجىء إلى الناس بدسائسه من الجانب الضعيف الذى يأنسه فيهم — ومعلوم أن أبا ذر رضى الله عنه كان رجلا صالحاً تقياً متقشفا لا يحب الإمساك ولا يميل إلى الادخار ذا شفقة على الفقير والمسكين . فجاء إليه ابن السوداء وقال له : يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال

مال الله — ألا إن كل شيء لله . كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين . فجاء أبو ذر إلى معاوية فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله ؟ والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله . قال : فإني لا أقول أنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين . وأتى ابن السوداء أبا الدرداء — فقال له : من أنت ؟ أظنك والله يهوديا — فأتى عبادة بن الصامت . فتعلق به وأتى معاوية . فقال :هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر . وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأجبوه على الأغنياء . وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس .

فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بى وقد كان من أمره كيت وكيت . فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق أن تثب فلا تنكأ القرح . وجهز أبا ذر إلى وابعث معه دليلا وزوده وارفق به وكفكف الناس نفسك ما استطعت . فإنما تمسك الأمر ما استمسكت فبعث بأبى ذر ومعه دليل . فلما قدم المدينة ورأى المجالس فى أصل سلع . قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار . ولما دخل على عثمان قال له: ياأبا ذر . ما لأهل الشام يشكون ذربك . فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله . ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا : فقال : يا أبا ذر ، على أن أقضى ما على . وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال أفتأذن لى فى الخروج . فإن المدينة ليست لى بدار قال أو تستبدل الأشرا منها ؟ قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا سلعا . قال فأنفذ ما أمرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الربذة فخط بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل . وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كل يوم عطاء وأرسل إليه أن تعاهد المدينه حتى لا ترتد أعرابيا — وذلك أنه كان الأمر

فى المسلمين على أن من سكن المدينة حرم التبدى لما فى ذلك من تقليل سواد المسلمين وهجر العلم بالدين والانغماس مع الأعراب الجفاة الغلاظ الأكباد مع بعدهم عن الدين ومذاهبه وجهلهم بحلاله وحرامه وقد مكث ذلك الأمر دهراً طويلا يرون ذلك . ولولا ما رواه أبو ذر من حديث رسول الله لم يرخص له عثمان فى ذلك .

وقد روى الطبرى سوى ماقدمنا أن أبا ذر كان يختلف إلى المدينة من الربذة مخافة الأعرابية وكان أبو ذر يحب الوحدة والخلوة . فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار . فقال لاترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغى للمؤدى الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات . فقال كعب الأحبار : من أدى الفريضة فقد قضى ماعليه ، فقال له أبو ذر : يابن اليهودية ما أنت وما هاهنا ؟ والله لتسمعن منى أو لأدخلن عليك . ورفع محجنه فضر به فشجه ، فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك .

إن الناظر إلى أبى ذر . وهو أول قائل بالاشتراكية فى الإسلام يراه قد أوغل فيها شوطاً بعيداً وانتظم مابين بابها ومحرابها فى خطوة واحدة . قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : على أن التوسط فى هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين فى المال المغالين فى حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا أعز الأمم جانبا وأسعدها حالا . إذ خلق التعاون على البر إذا نشأ بنشوء الأمة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة فى الصدر تنمو بنمو الحياة القومية اهـ .

والذى أراه أن أبا ذر عمد إلى طريقته الاشتراكية غير مبين حدودها ولا معالمها — وطريقة كهذه ربما كان إثمها أكبر من نفعها . لأن أصحاب الجد والعمل يسعون ويكدون ويتعبون أجسامهم وعقولهم ثم لاينالهم من عملهم إلا كما يناله الكسول المريح ، لايمكن أن يقبل هذا عاقل ولا يرتاح له نفس عمرانى .

وقد جاء فى شخوص أبى ذر من الشام إلى المدينة ثم إلى الربذة روايات

أضرب الطبرى وابن الأثير عن روايتها وسار على ذلك محققو المؤرخين علما منهم بضعف تلك الروايات — وقد توفى أبو ذر رضى الله عنه بالربذة سنة ٣٢هـ وكان قد أقام بها ثلاث سنين وقد حضر دفنه جماعة من أصحاب رسول الله فيهم ابن مسعود .

أما الحال فى المدينة فقد كانت أشد . فإن تلك الكتب التى كان يرسلها السبئيون كانت سبباً لكثرة الحديث فى شأن عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيهم الحاقد على عثمان لأسباب تخصه والكاره لمكانه . حتى كأن هذه الكتب كانت النار وافقت الحلفاء وقد بلغ الأمر ببعضهم أن واجه عثمان بما يسوءه فكان يتجاوز لهم عن ذلك ويصبر وسيمر بنا شىء من ذلك .

ابتداء العمل فى الفتنة

كان ماتقدم إذاعة باللسان وإشاعة للسوء بالمكاتبات بين الموتورين والساخطين والموضعين فى الفتنة ، فلما اختمرت فكرة الشغب فى النفوس بدأت تجهر بالعمل . وكان بدء ذلك أن سعيد بن العاص ذهب من الكوفة إلى المدينة وقد تسرب رؤساء الناس وأشرافهم فى بلاد فارس إلى أعمالهم وخلت الكوفة منهم فانتهز يزيد بن قيس ذلك وجاء المسجد وهو يريد خلع عثمان فانقض عليه القعقاع بن عمرو فأخذه ويزيد يقول : إنما نستعفى من سعيد ، فقال هذا مايعرض لكم فيه لاتجلس لهذا ولايجتمعن إليك واطلب حاجتك فلعمرى لتعطينها . فجلس فى بيته واستأجر رجلا وأعطاه بغلا وكتب إلى القوم الذين بالجزيرة — لاتضعوا كتابى من أيديكم حتى تجيئوا . فأبوا فى أول الأمر حتى خرج مالك ابن الحارث الأشتر عاصياً إلى الكوفة . فلما رأوا ذلك منه لحقوا به يريدون الكوفة فقدمها قبلهم ولم يشعر الناس إلا وهو على باب المسجد فى يوم جمعة يقول : أيها الناس إنى قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم ورد أهل البلاء منكم إلى ألفين ، ويقول مابال

أشراف النساء وهذه العلاوة بين هذين العدلين؟ ويزعم أن فيأكم بستان قريش . وقد سايرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقته يقول :

ويل لأشراف النساء منى   صمحمح كأننى من جن

فاستخف الناس بذلك وجعل أهل الحجى والرأى ينهونهم فلا يسمع منهم وأمر يزيد بن قيس منادياً ينادى : من شاء أن يلحق سعيد بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل .

وقام عمر بن حريث خليفة سعيد يعظ الناس ويسكنهم فلم يسمعوا لقوله وقال له القعقاع ابن عمرو . أترد السيل عن عبابه؟ فاردد الفرات عن أدراجه هيهات ، لا والله لا تُسَكِّن الغوغاء إلا المشرفية ويوشك أن تنتضى ثم يعجون عجيج العِتْدَان ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً .

خرج القوم إلى الجرعة كما قدمنا ثم قدم سعيد ومعه مولى له فوجد القوم يناهزون الألف . فقالوا له : لا نريد أن تدخل علينا والياً . فقال لهم : هل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد؟ إنما كان يكفى أن ترسلوا لى رجلا وإلى أمير المؤمنين رجلا واحداً ثم رجع وقد قتلوا مولاه . وأخبر عثمان بالذى كان منهم فقال : فمن يريدون؟ قال : أبا موسى . فقال : قد أثبتنا أبا موسى عليهم ووالله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة ولنصبرنّ كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون .

وفى رواية للطبرى : أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره بأحداثه . فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التيمى الذى يعرف بعامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه وقال : إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليه وانزع عنها . فقال عثمان : انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم يجىء فيكلمنى فى المحقرات فوالله ما يدرى أين الله . فقال عامر : أنا لا أدرى أين الله؟ قال : نعم والله ما تدرى أين الله . قال عامر : بلى والله إنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك

بعد ذلك أرسل عثمان إلى عماله وبعض من معه من غيرهم ليؤامرهم فى هذه الإذاعات التى أزعجته وصيرت أهل المدينة بين المقيم المقعد — فاستقدم معاوية ابن أبى سفيان وعبدالله بن سعد بن أبى سرح وسعيد بن العاص (كان بالمدينة) وعبد الله بن عامر. وعمرو بن العاص (وكان بالمدينة) فجمعهم ليشاورهم فى أمره وما طلب إليه. وما بلغه عن عماله منهم — وقال لهم: إن لكل امرىء وزراء ونصحاء وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى. وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلىّ أن أعزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم. وقال عبد الله بن عامر: رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته (ونعم الرأى رأيه). ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذى تخاف واعمل برأيى تصب. قال وما هو — قال إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (يريد أن ينكل برؤوس أهل الفتن) فقال عثمان: هذا هو الرأى لولا ما فيه. ثم قال لمعاوية ما رأيك؟ قال يا أمير المؤمنين ما أرى أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلى. ثم قال لعبد الله بن سعد ما رأيك؟ فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم (وهو حق لو اتسع له بيت المال) ثم قال لعمرو بن العاص: ما رأيك؟ قال: أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون. فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل. فإن أبيت فاعتزم عزما وامض قدُماً — فقال عثمان مالك قمِلَ فروُك، أهذا الجد منك؟ فسكت عمرو عنه حتى إذا تفرق القوم قال له: لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز على من ذلك ولكنى علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا. فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى. فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً.

والذى أعتقده أن مبدأ إحساس القوم بضعف عثمان الكتاب الذى كتبه

إلى أهل الكوفة حين استعفوه من سعيد بن العاص وردوه من الجرعة وقتلوا مولاه وطلبوا أبا موسى والياً عليهم فكتب إليهم عثمان «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد . فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد . والله لأفرشنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة ، وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار وهى نغمة جديدة لم يسمع الناس مثلها من عمر بن الخطاب جاءت على إثر شكوى وتذمر . قد تؤثر فى الكريم ولكن اللئيم يعتدها ضعفا يزيده ضراوة على الفتنة وولوعا بإشاعة السوء وإذاعته فهو زلة من عثمان يغفر الله له — وكتاب مفتوح يعلن فيه ضعفه ووهن قوته فلا غرو أن اجترأوا عليه بعده بما اجترأوا .

قبل سرد ما حصل فى شأن الفتنة بما سأسرده أحب أن أدلى بكلمة تنير الموضوع وتلقى عليه شعاعا من الجلاء والوضوح :

مما جرت به سنة الوجود أن أى بلد من البلاد أو مصر من الأمصار لا يخلو من أناس محدودين مغموسين فى الناس لم يتهيأ لهم الظهور ولم يوفقوا لأن يكونوا من أرباب الثراء وهم يزنون أنفسهم بغير ميزانهم ويقدرون لأنفسهم ثمنا لا يسومهم الناس بعشر معشاره فهم راضون عن أنفسهم كل الرضا ساخطون على من عداهم يتبرمون بالفلك ويتسخطون على القدر . ولا ينسبون تأخرهم لعيب فيهم أو نقص فى استعدادهم لتسنم المعالى . ولكنهم يعمدون إلى الدولة والقائمين بها يستذنبونهم فى تأخرهم ويلزمونهم جناية فقرهم وعدم مواتاة الجد لهم . فهم يتمنون تغيير الدولة ويستبطئون أحداث الاستبدال من أهلها ويتكهنون حؤول الأحوال ويوقتون لذلك المواقيت ويتربصون نزول الدوائر لأنهم يستروحون ريح الفرج من ناحية التقلبات ويرون أن حظهم لا يطلق من وثاقه إلا إذا سقط الأمير القائم وقام غيره ممن يمتون إليه بالوسائل قبل الولاية .

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء　　نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه　　يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

ومن كانوا كذلك يكون لهم ولوع بإشاعة الإشاعات الرديئة وإذاعة أنبا السوء وتثبيت الظنون وتوهين اليقين واستفزازمن يمكن استفزازه إلى إحداث الفتن وتعجيل التغيير والتقرب إلى من يظن فيه القدرة على ذلك .

ولايخلو الحال من أن يكون بالمدينة قوم على هذه الشريطة يَنفخون فى كل نار ، كلما خبت زادوها سعيراً . ويزيد نيران حقدهم اشتعالا ما يرونه من اختصاص ذوى السلطان غيرهم من أهل البلاء والغناء فى نظرهم بالتأمير على الأمصار وتقليدهم العمالات وهم قابعون فى أكسار بيوتهم . وقد كان لهم فى بعض ما يؤخذ على عثمان حجة يستترون وراءها .

إذا تمهد هذا فليس من البعيد أن تكون إذاعات هذا الضرب من الناس وإشاعاتهم قد بلغت من الكثرة فى المدينة حداً غيَّر قلوب أصحاب رسول الله على عثمان حتى تكاتبوا مع الخارجين عن المدينة يقولون لهم: أن اقدموا علينا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح مانيل من أحد ، وأصحاب رسول الله يرون ويسمعون وليس فيهم أحد ينهى ولايذب إلانفراً : زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدى ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت . فاجتمع الناس وكلموا على بن أبى طالب . فدخل على عثمان فقال : الناس ورائى وقد كلمونى فيك . والله ما أدرى ما أقول لك وماأعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما يعلم . ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ولا خلونا بشىء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك وأنت اقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً . ولقد نلت من صهر رسول الله ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شىء فالله الله فى نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وأن الطريق لواضح بين وأن أعلام

الدين لقائمة . تَعَلَّم ياعثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِيَ وَهَدَى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة ، فوالله إن كلا لبيِّن، وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن البدع لقائمة لها أعلام ، وإن شر النـاس عند الله إمام جائر ضل وضُلَّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس له نصير ولا عاذر فيلقى فى جهنم فيدور كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم » . وإنى أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تـكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال : يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً .

سمع عثمان ذلك الـكلام فقال : قد والله علمت ليقولُنّ الذى قلت . أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منـكرا أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعا . ووليت شبيها بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم قال فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ قال . على : سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه . أن بلغه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لا تفعل ـــ ضعفت ورققت على أقربائك ـــ قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها . فقد وليته . فقال على : أنشدك الله : هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال على : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية . ثم خرج على من عنده .

إذا كان ما فى رواية هذا الحديث صحيحا (وهى رواية الواقدى نقلها الطبرى وتابعه عليها ابن الأثير) فإن عثمان لاحجة له فيما يقول ـــ ذلك أن الولاية إنما يقصد بها مصلحة المسلمين وكفاية المهم من أمورهم فى الناحية

التى يكون بها الوالى . أما كون الولاية يقصد بها صلة الرحم وسد خلة ذى الخلة وإيواء الضائع من أقارب الخليفة وذوى رحمه . فلا يمكن أن يوافق عليها أحد . ولقد كان فى بنى عدى ومن هم من ذوى أنساب عمر دنيا ضائعون وذوو خلة لهم رحم ماسة وعرق واشجة ، فلم يشأ عمر إيثارهم لقرابتهم أو رحمهم ولا لأى اعتبار آخر ، وهؤلاء عمال رسول الله ما كان يختارهم من ذوى قرابته ولا يؤثرهم ابتغاء صلة الرحم فى الأعمال — التى يشترط فيها قبل كل شىء الكفاءة — ولست بهذا أقصد عيب العمال فى أعمالهم أو أنتقص من كفاءتهم . وإنما أحاكم جواب عثمان لعلى فيما أجاب به فإنه جواب أراه غير سديد .

ولا يفوتنى قبل أن أترك هذا المقام أن أذكر ما يخالج نفسى أمام هذه العوامل التى كانت تأخذ عثمان من كل ناحية — ذلك أن عثمان كان رجلا سليم القلب طاهر الضمير بعيداً عن الخب والنفاق وسوء الظن بالناس . فكان حسن الظن بأقاربه وذوى رحمه ثم انضاف إلى هذا رقة قلبه وشدة حنانه عليهم وحبه لنفعهم واستيقانه بأنهم يعاونونه على أمره ويؤازرونه على سياسة الرعية وأنهم خير من يقوم له بذلك لحبهم له وعطفهم عليه — كان منه ذلك فى الوقت الذى خمدت فيه جمرة الشباب وانطفأت وقدة الحداثة وقد رهقه ضعف الشيخوخة واستولى عليه تهاون أهل الهرم وتسامحهم واستصغارهم الأمور وإن جلت . فأورث ذلك فى أنفس الناس شيئا كثيراً .

فإن الصحابة كانوا يرونه يتخطى رقابهم بالأعمال ويوليها ذوى قرابته وفيهم الأحداث ومن لم تقدمهم السن . وفى أبناء الصحابة وأهل السابقة من يرى لنفسه ويرى له أبوه وغير أبيه الأولوية على من يقدم من أقاربه : فأحفظ ذلك عليه القلوب وسهل على الناس سماع الإذاعات وتصديق الإشاعات . فكانت عصارة ذلك ازدياد الجرأة عليه وعيبهم له جهاراً بعد أن كان ذلك خفية . ولم يكن لعثمان جواب مسكت فيما يرد به عن نفسه فكان احتجاجه لعمله ودفاعه عنه داعية زيادة الأضطغان عليه لأنه غير كاف ولا شاف .

خرج عثمان على أثر خروج على بعد انتهاء الحديث الذى قدمنا فجلس على المنبر ، فقال : أما بعد فإن لكل شىء آفة ، ولكل أمر عاهة ؛ وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسرون ماتكرهون يقولون لكم وتقولون ، أمثال الغنم يتبعون أول ناعق ، أحب مواردها إليها البعيد . لا يشربون إلا نغصاً ولا يردون إلا عكراً لا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب . ألا فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم — ولنتُ لكم وأوطأت لكم كنفى وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن ، إن قلت هلم أتى إلى . ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابى وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على وُلاَتِكُمْ فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطق هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه فَضَلَ فَضْل من مال . فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فلم كنت إماما ؟ فقام مروان فقال : إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

فقال عثمان اسكت لا سُكِّتَ ، دعنى وأصحابى ما منطقك فى هذا ؟ ألم أتقدم إليك أن لا تنطق . فسكت مروان .

وقد أورد الطبرى من رواية سيف عن شيوخه أن معاوية قال لعثمان غداة ودّعهُ وخرج : يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء وإن كان فيه قطع خيط عنقى . قال فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهرانى أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة

أو إياك . قال أنا أقتر على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟ قال والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين . قال حسبي الله ونعم الوكيل .

فلما خرج معاوية يريد السفر ، فإذا هو بنفر من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي . فقام عليهم : متوكئا على قوسه وبعد أن سلم قال : إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال فلم يكن منكم أحد إلا وفى فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره حتى بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأكرم به من اتبعه فكانوا يرئسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والقُدْمة والاجتهاد فإن أخذوا بذلك وأقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى من كان يرأسهم . وإلا فليحذروا الغير فإن الله على البدل قادر وله المشيئة فى ملكه وأمره : إنى قد خلفت فيكم شيخا فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك . ثم ودعهم ومضى . فقال علي ما كنت أرى أن فى هذا خيرا . فقال الزبير والله ما كان أعظم فى صدرك وصدورنا منه الغداة .

دور الشدة فى الفتنة

كان تصميم السبئية من أول الأمر أن يثوروا بالأمصار على اثر خروج العمال إلى الموسم ، فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض فى هذا الأمر سوى أهل الكوفة فإنهم خرجوا بحجة الاستعفاء من سعيد كما قدمنا ، وقد ردوه من الجرعة وهى مكان فى طريق الذاهب من المدينة إلى الكوفة .

فلما رجع الأمراء إلى أمصارهم لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج . فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار وتواعدوا على أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويسألون

عثمان عن أشياء لتسير فى الناس وتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث : الكوفة والبصرة ومصر حتى قاربت المدينة . فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين من بنى مخزوم ليعلما علم القوم . وكان الرجلان ممن نالهم أدب من عثمان فاصطبرا ولم يطضغنا . فلما رآهما أولئك القادمون استرسلوا إليهما وباحوا لهما بذات نفوسهم ، فقالوا إننا نريد أن نسأله عن أشياء زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب . ثم نخرج كأنا حجاج ثم نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه . وكانت إياها . فرجعا إلى عثمان بالخبر فضحك وقال اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا . وقد أخبر أهل الأمصار أن ثلاثة من أهل المدينه معهم على رأيهم وهم : عمار ومحمد بن أبى بكر وابن سهلة (لعله محمد بن أبى حذيفة) — فكان من قول عثمان : أما عمار فحمل على عباس بن عتبة بن أبى لهب وعركه فأدبته ، وأما محمد بن أبى بكر فإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه ، وأما ابن سهلة فإنه يتعرض للبلاء . ثم أرسل عثمان إلى الكوفيين والبصريين ونادى : الصلاة جامعة وهم عنده فى أصل المنبر . فأقبل أصحاب رسول الله حتى أحاطوا بهم . فحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم . وقام الرجلان وأخبرا بما سمعا منهم . فقالوا جميعاً اقتلهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا أحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم . فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفراً . ثم أخذ يذكر الأمور التى نقموها عليه وأذاعوها ويجيب عن كل مسألة . فقال : إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم :

١ — قالوا أتم الصلاة فى السفر (فى المزدلفة) وكانت لا تتم . ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين . أوكذلك هو ؟ قالوا : نعم . — وذلك أنه أتم الصلاة فى المزدلفة وهى تقصر فى ذلك الموطن ولو كان مؤديها مقيما هكذا كان يرى غير عثمان من فقهاء الصحابة .

٢ — وقالوا حميت حمى . وإنى والله ماحميت حمى . قبلى والله ماحموا شيئاً لاحد ماحموا لاماغلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا رعيه احداً . واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولانحوا منها أحداً إلا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولاراغية . وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيرا وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى . أكذلك هو ؟ قالوا : اللهم نعم .

٣ — وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها إلاواحداً — ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء . أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

٤ — وقالوا قد رددت الحكم . وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ، ورسول الله رده . أكذلك هو؟ قالوا : نعم

(٥) وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه . وهؤلاء أهل بلده . ولقد ولى من قبلى أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة . أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

(٦) وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه . وإنى إنما نفّلته خمس ما أفاء الله عليهم من الخمس وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم . أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

(٧) وقالوا إنى أحب أهل بيتى ، وأعطيهم . أما حبي فإنهم لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم : فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحلّ أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس . ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى

وفى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ؟ وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم وما قدم على إلا الأخماس ، ولا يحل لى منها شيء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا نفلت من مال الله بفلس منها فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى .

(٨) وقالوا أعطيت الأرض رجالا وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبحته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه . فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف وأعطى بنى عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب .

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف الذين خرجوا للكيد له وأبى المسلمون إلا قتلهم وأبى هو إلا العفو والصفح عنهم فرجعوا إلى بلادهم على الأمر الذى خرجوا به .

ظن عثمان أن ما أدلى به من الحجج قد أصاب من نفوسهم ، وأن عفوه عنهم يطفىء جمرة اضطغانهم عليه فاكتفى بما قال . ولكن القوم تواعدوا على الشخوص إلى المدينة فى شوال سنة ٣٥ لإنفاذ ما اعتزموا عليه من محاصرة عثمان وخلعه أو قتله إن أبى فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء — المقل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف . وقادتهم هم عبد الرحمن بن عديس البلوى وكنانة بن بشر الليثى وسودان بن حمران السكونى وقتيرة السكونى . وعلى القوم جميعاً الغافقى بن حرب العكى . وأشفقوا أن يعلموا الناس بخروجهم للشغب والحرب . وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . ولو أتيح للقوم رجل يقرأ ما فى الضمير لقرأ لهم آيات الفرح والسرور الذى لا يعادله

سرور أحد فى العالم واضحة على صفحات قلب ابن السوداء الذى استطاع أن يسخر هؤلاء القوم لتنفيذ مآربه فى أئمة الإسلام والكيد لدينهم . وقد تسنى له أن يشغل القلوب فى الأمصار المترامية وفى مدينة الرسول وهو جالس فى مصر .

يدبر الشر من مصر إلى يمن ‍ ‍ ‍ إلى العراق فأرض الروم فالنوب

والذى أعتقده أنه قد كان داعية جمعية تمده وتوازره وتعينه قد اختارته لتنفيذ مآربها فى الإسلام لتفسد ما تقدر عليه كما أفسد بولس دين المسيح .

وخرج أهل الكوفة فى أربع فرق وقادتهم : زيد بن صوحان العبدى . والأشتر النخعى . وزياد بن النضر الحارثى . وعبد الله بن الأصم العامرى من عامر بن صعصعة وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعاً عامر بن الأصم .

وخرج أهل البصرة فى أربع فرق . وقادتهم : حُكيم بن جبلة العبدى وذريح بن عباد العبدى وبشر بن شريح القيسى وابن المحرش الحنفى . وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدى .

وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاث مختلفة غير متفقة ، فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون عليا لما بثه فيهم ابن السوداء ومحمد بن أبى بكر فإنه كان ربيبا لعلى تزوج أمه بعد أبى بكر وحدب عليه ، وقد وافقه على ذلك محمد بن أبى حذيفة ، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون أن يكون الخليفة طلحة بن عبيد الله ، وأهل الكوفة كان هواهم فى الزبير بن العوام فخرجوا وهم على الخروج جميع وفى الأهواء شتى وكل فرقة لا يشك أحد منها فى أن الفلج فى جانبها وأن أمرها سيتم دون الآخرين . وصار كل فريق حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب . وتقدم ناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذى المروة . ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم ، وقالا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه قد بلغنا أنهم قد عسكروا لنا . فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا

قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم إذا علموا علمنا أشد وإن أمرنا هذا لباطل . وإن لم يستعدوا لنا ولم يستحلوا قتالنا ووجدنا ما بلغنا باطلا لنرجعن إليكم بالخبر .

فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلياً وطلحة والزبير وقالا : إنما نأتم هذا البيت ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس فى الدخول فكلهم أبى وقال بيض ما يفرخن . وهذا ما آخذه أمارة على وهن عثمان واقتطاع الناس الأمر دونه إذ يطلب الإذن من غيره بدخول المدينة ولو كان عمر ما قدر أحد منه على مثل ذلك .

رجع الرجلان إلى القوم فأتى من مصر نفر فأتوا علياً ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير وقال كل فريق منهم إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ومزقنا جماعتهم ثم كررنا حتى نبغتهم فجاء المصريون إلى على وعرضوا له بالأمر فانتهرهم وطردهم وكذلك فعل الزبير مع أهل الكوفة وطلحة مع أهل البصرة وأغلظوا لهم فى القول . وكان كل من على والزبير قد سرح ابنه إلى عثمان ، وطلحة قد سرح ابنيه كذلك .

خرج القوم بعد سوء الرد من على وطلحة والزبير وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم على ثلاث مراحل من المدينة كى يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين . فلما افترق أهل المدينة لرجوعهم وظنوا أن الأمر قد انتهى . لم يفجأ أهل المدينة إلا بالقوم يكبرون فى نواحيها ، قد كروا عليهم فبغتوهم ونزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم .

جاء على إلى أهل مصر فقال : ماردّكم إلينا ؟ فقالوا أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا . وقال أهل البصرة لطلحة مثل ذلك . أى أن أهل مصر قد أخذوا بريداً بقتلهم ، وكذلك أهل الكوفة للزبير . وقال أهل الكوفة وأهل البصرة : جئنا ننصر أخواننا ونمنعهم جميعاً . فقال على : كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة . فقالوا : ضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل ليعتزلنا .

وكان عثمان فى ذلك الوقت يخرج إليهم ويصلى بهم ويصلون خلفه ولا يمنعون أحداً من الاجتماع به ولا يمنعون أحداً من الكلام ، ولكنهم كانوا يسيرون زمرا أشبه بالدوريات فى طرق المدينة يمنعون الناس من الاجتماع .

وكتب عثمان إلى الأمصار يستمدهم (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً فبلغ عن الله ما أمر به ثم مضى وقد قضى الذى عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الأمور التى قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه . ثم أدخلت فى الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة . ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب منى ولا محبة فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع متبعاً غير مبتدع مقتدياً غير متكلف . فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر . فعابوا علىّ أشياء مما كانوا يرضون وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها فصبرت لهم نفسى وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله عز وجل جرأة حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحـــد إلا ما يظهرون ، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق) .

أتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول . فأرسل معاوية ابن أبى سفيان حبيب بن سلمة الفهرى بعد تريث . وبعث عبد الله بن أبى سرح من مصر معاوية بن حديج السكونى وخرج من أهل الكوفة القمقاع بن عمرو وقام فى كل بلد محضضون يحضون الناس على إغاثة أهل المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان غير أن هؤلاء المغيثين لم يدركوا لأن الغزاة أنفذوا أمرهم قبل الغوث .

جاء القوم إلى على وقالوا له : إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل . قم معنا

إليه فقال : والله لا أقوم معكم . قالوا فلم كتبت إلينا . فقال على : والله ما كتبت إليكم كتابا قط فنظر بعضهم إلى بعض .

والذى يظهر من ذلك . أن من كان بالمدينة ردءا لأهل الفتنة كانوا يكتبون إلى أهل مصر بأن عليا معهم فى الرأى وأن التدبير بإذنه وعلمه فكان المفسدون يتذرعون باسمه لتهييج الناس وإشعال قلوبهم بالحماسة فيما هم بصدده ، ولا يبعد أن تكون الكتب ترسل باسمه إلى مصر ولا يعلم .

وقد كان عمرو بن العاص بالمدينة يؤلب على عثمان ، وقد جاءت رواية عنه أنه كان يؤلب عليه حتى الراعى فى غنمه فى رأس الجبل . فلما كان أول الحصار خرج من المدينة إلى فلسطين فى ناحية السبع حتى جاءه خبر قتل عثمان .

دخل المصريون على عثمان ومعهم الكتاب الذى زعموا أن فيه قتلهم . فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا فقال : إنما هما اثنتان : أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمينى بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت . وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم . فقالوا قد والله أحل الله لنا دمك ونقضت العهد والميثاق .

عمل على وعمل مروان مع الخليفة عثمان

كان لما جاء القوم لأول مرة وخشى عثمان شرهم شاع أنهم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع . فجاء إلى على بن أبى طالب فقال : يا ابن عم ، إنه ليس لى مترك وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم وتردهم عنى فإنى لا أحب أن يدخلوا ، فإن ذلك جرأة منهم على ويسمع بذلك غيرهم . فقال على : علام أردهم ؟ فقال : على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيته لى ، ولست أخرج من يديك . فقال على : إنى كلمتك مرة بعد مرة وتقول وتقول وكل ذلك فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية

أطعتهم وعصيتنى . قال فإنى أعصيهم وأطيعك . فركب على وركب معه المهاجرون والأنصار وما زالوا بالقوم حتى رجعوا كما قدمنا وأبى عمار أن يخرج مع من خرج . فلما رجع القوم عاد على إلى عثمان وكلمه كلاما فى نفسه وقال له تكلم كلاما يقره الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما فى قلبك من النزوع والإنابة فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركبا آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا على اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً ، ويقدم آخرون من البصرة ألخ ، فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

فخرج عثمان فخطب خطبة نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة فقال : أما بعد أيها الناس فوالله ماعاب من عاب منكم شيئاً أجهله وماجئت شيئاً إلاوأنا أعرفه ولكن منتنى نفسى وكذبتنى وضل عنى رشدى . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من زل فليتب ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى فى الهلكة إن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق . فأنا أول من اتعظ . استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فمثلى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم فوالله لئن ردنى الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ولأكونن كالمرقوق ، إن ملك صبر وإن أعتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه . فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلى لئن أبت يمينى لتتابعن شمالى — فرق الناس له وبكوا — فلما نزل وجد فى منزله مروان وسعيداً ونفراً من بنى أمية ولم يكونوا شهدوا الخطبة : فقال مروان يا أمير المؤمنين أتكلم أو أسكت ؟ فقالت نائلة زوج عثمان بل أسكت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه إنه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها . فقال عثمان تكلم . فقال مروان بأبى أنت وأمى لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ولكنك قلت ماقلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل . والله لإقامة على معصية تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة وقد اجتمع إليك على الباب أمثال الجبال

من الناس . فقال عثمان اخرج إليهم فكلمهم فإنى أستحى أن أكلمهم .

عند ذلك خرج مروان إلى الباب فقال ماشأنكم ، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه . كل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا . أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدون غب رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا .

سمع الناس ذلك فرجعوا وذهب بعضهم إلى على وأخبره الخبر فجاء مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : أما رضيت من مروان وَلا رَضِىَ منك إلا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يصار به ، والله مامروان بذى رأى فى دينه ولا فى نفسه ، وأيمُ الله لأراه سيوردك ثم لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك ـ فلما خرج على دخلت على عثمان نائلة زوجه فقالت أتكلم أو أسكت ؟ قال بل تكلمى ، فقالت قد سمعت قول على لك وإنه ليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء قال فما أصنع ؟ قالت تتق الله وحده لا شريك له وتتبع سنن صاحبيك من قبلك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك الناس لمكان مروان فأرسل إلى على فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى ـ فأرسل عثمان إلى على فأبى أن يأتيه وقال : قد أعلمته إنى لست بعائد ـ وبلغ مروان مقالة نائلة فيه ، فجاء إلى عثمان وقال ـ بعد أن أذن له ـ إن بنت الفرافصة فقال عثمان لا تذكرنها بحرف فأسوء لك وجهك فهى والله أنصح منك ـ وخرج عثمان بعد ذلك حتى أتى علياً وسأله أن يؤازره ولا يخذله لماله من حق القرابة والنصرة فأبى عليه على ذلك وذكره بما كان منه من عصيانه والإصغاء إلى مشورة مروان فقام عنه عثمان منكراً يقول : خذلتنى وقطعت رحمى .

وقد قدمنا أن العائدين من أهل الشغب من الأمصار الثلاث لما عادوا دخل

المصريون المدينة وغلبوا أهلها على أمرهم وكان عثمان يخرج من بيته فيصلى بهم لايمنعونه ذلك ـ فلما جاءت الجمعة بعد دخولهم المدينة ودخول المصريين بها خرج عثمان فصلى بالناس وكأنى به فى ذلك الوقت قد أراد أن يظهر من الضعف قوة ومن الوهن جلداً ليقذف الرعب فى قلوب المشاغبين فقام على المنبر وقال ياهؤلاء العدى . الله الله . فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فامحوا الخطايا بالصواب فإن الله عز وجل لايمحو السيء إلا بالحسن فقام محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك ـ فأخذه حُكَيْمُ بن جبلة فأقعده . فقام زيد ابن ثابت فقال ابغنى الكتاب . فسار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبى قتيرة فأقعده وقال فأفظع . وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس وحصبوا عثمان حتى صرعوه عن المنبر مغشياً عليه فاحتمل حتى أدخل داره . وكان المصريون لا يطمعون فى أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا فى ثلاثة نفر وهم محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة وعمار بن ياسر . وشمر ناس من المسلمين فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن على فأرسل إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا ، فانصرفوا ، وأقبل على ، حتى دخل على عثمان يعوده من صرعته ، وفعل مثل ذلك طلحة والزبير .

ومكث عثمان يصلى بهم إلى عشرين يوماً من نزوله عن المنبر فى رواية الحسن ، وإلى ثلاثين يوماً على رواية سيف عن مشايخه ثم إنهم منعوه الصلاة فصلى بالناس أميرهم الغافقى . دان له المصريون والكوفيون والبصريون وتفرق أهل المدينة فى حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم وكان الحصار أربعين يوماً . وفيهن كان القتل ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفون .

من ذلك كله نجد أن عثمان كان فى أخريات أيامه كالميت فى يد الغاسل بين يدى مروان وبطانته من بنى أمية . فكان إذا أعطى الناس من نفسه ووعدهم بالإقلاع عما نقموا منه والنزول عند ما أحبوا وعاد إلى بيته ، فتله مروان فى الذروة والغارب حتى يرده عما بسط آمالهم فيه وقبض يده عما بذل لهم من

المعدله وإزاحة العلل . وكان بنو أمية ومنهم مروان يثقون بالمغيثة من الأمصار ويريدونه على مطاولة القوم حتى يأتى المغيثون ويستأصلوا أهل الفتنة ويلتمسون الوسائل للمطاولة جهد استطاعتهم . وكان استبطانه لهؤلاء الرهط من بنى أبيه يثير عليه النفوس ويزيد فى الاضطغان عليه . فكان على الحقيقة موجوداً بين عدوين : عدو داخلى يدفعه إلى المكاره وركوب المركب الخشن بغير رفق ولا شفقة وعدو خارجى لا يرضى منه بالمعاذير ولا يقنعه إلا نفض يده من الخلافة وتركها شورى بين المسلمين ليختاروا لأمرهم من أحبوا ـ أو أن يسلم إليهم بعض بطانته وخلصائه من ذوى قرابته ليشتفوا منه بالجزاء الذى يستحقونه على جناية يزعمون أنها وقعت من ذلك البعض ـ وهو مروان بن الحكم ـ يزعمون أنه افتعل كتاباً من عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح يأمره بضرب بعض رؤساء المصريين أو جلدهم والتمثيل بهم وفى ذلك هلاك مروان إذا استمكنوا منه . والثالثة دمه يريقونه .

وكان بنو أمية يرون الشر مقبلا عليهم ونازلا بهم والموت يرقب شيخهم مصبحه ومساه وأهل الفتنة غير تاركيه وأهل المدينة بين مؤلب وساكت وخاذل وهم مع ذلك لا تأخذهم الرأفة بهذا الشيخ الفانى ولا يريدونه على استبقاء حياته والعمل لما فيه حقن دمه،مع توفر الذرائع وإمكان الوسائل لو أرادوها . ولعل ذلك كان ضعفا فى الرأى واغتراراً باسم الخلافة وما كان له من الروعة والحرمة فى سالف الزمن ، غافلين عن أن اسم الخلافة فى أخريات أيام عثمان صار حامله من المهانة والذلة بحيث لا يدفع عن نفسه ولا يقوم بالذب عنه أحد . ومن الخذلان الاغترار بذلك بعد أن يصرع الخليفة عن منبر رسول الله بأيدى الغوغاء والمفتونين ولا يغير ذلك المهاجرون والأنصار .

الحصار وما كان فى أيامه

لا شبهة فى أن الحاصرين ما كانوا يريدون فى بدء أمرهم من عثمان سوى أن ينزع من الخلافة يده لتفضى بعد ذلك إلى من يريدون ، ولو أن عثمان طابت نفسه ببغيتهم لانصرفوا إلى أمصارهم مغتبطين بما أدركوا — ولعلهم كانوا

لايتوقعون من عثمان الاستمساك بالأمر إلى الحد الذى انتهى إليه — ولعلهم كانوا يظنون أيضاً أن أعلام أصحاب رسول الله بالمدينة كانوا يبادرون إلى حسم مادة الفتنة بحمل عثمان على الخروج من الأمر تلافيا للفرقة وتحاشيا من سفك الدماء . فكان الأمر على غير ما قدروا وطالت مدة الحصار .

إن أمور الفتن إذا دُبرت لا يجهر مدبروها بأسرارهم ولا يذيعونها على الجمهور وهم فى الغالب يسترون ما أجنئوا ويغشون الدعوة بغشاء جميل والمصريون الذين دبروا هذا الشغب ، وكذلك بقية أهل الأمصار ، قد ألبسوا دعوتهم لباس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو أمر يلذ سماعه لأهل التقوى وتُسْتَفَز به قلوب أهل الصلاح وهم فى الغالب أهل طهارة أخلاق وسلامة ضمير فيندفع كثير منهم فى غمار الناس ولا قصد لهم إلا التعاون على البر والتقوى . ومن هذا القبيل كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمع المصريين مثل عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نزل القوم ذا خشب فى قدمتهم الأولى كان فيما كتبوا به إلى عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فالله الله ثم الله الله . فإنك على دنيا فاستتم إليها معها آخرة ولا تَلْبِسْ نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . واعلم والله أنا لله نغضب وفى الله نرضى وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مُجَلحة مبْلَجة فهذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك . والسلام » .

وقد علمنا أن القوم حين ردوا إلى أمصارهم عادوا إلى المدينة على حين غفلة من أهلها . وقد ذكر صاحب أشهر مشاهير الإسلام وغيره أن المصريين زعموا أن عبد الله بن سعد كان قد ضرب رجلا ممن كانوا شكوه إلى عثمان حتى قتله . فلما جاءوا فى قدمتهم الأولى شكوا ذلك إلى عثمان وإلى أعلام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه أمهات المؤمنين وقد ألحوا على عثمان

بإنصافهم فقال: اختاروا رجلا أُوَلِّهِ مصر عوضاً عن عبدالله بن سعد فاختاروا محمد بن أبي بكر فولاه عثمان مصر كما طلبوا. فلما خرج على بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لرد أهل الأمصار إلى أمصارهم بالوعد من الخليفة أن يفعل ما يحبون ويرجع عما يكرهون سار جمعهم ثلاثاً ثم كروا راجعين إلى المدينة محتجين بأنهم (المصريين) أخذوا بريداً إلى عبد الله بن أبي سرح بقتلهم أو جلدهم إلى آخر ما ذكروا، وإن البريد غلام عثمان على جمله وإن الخط خط كاتبه وإن الختم ختمه وإنه بذلك قد أحل لهم دمه وإن أهل البصرة قد رجعوا لنصرة إخوانهم المصريين ومنعهم وشد أزرهم.

وإذا صحت هذه الرواية وأنهم وجدوا البريد على الصفة التي قالوا، فإني لا أستبعد أن يكون مدبروا الفتنة من المصريين قد وجدوا في أثناء مقامهم بالمدينة من يستدخلونه على بطانة عثمان بن عفان ويتدسس لهم حتى كتبوا هذا الخطاب وأبردوا به البريد، وعلم كل هذه الحركات والسكنات كان عندهم وسر ذلك عند إخوانهم من أهل المصرين فلما تلقفوا الكتاب الذي دبروه عادوا وفي أيديهم حجة قوية تبرر ما يطلبون ويتقون بها لوم اللائمين.

قال الطبري في رواية: وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما لزمه من حق الله، فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته. فقال لهم: قد صنع ما قد رأيتم، فما المخرج؟ فأشار عليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم مايرضيهم ليرضيهم حتى تأتيه أمداده. فقال: إن القوم لن يقبلوا التعليل - وهي محملي - وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان فتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به فقال مروان: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب. فأعطهم ماسألوك وطاولهم ماطاولوك فإنهم بغوا عليك فلا عهد لهم.

أرسل عثمان بعد ذلك إلى على . فلما جاء قال : ياأبا الحسن ، إنه قدكان من الناس ماقد رأيت وكان منى ما قد علمت ولست آمنهم على قتلى فارددهم عنى فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل مايكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسى ومن غيرى وإن كان فى ذلك سفك دمى . فقال له على : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وإنى أرى قوما لا يرضون إلا بالرضى . وقد كنت أعطيتهم فى قدمتهم الأولى لترجعن عن جميع مانقموا فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشىء من ذلك . فلا تغرنى هذه المرة من شىء فإنى معطيهم عليك الحق . قال : نعم ، فأعطهم فوالله لأفين لهم ، فخرج على إلى الناس فقال : أيها الناس ، إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه . إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ماتكرهون ، فاقبلوا منه ووكدوا عليه ، فقال الناس قد قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل ؛ فقال : ذلك لكم . ثم دخل عليه فأخبره . فقال : اضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد . فقال على : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك . قال : نعم ولكن أجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . قال على : نعم . وخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك . وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه ثم أخذ عليه فى الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار .

فكف القوم عنه ورجعوا إلى أن يفى لهم بما أعطاهم من نفسه . وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جنداً من رقيق الخمس . وخرج عمرو ابن حزم الأنصارى حتى أتى المصريين وهم بذى خُشُب حتى قدموا المدينة . فأرسلوا إلى عثمان : ألم نفارقك على أنك زعمت أنك تائب من أحداثك وراجع عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه ؟ قال : بلى ، أنا على ذلك . قالوا : فما هذا الكتاب الذى وجدنا مع رسولك وكتبت به إلى عاملك ؟ قال : ما فعلت ولا علم لى بما تقولون . قالوا : بريدك على جملك

وكتاب كاتبك عليه خاتمك. فقال: أما الجمل فسروق وقد يشبه الخط الخط والخاتم ينقش على الخاتم. قالوا: فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك. فاعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا وازدد علينا مظالمنا. فقال عثمان: ما أرانى إذاً فى شىء إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم، الأمر إذاً أمركم. قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أو دع. فقال: لم أكن لأخلع سربالا سربلنيه الله. اهـ.

والظاهر أن اختلاف القوم إليه وعرضهم المطالب عليه فى مدة الحصار كان كثيراً، وكذلك اختلاف الصحابة وإعلامهم إليه وعرضهم مطالب القوم عليه والأخذ والرد فى ذلك كان كثيراً متكررا. دعا عثمان فى تلك المدة بالأشتر فقال: ياأشتر مايريد الناس منى؟ قال: ثلاثاً ليس من إحداهن بد. قال ماهن؟ قال يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختاروا له من شئتم، وبين أن تقص من نفسك، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك. فقال: أما من إحداهن بد؟ قال: ما من إحداهن بد فقال: والله لأن أندم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أخلع قميصاً قمصنيه الله وأترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض. وأما أن أقص من نفسى، فوالله لقد علمت أن صاحبى بين يدى كانا يعاقبان، ومايقوم بدنى بالقصاص. وإما أن تقتلونى. فوالله لئن قتلتمونى لاتحابون بعدى أبداً، ولا تصلون جميعاً أبداً، ولا تقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً.

كان على حين رجع الشاغبون إلى المدينة وقد قال لعثمان وقال له، تبرم عثمان بمكانه. فخرج على من المدينة إلى خيبر فأقام بها، فلما رأى عثمان شدة القوم عليه وعجز بنى أمية عن مدافعتهم عنه وأن أهل المدينة خاذلوه عول على استقدام على فكتب إليه بما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، وهو «أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر بى أشده» ثم تمثل بهذا البيت:

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزق

وقد رأيت لخطابه صورة أخرى وهى: «أما بعد فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره. وزعموا أنهم لا يرضون دون دمى وطمع فى من لا يدفع عن نفسه

وإنك لم يفجر عليك كفاجر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال : أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل على أولىّ — وفى رواية فأقبل إن صديقاً كنت أو عدواً —

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

وكان طلحة قد تألف الناس فى غيبة على ، وهم يصدرون عن أمره سراً . فلما جاء على وطلب إليه صرف الناس عنه . ذهب إلى طلحة فى خلوة من الناس ، وقال له : ياطلحة ماهذا الأمر الذى وقعت فيه ؟ فقال ياأبا الحسن بعد مامس الحزام الطبيين . فانصرف على إلى بيت المال وأعطى الناس . فانصرفوا عن طلحة وانفضوا من حوله وسر عثمان بذلك ، وجاء طلحة إلى عثمان تائباً فقال : والله ماجئت تائباً ولكن جئت مغلوباً ، فالله حسبك ياطلحة .

اشتد الحصار على عثمان حتى منعوه الماء ولما أجهده العطش أرسل إلى على وأزواج رسول الله وإلى غيرهم فحاولت أم حبيبة زوج رسول أن تخلص إليه بماء فلم تقدر على ذلك . ولما سألوها عن دخولها على عثمان ، قالت : إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل ، فقالوا : كاذبة ! وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها . وتجهزت عائشة للحج هاربة واستتبعت أخاها فأبى . فقالت : أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله مايحاولون لأفعلن . ولام حنظلة الكاتب محمد بن أبى بكر فى أن تدعوه عائشة أخته إلى الحج فيأبى ويجيب ذؤبان العرب ويتبعهم إلى مالا يحل فقال ما أنت وذاك يابن التميمية . فقال : يابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالُب غلبتك عليه بنو عبد مناف ، وانصرف وهو يقول .

عجبت لما يخوض الناس فيه يرومون الخلافة أن تزولا

ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعدها ذلا ذليلا

وكانوا كاليهود أو النصارى سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق الرجل بالكوفة ، وقدكانت عائشة ممتلئه غيظاً على أهل مصر[١] . وهى وإن كانت ممن يقول فى عثمان وكانت تغضب لما يلقيه الشاغبون وتأتى به الإشاعات إلا أنها لم تكن تظن أن الأمر يبلغ إلى هذا الحد . وجاءها مروان ابن الحكم فقال : يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل . فقالت :أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة ثم لاأجد من يمنعنى ؟ لا والله، ولا أعير ولاأدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

أما على فلما رأى عثمان قد منع من الماء فجاء إلى القوم فى الغلس وقال :يا أيها الناس، إن الذى تصنعون لايشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين .لاتقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسق ، وما تعرض لكم هذا الرجل فيم تستحلون حصره وقتله ؟ قالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب فرمى على بعمامته فى الدار ليعلم عثمان أنه قد نهض فيما أنهضه . وقد علم طلحة والزبير بما لقى على وأم حبيبة فلزما بيتيهما ولم يحاولا إيصال شىء من الماء إليه .

وفى أثناء الحصار أرسل عثمان عبد الله بن عباس ليحج بالناس. ثم أرسل إليه بكتاب يقرأ على الناس يوم الحج الأكبر يعلمهم بما هو فيه من الحصار الشديد وأن الناس يطلبون دمه ولا يرضون بدونه ويستنهض من يريد نصرته على اللحاق بالمدينة لتفريج كربه ، ففعل . وجعل عثمان لا يجد إلا قليلا من الماء يؤتى به إليه من دار آل حزم فى غفلات ، لأن القوم كانوا يرقبون دار آل حزم .

أشرف بعد ذلك عثمان على الناس لما منعوه من الماء وسلم على الناس فلم يردّ أحد عليه سلامه . فقال أنشدكم بالله هل تعلمون أنى اشتريت بئر رومة من مالى يُستعذَب بها فجعلت رشائى منها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قالوا نعم. قال فما يمنعنى أن أشرب منها ؟ ثم قال : أنشدكم بالله هل علمتم أنى اشتريت كذا

---

(١) والذى أظنه انها أحست ميل بعض أهل الشعب إلى على ، فترمت عكانهم كراهة لعلى .

وكذا من الأرض فزدته فى المسجد ؟ قيل نعم . قال : فهل علمتم أحداً من الناس منع الصلاة فيه قبلى ؟ ثم ذكر لهم أموراً أخرى كانت من رسول الله له فجعل الناس يقولون مهلا عن أمير المؤمنين . وكانوا إذا سمعوا الموعظة لأول مرة رقت قلوبهم فإذا تكررت لم تكن لتؤثر فيهم .

استمر الحصار مشتداً إلى أن علم القوم أن الحاج كادوا يعودون ووصل إليهم فصول من فصل من أهل الأمصار لنصرة عثمان وكان أهل الشام قد اثاقلوا قليلا فأشفق أهل الفتنة أن يفجأوا بالمغيثة قبل أن يخلصوا إلى أمر وأيقنوا أنهم إن انصرفوا عنه دون أن يفوزوا بطلبهم فقد استهدفوا للبلاء وتعرضوا للحتوف فجدوا فى أمرهم وأرادوا قتل عثمان فدافعهم من كانوا فى الدار . الحسن بن على ، وعبد الله بن الزبير وابنا طلحة وغيرهم ممن وطنوا أنفسهم على نصرة عثمان . فأحرقوا باب الدار وكف عثمان من معه عن القتال وعزم على كثير منهم فى الانصراف إلى بيوتهم فانصرف أكثرهم وكانت مناوشات بين بعض من فى الدار وبين المشاغبين كمروان وعبد الله بن الزبير وغيرهم . وأراد القوم المعاجلة فدخلوا على عثمان من دار جيرانه آل حزم وكانوا جماعة فيهم محمد بن أبى بكر الذى تقدم إليه مريداً قتله فأمسك بلحيته يؤنبه ويحركها فى يده ، فذكره عثمان بأبيه وأنه ما كان أبو بكر ليجلس هذا المجلس من عثمان . فلم يصنع شيئاً . وتقدم الغافقى فضربه بحديدة كانت معه . وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت عليه زوجه نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها . فتعمدها ونفح أصابعها فأطن أصابع يدها . ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه — ثم قالوا ما كان دمه ليحل لنا دون ماله فانتهبوه وأذاعوا خبر قتله بالمدينة وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوما وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشئوم

هذا وقد قدمنا أن مدة الحصار كانت أكثر من هذا ، ولعل ما هناك عدد للحصار على عمومه ، وأما عده اثنين وعشرين يوماً فهو شدة الحصار

ما قعد بأهل المدينة عن نصر عثمان

أليس عجيباً أن يأتى جماعة من أمصار مختلفة إلى عاصمة الخلافة ودار الهجرة وجوار رسول الله يتألبون على الخليفة ثم يحصرونه وينتهى الأمر بقتله ولا ينتطح فى هذا الأمر عنزان! مع طول مدة الحصار وانفساح أجله وامتداد الزمن واتساعه لعمل ما يمكن؟ فما الذى قعد بالمهاجرين والأنصار عن نصرته، والعمل على كف الأيدى عنه؟.

والذى اقوله إن عثمان قد جرأ القوم على نفسه وأطمعهم فى جانبه بما كان عنده من الرأفة واللين وما رهقه من ضعف الشيخوخة وبما كان منه من الأمور التى خالف بها الخليفتين قبله. ولا يجد عنها جواباً مرضيا ولا مقنعا — وقد كان فى مقدور المهاجرين والأنصار لو كانوا راضين عنه أن يمنعوه ممن أراده بسوء ويبددوا جموع المصريين الذين تولوا كبر هذا الحادث المشؤوم، وما كان المصريون — وهم لا يزيدون عن ألف — ليعجزوا أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين والأنصار لو كانت قلوبهم مع عثمان.

لا يعزب عنكم ما قدمته من أنه كان فى المدينة قوم يريدون الظهور على حساب الفتن والتقلبات، وآخرون من دونهم يرون الخليفة حائلا بينهم وبين الأعمال والإمارة، ويرونه يتخطاهم بها إلى ذوى رحمه وقرابته ممن لم تقدمهم ولم تكن لهم سابقة ولا قدمة.

أضف إلى ذلك أموراً: منها أن عثمان لم يستن بسنة عمر فى الاستشارة وأخذ رأى أعلام المهاجرين والأنصار فى كل جليل ودقيق من أمور المسلمين العامة، بل كان عثمان يفضى بنصيحته واستشارته إلى بنى أمية وهم مسبوقون غير سابقين ويقتدى بآرائهم وينتهى إلى مشورتهم. فلما رأى أعلام الصحابة وأهل الرأى أنه أخرهم وفيهم أضرابه ومن لا يرون له عليهم فضلا، وأنهم صاروا عنده كقدح الراكب، أشفقوا أن يكون الأمر إثرة واحتكاراً وأن يجعل أمر المسلمين إلى بنى عمومته من بعده فاضطغنت لذلك القلوب عليه وارتخت الأيدى عن نصرته.

كان أعلام الصحابة يرون أنه يفيض الولاية على أهله دونهم ودون أبنائهم وإن تفضيل قرابته إنما كان لقرابتهم منه ، ويرونه يصل رحمه على حساب المسلمين ويجعل الأمر دولة فى بنى أبيه . ويرون أنه يختصهم بالنفل من الأخماس ولا يفعل ذلك مع غيرهم . ويعطى مروان الآلاف من مال المسلمين ولا يفعل ذلك مع أحد سوى قرابته . وهو فى كل ذلك لا يرد الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين كما كان يفعل عمر .

لهذا كله كان أهل المدينة — إلا نفراً منهم — يصيخون بآذانهم إلى شكاية الشاكين وصخب الصاخبين ويميلون إلى موازرتهم على مايشكون منه ولا ينكرون عليهم شكواهم . وكثير منهم كانوا يقعون فى عثمان وفى بنى أبيه من بنى أمية ويجهرون له بذلك ويتوعدونه بالنكال . وكانوا يلمزونه بالألقاب تحقيراً له فكانوا يسمونه نَعثل ، وهو اسم رجل قبطى طويل اللحية كان بالمدينة . فكانوا يشبهون عثمان به فى طول لحيته تحقيراً له .

مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدى وهو فى ندىّ قومه وفى يد جبلة جامعة فسلم فرد القوم إلا جبلة ، فقال جبلة : لم تردون على رجل فعل كذا وكذا . ثم قال يانعثل والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوص جرباء ولأطرحن هذه الجامعة فى عنقك أولتتركن بطانتك هذه . فقال عثمان : أى بطانة ؟ فوالله إنى لأتخير الناس . فقال : مروان تخيرته ومعاوية تخيرته وعبد الله بن عامر تخيرته وعبد الله بن سعد تخيرته ، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، فانصرف عثمان وقد اجترأ عليه الناس بعد ذلك . قال الطبرى : ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله .

وقد خطب عثمان فى بعض أيام الفتنة . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت نهابير وركبنا معك فتب نتب . ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس فقام إليه جهجاه الغفارى فصاح : ياعثمان ألا إن هذه شارف قد جئنا بها ، عليها عباءة وجامعة فانزل فلندرعك العباءة ولنطرحك فى الجامعة ولنحملك على الشارف ولنطرحك فى جبل الدخان . فقال عثمان : قبحك الله وقبح ماجئت به . وكان ذلك عن ملأ من الناس .

وكان الشاغبون يحتجون على عثمان بأمور ذكرنا بعضها ضمن رد عثمان ونورد هنا أشهرها مجتمعا ليكون القارىء على ذكر منها :

(١) إقامة الصلاة فى منى وعرفة مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه كانوا يصلونها على القصر (٢) زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة (٣) إخراج أبى ذر من الشام والمدينة إلى الربذة (٤) سقوط خاتم رسول الله من يده فى بئر اريس (٥) إفشاؤه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية وما كان من الوليد بن عقبة من شرب الخمر (٦) صلته لأهله وبنى عمه بالأموال وإقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس (٧) استئثاره برأيه ورأيهم وترك المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم (٨) أنه أعطى مروان خمس غزوة إفريقية (٩) أنه وصل عبد الله بن خالد بن أسيد بأربعمائة ألف درهم (١٠) أنه أقطع الحارث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين (١١) أنه أعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف درهم (١٢) أنه زوج الحارث بن الحكم بنته عائشة وأعطاه مائة ألف من بيت المال (١٣) أنه حمى الحمى حول المدينة إلا عن بنى أمية (١٤) أنه رد الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم (١٥) مجاوزته الخيزران إلى السوط وهو أول من استعمل السوط وضرب به ظهور الناس (١٦) تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : لنائلة زوجه دار ولعائشة بنته دار ، ولغيرها من أهله وبناته كل دار (١٧) ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من أضلاعه .

ولا شك فى أن هذه الأمور بعضها كان يحقده عليه المهاجرون والأنصار وأهل المدينة وقد ولع به الشاغبون وأتوا الناس من الناحية التى يحبون سماع القول منها وكان ذلك سببا لخذلان أهل المدينة إياه .

إن عثمان له عذر فى كل شىء أخذوه عليه غير أن من الأعذار ما يكون وجهه واضحاً بينا ، ومنها مالا تقبله النفوس إلا على مضض وهم إنما كانوا

يريدون منه فى كل مانقموا عليه أن يسير فيهم بسيرة عمر بن الخطاب وأبى بكر حتى لقد نصحتة أم سلمى زوج رسول الله بكلام طويل فقال لها : « يا أمنا قد قلت فوعيتُ ونصحتِ فاستوصيتُ . إن هؤلاء النفر رعاع غثرة تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح الدلاء وتلددت لهم تلدد المضطر فأرانيهم الحق إخواناً وأراهمونى الباطل شيطاناً . أجررت المرسون منهم رسنه وأبلغت الرائع مسقاه فانفرقوا على فرقاً ثلاثا فصامت صمته أنفذ من صول غيره ، وساع أعطانى شاهده ومنعنى غائبه ، ومرخص له فى مده رينت على قلبه . فأنا منهم بين ألسن لداد وقلوب شداد وسيوف حداد . عذيرى الله ، ألا ينهى منهم حليم سفيها ولا عالم جاهلا والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيتعذرون .

وعلى الجملة فإن قلوب أهل المدينة كانت عامرة ببغضه ولولا ذلك لوجد من يجيد الطعان ، ويغضب لأمير المؤمنين أن يعتريه بالأذى هؤلاء الفجار الأشرار .

غير أن نفسى غير مطمئنة إلى ان يبلغ الغيظ بأصحاب رسول الله من عثمان عليه أن يخلوا بينه وبين الشاغبين يريقون دمه ويتذامرون عليه بالإثم والعدوان تذامر الإيسار على الجزور . وأن الأمر لكما قال عثمان لعلى : « لولا أن الأمر أمر الجاهلية فقط ولم يكن الإسلام والأخوة لكان حقا عليك أن تنصرنى ولا تخذلنى » .

فعثمان وقع بين عوامل كثيرة : (١) الشاغبون وهم لا يتركون ما فى رؤوسهم دون إنفاذة لأن فشلهم خطر عليهم (٢) أهل المدينة وهم بين خاذل وساكت راض وعيل منهم يؤلبون ويعاونون عليه (٣) بنو أمية وهم يريدونه على المطاولة إلى أن يصل المغيثون ويحملونه على نقض ما أبرم ، وكلما رأى طريقا للتفريج لا يحبونها حملوه على سدها (٤) عثمان بمطاوعة بطانته وإحجامه عن إعطاء القوم ما أرادوا وإبائه عن النزول عن الخلافة وإلقاء الأمر يدبرونه كما يشاءون وكان فى ذلك صيانة دمه — ولقد كان له فيما أشار به عليه المغيرة بن شعبة مناص مما لقى لو قدر الله له ذلك ، فإن المغيرة

ابن شعبة لقي عثمان وهو محصور ، وقال له : يا أمير المؤمنين إنك أمام العامة وقد نزل بك ما ترى . وإنى أعرض عليك خصالا ثلاثا اختر إحداهن : إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل . وإما أن تخرق لك بابا سوى الباب الذى هم عليه ، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها . وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان : أما أن أخرج فأقاتل ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بسفك الدماء . وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلونى بها فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم » فلن أكون أنا . وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فلن أفارق دار هجرتى ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إجمال الأسباب التى أدت إلى قتل عثمان

بعد ذلك التمهيد الذى قدمناه بين يدى قتل الخليفة عثمان بن عفان وشرحنا به أحوال الأمصار الإسلامية التى كانت سبيل تلك الفتنة أوكان السبئية يستندون إلى شىء كان فيها ، أرى أن أجمل أسباب قتل عثمان التى يمكن أن تستنتج من الحوادث والوقائع والأحوال التى قدمنا ليكون القارىء على ذكر منها .

السبب الأول من الأسباب التى أفضت إلى قتل عثمان اختلاف رؤساء المسلمين فيما بينهم وتطلع الباقين من أهل الشورى كل ليجذب الأمر إلى نفسه ، واختياره عمن عداه بسبب ما وجده كل واحد منهم من شيعة تؤيده وتحطب فى حبله وتريده عليها فلم يدفعوا عنه دفاعا صحيحا ولم يخذلوا عنه ، بل كان الساكت منهم يقرأ القارىء فى طى هذا السكوت منه كتبا مطوله - ولم يكونوا على اتفاق فيما بينهم وبين عثمان ولا على اتفاق فيما بينهم وبين بعضهم . ومعلوم أن الأمم والجماعات إنما تدار أمورهم العامة برءوس قليلة وبقية الناس لهم تبع - فإذا لم تكن هذه الرءوس متحدة فى المبدأ والغاية صدرت الأعمال متناقضة متعاكسة بعيدة عن النفع والفلاح

وأن اختلاف رؤساء المسلمين وعدم الاخلاص فيما بينهم هو الذى أفسح مجال الدسائس والسعايات ، فإن إخلاص الرؤساء بعضهم لبعض وتعاونهم فيما بينهم على قضاء المصالح العامة يقطع على مريد السوء والفساد طريق الفتن والثورات فأما إذا انصدع الشمل وتحولت القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر ، انفسح المجال لرواد الفتن ومحبى الاضطراب وعلى هذا كانت الحال فى المدينة وهى حاضرة الخلافة ومجتمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر وإن من وقف على أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة فى حق عثمان سواء فى وجهه أو فى غيبته يحكم صادقا أن النفوس كانت منطوية على الضغن له . لذلك أفسحوا للأقوال فى عثمان المجال ولم ينه بعضهم بعضاً عن ذلك وكان بعضهم يكاتب السبيئة وأهل الشغب ويستقدمهم إلى المدينة . وما كان يليق بأمثالهم أن يجعلوا معولهم على أهل الشقاق دون الأعلام من أصحاب رسول الله الذين فى الأمصار . ولكن الذين كتبوا يستقدمون أهل الشقاق إنما آثروهم لأنهم يعلمون أن أعلام أصحاب الرسول فى الأمصار يكونون أكثر تثبتا وأقل أقداما على مايحل . وهم وإن كانوا يكتبون فى الكتب الاستغاثة بأصحاب رسول الله غير أن كتبهم إنما كانت ترد على فئة خاصة مشاقة قلما يكون فيها واحد أو اثنان من أصحاب رسول الله .

ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن حويطب بن عبد العزى قال أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدالى أن أتهم نفسى لهؤلاء فأت عليا وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم تولوه واصنعوا فيه ما شئتم . فخرجت حتى جئت عليا فوجدت بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد . ثم انصرفت فأتيت الزبير فوجدته فى منزله ليس ببابه أحد فأخبرته بما أرسلنى به عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين هل جئت عليا ؟ قلت نعم فلم أخلص إليه . فقمنا جميعا فأتينا طلحة بن عبد الله فوجدناه فى داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين . هل جئتم عليا ؟ قلنا نعم فلم نخلص إليه ، فأرسل طلحة إلى الأشتر

وأتاه فقال أخبره وأخبرته بما قال عثمان . فقال طلحة ـ وقد دمعت عيناه ـ قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين . وقام الأشتر فقال : تبعثون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا . وأخرج كتابا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين . أما بعد أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل ان يسلبها أهلها . فإن كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت وأحكام الخليفتين قد بدلت فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلا أقبل إلينا وأخذ الحق لنا وأعطاناه فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ وأقيمو الحق على المنهاج الواضح الذى فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء . غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا وحيل بيننا وبين أمرنا وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة وهى اليوم ملك عضوض من غلب على شيء أكله ، أليس هذا كتابكم إلينا ؟ وقال الطبرى إن عثمان رمى بوصيته إلى الزبير فأخذها وانصرف ـ وفى الزبير خلاف هل أدركه مقتل عثمان أو خرج قبله ـ وقال عثمان : يا قوم لا يجرمكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وماقوم لوط منكم ببعيدو ياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه أن ربى رحيم ودود ـ اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشياعهم من قبل . وبعثت ليلى بنت عميس إلى محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فقالت : إن المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس . فلا تأثما فى أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما . فإن هذا الأمر الذى تحاولون اليوم لغيركم غدا . فاتقوا الله أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم . فلجا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ما صنع بنا عثمان ـ وتقول ما صنع بكما إلا ماألزمكما الله فلقيهما سعيد بن العاص وكان بينه وبين محمد بن أبى بكر شيء فأنكر حين لقيه خارجا من عند ليلى فتمثل له فى تلك الحال بيتاً :

استبق ودك للصديق ولا تكن   فيئاً يعض بخاذل ملجاجا

فأجابه سعيد متمثلا :

ترون إذاً ضربا صميما من الذى   له جانب ناء عن الجرم معور

ولما قدم السابق من الحاج بسلامة الناس . أخبر أن الناس جميعا يريدون المصريين وأشياعهم وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك إلى حجهم . فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار أعلقهم الشيطان . وقالوا لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم واجتلدوا فناداهم عثمان . الله الله أنتم فى حل من نصرتى فأبوا ففتح الباب وخرج ومعه السيف والترس لينهنهم ، فتراجعوا وعظم على الفريقين وأقسم على الصحابة ليدخلن . فأبوا أن ينصرفوا فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين. وقد كان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حج ثم تعجل فى نفر حجوا معه فأدرك عثمان قبل أن يقتل وشهد المناوشة ودخل فى الدار فيمن دخل وجلس على الباب من داخل وقال : ما عذرنا عند الله أن تركناك ونحن نستطيع أن لا ندعهم حتى نموت . فاتخذ عثمان القرآن تلك الأيام نجيا يصلى وعنده المصحف فإذا أعيا جلس فقرأ فيه ، وكانوا يرون فيه القراءة فى المصحف من العبادة .

وقد أثرت كلمات فى حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة ، كما قدمنا . كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان للأسباب التى أدت بهم إلى مثل ذلك بيانا شافيا ومن غير نظر إلى ما تحدثه كلماتهم بين العامة وبخاصة إذا صادفت آذانا مصغية من مهيجين مثيرين .

السبب الثانى — يقول زهير بن أبى سُلمى :

ومن لم يذُدْ عن حوضه بسلاحه   يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

وقد كان عثمان رجلا قد استولى عليه من الأخلاق الحياء واللين : أما حياؤه فكان مشهورا به فى الجاهلية والإسلام ، وقد قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة » ومعلوم أن

خلق الحياء يحمل صاحبه على الأغضاء عن كثير مما يكره وأما اللين فدعاه إليه أنه يحب السلامة والعافية ويكره الفتن ويخاف أن يكون فاتح بابها على الأمة ويتشاءم من كل أمر يظنه مؤديا إليها . وهو فى كل كتبه وخطبه يحذر الناس الفتنة ويأمرهم بتوقى أسبابها وينهاهم عن التورط فى حبائلها ، حتى أن خطبته التى قالها على المنبر لأول مرة لم تخل عن ذكر الفتن ومغباتها وما تستعقب من وبال والتحذير من ذلك .

أما الخلق الأول وهو الحياء فدعاه إلى التسامح مع من يناله بالأذى أو يقصده بالسوء فلا يوجه إلى أحد من المعتدين كلمة تسوءه . لأن صاحب هذا الخلق يخجل أن ينسب إليه قبيح ولو كان دفاعا ويحب أن يؤثر عنه الجميل من القول والعمل وكم من مرة قد جهد عثمان أن يخرج نفسه عن سيرته الأولى ليكف الناس عنه ويهابوا جانبه ولكن تأبى الطباع على الناقل ، وهذا الخلق الكريم لايحسن إلا بالمتسمتين وفلاسفة الأخلاق ومن نصبوا أنفسهم ليكونوا قدوة للناس فى العفو والصفح . وأما أهل الحكم والسلطان والقول النافذ فى الرعية فإنهم يحتاجون إلى هيبة تملأ القلوب وتقف بالناس عند حد الإجلال لهم والإعظام لشأنهم والإكبار لمقامهم .

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

هذا عمر بن الخطاب — قد جاء سعد بن مالك وهو يقسم العطاء ينحى الناس ويفرقهم حتى خلص إليه مدلا بماله من سابقة وحسن بلاء فلم يحجز ذلك عمر أن خفقه بالدرة وقال له : جئت لاتهاب سلطان الله فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك . فالسلطان أحوج الناس إلى قوة تنحى عنه الضعف وتنكب به عن الذلة . وعثمان لم يكن له حظ من القوة اللائقة بسلطان الخلافة

أما خلق اللين فقد قبض يده عن زعماء المفسدين وقادة المشاقين الذين رفعوا إليه وثبت عليهم أنهم إنما قدموا للمشاقة والفتنة فلم يتناولهم بعقاب يبين آثار ذنوبهم على صفحات جنوبهم . وقد كان فى مقدوره أن يقطع أعناق الفتنة بنكالهم وقد أمكنه الله من نواصيهم . ولما أراد مشاورة ولاته فى تلافى الخطر

أشاروا عليه بما فى بعضه مقنع وحسم لمادة الداء لو أخذ الأمر بالحزم ولم يمل إلى جانب العجز . فلم يعبأ بالقول . ولم يفر ما خلقوا من خطة الجد . بل اختار جانب اللين خشية أن يكون فاتحاً باب الفتنة التى كان شبحها يخيفه فى كل حركاته وسكناته ـ واجتزأ من نكال محركى الفتنة ومثيرى عجاجها بأن احتج لنفسه وأبدى عذره فى كل أمر جاءوا لإثباته عليه فى حين أنهم جماعة قد بيتوا الأمر واختمر فى نفوسهم زمناً . والجماعة لا يمكن أن تؤثر فى نفوسهم الأقوال المعقولة والبراهين القاطعة إذ الجماعات فى العين شخص أصم عن الموعظة مصغ إلى التهييج متلبب لفعل الشر . والجماعات إنما تهاب القوة وتخضع للقسر والقهر فهى معبودها الأول ودينها الذى تدين له . فما زاد عثمان الأمر باعتذاره إلا فساداً وقوى فيهم الجرأة عليه والإقدام على مساخطه . والقوم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجةُ على المحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه كلما أعجزهم باب التمسوا غيره . فضعفه هو الذى جرأهم عليه

السبب الثالث : — ماخالف به عثمان صاحبه عمر فى أعلام قريش : فإن عمر كان يحجر عليهم فى المدينة فلا يسمح لهم أن يفارقوها إلا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك . وكان هذا مما حببه إليهم أكثر من عمر — ولكن هذا السماح قد جنى على عثمان وترتب عليه ما كان يحذره عمر . فإنه قد اجتمع إلى أعلام قريش أناس ممن لا سابقة لهم فى الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم مقدرين أنه إذا أفضى الأمر إليهم فى يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فنبه بذلك ذكرهم وطار لهم صيت وجرت أسماؤهم على الألسنة .

يشهد لذلك أن أهل البصرة كانوا يحطبون فى حبل طلحة ويجهدون فى أن يلى الخلافة بعد عثمان ، وكان أهل الكوفة يريدون الزبير بن العوام . ولولا اضطراب هؤلاء الرهط فى الامصار أيام عثمان ما كان لواحد منهم شيعة فى بلد من البلدان

لا شك فى أن علياً لم يهبط إلى مصر ولا إلى غيرها من البلاد . غير أنه كان له دعاة متطوعون بالدعوة يشيدون بذكره ويروجون أمره فيها وهم عبدالله بن سبأ

الذى استفسد الناس باسمه وأدخل على الأمة ضرباً من الإلحاد على حسابه. ومحمد بن أبى بكر ربيبه فإن أسماء بنت عميس زوج أبى بكر تزوجت بعد بعلى بن أبى طالب وابنها محمد بن أبى بكر صغير فربى فى حجرها ورباه على فكان له كالوالد . فلما سقط إلى مصر آوى إلى محمد بن أبى حذيفة وعنده من الحنق على عثمان ما أكل صدره ومحمد بن أبى بكر موتور من عثمان لما قدمنا واتحادهما فى عداوة عثمان يوحد وجهتهما فكانا على الحط على عثمان وتمهيد امر على ولا يبعد أن يكونا أو أحدهما قد استعمل اسم على فى التأليب على عثمان وإثارة الثائرين عليه وعلى لا يعلم ذلك ، فقد حلف أنه ما كتب للمصريين كتابا ولا دعاهم . ولما قدمنا كان هوى أهل مصر فى على بن أبى طالب فلم تكن مطالب أهل الأمصار إلا نتيجة لازمة لما سامح به عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أو إلى من هو بسبيل منهم رجاء أن يكون لهم شأن نابه وصيت طائر إذا انتقلت الخلافة من عثمان إلى صاحبهم .

لهذا لما تم الأمر لعلى بن أبى طالب صاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه وحارباه وجهدا فى نقض بيعته والتأليب عليه . وقد قال الأستاذ الخضرى : لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التى سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ـ ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيق مع المتآمرين ـ والذى يؤخذ عليهم هو هوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الأقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع ـ هذا السبب أسوقه عن محاضرات الأستاذ الخضرى مع ما يمكن أن يعرض من استدراك أو توضيح مما أراه :

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون . وهم فى هذا الحال لا يصطبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم . بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلما ويسرون إن كان ساراً . وقد كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم ، عرباً يحبون العدل والمساواة ويطربون لذكرها .

وقد ذوقهم عمر حلاوة ما يعشقون من الحرية والعدل والمساواة وقوى ذلك فى نفوسهم فجاء ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ إلى القوم من الجهة التى يألفونها وهى نقطة ضعفهم وصار يضع لهم الكلام فى تعظيم الرسول وأهـــل بيته ويعسوبهم على بن أبى طالب ووسمه بأنه وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لكل نبى وصى . وأنه من الحق الواجب أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم . ثم أخذ يذيع ما يدسه مدحاً لعلى ابن أبى طالب حتى سما به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه وتخطى به طوره إلى أن وضعه موضع الألوهية . وغير هذا الأمر الأخير من الكلام يسهل إدخاله فى القلوب وبخاصة إذا كان قد سبقه شىء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة . ولذلك نرى هذا الرجل كان يتتبع من أصابه من ولاة عثمان أذى فى نفسه أو ماله ، ويفضى إليه بما رتبه من القول وهيأه من الإذاعة . ثم جاءهم من قبيل العدل والمساواة وهى كلمات طنانة يؤلها الجمهور ويصغى إليها الناس . حتى إذا ما أيقن أنه استهوى القوم بما نفث من الرقى ، أخذ يطعن فى أمراء عثمان مرة بأنهم شبان . ومرة بأنهم من ذوى قرباه ، وأخرى بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً .

والموتورون — الذين كانوا يوازرونه ويؤيدونه لأغراض فى أنفسهم — تلقفوا الأمر بحذق ، واشتغلوا به بمهارة . فصارت شيعتهم فى كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات التى يتزيدون فيها ما شاءت لهم ضغائنهم وأهواؤهم ، فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ، ويقولون : نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس . وهم لا يعلمون أن إخوانهم بالمصر الآخر يتوجعون لهم ويحمدون الله على العافية مما أصيبوا به . بذلك كله تهيأ لهم أن يوغروا صدر العامة ممن يجتمع عليهم ، وليس لشىء مما يكتبون صحة . فقد كانوا يعيبون معاوية . وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبوبكر وولاه عمر . ولم نر من العمال من استمر موثوقاً به

من عمر حياته كلها إلا أفراداً قليلين منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان والياً من أول حياة عمر إلى آخرها .

وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها . وإني لم أقف لهم في معاوية على عيب أو عمل منتقد إلا ما قالوه في مسألة أبي ذر . والمنصف يرى أن عمل أبي ذر وقوله فيما دعا إليه لم يكن فيه مصيباً ، بل هو يدعو إلى الشقاق والخلاف والتكالب على الدنيا والإسهام في المال لمن لا يستحق . وكانوا يعيبون عبد الله بن أبي سرح لا لأنه ظالم أو جائر ولكن لأمر آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أهدر دمه يوم الفتح لما كان من ردته ثم استوهبه منه عثمان وأتى به تائباً مسلماً فعفا عنه . ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عفا فإنما أسبل على الذنب ستراً لا يكشف وليس عبد الله بن سعد فيما أتى بأكثر من العدد الجم من الشاغبين إذ ارتدوا مع قبائلهم عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم يعيبون عليه شيئاً أحدث عهداً به منه . وكانوا يعيبونه بتولية الوليد بن عقبة ، وعثمان لم يبتدىء بتوليته ولكنه كان والياً لعمر من قبله على الجزيرة وإنما نقله عثمان منها إلى الكوفة فلما جاء كان أحسن وال سيرة إلى أن شغبوا عليه وشهدوا عليه بشرب الخمر شهادة لا يعلم إلا الله إن كانوا قد بروا بها أو فجروا فحده وعزله عنهم. وقد استضعف على رأى من عد ذلك على عثمان . وقال ما معناه لا تكن كمن يطعن نفسه ليصل بالطعنة إلى رديفه ليقتله ! ما لعثمان وللوليد ؟ وما ذنبه إن عثمان قد ولى الوليد ؟ فلما استوجب الحد حده وعزله فما ذنبه فيما كان عن ملأ منا ؟ وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل الكوفة من أجود العمال في عمله وأشدهم تحرياً للعدل والقسط فلم تكن هذه المذام والأمور التي يتجنون بها على العمال موجهة بحق لرفع جور أو إزاحة حيف ، وإنما كان يقصد بها التأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذه الأقوال دون احتياج إلى دليل أو برهان لأن الأدلة والبراهين والحجج العقلية والنتائج المنطقية لا تؤثر في عقول الجماعات ولا تتفق معها .

وقد ساعد على استفحال الشر أولياء الأمر وأصحاب الرأى فى الأمصار إذ لم يبادروا الشر قبل استفحاله ويأخذوا الحيطة من تفاقم الفتنة — لأن أمراء الخليفة لم يكن لهم مثل هذا السلطان . والخليفة آخذ على أيديهم مشفق أن يبسطها فيفتح عليه باب الفتنة الذى يسعى إلى سده جهده حذراً من أن يأمر بذلك ، فضاعت مصلحة الأمة . وإذا أردنا أن نحمل الناس فى ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة فى ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا فى زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك التجنى .

هذا رأى الأستاذى الخضرى ومن رأيي أن عثمان يحمل قسطا ليس بالقليل فى شأن تلك الجناية لأنه إذا كان قد عرف من نفسه الرقة واللين فكان الأجدر به أن يترك الأمر لغيره ولا ينكب الأمة بقتله ولا يفجعها هذه الفجيعة الحارة المرة .

وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : « وأما إفضاؤه إلى بنى أمية بأموره دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة واقتطاعهم الأمور دونه فهو الأمر الذى اهتزت له أعصاب المهاجرين وحذر عاقبته عقلاء المسلمين خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الأموية . . ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته وإن أكثر ما هاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالأمر الذى لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين لاسيما أولى السابقة منهم والمهاجرين . فقد كان حريصا على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة (من الظلم أن نقول الأمة ولكن الأولى أن يقال أهل الفتنة) فيهم . وليس لهذا الإصرار على ما بطهر لنا من سبب إلا أحد أمرين : إما لأن قومه استلانوا جانبه واستضعفه فغلبوا على رأيه فيهم وإما لأنه أحس منذ عهد عمر للستة ووقوع الاختيار بصورة تحزب بين الشعب وتشيع يجر إلى الاختلاف عليه والكيد له . فخشى إنْ هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته أن يتوثب عليه عمال الأمصار فلا يجد

دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوى قرابته وولاهم على الأمصار ، فلما كثر الإرجاف بهم والطعن عليهم ورغب إليه الناس فى عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك فى الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر على بقاء الولايات فى ذوى قرابته وركن إليهم واعتمد فى الأمور عليهم فكانت له ولهم إثرة أنكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الإنكار وتدرع الثائرون عليه بتلك الأحداث إلى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الأثرة هى السبب الأول فى استفحال أمر الفتنة التى لما اشتدت نارها واشتعل أوارها أصبح إطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة وقادة الناس . وربما ندموا حينذاك على ما تقدم ولات ساعة مندم . أخرج ابن عساكر عن الأوزاعى أنه قال : قيل لعلى بن أبى طالب : أفقتل عثمان منافقا ؟ قال لا ولكنه ولى فاستأثر وجزعنا فأسأنا وكلٌ سيرجع إلى حَكم عدل . فإن تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فما شاء الله » اهـ .

ومن الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين فنى بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة ، وفى بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهى دائما بعداء ونفور . وليس ذلك إلا لأن المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا . خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سىء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشى لا يتفق مع أصول الإسلام . ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو نبين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان ، فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية .

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع

كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح . وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً . وهم فى كل زمن كثيرون فما ظنك بالأمة إذا كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر بإغضائه وتهاونه . إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيمر بنا فى التاريخ من ذلك شىء كثير

قبل الحصار

ألخص هنا رواية الطبرى إلى محمد بن مسلمة ـ قال : خرجت فى نفر من قومى إلى المصريين . وكان رؤساؤهم أربعة : عبد الرحمن بن عديس البلوى . وسودان بن حمران المرادى ، وعمرو بن الحمق الخزاعى ـ وقد كان هذا الإسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الحمق — وابن النباع . فدخلت عليهم وهم فى خباء لهم أربعتهم . ورأيت الناس لهم تبعاً . فعظمت حق عثمان وما فى رقابهم من البيعة . وخوفتهم الفتنة . وأعلمتهم أن فى قتله اختلافا وأمراً عظيما . فلا تكونوا أول من فتحه . وأنه ينزع عن هذه الخصال التى نقمتم عليه فيها وأنا ضامن لذلك . قال القوم : فإن لم ينزع ؟ قلت : فأمركم إليكم . فانصرفت عن القوم وهم راضون .

رجعتُ إلى عثمان فقلت : اخلنى . فأخلانى ، فقلت : ياعثمان ، اتق الله فى نفسك . فإن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك. وأنت ترى خذلان أصحابك لك . لا ، بل هم يقوون عدوك عليك . فأعطانى الرضا . وجزانى خيراً .

أقمت ما شاء الله أن أقيم . وقد تكلم عثمان برجوع المصريين . وذكر أنهم جاءوا الأمر فبلغهم غيره فانصرفوا . فأردت أن آتيه لأعنفه ثم أمسكت . فإذا قائل يقول : إن المصريين قدموا وهم بالسويداء . فأرسل إلىّ عثمان فقال : ياأبا عبد الرحمن هؤلاء القوم قد رجعوا فما الرأى فيهم ؟ قلت لا أدرى إلا أنى أظن أنهم لم يرجعوا لخير . قال : فارجع إليهم فارددهم . قلت : لا والله ما أنا بفاعل. قال : ولم ؟ قلت لأنى ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف منها. فقال: الله المستعان .

جاءنى ابن عديس ومعه سودان بن حمران وصاحباه، فقالوا : ياأبا عبدالرحمن ألم تعلم أنك كلمتنا ، ورددتنا ، وزعمت أن صاحبنا نازع عما نكره ؟ قلت بلى . فإذا هم يخرجون إلى صحيفة صغيرة فى قصبة من رصاص يقولون وجدنا جملا من إبل الصدقة عليه غلام عثمان ، فأخذنا متاعه ففتشناه ، فوجدنا فيه هذا الكتاب . فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة ، واحلق رأسه ولحيته ، وأطل حبسه ، حتى يأتيك أمرى . وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك . وسودان بن حمران مثل ذلك . وعروة بن النباع مثل ذلك . قلت : وما يدريكم أن عثمان كتب هذا ؟ قالوا : فيفتات مروان على عثمان بهذا ؟ فهذا شر . فيخرج من هذا الأمر ، ثم قالوا : انطلق معنا إليــه ، فقد كلمنا علياً ووعدنا أن يكلمه إذا صلى الظهر . وذكروا أنهم كلموا ناساً من أصحاب رسول الله فأبوا أن يكلموا عثمان

قال محمد بن مسلمة : ثم دخلت عليه أنا وعلى ، فقلنا : إن هؤلاء المصريين بالباب ، فأذن لهم ومروان عنده جالس . فقال : دعنى جعلت فداك أكلمهم . فقال عثمان . فض الله فاك ، وما كلامك فى هذا الأمر؟ فخرج مروان ، وجعل على يخبره ما وجدوا فى كتابهم . فجعل عثمان يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شوّر فيه وصدقه محمد بن مسلمة ، فقال على : فأدخلهم ليسمعوا عذرك ، ثم أقبل عثمان على على يقول له : إن لى قرابة ورحماً ، والله لوكنت فى هذه الحلقة لحللتها عنك ، فاخرج إليهم فكلمهم فإنهم يسمعون منك ، فأبى على ، ودخلوا فقالوا : سلام عليكم ولم يسلموا عليه بالخلافة . ثم قدموا فى كلامهم ابن عديس ، فذكر ماصنع ابن سعد بمصر . وذكر تحاملا على المسلمين وأهل الذمة . وذكر استئثاراً منه فى غنائم المسلمين، وإذا قيل له ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين إلىّ .

ذكروا مع ذلك أشياء مما أحدث بالمدينة وماخالف به صاحبيه ، وأنهم رحلوا من مصر لا يريدون إلا دمه أو ينزع ، وأن محمد بن مسلمة ردهم وضمن لهم النزوع عن كل ماتكلموا فيه . (وصدقهم محمد بن مسلمة) . قالوا : ثم رجعنا إلى بلادنا نستظهر بالله عز وجل عليك ويكون حجة لنا من بعد حجة ،حتى إذا

كنا بالبويب . أخذنا غلامك : فأخذنا كتابك وخاتمك إلى عبد الله بن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا والمثل بنا فى أشعارنا وطول الحبس لنا ، وهذا كتابك قال عثمان : والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت . قال محمد بن مسلمة : فقلت وعلى جميعاً : قد صدق . فاستراح لها عثمان . قال المصريون : فمن كتبه ؟ قال : لاأدرى . قالوا : أفيجترأ عليك ، فيبعث غلامك ، وجمل من صدقات المسلمين ، وينقش على خاتمك ، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم ؟ قال نعم . قالوا فليس مثلك يلى . اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه . قال : لا أنتزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل وكثرت الأصوات واللغط . فما كنت أظن أنهم يخرجون حتى يواثبوه . وقام على فخرج وخرجت معه وقال للمصريين : اخرجوا فخرجوا . ورجعت إلى منزلى ورجع على إلى منزله . فما برحوا محاصريه حتى قتلوه .

إذا سلمنا رواية محمد بن مسلمة هـــذه جاءتنا أمور وهى محل العجب وموضع الغرابة .

هذا غلام عثمان حاضر بالمدينة ، وجمل الصدقة الذى وجده المصريون والغلام عليه موجود . فما بال عثمان لا يسأل الغلام عن الشخص الذى سلم إليه الكتاب أو الظرف وهو فيه ؟وما باله لا يسأله عمن أمره بالمسير إلى مصر . وعن الذى أعطاه جمل الصدقة . وما باله لا يسأل القيم على إبل الصدقة عمن أخذ ذلك الجمل . ولم أخرجه منها بدون إذن أمير المؤمنين ؟ فى هـــذه الحال كان يتبين الذى افتعل الكتاب . والذى وجه بالغلام إلى مصر . وحينئذ يعرف المصريون أين ثأرهم وحينئذ يقع عليه الجزاء العادل . ويعاقب بنفس العقاب الذى تضمنه الكتاب .

غير أن عثمان لم يفعل . وحينئذ يكون معذوراً من يتهمه بالتهاون .

كيف قتل عثمان ؟

رأى الشاغبون أنه لا مفر لهم من أحد أمرين ليأمنوا على أنفسهم . أحدهما أن يخلع عثمان نفسه من الخلافة فيكون ذلك سبباً لعزل عماله من الخليفة

الجديد حتى لا يصطلمهم العمال إذا رجعوا إلى بلادهم : ثانيهما : قتله وذلك يستتبع تغيير عماله قطعاً فينجو كل واحد من العقاب . فلما طالت مدة الحصار ولم يجدهم الاحتجاج على عثمان والتردد عليه مرة بعد مرة أخرى وأحسوا عودة الحاج وفصول من فصل من الأمصار لإغاثته وأن ذلك متى تم خرج الأمر من أيديهم ، وفى ذلك نكالهم ، هموا بالدخول عليه واقتحام داره من بابها ، فاحرقوا الباب وقاتلهم من كانوا بالدار لحماية عثمان غير مصغين لنهيه إياهم عن القتال ، وكان منهم المغير ابن شريق والحسن بن على ومحمد بن طلحة وعبد الله ابن الزبير ومروان وأبو هريرة وغيرهم وكان بين الفريقين قتلى وجرحى على باب الدار .

رأى أولئك المحاصرون أن اقتحام الدار من بابها يكلفهم ثمنا غاليا فاقتحموا دار عثمان من غير بابها . بل تسوروا عليه من دار ملاصقة لداره وهى دار عمرو بن حزم حتى ملأوا الدار ولا يدرى من بالباب . فدخل عليه رجل فقال اخلعها وندعك فقال ويحك والله ما كشفت امرأة فى جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يمينى على عورتى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء . فخرج عنه . ومعنى عبارة أنه لم يفعل ما يوجب إراقة دمه ولا يكون بسبيل ذلك . ثم دخل عليه ناس رجعوا ولم يمسوه بأذى آخرهم محمد بن أبى بكر . فقال له عثمان : ويلك أعلى الله تغضب ؟ هل لى إليك جرم ألا احقه أخذته منك . فأخذ محمد لحيته وقال : قد أخزاك الله يانعثل (اسم رجل قبطى كانوا يشبهون عثمان به لعظم لحيته) فقال : لست بنعثل ، ولكنى عثمان وأمير المؤمنين . فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ؟ وقبض على لحيته فقال : يابن أخى ما كان أبوك ليقبض عليها . فقال : لو رآك أبى تعمل هذه الأعمال لأنكرها عليك . والذى أريد بك أشد من قبضى عليها . فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به . فتركه وخرج .

هذا هو الصحيح من أمر محمد معه .

ثار بعد ذلك قتيرة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وضرب المصحف الذى كان عثمان يقرأ فيه برجله فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فأكبت عليه نائلة لتقيه ، فنفحها بالسيف فأطن أصابع يدها وولت . وهنا اختلف فيمن ضربه الضربة التى كان بها قتله ففى رواية أنه سودان بن حمران وفى رواية أنه كنانة ابن بشر التجيبي . وفى ذلك الوقت دخل غلمة من غلمان عثمان مع القوم لينصروه فلما ضربه سودان ضرب بعض أولئك الغلمان سودان على رقبته فقتله ووثب قتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما فى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى : عثمان ، وسودان ، وغلام عثمان .

لما خرج القوم من الحجرة التى ترك فيها عثمان قتيلا ، وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله وثار القوم فأخذوا ما وجدوه فى الدار حتى ما على النساء . وأخذ كلثوم التجيبي ملاءة من نائلة فقتله غلام لعثمان . ودخل عمرو بن الحمق على عثمان وبه رمق فوثب على صدره وطعنه تسع طعنات ؛ وأرادوا قطع رأسه فصاح بهم النساء فقال ابن عديس اتركوه . وأقبل عمير بن صابىء فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال : سجنت أبى حتى مات فى السجن . وماج الناس وتنادوا : أدركوا بيت المال ولا تسبقوا إليه فهرب حارساه ، وانتهب الناس غرارتين مملوءتين فضة كانتا فيه : وكان قتله لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، يوم الجمعة

أما مدة خلافته فهى اثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما ، واختلف فى سنه فالمقل يقول خمسا وسبعين سنة والمكثر يقول تسعين سنة

وسبب اضطغان عمير بن ضابىء على عثمان حتى كسر ضلعه بعد قتله أن أباه ضابئا استعار أيام ولاية الوليد بن عقبة الكوفة من قوم من الأنصار كلباً يدعى قرحان يصيد الظباء فحبسه عنهم ، وانتزعوه منه قهراً فهجاهم بقوله :

تجشم دونى وفد قرحان خطة   تضل لها الوجناء وهى حسير
فباتوا شباعا طاعمين ، كأنما   حباهم ببيت المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم   فإن عقوق الأمهات كبير

فاستعدوا عثمان عليه ، فحبسه ومات فى سجنه ، وقال وهو فى السجن .

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى   تركت . على عثمان تبكى حلائله
وقائلة قد مات فى السجن ضابىء   إلا من لخصم لم يجد من يحاوله

لهذا صار ابنه عمير سبئيا

وقد اتفق رأى كميل بن زيادة وعمير بن ضابىء على الفتك بعثمان فى حياته فقدما المدينة ، فأما عمير فنكل وتقدم إليه فثاوره فوجأ عثمان وجهه فوقع على أسته ، فقال : أوجعتنى يا أمير المؤمنين ، فقال أولست بفاتك ؟ قال : لا والله ، فقال استقد منى ، فعفا عنه ، وبقى الرجلان إلى أيام الحجاج فقتلهما وسيجىء ذلك

دفن عثمان

رويت فى دفن عثمان روايات أدناها إلى الإنسانية رواية جاء بها ابن الأثير أنه شهد جنازته على وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من ثم من أصحابه .

وهناك رواية تقول : إن عثمان بقى ثلاثة أيام لا يدفن ثم إن حكيم بن حزام القريشى وجبير بن مطعم كلما علياً فى أن يأذن بدفنه ففعل . فلما سمع بذلك أولئك الثوار قعدوا له فى الطريق بالحجارة ليرجموه إذا مر . وسمع على بذلك فأرسل يمنعهم وخرج به ناس يسير عددهم من أهله وغيرهم فيهم الزبير والحسن وأبو الجهم بن حذيفة ومروان بين المغرب والعشاء فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة خارج البقيع يقال له حش كوكب فصلى عليه أحد الحاضرين وجاء أناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثم تركوا ذلك خوف الفتنة ثم دفن فى ذلك الحائط . فلما كانت أيام خلافة معاوية وصل ذلك الحائط بالبقيع وأمر الناس بالدفن حول قبر عثمان . وهناك روايات أخرى أفظع . فإذا لم تصح الرواية الأولى فإن القوم يكونون قد استعملوا مع عثمان من الوحشية ما يقبح استعماله مع الكفار وعبدة الأوثان ولا يليق صدوره من إنسان فضلا عن مسلم .

علي بن أبي طالب

كيف انتخب ؟ إن الأحوال التي احتفت ببيعة علي بن أبي طالب والمناسبات التي حصل فيها انتخابه لم يكن لها نظير في انتخاب الخلفاء الذين تقدموه ولا بيعتهم فإن بيعة أبي بكر كانت عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشملُ مجتمع وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار شهود يرون ويسمعون لهم أن يبرموا ما اجتمعت عليه الكلمة وأن ينقضوا ما لم يرضوا به . فلم يكن ثمة غير يسير اختلاف ثم ثابت الأحلام وفاءت السكينة وتم الأمر لأبي بكر . ولم يتخلف عن البيعة سوى علي بن أبي طالب أياماً أو نحو سبعين ليلة على خلاف في ذلك ، وسعد بن عبادة من الأنصار وقليل من بني هاشم تأخروا ثم بايعوا . ومن عدا هؤلاء فقد أعطى يده بالطاعة عن رضى .

وأما عقب وفاة أبي بكر فلم يكن ثم مجال للخلاف . لأن أبا بكر كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته والانتهاء إلى ما صنع . وكان أعلام الصحابة كذلك شهوداً - وعند وفاة عمر كان أعلام قريش والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار شهوداً . وعمر لم يترك الأمر بين القوم فوضى بل كان قد سن لهم قانون الشورى على علاته ، فأصاب الانتخاب عثمان بن عفان وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر ليعينوا واحداً منهم للخلافة ، وقد بين لهم جزاء المخالف منهم وهو القتل .

أما عند موت عثمان بن عفان ، فقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غير شاهدين للأمر وكثير منهم أبى عن بيعته ولم يرضوا بالدخول في طاعته ولم يكن الأمر على حال هدوء وسكون بل كانت الكلمة العليا للثوار على عثمان والأمر النافذ لهم ومن كان مقيماً من أعلام الصحابة فقد نفضوا أيديهم من الأمر بغضة لعثمان وسرهم أن يكفيهم أمره أولئك الثائرون وهم شذاذ من الآفاق وأوزاع متفرقون من أمصار مختلفة وقبائل متباينة

لاسابقة لهم ولا قدمة ولا أثر خير فى الدين ـ وهم وإن كثروا بالنسبة إلى أهل المدينة خاصة فليسوا بالشىء الذى يؤبه له بالقياس إلى أهل الأمصار ومن يتبعهم من مرابطة الثغور وأجناد الأقطار ـ أضف إلى ذلك أنهم أهل شغب وفتنة قد عرف رؤوسهم بذلك وشهروا بالشر بين قبائلهم وأمصارهم .

لم يكن فى نظر جمهور السبئية أليق للخلافة من على ، خصوصاً والذى تولى كبر هذه الثورة هم المصريون وهم شيعة على وهواهم معه فكانت كلمته غالبة على سائرهم وكأن أهل المدينة كانت أحلام أكثرهم شاردة عنهم فثابت ، وقد ظلل عثمان جلال الموت فاجتمع الناس فى المسجد وكثر الندم والتأسف على عثمان وسقط فى أيديهم وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموهما بقتله وقال الناس لهما : أيها الرجلان قد وقعتما فى أمر عثمان فخليا عن أنفسكما فقام طلحة فقال : أيها الناس انا والله مانقول اليوم إلا ماقلناه أمس ، إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتله وسرنا وأن نكفاه وقد كثر فيه اللجاج وأمره إلى الله . ثم قام الزبير فقال : أيها الناس إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه . وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان . وكأن ذلك من الزبير ليدفع عن نفسه لوم اللائمين كيلا يقال إنه كان يسعى فى هذا الأمر لنفسه ولكى يكافئه على بدفعها عن نفسه كما دفعها هو . فقام الناس وأتوا علياً وقالوا له نبايعك فأنت احق بها . فقال ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر فمن اختاروه فهو الخليفة فنجتمع وننظر فى هذا الأمر فانصرفوا عنه ثم خلصوا نجياً وقال بعضهم لبعض : يمضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده فيثور كل رجل منهم فى ناحية فارجعوا إلى على فلا تتركوه حتى يبايع فيسير مع قتل عثمان بيعة على فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا إلى على وجاء الأشتر فقال لعلى : أبسط يدك نبايعك . فقال له كما قال لهم أولا ، فقال والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة ولم يزل به يكلمه ويخوفه الفتنة ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه

فمد يده فبايعه الأشتر ومن معه وسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به فبايعه ، وقدكان من المهم عند على أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه - وإذا كان أحد أصحاب الشورى يطمح بنظره إلى الخلافة فهما . وقد كانا يوضعان فى الأمر ولكل منهما شيعة من الثائرين تؤيده وتوازره ، غير أن شيعة على كانت أعلى صوتاً وأقوى يداً فجاء القوم إلى طلحة فأرادوه على البيعة لعلى فأبى . إلا اجتماع بقية الشورى فأتوا به يلببونه حتى بايع . روى الطبرى عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة (طلحة والزبير) فتلكأ طلحة . فقال مالك الأشتر - وسل سيفه - والله لتبايعن أو لأضربن به مابين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروى أن علياً قال لهما : إن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك ، وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا بمعنى أنه عرض البيعة عرضا سابريا من باب المجاملة لا على سبيل الجد . وجىء بسعد بن أبى وقاص فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ماعليك منى بأس فقال خلوا سبيله . وجىء بعبد الله بن عمر ليبايع ، فقال لا أبايع حتى يبايع الناس ، فقال ائتنى بحميل ، قال : لا أرى حميلا . فقال الأشتر : خل عنى اضرب عنقه ، فقال على : دعوه أنا حميله إنك والله لسيء الخلق صغيراً وكبيراً ، وتخلف عن بيعة على جمع من الأنصار منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة ونعمان ابن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان ، وهرب قوم إلى الشام ولم يبايعوا علياً ، وهم عامة بنى أمية ومن معهم ، ولم يبايعه عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وسلمة ابن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة وقد بايعه المغيرة من قريب .

(ترجمة على) هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق والده . وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة أو أكثر . ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على مراهقا وكان مقيما مع الرسول فى بيته تخفيفا

على أبيه أبي طالب . فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وقد أدرك الشرف العظيم ببذله نفسه فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ببياته على فراشه ليلة خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة حتى لا يرتاب الراصدون فى وجوده فى بيته وذلك ليلة هموا بقتله واتعدوا لذلك ليلتهم ثم هاجر إلى المدينة بعد أن أدى الودائع التى كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهلها . وبعد أن هاجر زوجه النبى صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة . وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله سوى غزوة تبوك فقد خلفه فى أهله بالمدينة . وقال المنافقون : إنما خلفه استثقالا له وزهادة فيه فخف إلى رسول الله باكيا فطيب خاطره ورده وقال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى فرضى بذلك . وقد كان فى كل غزواته ومشاهده مظفراً منصوراً ذا بلاء وغناء له الأثر المحمود والمقام الذى لا يجهل ، شجاعا مقداما على الغمرات لا تكرثه شدة ولا يبالى بمصارعة الموت . وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما لحق الرسول بربه كان على يرى نفسه أحق بالخلافة وأولى ممن عداه بأن يلى أمر المسلمين وكان يظن أن الامر يأتيه عفواً صفواً وأن المسلمين لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والسابقة والصهر . فتلبث عن طلب البيعة حتى يقوم بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتفرغ للأمر فلم يفجأ إلا بالمسلمين قد بايعوا أبا بكر وأبى على عن بيعته وقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم وتأخذونه منا أهل البيت غصبا؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون إلى آخر ما قال فى ذلك . ومكث مدة لم يبايع ثم بايع ولما مات أبو بكر بايع عمر لاستخلاف أبى بكر له وفى نفسه شىء من ذلك . ولما طعن عمر أراد أن يستخلفه وكان يود تقديمه على غيره ويرى أنه جدير بأن يحمل الناس على الطريقة المثلى ، غير أنه لم يرد أن يحمل

تبعة الأمر فجعله شورى بين ستة هو واحد منهم وكان أكبر ظن عمر فى على أن يكون الأمر إليه غير أنها صرفت عنه إلى عثمان فبايع ولم يخالف . وكان فى مدة أبى بكر بعد البيعة موضع ثقة الخليفة وكان فى عهد عمر كالمستشار له يستشيره عمر ويستفتيه فى الأحكام الشرعية ويستدخله فى مهام الأمور ، فكان من خاصته وبطانته الذين يستنصحهم ويستنزل رأيهم وينتهى إلى مشورتهم — وقد كان كذلك لعثمان رضى الله عنه صدراً من خلافته ثم تغير له فى أواخر حياته ولم تكن علاقتهما حسنة فى الظاهر وبخاصة فى أيام الفتنة فإن استبطان عثمان لبنى أمية كان يفسد على علىٍّ كثيراً مما كان على يراه نافعاً له . وكانوا يزهدونه فى على ويخوفونه جانبه .

أورد صاحب الإمامة والسياسة أن عثمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلى وهو شاك معصوب الرأس. فقال عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ، فوالله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنى لا أجد منك خلفا ولئن بقيت لا أعدم طاغيا يتخذك سلما وعضداً يعدك كهفاً وملجأ لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ومكانك منه (ولعله يريد محمد بن أبى بكر) فأنت منى كالإبن العاق من أبيه . إن مات فجّعه وإن عاش عقه . فأما سلم فنسالم وإما حرب فنحارب . فلا تجعلنى بين السماء والأرض فإنك والله إن قتلتنى لا تجد منى خلفاً ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ولن يلى هذا الأمر بادىء فتنة . فقال على إن فيما تكلمت به لجواباً ولكنى مشغول بوجعى فأنا أقول كما قال العبد الصالح : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . فقال مروان : إنا والله إذاً لنكسرن رماحنا ولنقطعن سيوفنا ولا يكون فى هذا الأمر خير لمن بعدنا . فقال عثمان : اسكت ما أنت وهذا ؟

وقد استعمل المؤلبون اسم على للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم . وأدى ذلك إلى أن خاطبه أهل مصر قائلين : إن لم تقم معنا فلم كتبت إلينا ؟ فتبرأ من الكتابة إليهم وحلف على ذلك . ولما انتهى أمر عثمان على النحو

الذى بيننا بويع له بالخلافة بالصورة التى وصفنا ، وانتهى الأمر على ذلك بعد خمس ليال قضاها الناس فى أخذ ورد وتردد فى الأمر إلى أن انتهى .

خطته السياسية

أول خطبة لعلى ـ صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ـ إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه وتعالى يؤدكم إلى الجنة . إن الله حرم حرما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق . ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة . وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباد الله فى عباده وبلاده إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض .

والذى تشف عنه خطبته أنه يريد أن ينصرف الناس إلى ما هو مهم لهم ويكفوا عن الخوض فى الشأن الذى كان . وأن يستقبلوا نمطاً من الحكم جديداً . كله إقبال على الآخرة وزهد فى الدنيا وقيام بحدود الله وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه . ولو شئنا أن نلخص خطته التى يريد أن يرسمها لهم . لقلنا : يريد أن يقول لهم ارجعوا إلى العهد الذى كنتم عليه أيام رسول الله ، وأقبلوا على الآخرة بكليتكم وأعرضوا عن الدنيا وولوها ظهوركم .

وكان على قد دخل على نائلة ذوج عثمان بعد أن لطم ابنيه الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير لظنه الإهمال منهم والتقصير فى الذب عن عثمان . وسأل نائلة من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدرى ، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم وكان معهم محمد بن أبى بكر . فدعا على محمد ابن أبى بكر وسأله عما ذكرت نائلة فقال : صدقت ، قد والله دخلت عليه فذكر

لى ابى فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى . والله ما قتلته ولا أمسكته فقالت : أصدق ولكن هو أدخلهم .

وكتبت نائلة زوج عثمان إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان وأخذه المصحف ليتحرم به وما كان من صنع محمد بن أبى بكر وأرسلت بقميص عثمان مضرجا بالدم ممزقا بالخصلة التى نتفها محمد بن أبى بكر من لحيته فعقدت الشعر فى زر القميص وأصابعها ثم دعت بالنعمان بن بشير الأنصارى فبعثته إلى معاوية. فلقى يزيد بن أسيد أرسله معاوية مدداً لعثمان فى أربعة آلاف فأخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام .

طلب الصحابة القود من قتلة عثمان

ولما تمت البيعة لعلى جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له : إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وأن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم : إنى لست أجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلا لكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا لا . قال فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله . إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها . أن الناس من هذا الأمر - أن حرك - على أمور ، فرقة ترى ما ترون : وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق . فاهدأ وأعنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا .

ثم إن علياً اشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج من المدينة وإنما هيجه على ذلك هرب بنى أمية . وتفرق القوم وبعضهم يقول والله لئن زاد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار . لترك هذا إلى ما قال علىّ أمثل . وبعضهم يقول : نقضى الذى علينا ولا نؤخره . والله إن علياً لمستغن

برايه وأمره عنا . لا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره .

ولما بلغ علياً مقالة القوم قام فحمد الله وأثنى وذكر فضلهم وحاجته إليهم وقال لهم خيراً وأثنى عليهم وتألفهم جهده ثم قال : لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته ، دفاعهم بأيديهم وألسنتهم . هم أعظم الناس حيطة من ورائه وإليهم سعيه وعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور . ومن يقبض يده عن عشيرته فإنه يقبض يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة . ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله له ما أنفق فى دنياه ويضاعف له فى آخرته . واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال . ولا يزدادن أحدكم كبرياء ولا عظمة فى نفسه ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذى لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه . واعلموا أن الدنيا قد أدبرت والآخرة قد أقبلت . ألا وإن المضمار اليوم والسبق غداً ، ألا وإن السبقة الجنة والغاية النار . ألا إن الأمل يُسْهِى القلب ويكذب الوعد ويأتى بغفلة ويورث حسرة فهو غرور وصاحبه فى عناء فافزعوا إلى قوام دينكم وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم والنصيحة لإمامكم وتعلموا كتاب الله واصدقوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم وأدوا الأمانات إذا ائتمنتم ، وارغبوا فى ثواب الله وارهبوا عذابه واعملوا الخير تجزوا بالخير يوم يفوز بالخير من قدم الخير. ثم نادى : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه .

ائتمرت السبأية والأعراب وقالوا : لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشىء . ثم خرج على فى اليوم الثالث . فقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم . فأبت السبأية وأطاعهم الأعراب ودخل على بيته وجاء طلحة والزبير وجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهم على : دونكم ثأركم فاقتلوه . فقالوا : عتوا عن ذلك . فقال : هم والله بعد اليوم أعتى وآبى . ثم قال :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم   أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

وقال طلحة : دعنى فلآت البصرة . فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل . وقال الزبير : دعنى فلآت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل . فقال : حتى أنظر

أما على ، فقد صرفهما على زعم أن ينظر ، وأحسبه كان يتخوف جانب الرجلين ويخشى أن يعيداها عليه جذعة ويستنا به سنة أهل مصر بعثمان ويكون له معهما يوم كيوم الدار

نتيجة الفتنة وقتل عثمان فى زمن على

كان المسلمون قبل انبثاق هذا البثق واشتعال جاحم الفتنة أمرهم مجتمعاً وحالهم حسنة يغبطون عليها من كل الأمم : جيوش منتصرة فى جميع الأرجاء وبلاد تفتح وعدل شامل وشمل جامع وبسطة فى الغنى والثروة وسطوة مرهوبة ، فلما ربى هذا الأمر حتى صار أمراً ووقع هذا الحادث الجلل الذى اصطلم به خليفة المسلمين ظلماً وعدواناً . كان أول وهن دخل على المسلمين وأول أمر فرق كلمتهم وأوقع بينهم الشحناء وأورثهم البغضاء وصيرهم فرقا متنافرة وفئات متدابرة يضرب بعضهم وجوه بعض هو قتل عثمان بن عفان

يدل على هذا الافتراق أن الأمة قبل قتل عثمان كانت على قلب رجل واحد ووجهتهم واحدة لا يفترقون فى شىء . فلما قتل ظهرت الشيعة وصاروا أشبه بهيئة معترف بها من الأمة غير خفية ، قام فى مقابلتها الناصبة أو العثمانية فى الشام وأقليات فى الأمصار ، وهم الذين ينزعون إلى تأثيم على فى شأن عثمان ويحملونه تبعة قتله . وأقلهم طعنا عليه من يقول أنه تهاون فى شأن قتلته فلم يتناولهم بالقصاص الواجب شرعاً .

لم يلبث الأمر طويلا حتى قام الخوارج ، وهم الذين ينقمون فى باطن أمرهم ولاية قريش ويظهرون الغيرة على الدين والحمية للشريعة ، وهم حرب لعلى ومعاوية معا . ثم افترق هؤلاء الخوارج فرقا فكان منهم : (١) الأزارقة (٢) والنجدات (٣) والعطوية (٤) والأباضية وغيرهم وغيرهم إلى ما يربو على سبعين فرقة . ولم يلبثوا أن صاروا أصحاب مذاهب فى العقيدة

ويكفرون المسلمين من أهل السنة والجماعة . مما قصه وشرحه ابن حزم فى كتابه الفصل والشهرستانى فى الملل والنحل ، والمقريزى فى خططه ومحمد بن يزيد فى كامله . ثم كان انقسام الشيعة إلى طوائف وأصناف كالزيدية والكيسانية والامامية إلى رافضة وغالية وإلى إسماعيلية وهكذا .

ولا ريب عندى فى أن هذه الفتنة وما تلاها مما كان بين على وبين عائشة وطلحة والزبير من الحرب ثم بينه وبين معاوية ثم بين الخلفاء والخوارج وغيرهم من الطوائف التى نبتت وشبوب الثورات بعد الثورات كل ذلك كان بمثابة مرض عضال طرأ على الأمة وهى فى عنفوان شبابها وميعة فتوتها فوقف فيضها الحيوى وعاقها أن تقوم بما يجب لمثلها من النمو وصدها عن استكمال شبابها على الحال اللائقة بها . وعلى الجملة فإن هذه الفتنة كانت شللا فى حياة الأمة الإسلامية ومصدراً لإنحراف مزاجها وثلمة تعرض منها جسم تلك الأمة لمختلف الأمراض والعلل . ولولا تلك الفتنة وما نتج عنها لتغير وجه التاريخ ولكان الإسلام قد سال سيله على الأمم فى جميع الأقطار والأصقاع ، ولرأينا الأمم التى هى من أعدى أعداء الإسلام اليوم واشدهن نكاية به أعظم من يطريه ويتعصب له ويغلو الغلو كله فى إعلاء قدره والإشادة بذكره .

أول عمال على

إن الأيدى التى بايعت علياً بالأمس كانت ملوثة بدم الخليفة المقتول وكان أكبر ما يزعمونه من الحجج على قيامهم هذا واجتراح ما اجترحوا من الإثم عماله الذين ملأوا الدنيا عجيجاً بالشكوى منهم وأذاعوا قالة السوء عن كل أمير منهم فى مصره . فإذا أقر على أولئك العمال على أعمالهم إلى أن يستوثق له الأمر فى الخلافة وتتسق له الأحوال كان ذلك منه إقراراً للظلم الذى استفزهم الألم منه وأحنقهم الإقرار عليه . وكان بذلك قد سجل على السبأية أنهم قاموا لسلب الخلافة من صاحبها الشرعى لا لسبب سوى الإفضاء بها إلى على .

بهذا يمكننا ان نفهم السرعة الغريبة التى كانت منه فى مبادرة جميع عمال عثمان بالعزل حتى كان ذلك أول أعماله ، ولم يتربص بالأمر وصول البيعة إليه من أهل الأمصار ولم يصغ إلى تحذير المحذرين ولا نصح الناصحين . بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إباء تاما كأنه قد تر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملا نقص فى دينه . ولو أنه اتأد فى الأمر وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم فهو حر فى اختيار عماله .

يعجب بعض ذوى البصائر من أهل النقد والرأى الراجح من مبادرته إلى عزل عمال عثمان مع رضاه بتأخير إقامة الحد على قتلته . أما تعليل ذلك التعجيل فى أمر الأمراء فقد بينته آنفا . وأما تأخير الحد على القتلة فقد بينه على بنفسه إذ أوضح لطلحة والزبير وأصحاب رسول الله حين طالبوه بإقامة الحد على من شرك فى دم عثمان فبين لهم أن القوم الذين فى أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم وقد ثارت إليهم العبدان وفاءت إليهم الأعراب وبأيديهم الحول والطول بالمدينة . وأهلها لا يقدرون منهم على شىء . وطلب إليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم .

دخل المغيرة بن شعبة على علىّ وكان داهية أريباً فقال : إن لك علىّ حق الطاعة والنصيحة وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد وأن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد اقرر معاوية على عمله واقرر ابن عامر على عمله واقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلتَ أو تركت . قال : حتى أنظر . وعاد إليه من الغد فقال إنى أشرت عليك بالأمس برأى ، وإن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره وتستقبل أمرك ثم خرج . وتلقاه ابن عباس ـ وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان ـ فقال : رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك ؟ قال : جاءنى أمس بذيتّة وذيتّة وجاءنى اليوم بذيتّة وذيتّة . فقال : أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك . فقال له على : ولم نصحنى ؟

فقال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا فتى تثبتهم لا يبالون بمن ولى هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع إنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك . فقال على أما ماذكرت من أقرارهم فوالله ماأشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا لاصلاحها وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولى أحداً منهم أبداً فإن أقبلوا فذلك خير لهم وإن أدبروا بذلت لهم السيف . قال ابن عباس : فأطعنى وادخل دارك أو الحق بمالك بينبع فإن العرب تجول وتضطرب عليك فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً . فأبى على وقال لابن عباس : سر إلى الشام فقد وليتكها . فقال ابن عباس : ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ولست آمن أن يضرب عنق بعثمان وأن أدنى ماهو صانع أن يحبسنى ويتحكم على . فقال على : ولم ؟ قال لقرابة مابينى وبينك وأن كل ماحمل عليك حمل على . ولكن اكتب إلى معاوية فمنه وعده . فأبى على .

وفرق على عماله على الأمصار : فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة ، وعمارة ابن شهاب إلى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر ، وسهل بن حنيف إلى الشام .

فأما سهل بن حنيف فسار حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت ؟ فقال : أمير على الشام . فقالوا : إن كان عثمان بعثك فحيلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع . قال : أو ماسمعتم بالذى كان ؟ قالوا : بلى فارجع إلى على فرجع .

وأما قيس بن سعد ، فإنه سار حتى أتى أيلة فلقيته خيل فقالوا : من أنت ؟ فعمد إلى الحيلة وقال : أنا من فاله عثمان فأنا أطلب من آوى إليه وانتصر به . قالوا : من أنت ؟ قال قيس بن سعد . فقالوا امض . فمضى حتى أتى مصر وأظهر أمره فيها فافترق أهل مصر فرقا : فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتا وقالوا . إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على حديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا . وفرقة قالوا . نحن مع على مالم يقد إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة . وكتب قيس إلى علىّ بذلك .

وأما عثمان بن حنيف فسار إلى البصرة فلم يرده أحد عن دخولها ولم يوجد فى ذلك لابن عامر رأى ولا حزم ولا استقبال بحرب . وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة فى الجماعة وفرقة قالت ننظر مايصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا .

وأما عمارة بن شهاب فأقبل حتى إذا كان بزُبالة لقى طليحة الأسدى وقد خرج يدعو إلى الطلب بدم عثمان فقال لعمارة : إرجع فإن الناس لا يريدون بأميرهم بدلا وإن أبيت ضربت عنقك فرجع وهو يقول : احذر الخطر ما يماسك . الشر خيرٌ من شر منه .

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن أمية كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال .

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل على على وأتاه ما لم يكن يحتسب فأرسل يثبت أبا موسى على الكوفة فجاءه ببيعة أهلها وبين له من أبى البيعة وسخط لما كان ، حتى كأن عليا ناظر إلى أهل الكوفة وقد افترقوا على مثل ما افترق عليه أهل البصرة .

ودعا على طلحة والزبير فقال : إن الذى كنت أحذركم قد وقع يا قوم وإن الأمر الذى وقع لا يدرك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار كلما سُعـّرت ازدادت واستثارت . فقالا له فأذن لنا أن نخرج من المدينة فإما أن نكابر وأما أن تدعنا فقال سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكى . والذى يظهر أن اعتياص الأمور على علىّ كان مما يسرهما . وأن الأمر إذا اضطرب عليه وأعيت مذاهبه ونفض يده من الإمارة طوعا أو كرها أفضى الأمر إلى واحد منهما . وإذا اشترك اثنان أو جماعة فى بغض سلطان ذى سلطان فإنهم لا يحسون بما بينهم فى أشخاصهم من الكراهة والبغض . وإن اشتركا كهما فى كراهته يؤلف بينهما ويكون كَلُحمَة النسب ولا يلتفت واحد منهم إلى مابينه وبين الآخرين إلا إذا فرغوا من العدو المشترك . وكأنى بعلى كان يقرأ

ما يجول فى ضمير كل من طلحة والزبير ولـكنه لا يريد أن يفتح باب فتنة جديدة تـكون أقرب إليه من سواها .

أرسل على بعد إرسال سهل بن حنيف إلى معاوية سبرة الجهنى يطلب إليه أن يبايع فقدم عليه ، فلم يَرُدّ معاوية جواباً ولم يجبه وجعل كلما تنجز جوابه لم يزد على قوله :

ادم ادامه حصن أوحد بيدى ... حرباضروساتشب الجزل والضرما
فى جاركم وبكم إذا كان مقتلة ... شنعاء شيبت الأصداغ واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم ... يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان فى صفر دعا معاوية برجل من بنى عبس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوما عنوانه (من معاوية إلى على) وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول وسرح رسول على وخرجا فقدما المدينة فى ربيع الأول لغرته . فلما دخلا المدينة رفع العبسى الطومار كما أمره وخرج الناس ينظرون إليه . فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ومضى الرجل حتى دخل على على فدفع إليه الطومار ففض خاتمه فلم ير فى جوفه كتابة فقال للرسول ما وراءك . قال آمن أنا ؟ قال نعم فإن الرسل آمنة لا تقتل . قال ورائى أنى تركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . فقال منى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتوراً كترة عثمان ؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان إلا أن يشاء الله . فإنه إذا أراد أمراً أصابه . أخرج . قال وأنا آمن ؟ قال وأنت آمن . فخرج العبسى ، وصاحت السبأية وقالوا هذا الـكلب وافد الـكلاب اقتلوه . فنـادى يال مضر يال قيس : الخيل والنبل إنى أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى فانظروا كم الفحولة والركاب . وتعاووا عليه ومنعته مضر ويقولون له أسكت ، فيقول : لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً فلقد أتاهم ما يوعدون ، فيقولون أسكت فيقول لقد حل بهم ما يحذرون انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم ، يقول فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم

(استئذان طلحة والزبير)

جاء طلحة والزبير واستأذنا علياً فى العمرة فأذن لهما وهو يعلم أنهما لا يريدان ذلك وأنهما خرجا كراهة لأمره .

إن الرجلين قد بايعا مكرهين وكان لكل منهما شيعة تريده على الخلافة . وقد أراد كل منهما أن يظهر الزهادة فى الولاية حتى لايتهم بالشركة فى دم الخليفة المقتول وحتى لا يؤخذ عليه أمر أو يقول له قائل إنه كان يريدها . ولكن السبأيية قد غلبوا على الأمر وكانت الأنظار متجهة إلى على أكثر منهما . فلما فاتهما أمر الولاية العظمى طمعا فى أن يوليهما ويكونا على انتظار ما يأتى به القدر بعد ذلك .

قال ابن قتيبة : إنهما قالا لعلى : هل تدرى يا على علام بايعناك ؟ قال : نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتما أبا بكر وعمر وعثمان : فقالا لا ولكن بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر ، قال على لا ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز والأود قال : كان الزبير لا يشك فى ولاية العراق وطلحة فى اليمن . فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئا أظهرا الشكاة فتكلم الزبير فى ملأ من قريش فقال : هذا جزاؤنا من على قمنا له فى أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس فى بيته وكفى الأمر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا . فقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما فى أيدينا ومنعنا ما فى يده فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . وأنهى قولهما إلى على فدعا عبد الله بن عباس وكان استبطنه فقال : قد بلغك قول هذين الرجلين قال نعم بلغنى قولهما قال فما ترى ؟ قال : أرى أنهما أحبا الولاية . فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة . فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان ، فضحك على ثم قال : ويحك إن العراقين بهما الرجال والأموال ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ويقويان على القوى

بالسلطان ولو كنت مستعملا أحد الضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام . ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى . قال . ثم أتى طلحة والزبير إلى على فقالا يا أمير المؤمنين ائذن لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وأن تسر نتبعك . فنظر إليهما وقال : نعم ، والله ما العمرة تريدان ، امضيا إلى شأنكما فمضيا .

أحب أهل المدينة بعد ذلك أن يعلموا رأى على فى معاوية وانتقاضه ليعرفوا بذلك رأيه فى قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه . وقد بلغهم أن الحسن ابن على دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس . فدسوا عليه زياد بن حنظلة التميمى وكان منقطعاً إليه ، فدخل عليه ثم قال له على : يا زياد : تيسر . فقال : لأى شىء ؟ فقال : تغزو الشام . فقال زياد : الأناة والرفق أمثل . وقال :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على وكأنه لا يريده :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه . فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال : السيف ياقوم فعرفوا ماهو فاعل . ودعا على ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمر بن سفيان ميسرته وأبا ليلى عمر بن الجراح مقدمته واستخلف على المدينة قثم بن العباس . وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض فى قتال أهل الفرقة وقال : إن الله عز وجل بعث رسولا مهديا بكتاب ناطق فى أمر قائم واضح ، لايهلك عنه إلا هالك . وأن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله وإن فى سلطان الله عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها . والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها . انهضوا إلى القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق :

بينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وتمام على خلاف، وإن القائم فى ذلك طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين. فقام فى الناس وأعلمهم بما حدث من الفرقة فى مكة وأنبأهم بأنه سيمسك عنهم ويصبر ما لم يخف على جماعة المدينة وأنه يكف إن كفوا واقتصروا على ما بلغه عنهم. وبلغه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح، فتعبى للخروج إليهم وقال: إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم فى المقام فينا مؤونة ولا إكراه. فاشتد الأمر على أهل المدينة واثاقلوا.

وكان على أراد أن ينهض معه عبد الله بن عمر ليكون للناس به أسوة فقال: أنا رجل من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد. قال: فأعطنى بذلك زعيما فأبى. ورجع إلى المدينة والناس يقولون: لا والله ما ندرى كيف نصنع فإن الأمر لمشتبه علينا، ونحن مقيمون حتى يضىء لنا ويسفر.

وقد قام على فى أهل المدينة ووجوهها واستنهضهم فى القيام معه فنهض معه من أهل بدر ستة نفر.

فأنتم ترون أن الأمور تتعسر عليه من أول يوم، وأصحابه لم يكونوا على بينة من أمرهم. أما معاوية فلم يتعسر عليه شىء من ذلك، بل تأتى لأموره بالحزم والصبر والتأنى واستدخال أولى الرأى، حتى استقام أمره ولم يحدث له ما حصل لعلى.

أمر عائشة

لما قتل عثمان هرب بنو أمية فلحقوا بمكة قبل أن بايع الناس علياً، وكان تساقط المراب إليها وعائشة مقيمة بها، فاستخبرتهم، فأجابوها بأن قتل عثمان ولم يجبهم إلى التأمير أحد فقالت عائشة: ولكن أكياس. هذا غبّ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح. فلما قضت عمرتها وخرجت وانتهت إلى سَرِف لقيها رجل من أخوالها بنى ليث وكانت واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبد الله بن أبى سلمة ويعرف بأمه أم كلاب فقالت: مهيم؟ فأصم

ودمدم . فقالت : ويحك علينا أو لنا ؟ فقال : لا ندرى قتل عثمان فبقوا ثمانيا . قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ فقال : أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على على والقومُ الغالبون على المدينة . فرجعت إلى مكة وهى لا تقول شيئاً حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت به . واجتمع الناس إليها فقالت : أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا . إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدُثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سُبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم فلم يجدوا حجة أو عذراً فلجوا وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاء من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشردهم من بعدهم . والله لو أن للذى اعتدوا عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء . فقال عبد الله بن عامر : ها أنا ذا لها أول طالب . وكان أول مجيب ومنتدب .

لو أن عائشة كانت تقول مثل هذه الخطبة بالمدينة قبل أن تخرج للحج لكان الأمر أرجى للقبول منها . ولكنها إنما ترهب من هذا الأمر كله خلافة على . ولو أن الخليفة كان طلحة أو الزبير لكان فى ذلك رضى لها لأن طلحة تيمى من قومها والزبير زوج أختها .

والذى أحفظها على على وجعلها تكره إمرته أنه كان بينها وبينه فى مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء من يوم حديث الإفك إذ تحدّث الناس وكثر الكلام واغتم رسول الله لذلك . فقال له على : لن يضيّق الله عليك والنساء غيرها كثير ، ولو سألت بريرة لصدقتك عنها . فكان قول على هذا مما غير قلب عائشة عليه وجعلها لا تذكر اسمه . حتى أنها لما ذكرت أن رسول الله خرج وهو مريض إلى المسجد قالت خرج يتهادى بين العباس ورجل آخر تعنى علياً . وروى أنها لما بلغها مقتل على قالت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكانت إجابة عبد الله بن عامر أول ما تكلم به الناس بالحجاز ، فرفع بنو أمية رءوسهم . وقام معهم الوليد بن عقبة وسائر بنى أمية وعبد الله بن عامر أمير البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن وطلحة والزبير من المدينة واجتمع ملؤهم بعد مراجعة طويلة على البصرة . وقالت عائشة : أيها الناس إن هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه فقد كفاكم أهل الشام ماعندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم .

وروى الطبرى أن أول من أجاب إلى أمر عائشة عبد الله بن عامر وبنو أمية وكانوا قد سقطوا إليها بعد مقتل عثمان وقد قدم ابن عامر أولا ثم قدم يعلى ابن أمية فاتفقا بمكة ومع يعلى ستمائة بعير وستمائة الف فأناخ بالأبطح معسكراً وقدم معها طلحة والزبير فلقيا عائشة فقالت ماوراءكما ؟ فقالا وراءنا أنا تحملنا بكليتنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوما حيارى لايعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون أنفسهم . قالت : فائتمروا أمراً ، ثم نهضوا إلى هذه الغوغاء . ثم تمثلت :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم لأنقذتهم من الحبال أو الخبل

وقال القوم فيما ائتمروا به : الشام . فقال عبد الله بن عامر قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته . فقال طلحة والزبير : فأين ؟ قال البصرة فإن لى بها صنائع ولهم فى طلحة هوى . قالوا قبحك الله فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب ، فهلا أقمت كما أقام معاوية فكتفى بك ونأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟ فلم يجدوا عنده جواباً مقبولا . حتى إذا استقام لهم الرأى على البصرة قالوا : يا أم المؤمنين ، دعى المدينة فإن من معنا لايقرنون تلك الغوغاء التى بها . واشخصى معنا إلى البصرة فإنا نأتى بلداً مضيعا وسيحتجون علينا فى بيعة على ابن ابى طالب فتنهضيهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين فإن أصلح الله الأمر كان الذين تريدين وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ماأراد فلما قالوا ذلك لها ولم يكن ذلك مستقيما إلا بها قالت نعم . وقد كان أزواج

النبي صلى الله عليه وسلم على قصد المدينة . فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك .
وانطلق القوم إلى حفصة فقالت : رأيي تبع لرأى عائشة حتى إذا لم يبق إلا الخروج قال لهم يعلى بن أمية . معى ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها . وقال :

ابن عامر معى كذا وكذا فتجهزوا بهفادى المنادى : إن المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . فحملوا ستمائة رجل على ستمائة من الإبل سوى من كان له مركب وكانوا ألفاً . وتجهزوا بالمال ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين . وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله بن عمر ـ وكان شخص إلى مكة باذن على معتمراً ـ فطلب إليها أن تقعد فقعدت وبعثت تقول لعائشة : عبد الله حال بيني وبين الخروج فقالت يغفر الله لعبد الله ، وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلا من جهينة يدعى ظفراً ، فاستأجرته على أن يطوى ويأتى علياً بكتاب كتبت به إليه .

وسار معهم مروان وسائر بنى أمية إلا من خشع مهم ولم يزالوا سائرين حتى قاربوا البصرة . كان الزبير وطلحة قد كاتبا ناساً من أهل البصرة ليدخلوهم فيما اعتزما عليه وما جاءا مع عائشة له ، فكتبا إلى سعد بن سور ، أما بعد فإنك قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصره وسيد أهل اليمن وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام ، فأجابهما ، أما بعد : فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان لجاء أمر الغير فيه بالسيف . فإن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ، وإن كان قتل مظلوماً فغيركما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل ، وكتابا إلى الأحنف ابن قيس ، أما بعد فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق وقد بلغك مصاب عثمان ونحن قادمون عليك والعيان أشنى لك من الخبر والسلام ، فأجابهما : أما بعد فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان . وأنتم قادمون علينا فإن يك فى العيان فضل نظرنا فيه ونظرتم وإن لا يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة والسلام ، وكتبا إلى المنذر بن الجارود ، أما

بعد فإن أباك كان رئيسا فى الجاهلية وسيداً فى الإسلام . وإنك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . وقد قتل عثمان من أنت خير منه وغضب له من هو خير منك والسلام » فأجابهما المنذر « أما بعد — فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر . وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس . وقد كان بين أظهركم فخذلتموه . فتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأى ؟

وقد ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن القوم فى مسيرهم إلى البصرة نزلوا بأوطاس من خيبر ، فأشرف عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة ، وقال لعائشة أين تريدين يا أم المؤمنين ؟ قالت أريد البصرة . قال وما تصنعين بالبصرة ؟ قالت أطلب بدم عثمان . قال فهؤلاء قتلة عثمان معك . ثم أقبل على مروان فقال له : وأنت أين تريد أيضا ؟ قال البصرة . قال وما تصنع بها ؟ قال أطلب قتلة عثمان . قال فهؤلاء قتلة عثمان معك . إن هذين الرجلين قتلا عثمان (طلحة والزبير) وهما يريدان الأمر لأنفسهما . فلما غلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم والحوبة بالتوبة ثم قال المغيرة بن شعبة : أيها الناس ، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيراً لكم . وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان . وإن كنتم نقمتم على على شيئا فبينوا ما نقمتم عليه . أنشدكم الله . فتنتين فى عام واحد ؟ فأبوا إلا أن يمضوا بالناس . فلحق سعيد بن العاص باليمن ولحق المغيرة بالطائف ، فلم يشهدا شيئا من حروب الجمل ولا صفين . أقول إن الخبر على هذا الوجه غريب وإن من طبيعة الجماعات أنهم لا يطيقون الكلام على مثل هذا الوجه فإنا من هذا الخبر فى شك

ولما دنوا من البصرة وعلم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل على ندب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلى ، ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم . ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما : إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وأووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة

رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا — وقرأت « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » نُنْهِضُ فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل ورسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى . فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ؛ ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره . ثم سألا طلحة ماأقدمك ، فقال المطالبة بدم عثمان ، قالا ألم تبايع عليا ؟ قال بلى واللج على عنق وما أستقيل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان . ولقيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة ، ثم عاد الرجلان إلى عثمان بن حنيف بما سمعا

عزم عثمان بن حنيف على منع القوم من البصرة ، فخطب فى الناس فقال أيها الناس إنما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديكم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ، والله لو علم على أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ماقبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا وأطاع من ولوا وما به إلى أحد من أصحاب رسول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ولقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه ولقد بايعه هذان الرجلان ومايريدان الله . فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة والولادة قبل الحمل وطلبا ثواب الله من العباد . وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين فإن كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا . ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة والعامة على بيعة على .فماترون ؟ فقال حكيم بن جبلة العبدى : نرى إن دخلا علينا قاتلناهما وإن وقفا تلقيناهما . والله ما أبالى أن أقاتلهما وحدى وإن كنت أحب الحياة . وما أخشى فى طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً

ولا سوء منقلب إلى بعث . وإنها لدعوة قتيلها شهيد وحيها فائز والتعجيل إلى الله قبل الآجر خير من التأخير فى الدنيا ، وهذه ربيعة معك

لم يكن أهل البصرة على رأى واحد . فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من هم على مثل رأيهم .

وكان عثمان حين أراد أن يقوم على أمره ويجدّ فى رد أصحاب الجمل أتاه هشام ابن عامر وقال له : يا عثمان إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتى أمر على ولا تحادّهم . فأبى ونادى فى الناس بالتهيؤ ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع وأقبل عثمان على الكيد . فكاد الناس لينظر ما عندهم . ودس إلى الناس رجلا كوفياً قيسياً . فقال : أيها النـاس . أنا قيس بن العقدية الحميسى . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم . إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاؤا من المكان الذى يأمن فيه الطير وإن جاءوا يطلبون دم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . أطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤا . فقام إليه الأسود ابن سريع السعدى فقال : أوزعموا أنا قتلة عثمان رضى الله عنه ؟ فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فإن كان القوم قد أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم أن يخرجوا ؟ الرجال أو البلدان ؟ فحصبه الناس فعلم عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم . فكره ذلك

أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلا وأمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان ومن كان معه . وجعلوا يتوافدون حتى غص بالناس فقام طلحة فى ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان فى ميسرته . فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه ودعا إلى الطلب بدمه وقال : إن فى ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فهو حد من حدود الله وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يكن لكم سلطان ولم يقم لكم نظام . وتكلم الزبير بمثل ذلك فقال من بالميمنة : صدقا وبرا ، وقال من بالميسرة : فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان وتحاثا النـاس بالتراب

وتحاصبوا ومرج أمرهم . فتكلمت عائشة وكانت جهورية الصوت يعلو صوتها كثرة كأنها صوت امرأة جليلة . فحمدت الله عز وجل وأثنت عليه وقالت: كان النـاس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ويَزْرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسنا من كلامنا فى صلاح بينهم فننظر فى ذلك فنجده بريأ تقيا وفيا ونجدهم فجرة غدرة كذبة يحـاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المـكابرة كاثروه فاقتحموا عليـه داره واستحلوا الدم الحرام والمـال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . ألا إن مما ينبغى ولا ينبغى لـكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنـه . وإقامة كتاب الله ليحكم بينهم . فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين : فرقة قالت صدقت وبرت وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبتم والله ما نعرف ما تقولون فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان إلى موضع فى المربد وبقى أصحاب عثمان يتدافعون حتى تحاجزوا ــ ومال بعضهم إلى عائشة ، وأخذ عثمان ومن معه على طريق المسجد

أقبل جارية بن قدامة السعدى فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . إنه قـد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك . إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت خرجت طائعة فارجعى إلى منزلك . وإن كنت أتيتنا مستـكرهة فاستعينى بالناس . وخرج شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك . وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائـكما ؟ قالا : لا . قال : فما أنا منكما فى شىء . واعتزل وقال

صنتم حلائلـكم وقدتم أمكم ... هذا لعمرى قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها ... فهوت تشق البيد بالإيجاف
عرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطىّ والأسياف
هتـكت بطلحة والزبير ستورها ... هـذا المخبر عنهم والـكافى

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة — وكان محمد رجلا عابداً — فقال : أخبرنى عن قتلة عثمان . فقال : نعم ، دم عثمان على ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة الهودج (يعنى عائشة) وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعنى أباه طلحة) وثلث على على بن أبى طالب . فقال الغلام : لا أرانى على ضلال . ولحق بعلى وقال :

سألت بن طلحة عن هالك ... بجوف المدينة لم يقبر
فقال ثلاثة رهط همُ ... أماتوا ابن عفان واستعبر
فثلث على تلك فى خدرها ... وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبى طالب ... ونحن بدوّية قرقر
فقلت صدقت على الأولين ... وأخطأت فى الثالث الأزهر

ولما تم أمر الفريقين على النحو الذى وصفنا . أقبل حكيم بن جبلة وهو على الخيل فأنشب القتال وأشرع أصحاب عائشة رماحهم وأمسكوا ليمسكوا فلم يَثنِه ولم يُثن . فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم . وهو يذمر خيله ويقول : إنها قريش ليردنها جبنها والطيش واقتتلوا وأشرف أهل الدور بمن كان له فى أحد الفريقين هوى فكانوا يرمون مخالفيهم بالحجارة . وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن وثار إليهم الناس حتى حجزهم الليل . ثم جاء أبو الجرباء التيمى فأشار على طلحة ومن معه بمكان أمثل من مكانهم . فساروا إلى مقبرة بنى حصن وباتوا يتأهبون للحرب وأصبح عثمان ومعه جبلة خارجين للحرب وجبلة يسب عائشة . ولامه رجل وامرأة فقتلهما . والتقى الفريقان وقتل من أصحاب عثمان خلق كثير وفشت الجراحات فى الفريقين ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون إلى أن زالت الشمس وعضتهم الحرب ومسهم الشر . نادوا أصحاب عائشه . . إلى الصلح فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ليستخبر أهلها . فإن كان طلحة والزبير أكرها على بيعة على خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير

عنها وهذا هو الكتاب بالصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين . إن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده وإن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين كعب بن سور من المدينة ولا يضار واحد من الفريقين الآخر فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة . بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما ، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما . وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة على وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتها والمؤمنون أعوان الفالج منهما » فخرج كعب بن سور حتى قدم المدينة يوم الجمعة واجتمع الناس لقدومه فقال : ياأهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم أأكره هؤلاء الرجلان على بيعة على أم أتياها طائعين ؟ فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قال : اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان : فواثبه سهل بن حنيف والناس حتى خشى عليه أصحاب رسول الله القتل فقاموا ليمنعوه وفيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة وصدّقوا قوله ومنعوه ، وقال له محمد بن مسلمة أما وسعك ما وسعنا من السكوت قال : لا والله ما كنت أرى الأمر يترامى . ثم رجع كعب بما وقف عليه بالمدينة .

من تمام الأمر بالصورة التى وصفنا نعلم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثا فى يد على والحال تسير على غير نظام . فإن عثمان بن حنيف لم يوله على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ولم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التى تقضى إلى ضياع الأمصار . وقد كان الرجل على غير ما يجب فى أمثاله من الأرب وقوة الحجة . ولو كان على شىء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة على ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هى للإمام ولا ينبغى النهوض إلا فى

طاعة إمام وهم قوم نزاع لا إمام لهم ومن كانت فى عنقه بيعة فإنه خارج على إمامه وكان فى وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يؤامر علياً . ومن الخرق فى الرأى أن يرخص لحكيم بن جبلة فى القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه فى ذلك وإن الإمساك كان أحسن فى العاقبة وأرجى فى العافية .

بلغ علياً الخبر الذى كان بالمدينة على يد كعب بن سور فبادر بالكتاب إلى عثمان يعجزه ويقول له : والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا وجاء كتاب على ورجع كعب بن سور قاضى البصرة بما رأى فى المدينة فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلح ، فقال عثمان : أنا لا أخرج واحتج بكتاب على وقال : هذا أمر آخر غير ما كنا فيه فجمع طلحة والزبير الرجال فى ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء . وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب للصلاة ، فشهر أصحاب ابن حنيف السلاح فقتلوا ودخلوا على عثمان بن حنيف فضربوه أربعين سوطاً ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبه وشعر عينيه وحبسوه ثم أمرت عائشة أن يترك يسير حيث يشاء فترك البصرة وذهب إلى على .

وأصبح حكيم بن جبلة فيمن تبعه يريدون الحرب وكان أتباعه ممن لهم شركة فى فتنة عثمان وعلموا أنهم مقتولون إذا قعدوا . فلما أنشبوا الحرب ونادى منادى عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نريد أحداً

واقتتل الفريقان أشد قتال وضرب رجل حكيما فقطع رجله فحبا إليها وأخذ وضرب بها ضاربه فصرعه ثم حبا إليه حتى قتله . واتكأ عليه وجاء رجل من أصحابه فقال له من قتلك ؟ ؟ قال وسادتى وكان يقف على رجله فى ذلك اليوم ويخطب ويحتج على طلحة والزبير — إلى أن انهزم حرقوص بن زهير فى نفر ممن بقى فلجأوا إلى قبائلهم . فنادى طلحة والزبير ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجاءوا ببقيتهم يسوقونهم كما

تساق الكلاب فقتلوا ولم ينج أحد ممن عزا المدينه من أهل البصرة سوى حرقوص بن زهير السعدى أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه — وجاء طلحة والزبير وأعطوا أهل السمع والطاعة من بيت المال وفضلوهم ومنعوا غيرهم فخرجت عبد القيس وكثير من بكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول وبادروا بيت المال ودافعهم الناس وأصابوا منهم . وخرج القوم وأقاموا على طريق على . وأقام طلحة والزبير ليس معهما بالبصرة ثار إلا حرقوص. وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه فقالوا - إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده فى الشريف والوضيع والكثير والقليل - حتى يكون الله عز وجل هو الذى يردنا عن ذلك - فبايعنا أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا نأخذ أم المؤمنين رهينة أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا إلى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر لاحرقوص بن زهير والله تعالى مقيده إن شاء الله وكانوا كما وصف الله عز وجل وإنا نناشدكم الله فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به فلق الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذى علينا . وبعثوا به مع سيار العجلى وكتبوا إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتابا طولته وحثهم على متابعتها .

وكانت الموقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦ .

العجب كل العجب من طلاب دم عثمان سواء كانوا من بنى أمية أو من غيرهم كطلحة والزبير فإن هؤلاء القوم إنما كانوا يريدون أن يقتلوا كل من ورد المدينة مع المؤلبين لا يستثنون أحدا منهم . وهم بذلك يريدون أن يقيدوا بدم عثمان من ثلاثة آلاف من أهل القبلة : إذا راعينا من ثار إليهم من أهل المدينة وعبدانهم وأهل المياه ليلغ المؤخوذون بدم عثمان الذين يجب قتلهم من خمسة آلاف إلى مايزيد على عشرة آلاف . وذلك أمر لايرضاه الله تعالى ولا تأمر به الشريعة . والله تعالى يقول ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل . وهذا نهاية الإسراف ، ورجوع بالمسلمين إلى أمر الجاهلية

ولو نفذنا رأيهم لكان بين الآخذين بثأره العدد الكثير ممن فى أعناقهم دمه كطلحة والزبير وعائشة . لأن كلماتهم التى كانت تصدر منهم فى حق عثمان بالمدينة تعد مددا للمؤلبين وعونا لأهل الفتنة . وقد كان فى حكم الأنصاف أن يعمدوا إلى رؤساء أهل الفتنة وقادتهم ويقتلوهم أو يقاتلوهم .

يؤيد قولى فى طلحة والزبير وعائشة ماروى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثى قال : لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت يا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك إلى زورك إن كرهت شيئاً فاجلس. فقال ياعلقمة ابن وقاص بينما نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا أنه كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه . فقلت : فرد محمد بن طلحة فإن لك ضيعة وعيالا فإن نابك شىء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحدا يخف فى هذا الأمر فامنعه . فأتيت محمد بن طلحة فقلت له : لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفه فى عياله وضيعته . فقال ما أحب أن أسأل الرجال عنه .

وفى الطبرى أن ابن أم كلاب حين أخبر عائشة ببيعة على قالت : ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك ، ردونى . وانصرفت الى مكة وهى تقول قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه . فقال لها ابن أم كلاب : ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت . ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر . فقالت إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى اليوم خير من قولى الأول ـ فقال أبياتا منها ·

وأنت أمرت بقتل الإمام   وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله   وقاتله عندنا من أمر

فهؤلاء الرهط لم يقوموا للطلب بدم عثمان فى الواقع ولكن ـ كل إلى حيزه يجذب .

وإذا صح أن طلحة كان نادما على ما كان منه فى حق عثمان فليس السبيل

إلى تكفير خطيئته أن يقاتل عليا بل كان يصبر حتى تجتمع كلمة الأمة ثم يغمد إلى أصحاب رسول الله ويدعوهم إلى مؤتمر يديرون الرأى فيه كما يجب أن يصار إليه فى أمر القتلة ورؤوس المؤلبين .

لما بلغ عليا نبأ مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة عدل عن المسير إلى الشام ورأى أن يرتق هذا الفتق وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا إليها . فلما انتهى إلى الربذة أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا . فسرى عنه وقال إن أهل الكوفة أشد إلى حبا . وكتب إلى أهل الكوفة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحق وقضى الذى عليه » .

وأرسل إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن عوف — وفى رواية محمد ابن جعفر — فمضيا وبقى على بالربذة يتهيأ وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمرٌ أمرُه وخطب الناس وقال : إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرى الناس على ذلك ماشاء الله . الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب إمامهم . حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة إلا أن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن . ثم عاد ثانية فقال : ألا إنه لابد مما هو كائن أن يكون ألا إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى ، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم واتبعوا سنته واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما نكر فردوه ، وارضوا بالله عز وجل رباً وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن حكما وإماما .

ثم سار والناس من القبائل يلاحقون به حتى نزل على ذى قار وقد وافاه

عثمان بن حنيف وبلغه ما صنع حكيم بن جبلة وما كان من شأن عثمان فقال : الله أكبر ما ينجيني من طلحة والزبير إذا أصابا ثأرهما أو ينجيهما وقرأ « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » وأقام يتلوم بذى قار حتى يأتيه أمر عن رسوليه إلى الكوفة .

أما رسولاه فقد وردا الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب على ، وقاما فى الناس بأمره فلم يجابا إلى شىء . فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجى على أبى موسى يستشيرونه . فقالوا : ماترى فى الخروج ؟ فقال : كان الرأى بالأمس ليس باليوم . إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون وما بقى . إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا . فاختاروا ، فلم ينفر أحد فغضب محمد ومحمد . وأغلظا لأبى موسى . فقال : والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما فإذا كان لابد من قتال . لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا فانطلقا إلى على بذى قار وأخبراه الخبر فأرسل ابن عباس والأشتر إلى الكوفة ليجمعا الناس على أمره ، وكان يأمل أن ينال ما يرجو بالأشتر لمكانه من أهل الكوفة . فقدما على أبى موسى واستعانا عليه بناس ، فقام أبو موسى فقال للكوفيين فى خطبة له : أيها الناس إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، و إن لكم علينا حقاً فأنا مؤديه إليكم كان الرأى أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عز وجل . وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ولا تكلفوا الدخول فى هذا ، فأما إذ كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان. واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة وقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة .

عاد بعد ذلك ابن عباس والأشتر بالخبر إلى على فأرسل ابنه الحسن وعمار ابن ياسر إلى الكوفة . فلقيهما مسروق بن الأجدع فأقبل على عمار وقال : يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان ؟ فقال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا. فقال والله ماعاقبتم بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين .وخرج إليهما أبو موسى فضم الحسن إليه وقال لعمار : ياأبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا فأحللت نفسك مع الفجار ؟ فقال لم أفعل ولم تسؤنى وقطع عليهما الحسن الحديث وقال : يا أبا موسى . لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء . فقال صدقت بأبى أنت وأمى ولكن المستشار مؤتمن ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنها ستكون فتنة . وقد جعلنا الله عز وجل إخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا « وقال يا أيها: الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل... ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » وقال عزوجل « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » الآية . فغضب عمار وقال . يا أيها الناس إنما قال له خاصة أنت فيها قاعداً خير منك قائما . ورد رجل على عمار رداً قبيحاً وجاء زيد بن صوحان بكتب عائشة فقرأها على الناس وقال : إنها أمرت بالقرار فى بيتها وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة وهى تنهانا عن القتال . ورد عليه شبث بن ربعى بأنها إنما تأمر بالخير والإصلاح . وتهاوى الناس بعضهم إلى بعض وجعل أبو موسى يكفكفهم ويأمرهم بالسكون وينصح لهم بأن يتجنبوا الفتنة ولا يدخلوا فيها ويرد عليه زيد بن صوحان بأن ذلك لايكون حتى يرد الفرات عن سيلة ويتلو « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » وقام القعقاع فقال : إن رأى الأمير هو الرأى لو وجد إليه سبيل وإن زيد بن صوحان لا يؤخذ برأيه لأنه من أهل التأليب على عثمان . وإن الرأى أنه لابد من إمام ينتظم به الأمر وإن عليا قد وليه وإنما يدعو إلى الإصلاح فلينفروا إليه حتى يكونوا بمرأى ومسمع من الأمر . ورد عليه آخرون وافترق الناس فريقين .

ثم قام الحسن بن على فقال : ياأيها الناس ، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فانه سيوجد لهـذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن ينفر اليه أولو النهى أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس : وقال الحسن : إنى غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر ومن شاء فليخرج فى الماء ، فخرج معه تسعة آلاف ستة آلاف ومئتان فى البر وألفان وثمانمائة فى السفن وجاءت الجنود إلى على بذى قار . فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن رجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجوا داويناهم بالرفق وباينّاهم حتى يبدءوا بظلم ، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله .

فلما حضر أهل الكوفة دعا على القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة · وقال له : كيف أنت صانع فيم جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ فقال : نلقاهم بالذى أمرت . فإذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأى اجتهدنا الرأى وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى فقال : أنت لها · وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وقال لها : أى أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بنى ، إصلاح بين الناس · قال فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما فجاءا فقال : إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت إصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان ؟ فقالا متابعان . فقال : فأخبرانى ما وجه هـذا الإصلاح فوالله إن عرفناه لنصلحن وإن أنكرناه لا نصلح ، فقالا : قتلة عثمان فإن هـذا إن ترك كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن . فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم · قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم الذى أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل .

فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون . فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون . وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . فقالا وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟ فقال لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم . وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل . فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم : أحسنت وأصبت ، فإن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر .

والناظر فى هذا القول يرى أن القعقاع قد تأتى لهذا الأمر بأحسن ما تأتى له رفيق مصلح حاذق درب . وأن هذا القول وقع من نفس عائشة وطلحة والزبير أحسن وقع . وأنه حملهما على إيثار العافية وما فيه الاجتماع ونبذ الفرقة ورتق ما فتقا وما أجمل ذلك لو تم !

رجع القعقاع إلى على وأعلمه علم القوم وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح . ثم أمر على بالرحيل بعد أن جمع الناس وخطب فيهم خطبة قال منها : ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ألا ولا يرحلن غداً أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشىء فى شىء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم . وقد جاءت وفود قبائل البصرة إلى قبائل الكوفة وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها وأمن الناس بعضهم بعضاً .

من أين جاء الشر ؟

لما كان أمر الصلح لا يسوء أحدا من الأمة سوى المجلبين على عثمان لأن حياتهم لا تكون إلا بدوام الشقاق بين على وخصومه ، أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذا الصلح على أعناقهم ، فاجتمع منهم رهط ممن سار إلى عثمان ورضى بسير من سار وخلصوا نجياً . منهم علباء بن الهيثم وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة العبسى وسريح بن أوفى والأشتر وابن السوداء وخالد بن ملجم وغيرهم فتشاوروا فيما يصنعون وكان فيما قال بعضهم لبعض : إذا اجتمع الناس غدا واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا وأشار بعضهم (وهو الأشتر) بقتل على وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لهم ما أحدثوا بعثمان . فسفه الآخرون رأيه وكل أبدى رأياً . فقال لهم ابن السوداء . إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير عما تكرهون .

لما وصل على بعد ذلك إلى البصرة وقد بيت السبئية أمرهم وهو لا يعلم ولا بقية عسكره بما يسرون ، أرسل إلى القوم «إن كنتم على ما فارقتم القعقاع عليه فكفوا وأقرونا ننزل وننظر فى هذا الأمر » فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات الناس ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل فقام السبئية فى الغلس ووضعوا السلاح فى أهل البصرة وهم غارّون . فلما كانت الهيعة سأل طلحة والزبير عن الخبر ، فقالوا طرقنا أهل الكوفة ليلا . فقالا قد علمنا أن علياً غير منتهٍ حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا . وسأل على عن الخبر . وكان السبئية قد أرصدوا رجلا قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له : ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا . فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال على : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا . ولم يجد الفريقان بداً من القتال ، إذ لم يكن ثمة مجال لاستجلاء الواقع ولا تراسل الرؤساء ، وتبين الحقيقة يفضى إلى تدارك الأمر .

وكانت عائشة فى هودجها قد جللته الحديد وهى بمكة وجعلت فيه موضعاً لعينيها وهى فى عسكر أهل البصرة وثار العسكران لبعضهما . وكان القتال فى ذلك اليوم من أشد القتال هولا وصدق كل فريق الحملة على الآخر . وأهل البصرة وشجعانهم وذوا النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة ويدافعون عنها حتى لا تصاب بشر ، فقتل حوله بشر كثير وقطعت على زمامه أيد كثيرة ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بنى ضبة أصحابُ الجمل   ننزل بالموت إذا الموت نزل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل   الموت أحلى عندنا من العسل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه ابداً وفيهم عين تطرف ، نادى اعقروا الجمل . فجاء إلى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره وسقط الهودج وكأنه قنفذ لكثرة ما رمى به من النبل فجاء محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر وقطعا غُرْضَةَ الرَّحْلِ واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة .

وكان لما ظهر الضعف فى الناس تركهم الزبير بن العوام وولى وجهه شطرِ المدينة فعلم بمسيره عمروْ بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله وقتله .

وقد قتل فى هذه الوقعة المشؤومة عشرة آلاف فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوى الغناء والنجدة ، منهم الزبير وطلحة ومحمد ابنه وعبد الرحمن ابن عتاب بن أسيد وكثير غيرهم من قريش . فقد قالوا : قتل حول الجمل سبعون قرشيا .

وكان محمد بن طلحة يحمل ويقول « حمٓ لا ينصرون » ، فشد عليه جماعة فاشتركوا فى قتله وقال أحدهم :

وأشـــعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصـــه   فخـــر صريعا لليدين وللفم

يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدم
على غـــير شيء أن ليس تابعاً عليا ومن لا يتبع الحق يندم

ولما نقل عمار ومحمد بن أبي بكر عائشة قال لها عمار : كيف رأيت ضرب بنيك يا أمه ؟ قالت من أنت ؟ قال ابنك البار عمار . فقالت لست لك بأم . فقال بلى وإن كرهت . فقالت : فخرتم إن ظفرتم وأتيتم مثل الذى نقمتم والله لن يظفر من كان هذا دأبه . وجاءها على بن أبي طالب فقال : أى أمه يغفر الله لنا ولكم . فقالت :غفر الله لنا ولكم .

وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ .

وبعد أن انتهت الموقعة مر على بين القتلى، فكلما مر بمصرع أهل البصرة وعرفهم قال : زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وفلان ! ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعا . وبعد ذلك زار عائشة بالبيت الذى نزلت فيه وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز . ثم لما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقالت وسط مشيعيها .

« إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وأنه عندى — على معتبتى — من الأخيار » .

وقال على « أيها الناس صدقت والله وبرت ، وأنه ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وأنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة » .

وكان خروجها من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها أميالا وسرح بنيه معها يوما .

* * *

انتهت الموقعة بظهور على وانهزام أعدائه هزيمة منكرة . فمن كان منهم من البصرة أقام مكانه ومن نجا من غيرهم زايل البصرة . وأخذ على البيعة على أهل البصرة . وولى عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد ابن أبي سفيان .

كانت هذه الوقعة المشؤومة أول وقعة تلاقت فيها جيوش المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دماء بعض وكل من الجيشين تحت إمرة كبير من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسهل بعدها أن يقف المسلم بإزاء المسلم كل منهما يسفك دم الآخر ويحل قتله بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيما مهيباً .

وقد كان الزبير فى بعض خطبه سمى ما فيه الناس فتنة . فقال له بعض الناس أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه ؟ فقال : والله ما وضعت رجلى فى شىء إلا وأنا أعلمه إلا هذا الأمر فإنى لا أدرى أيقبل بى أم يدبر .

نظرة فى وقعة الجمل

أما وقد انتهت الوقعة التى اتسع بها الفتق على المسلمين وسهلت على أهل القبلة أن ينبذ فريق منهم إلى الفريق الآخر على سواء وجعلتهم يسلّون السيوف كل منهم على الآخر ويسفك بعضهم دم بعض ، فلابد للمؤرخ من أن يقف وقفة القاضى المجتهد ويلقى على هذه الوقعة ومقدماتها وما احتف بها من الأحوال نظرة المدقق ليصدر حكما عادلا يلزم به المخطىء حظه من الخطأ ويحمله تبعة ما أتى باذلا فى ذلك ما يصل إليه اجتهاده . أما ما لكل من الفريقين عندالله تعالى فالله وليه وهو يتولى الصالحين ورحمهم الله أجمعين .

أما عائشة أم المؤمنين فما كان لها أن تتولى كبر هذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان فإن أولياء دم عثمان كثيرون يفوت عدهم الإحصاء . وقد علمت أن معاوية بالشام غير وان فى أمره ولا متخاذل فيه وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان وأمسّ به رحما وأقرب قرابة وليست رحمها الله ممن جعل الله لهم سلطان هذا الأمر ولولا وجودها فى هذا الجيش لماتت الفتنة فى هذه الناحية ولم يكن لهم نظام ولا حمية . فكانت سبباً لاشتداد البلاء على المسلمين ومثاراً لأمور أنتجت الحزن والأسى . وأما طلحة والزبير ، فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان فى شىء وقد كانا له بين قائم فى الفتنة مثير حريقها وبين خاذل مشير

إشارته أنفذ من صول لا يعنيه من الأمر إلا أن تكون الفتنة بيد غيره ويباشرها سواه حتى تساق إليه الخلافة ويده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل . فلما وقعت الواقعة وأخطأه ما أمل ورأى أنه كان يسعى لغيره ويحطب فى حبل سواه رجا أن ينال فى سلطانه بعض ما يكون له عزاء — وإذا لم تكن إبل فمعزى — فلما رأى الفائز قد قبض يده عنه ولم يسوغه ما أراد ندم ولات ساعة مندم وخرج كل منهما ليغسل الدم بالدم ويكفر عن السيئة بأفحش منها جرما وأسوأ منها عاقبة فسهلا على عائشة خروجها إلى ما ليس من شأنها راجين بلوغ الأرب بمكانها ، فكان الحتف فيما يرجوان ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون .

أما على فهو وان كان فى أمر عثمان أقل تأريثا للشر وأذب عنه قبل اشتداد الأمر إلا أنه لم يكن عنده من الأناة وحسن التأنى للأمور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامح . وإلى أنه أرضى الرجلين ببعض مافى يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثرا فى العاقبة وأرجى للسلامة وقــد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن علياً حين أحس بما فى نفس طلحة والزبير استشار ابن عباس فأشار عليه أن يولى طلحة البصرة والزبير الكوفة فأبى إشفاقا مه أن يؤلبا عليه الناس والبصرة والكوفة بهما الرجال والمال . على أنه لو أرضاهما فى أول الأمر حتى إذا اتسق له صنع ماأراد لكان ذلك أحسن فى السياسة وأحقن للدماء وقد مر بنا هذا .

على أن علياً لم يكن القوى على جنده المالك لزمام عسكره الحذر لكل مايخاف ، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم . ولقد كان عمر بن الخطاب وهو بالمدينة واقفاً على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وأرمينيا والشام ومصر وتخوم الروم لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم . ولكن عليا كان تاركا لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيتون الشر ويكيدون له وللمسلمين حتى لقدكان فى ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمهما ويحقن دم المؤلبين السفاكين الكائدين وهم

برأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يديرون ولو كان من الضبط لأمره والحيطة فى شؤونه بالمكان الذى يجب أن يكون به . ما ساغ للسبئية أن ينشبوا القتال على الوصف الذى بينا . وحسن قول الأستاذ الخضرى رحمه الله فى محاضراته :

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه . فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا ـ كما يقولون ـ للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك . ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه ؟ .

إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصَّر الإمام فى إقامته أو اتّهم بالهوادة فيه ، مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام . وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولا للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه . ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ، ولكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت . ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان . حقيقة إن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما . ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه . وإن من الخطأ العظيم أن يستعين على بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الإتفاق إنما يقع على رؤوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظاً لأنفسهم . على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه فى الدم المسفوك ، وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاماً ،

وهو عندنا الصادق فى قوله . والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفى لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عن ما يحدث الريبة فى براءته . وليس يكفى الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه . بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليه إلى حظيرته . والكى لا يكون إلا آخر الدواء . ا هـ

روى الطبرى بسنده إلى طارق بن شهاب قال : خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضى الله عنه ، فلما انتهينا إلى الربذة وذلك فى وجه الصبح إذا الرفاق ، وإذا بعضهم يتلوا بعضا . فقلت ما هذا ؟ فقالوا أمير المؤمنين : فقلت ماله ؟ قالوا : غلبه طلحة والزبير . فخرج يعترض لهما ليردهما . فبلغه أنهما فاتاه فهو يريد أن يخرج فى آثارهما . فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . آتى علياً فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه ؟ إن هذا لشديد . فخرجت فأتيته فأقيمت الصلاة بغلس فتقدم فصلى . فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس . فقال : قد أمرتك فعصيتنى فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك . فقال على : إنك لا تزال تخِنُّ خنين الجارية وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ قال : أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر . ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يدى غيرك . فعصيتنى فى ذلك كله . قال : أى بنىّ أما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . وأما قولك : لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار . فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . وأما قولك : حين خرج طلحة والزبير أن أجلس فى بيتى حتى يصطلحوا فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام والله مازلت مقهوراً مذ وليت . منقوصا لا أصل إلى شىء مما ينبغى . وأما قولك اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ! أو من تريدنى ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يُحَلّ عرقوباها ثم

تخرج وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أى بنىّ .

وكأنى به فى هذا الأمر الأخير يقول بمقالة عثمان لا أخلع لباسا ألبسنيه الله عز وجل وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة ، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار بأنهم لامناص لهم من تحمل التبعة الملقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التى يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها .

ومن الجميل أن أقول وقد كانت سيرة على فى أصحاب الجمل سيرة رفق بعد الموقعة . فقد كان من ذلك أن لا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا . فقال قوم يومئذ ما يُحِلُّ لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم . فقال على : القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ونحن منه ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر وإن لكم فى خمسه لغنى . فيومئذ تكلمت الخوارج ولعله أول كلام ظاهر لهم .

على ومعاوية وما كان بينهما

قبل الكلام على ما بين على ومعاوية أريد أن أسوق كلمة تعرف بها الحال النفسية لأهل العراق وأهل الشام .

أهل العراق وأهل الشام : أهل العراق هم أهل المصرين البصرة والكوفة وهم الذين فتحوا العراق ودوخوا فارس وأرمينيا وفتحوا الفتوح العظيمة ومصّروا المصرين وهم من قبائل كثيرة . وقد كان أبو بكر حين وجه الجند إلى جهة العراق وفارس لا يستعين بأهل الردة على قتال الفرس ومن معهم إلى أن ذهب إليه المثنى بن حارثة فى آخر أيام حياته وسأله الاستعانة بمن كان قد ارتد لأن الحاجة ماسة إليهم لكثرة جموع فارس وضخامة حشدهم وما أعدوا لأهل الإسلام من عدة ، فلم يل أبو بكر من ذلك شيئاً ، بل عهد فى ذلك إلى عمر فلما أفضى الأمر إلى عمر استنفر الناس إلى العراق وندبهم للخروج مع المثنى

ثم نتابع الأمر على تزجية الجيوش إلى فارس والعراق . واستعان عمر بمن كان من أهل الردة بمن حسن إسلامه ورغب فى الجهاد ، غير أنه لم يكن ليولى أحداً أمر الحرب ويوصى القواد أن لايجعلوا أحداً منهم أميراً حذر غائلتهم ، فلما جاء عثمان سمح لهم بالولايات وقدم كثيراً منهم فى الحروب يوليهم أمر بعضها وهم من الإسلام بمنزلة دون السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار ومن ثبتوا على إسلامهم . ولما ضخم الأمر فى تلك النواحى ونبتت النابتة لهم فى تلك الأمصار لم يكن الدين قد أخذ على شكائمهم وهم بمرأى ومسمع من الفرس وفى أيديهم السبي ويخالطون أهل الذمة فى نواحيهم فأخذوا بعض الشيء من أخذهم وسقط بالمصرين روادف ردفت ، وأعراب لحقت ؛ لاسابقة لهم ولا غناء فيهم، وقد وجدوا التقدم لغيرهم فأحفظهم ذلك وجمجموا بما فى نفوسهم من الكراهة لولاية قريش ، وقد أكلت الحرب ذوى الفضل والسابقة والبلاء إلا قليلا فنقموا تقدم أهل التقدم ثم تدرجوا فى الجهر بما فى نفوسهم وصاروا يتجنون على العمال والولاة الجنايات وكلما كرهوا من أمير أمراً استعفوا منه ، وكلما جاءهم أخذهم بآداب وأحوال لا تتفق مع ما أخذهم به سابقه . فسهل عليهم عيب الولاة وإظهار التأفف منهم وواجهوهم بالسوء . كل هذه العوامل أوجدت أهل العراق على أهواء مختلفة ، وأغراض متباينة وإدلال على الأمراء وتجن على الرؤساء مطرحين واجب الحشمة ولازم الوقار ، لايبالى أحدهم أن يشذ عن الجماعة ويفرق الكلمة ، ومرنوا على هذا الضرب من الفرقة والتخاذل ، وصاروا أهل جدال ومقارعة بالحجة وقوة عارضه .

أما أهل الشام فهم أهل الولايات الأربع : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما يتبعها من الجزيرة وجهات أرمينيا ، وهم كأهل العراق فيهم بعض المهاجرين والأنصار وقبائل العرب فتحوا تلك الناحية وحموا ثغورها وقد كثر عددهم غير أن جماتهم لم تكن كثيرة الانتقاض كنواحى فارس ولم تتغير عليهم الولاة والأمراء بل كان الأمير عليهم معاوية بن أبى سفيان جمعت له بعض الولايات الأربع فى مدة عمر واستكملت له فى مدة عثمان ، عرفوه أميراً عليهم

وعرفوا أنفسهم رعية سامعة مطيعة له ، لم تشتتهم الأهواء ولم يمرنوا على سخف الرأى والتجنى على الأمراء .

فمعاوية لم يكن طارئا على أهل الشام بالأمرة ولا جديداً عليهم فى الولاية بل ألفوا طاعته وبخعوا إليه بنفوسهم وطال حكمه عليهم ، وكان راضيا مرضيا فيهم أما على بن أبى طالب فإنه قد ورد العراق على أمراء مخالفين له مثبطين عنه منحازين إلى صفوف أعدائه والطالبين لنفسه التى بين جنبيه قد تخالفوا فى شأنه فرقا وتفرقوا عليه حزائق ، حتى إذا سمحوا بالدخول فى أمره طوعا أو كرها وأعطوه أيديهم بالطاعة كانوا يرون أنفسهم أصحاب منة عليه وأولياء نعمة أسدوها إليه ، ويرون أنفسهم شركاءه فى أمره وقسماءه فى سلطانه ، ينازعونه الآراء ولا يجيبون له نداء إلا إذا أطلعهم على خفية أمره وأسهم لهم فى رأيه .

وجند هكذا يكون أمرهم لا يمكن أن يتم لهم أمر أو يبلغوا من نكاية العدو مأربا إذ الطاعة العمياء فى الجنود أول شرط من شروط نجاح القواد وإحرازهم النصر .

إن معرفتنا بكل ما تقدم تحل لنا كثيراً من الأمور التى نراها أشبه بعقدة لا تحل من نجاح معاوية مع تأخره وسابقة على وفضله وغنائه فى الإسلام وإخفاق على مع ماله من الفضل .

كأنى بمعاوية كان عالماً جد العلم بالروح السارى فى نفوس أهل العراق ، والروح المباين له السارى فى أهل الشام . وإن من كان على مثال أهل الشام كان جديراً بالفوز والغلب ، إذ الاجتماع فى الرأى ، والاتفاق فى الكلمة ، والتسليم للرئيس بالطاعة على ما أحب المرء أو كره مدد لا يعادله مدد وعامل قوى من عوامل الفوز .

أما على رضى الله تعالى عنه فإنه لم يحسب لهذه الأمور حسابها يوم بايع . ويظهر للمطلع أنه لم يكن على بينة من الحالة النفسية لأهل العراق وأهل الشام . ولا بالحالة النفسية لمعاوية وماله من المكانة عند القوم الذين هم فى يده . وأن مما سهل على معاوية القيام بما قام به وكثر الجموع لديه أنه كان والياً على جميع

ولايات الشام زمناً مديداً ولو أنه كان على دمشق وحدها ما تسنى له أن يقوم فى الأمر على الوجه الذى قام به ولكان له مع على شأن آخر .

يقول أرباب البصر بنواميس الاجتماع وطبيعة الجماعات : إن عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لا فرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً ولا أن يكون محله عملا أو إنساناً أو رأياً (روح الاجتماع) .

وقد كان معاوية قائداً بهذا المعنى . فإنه قد خلق فى أهل الشام اعتقاد إجرام على ، وأنه قتل عثمان ظلماً وعدواناً وأن دمه فى عنقه ، وأن قتاله على ذلك واجب . وقد تأتى لمعاوية فى هذا الأمر ما لم يكن يحلم به ، فإنه نصب قميص عثمان وهو مضرج بدمه على منبر دمشق سنة كاملة وعلى أردانه أصابع نائلة زوجه يعرض ذلك على أنظار الناس ويستثير حميتهم ويذكى بذلك الأحقاد فى قلوبهم على على الغاصب — زعموا — للخلافة ، المحل لدم الخليفة وقد آوى قتلته . ولا شيء يهيج الإحساس ويثبت الاعتقاد كالصور التى تعرض على الإنسان . فما بالك بالدم على قميص الخليفة وأصابع زوجته مدلاة فى ردنه تعرض على الأنظار بكرة وعشياً . ولم يكن لعلى وسيلة كهذه يؤثر بها فى قلوب أصحابه ويحمسهم بها .

فهذه الأمور وما تقدمها أوجدت لمعاوية نفوذاً شخصياً فى القوم الذين معه زاده قوة ورسوخاً ماله من الإمرة والملك فيهم دهراً طويلا . لهذا كان معاوية لا يلقى معارضاً لأوامره ولا معقب لحكمه . بخلاف على فإنه لم يكن له فى جنده هذا النفوذ الذى كان لمعاوية فى جنده .

يقول غوستاف لوبون ما معناه . إن قائد الجماعة يجب عليه أن يعرف روح الجماعة البعيدين عنه ليعرف كيف يسوسهم ويؤثر فيهم وإلا كان عمله ضائعاً . وإن نابليون كان عالماً بروح الجماعة فى فرنسا ولذلك كان تأثيره عظيماً فيهم ناجحاً على الدوام . ولكنه لما ذهب روسيا لم يكن عالماً بأحوالهم فظن أنهم يكونون له على مثال أهل فرنسا وأنه لا يلقى فى إخضاعهم وإلقائهم إليه بالطاعة عناء فكان الأمر على غير ما قدر . اهـ .

والظاهر أن علياً سيق إلى الأمر وهو غير عالم بما يتنازع أهل العراق من الأهواء ، وأنهم ليسوا بأهل جماعة ، وأن أحوالهم قد فسدت بخلاف أهل الشام . لذلك لقى العناء الأشد فى أخذ طاعتهم له،، وكانت المكيدة فيهم أسهل والتأثير فى حل رابطتهم أسرع . والله يحكم لا معقب لحكمه .

بدء أمر معاوية

ذكر مؤلف (الإمامة والسياسة) أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان تذكر فيه دخول القوم عليه وما صنع محمد بن أبى بكر من نتف لحيته فى كتاب رققت فيه وأبلغت حتى إذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه وبقميص عثمان مخضبا بالدم ممزقا وعقدت شعر لحيته فى زر القميص . فصعد معاوية المنبر بالشام وجمع الناس ونشر عليهم القميص وذكر ما صنعوه بعثمان فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهق . ثم دعاهم إلى الطلب بدمه . فقام إليه أهل الشام فقالوا هو ابن عمك وأنت وليه ونحن الطالبون بدمه . فبايعوه أميراً عليهم . وكتب وبعث الرسل إلى كور الشام وكتب إلى شرحبيل بن السمط الكندى وهو بحمص يأمره أن يبايع له بحمص كما بايع أهل الشام . فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناسا من أشراف أهل حمص فقال لهم : ليس من قتل عثمان بأعظم جرما ممن يبايع لمعاوية أميراً وهذه سقطة ولكنا نبايع له بالخلافة ولا نطلبُ بدم عثمان مع غير خليفة فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص . وكتب إلى معاوية : أما بعد فإنك أخطأت خطأ عظيما حين كتبت إلى أن أبايعك بالإمرة وأنك تريد أن تطلب دم عثمان الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة وقد بايعتُ ومن قِبلى لك بالخلافة . فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ودعا الناس وصعد المنبر وأخبرهم بماقال شرحبيل ودعاهم إلى بيعته بالخلافة فأجابوه ولم يختلف عليه أحد .

﴿ شرحبيل بن السمط ﴾

مر بنا أن معاوية لما خالف على أمير المؤمنين على بن أبى طالب لم يبدأ أمره

إلا بأن يأخذ البيعة على من قبله بالإمرة عليهم للطلب بدم عثمان . فالخلافة لم تكن مطمح نظره إلى أن وجه نظره إليها شرحبيل بن السمط فمن هو شرحبيل ؟ وما مبلغ أثره ؟ وما الذى حمله على ذلك ؟ .

أما الرجل فهو شرحبيل بن السمط من بنى معاوية بن عمرو من كندة ثبت هو وابنه على إسلامهما حين ارتدت كندة وقامت الفتنة بينهم وبين لبيد بن زياد الأنصارى بسبب ناقة للعداء بن حجر أخى شيطان بن حجر وضع لبيد عليها ميسم الصدقة خطأ وأبى أن يطلقها لصاحبها . فاستغاث شيطان بقومه وتمادى الخلاف فارتدوا وحاربوا فقام شرحبيل وابنه وتبرآ من قومهما الذين ارتدوا وقالا لبنى معاوية : إنه لقبيح بالأحرار التنقل إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا عنها مخافة العار ، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق ، إلى الباطل والقبيح ، اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك . وانتقلا إلى لبيد بن زياد ومعهما امرؤ القيس بن عباس وكانوا يشيرون على لبيد بالرأى والمكيدة فى الحرب فطرق زياد بجنوده مع الليل رؤساء المشاقين فأصاب ملوكهم وهم : مشرح ومخوص وجمد وأبضعة وأختهم العمردة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا عليهم حين بلغه أمر ردتهم فانفضت جموعهم وهرب من أطاق الهرب وسبي النساء والذرارى ولما مر السبي بالأشعث بن قيس فكهم وجمع الجموع لقتال المسلمين . وكان له مع المسلمين وقائع انتهت بحصار الأشعث ومن معه بحصن النُّجَيْر . فلما عضتهم الحرب واشتد عليهم الحصار خرج الأشعث ومعه تسعة ممن بالحصن ليستأمنوا لأنفسهم ويسلموا الحصن بمن فيه فكتبوا أسماء من يشملهم الأمان ونسى الأشعث أن يكتب اسمه وأراد لبيد قتله بعد أن قتل المقاتلة من أهل الحصن وسبي غير المقاتلة . فقال أصحابه : أخره حتى يقدم على أبى بكر فهو أعلم بالأمر . فسيره مع السبي . فكان قومه يلعنونه لغدره والسبي يلعنونه . فلما قدم على أبى بكر (وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد توفى) قال له الأشعث : احتسب فىّ خيراً وتطلق إسارى وترد على زوجتى (أم فروة أخت أبى بكر) وتقيلنى عثرتى وتفعل فى مافعلت

بأمثالى تجدنى خير أهل بلادى لدين الله . فحقن أبو بكر دمه عليه ورد عليه أهله وأقام بالمدينة .

كان عمر بن الخطاب قد سير شرحبيل بن السمط إلى سعد بن أبى وقاص بالعراق فكان معه وقدمه سعد وقربه ، فحسده الأشعث بن قيس . ولا يبعد أن يكون وجود شرحبيل فى الجيش المحارب للأشعث أيام ردته له أثر فى حسده له واضطغانه عليه .

كان سعد بن أبى وقاص أوفد جرير بن عبد الله على عمر فتدسس له الأشعث بن قيس وقال له : إن قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل . فلما قدم سأله عمر عن الناس فأحسن الثناء على سعد . قال : وقد قال شعرا :

ألا ليتنى والمرء سعد بن مالك　　وزبراً وابن السمط فى لجة البحر
فيغرق أصحابى وأخرج سالما　　على ظهر قرقور أنادى أبابكر

من هذين البيتين فهم عمر أن الناس يتبرمون بمكان زبر وشرحبيل من سعد وكان من شأن عمر الحرص على ألا يبقى لأحد من الناس علة يعتل بها فأرسل إلى سعد أن يرسل إليه زبراً وشرحبيل ، فلما قدما عليه أمسك زبرا بالمدينة وسير شرحبيل إلى معاوية بالشام فشرف بها وتقدم وعلا شأنه عند معاوية وعند الناس .

فلما قدم جرير بن عبد الله رسولا من على إلى معاوية وهو ثأر شرحبيل ، عزم شرحبيل على إحباط مسعاه ورده خائبا ، فكان مما قاله لمعاوية حين أفضى إليه بما جاء إليه جرير « كان أمير المؤمنين عثمان خليفتنا فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا » ، وعمل على مبايعته بالخلافة . وانصرف جرير إلى على . وقد قال النجاشى :

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا　　ولكن لبغض المالكى جرير
وقولك ماقد قلت عن أمر أشعث　　فأصبحت كالحادى بغير بعير

مسير عمرو بن العاص إلى معاوية

كان عمرو بن العاص بالمدينة فى بدء الفتنة . ولا تجهل أن عثمان لم يكن مجملا

فى شأنه لأن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر وثبت فيها كلمة الإسلام ودان أهلها له بالطاعة أقام واليا عليها بقية أيام عمر. فلما جاء عثمان عزل عمراً عنها وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والفطام عن الولاية شديد. فليس من الغريب أن يكون عمرو بن العاص فى نفسه معتبة على عثمان. فكان عمرو يرمى بكلمات لها وقع الأسنة على عثمان حتى قيل إن عمراً لما بلغه قتله قال: أنا أبو عبد الله. أنا قتلته وأنا بوادى السباع. ومعناه فى ذلك أنه كان يؤلب عليه ويلقى إلى الناس ما يغير قلوبهم عليه حتى قلوب رعاة الشاء فى الجبال وفى الأودية

خرج عمرو بن العاص من المدينة لما أحيط بعثمان وقال: يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل، من لم يستطع نصره فليهرب وصار إلى فلسطين ومعه إبناه عبد الله ومحمد وأقام بها. فمر به راكب وأخبره بأنه ترك عثمان محصوراً. ثم مر به راكب آخر فأخبره بقتل عثمان. وبعد مدة مر به آخر فأنبأه ببيعة على وأن الوليد بن عقبة سأل عليا عن قتله فقال له والله ما أمرت ولا نهيت ولا سرنى ولا ساءنى وأنه آوى ولم يرض (أى بالقصاص منهم) وإن مروان احتج عليه فقال إن لم تكن أمرت فقد توليت الأمر (أمر المسلمين) وإذا لم تكن قتلت فقد آويت القاتلين. فقال عمرو بن العاص: خلط والله أبو الحسن أنا أبو عبد الله يكون فيها حرب. من حك قرحة نكأها. فقال سلم بن زنباع: يا معشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا بابا غيره. فقال عمرو: ذلك الذى نريده. ويقول ابن الأثير ثم ارتحل عمرو يبكى كما تبكى المرأة ويقول: واعثماناه أنعى الحياء والدين. حتى قدم دمشق.

ويذكر ابن الأثير أن عمراً قال حين بلغه قتل عثمان: إن يل هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيبا وإن يله ابن أبى طالب فهو أكره من يليه إلى. فلما بلغه بيعة الناس لعلى اشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يفعل الناس. فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة فتربص حتى أتاه خبر وقعة الجمل وما تم فيها فارتج عليه أمره.

أدار عمرو عينيه فإذا معاوية بالشام يعظم شأن عثمان ويدعو إلى الطلب بدمه وكان معاوية أحب إليه من علي . فاستشار ولديه وقال لهما أما علي فلا خير لي عنده وهو يدل بسابقته وغير مشركي في شيء من أمره . فأشار عليه ابنه عبد الله بأن يكف يده ويجلس في بيته حتى يجتمع الناس . وأشار عليه محمد بأنه لا ينبغي أن يجتمع الناس في هذا الأمر وليس له فيه صوت . فحمد لكل منهما رأيه وعمل برأي محمد وخرج إلى الشام فحسن لمعاوية ما رأى ومعاوية لا يلتفت إليه . وكأني بمعاوية وقد تخوف أن يكون الرجل يبطن غير ما يظهر فلم يسترسل إليه حتى يكون على بينة من أمره .

رأى ابناه إعراض معاوية عنه فأشارا عليه بمفارقته . فدخل عمرو على معاوية وكلمه في هذا الشأن بما كانت عاقبته أن استدناه وأشركه في أمره وجعله موضع سره ومرد مشورته .

وإني لأستبعد ما قصه ابن الأثير من أن عمراً قال لمعاوية : والله لعجب لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني ! إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا . فصالحه معاوية وعطف عليه . فإني لأحسن أن المخاطبة على هذا الوجه لا تسمح بها نفس عمرو بل هو يتكرم عنها ولا يقبل ذلك منه معاوية . مهما قيل إن باطن أمر كل منهما كان على ذلك .

﴿ خروج بن أبي سرح إلى مصر ﴾

فلما خرج عبد الله بن أبي سرح يريد المدينة وثب محمد بن أبي حذيفة على إمارة مصر فأخذها وصلى بالناس . وعلم ابن أبي سرح بالخبر فلم يقدر على الرجوع إلى مصر فأقام بتخومها حتى جاءه خبر قتل عثمان وبيعة علي فاسترجع . فقال له المخبر كأن ولاية علي بن أبي طالب عدلت عندك قتل عثمان . قال أجل فتأمله الرجل وقال كأنك عبد الله بن أبي سرح أمير مصر . قال أجل . قال فإن كان لك في نفسك حاجة فالنجاء النجاء فإن رأى أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك

سيء إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين وهذا بعدى أمير يقدم عليك . قال : ومن هو قال : قيس بن سعد بن عبادة . فقال عبد الله أبعد الله محمد بن أبى حذيفة فإنه بغى على ابن عمه وسعى عليه وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه . فأساء جواره ووثب على عماله وجهز الرجال حتى قتل ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، لم يمتعه بسلطان بلاده حولا ولا شهراً ولم يره أهلا لذلك ، فقال الرجل أنج بنفسك لا تقتل . فولى عبد الله وجهه شطر الشام ولحق بمعاوية .

وكان على بن أبى طالب لما ولى دعا بقيس بن سعد وقال له : سر إلى مصر فقد وليتكها واخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشتد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن . فقال له قيس : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، فقد فهمت ما قلت ، أما قولك اخرج إليها بجند فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند آتيها به من المدينة لا أدخلنها أبدا ، فأنا أدع ذلك الجند لك فإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريبا وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك وانا أصير إليها بنفسى وأهل بيتى . وأما ما أوصيتنى به من الرفق والإحسان فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك . فخرج قيس بن سعد فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر . فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرىء على أهل مصر . وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم فإنى إليكم أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده وخص به من انتخب من خلقه . فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض

والسنة لكيما يهتدوا وجمعهم لكى لا يتفرقوا وزكاهم لكيما يتطهروا وردهم لكى لا يجوروا. فلما قضى من ذلك ماعليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملا بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة ولم يعدوا السنة ثم توفاهما الله عز وجل ورضى الله عنهما ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثا فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ثم نقموا عليه فغيروا ثم جاءونى فبايعونى. فأستهدى الله عز وجل بالهدى وأستعينه على التقوى ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل — وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم وهو ممن أرضى هديه وأرجوا صلاحه ونصيحته أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكيا وثواباً جزيلا ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكتبه عبيد الله بن أبى رافع فى صفر ٣٦ — تم.

ثم إن قيس بن سعد قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين: أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم. فقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر وبعث عليها عماله وتمت مصر على الطاعة إلا جماعة فى خربتا أعظموا قتل عثمان واعتزلوا ينتظرون ماذا يتم وقالوا له ابعث عمالك فإن الأرض أرضك لا ننازعك وأمهلنا حتى يتبين الأمر. وكذلك مسلمة بن مخلد لم يبايع وعاهد قيسا أن لا يعمل شيئا مابقى واليا على مصر وبقى فى مصر إلى أن انقضى أمر الجمل. وكان قيس كافيا، فكان أثقل شىء على معاوية وقد خشى أن يسير إلى على وقيس خلفه بمصر — فكتب معاوية إلى قيس يعظم قتل عثمان ويطوقه عليا ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يوليه العراقين إذا ظفر ولا يعزله

ويولى من أراد من أهله الحجاز كذلك ويعطيه ماشاء من الأموال .
فنظر فى الأمر هو ومن معه من أهله بين موافقته ومصانعته ومطاولته أو معاجلته بالحرب فآثر الموافقة والمطاولة وكتب إليه ـ أما بعد فإنى لم أقارف شيئاً مما ذكرته وما اطاعت لصاحبي على شيء منه . وأما متابعتك فأنظر فيها — وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلى تكرهه حتى نرى وترى . وكان يريد بذلك أن يُطْمع معاوية فى متابعته حتى يتهيأ له مناجزته . ولو أن قيسا بقى بمصر إلى زمن حرب صفين لكان وجوده شاغلا لمعاوية ولكان له معه شأن آخر ولكان أحرى أن ينقض من أمر معاوية كل مبرم .

كتب إليه معاوية بعد ذلك إنى لم أرك تدنو فأعدك سلما ولا تتباعد فأعدك حربا ، وليس مثلى يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام .

علم قيس أن المدافعة لا تنفع معه . فأظهر ما فى نفسه وكتب إليه بالرد القبيح والشتم والتصريح بفضل على والوعيد . وكان فيما قاله : « وأما قولك أنى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك ، إنك لذو جد والسلام » . فأيس منه معاوية وثقل عليه مكانه وأخذ يكيد له من قبل على فأشاع عنه أنه مالأه ووافقه وأنه صار شيعة له وأنه تأتيه كتبه ورسله وأنه قد مالأ المطالبين بدم عثمان بمصر يجرى عليهم الأرزاق ويوافيهم بالأعطيات . فوصل ذلك إلى على من محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر وعيونه بالشام . فأعظم على ذلك ولم يشأ أن يصدق فى قيس قولا وتفاوض مع ابنيه وعبد الله بن جعفر فأشار عليه الأخير بعزله .

أما على فتمهل فى العزل . وجاءه بعد ذلك كتاب قيس بن سعد بشأن المعتزلين بخربتا ومن لم يبايع وأنهم كافون عن القتال حتى يتبينوا . وخشى من مع على أن تكون ممالأة فاشاروا عليه أن يأمره بقتال الكافين عنه . فأمره بذلك . فلم ير قيس رأياً وكتب إليه : « متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأى تركهم » . فكان ذلك مما يقوى ريبة أصحاب على فى أمر

سعد فأشاروا عليه بعزله وبعث محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ففعل . وغضب قيس وخرج من مصر إلى المدينة وعليها مروان بن الحكم فأخاف قيساً . فخرج عنهـا ولحق بعلى . وعاتب معاوية مروان فيما فعل وقال له : إنك أمددت علياً بقيس . ولو أنك أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس . وضعفه فيما صنع . أما قيس فلحق بعلى وكشف له الخبر فقبل عذره ووافقه على أمره كله . وكان خروج قيس بحسن تدبير معاوية وسلامة صدر على .

أمر صفين

قال الأستاذ الخضرى : لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولا وأفظع أمراً وهو الحرب فى صفين .

انصرف على بن أبي طالب من البصرة إلى الكوفة وبعث إلى جرير بن عبد الله البجلى والأشعث بن قيس الكندى وكانا عاملين لعثمان بفارس أولهما بهمذان والثانى بأذربيجان أن يأخذ له كل منهما البيعة على من قبله وأن يوافياه ففعلا وانصرفا إليه . فلما أراد على توجيه الرسول إلى معاوية قال جرير : أبعثنى إليه فإنه لى ود حتى آتيه فأدعوه إلى الدخول فى طاعتك فقال الأشتر لعلى لا تبعثه فوالله لأظن هواه معه فقال على : دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا . فبعثه إليه وكتب معه كتابا يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته فشخص إليه جرير فلما قدم عليه ما طله واستنظره ودعا عمراً فاستشاره فيما كتب إليه به . فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه أهل الشام ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم ففعل ذلك معاوية وكان أهل الشام لما قدم النعمان بن بشير بقميص عثمان وأصابع زوجه نائلة أصبعان مقطوعتان بالبراجم وشىء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام قد علقوه سنة وآلى الرجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء لغسل إلا من الاحتلام

ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم .

فلما قدم جرير بن عبد الله على علي وأخبره الخبر وقع فيه الأشتر وقال: قد كنت نهيتك عن إرساله وأخبرتك بعدوانه وغشه ولو كنت بعثتني لكان خيرا من هذا الذى أقام عنده ولم يدع بابا يريد فتحه إلا فتحه ولا بابا يخاف منه إلا أغلقه . فقال جرير : لو كنت ثم لقتلوك . ولقد ذكروا أنك من قتلة عثمان . فقال الأشتر : لو أتيتهم والله ياجرير لم يعيني جوابهم . وحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر . ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك فى محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور . فخرج جرير بن عبد الله إلى قرقيسياء وكتب إلى معاوية فاستقدمه .

ومعلوم أن الشام من مجامع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التى لم تزل حافظة لشيء كثير من قوتها . فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه . ولم يعمل أى عمل فى القصاص منهم . فلما جاء جرير علياً وأخبره بما عليه أهل الشام لم يجد على مناصاً من المسير والقتال . فخرج وعسكر بالنخيلة خارج الكوفة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يخرج بنفسه كذلك وأن لا يغيب عنه برأيه ومكيدته وسار معاوية متمهلا وكتب إلى كل من كان يرى أنه يخاف علياً أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم عليه . فلما رأى ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فانك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالدم المعنى ... تهدر فى دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى على ... كدابغة وقد حلم الأديم

يمنيك الإمارة كل ركب   لإنقاض العراق بها رسيم
وليس أخو التراث بمن توانى ،   ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيا   لجرد لا ألف ولا سؤوم
ولا نكل عن الأوتار حتى   يبيء بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا   فهم صرعى كأنهم الهشيم

فدعا معاوية شداد بن قيس كاتبه وقال : ابغني طومارا فأتاه به فأخذ القلم فقال : لا تعجل . اكتب .

ومستعجب مما يرى عن أناتنا   ولو زبنته الحرب لم يترعرم

وأرسل به إليه

أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ومن هناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكر الطائفتان فى سهل صفين وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض .

اختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة ، وهم بشير بن عمرو الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التيمى فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال : يامعاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك . وإنى أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها . فقال له معاوية : هلا أوصيت صاحبك بذلك ؟ فقال : إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا ؟ قال يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى مايدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك . قال معاوية : ونطل دم عثمان لا والله لاأفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال . يامعاوية إنى قد فهمت ما رددت أنه والله لايخفى

علينا ماتغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ، ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير ، لئن أخطأت ماترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك ، ولئن أصبت ماتمنى لاتصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار ، فاتق الله يامعاوية ودع ماأنت عليه ولا تنازع الأمر أهله . ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد أشد وأمره إياهم بالانصراف . فأتوا علياً وأخبروه بالخبر .

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك . فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون ، وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً فى الصلح ، واختلفت بينهما الرسل فى ذلك .

وعلى ذكر الرسل أقول : إن ذا الرأى الحصيف إنما ينتقى الرسل ليعربوا عن ذات نفسه ويكون الواحد منهم رفيقاً محسناً للسفارة خبيراً بالتأتى للأمور لا يرى فتقاً إلا رتقه ولا صدعا إلا رأبه . وهو عنوان عقل مرسله ، فإذا لم يحسن اختيار الرسول كان بلاء استقبله وانبثقت عليه الأمور ، وكان ما يأتيه من البلاء على يد رسوله أشد وأنكى مما يأتيه من عدوه .

ونحن أولاء نرى من رسل على ظهوراً بمظهر العتو والتجبر يبدو الشر على وجوههم والقول الجافى من أفواههم كأنما أرسلوا لإشعال النار وإيقاظ الشر وعلى مع ذلك لايبذل شيئاً يكون الصلح عليه ولايريد من معاوية إلا أن يلقى بيده ويستكين استكانة الذليل مع إخشان القول له والاستعلاء عليه وقد وصى من هو خير من على رسله بإلانة القول والرفق لمن هو شر من معاوية فقد قال الله تعالى لموسى وهرون إذ أرسلهما إلى فرعون « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » فليس بعجيب أن تكون عاقبة هذة الرسائل الفشل .

بعث على عدى بن عامر ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن خصفة وشبث ابن ربعى — وهو أحد الرسل فى المرة الأولى وربما كان حمقه سبباً فى عدم النجاح — لما دخلوا على معاوية بدأ عدى فقال : إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به عز وجل كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويصلح به ذات البين . إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها فى الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذى رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانته يامعاوية لا يصيبك الله بأصحابك بيوم كيوم الجمل . فقال معاوية كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً هيهات ياعدى كلا والله إنى لابن حرب مايقعقع لى بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتله وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات ياعدى قد حلبت بالساعد الأشد . فقال شبث وزياد أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع مالا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . وقال يزيد بن قيس : إنا لم نأت إلا لنبلغك مابعثنا به إليك ولنؤدى عنك ماسمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ماظننا أن لنا عليك به حجة وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة . إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميلوا بينك وبينه فاتق الله يامعاوية ولا تخالف علياً فإنا والله مارأينا رجلا قط أعمل بالتقوى وأزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه . فقال معاوية . أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة . فأما الجماعة التى دعوتم إليها فمعنا هى . وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لانراها . إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لانرد ذلك عليه . أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة . فقال له شبث . أيسرك يامعاوية أنك أمكنت من عمار تقتله ؟ فقال وما يمنعنى من ذلك ، والله لو أمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان . فقال شبث لاتصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية . إنه لو قد كان ذلك كانت

الأرض عليك أضيق . وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه . لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين . يتنزل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحا . أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد مابينها .

وأرسل معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن ابن يزيد ابن الأخنس فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال . أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . فقال له : ما أنت لا أم لك والعزل وهذه الأمة ، اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له . فقام وقال : والله لتريني بحيث تكره . فقال علي : وما أنت وإن أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت علي أحْقَرَةً أو سوءاً اذهب فصوب وصعد ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط : ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبت به من قبل ؟ فقال علي : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله ، فغفرنا ذلك لهما ، وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه . فساروا إليه فقتلوه . ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم . فقالوا لي : بايع ، فأبيت عليهم . فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف أن تفعل أن يفترق الناس . فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق بن طليق حزب من هذه الأحزاب ، لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين فلا غروا لإخلافكم معه وانقيادكم له

وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً . إلا أنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإماتة الباطل وأحياء معالم الدين . وقال له شرحبيل : أشهد أن عثمان قتل مظلوماً . فقال لهما : لا أقول إنه قتل مظلوماً ، ولا أنه قتل ظالما . قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء . ثم انصرفا . فقال على فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .

لما انسلخ المحرم أمر على من ينادى : ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم انى قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان . ولم تجيبوا إلى حق : وإنى قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وخرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبيان الجيوش وفعل على فعلهما . وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ولا تدخلوا دارا ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس . وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه فى كل موطن اه

وفى غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفى ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبى :

أصبحت الأمة فى أمر عجب — والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقاً غير كذب — إن غداً تهلك أعلام العرب

وفى الصباح زحف على بجنود أهل العراق ، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك فى يوم مشئوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله . ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ، ثم أعادوا الكرة فى غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر فى الميسرة و ثبتت ربيعة . ومر به فى ذلك الوقت الأشتر النخعى ، فقال له : أئت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت ؟ فذهب إليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه ، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه ورده ، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر فى هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول : أردت فى هـــذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول الأطنابة :

أبت لى عفتى وأبى بلائى وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فمنعنى هذا القول من الفرار . وفى هذا اليوم قتل عمار بن ياسر .

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يمده بالرجال لما رأى من ظفره . وبينما هم فى هذه الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رؤوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول : هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، من لثغور العراق بعد أهل العراق ! فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا : نجيب إلى كتاب الله . فقال لهم على : يا عباد الله أمضوا على

حقكم وصدقكم ، وإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا أشر أطفالا وأشر رجال . ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة . فقالوا ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله . وقال مسعر بن فدكى التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه . وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان أنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل . والله لتفعلنها أو لنفعلها بك ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال . فأرسل إليه رسولا . فقال الأشتر للرسول . ليس هذه الساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى . إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا تعجلنى . فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر . فقال له القوم : والله ماتراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك . فقال للرسول ويحك قل للأشتر أقبل وإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة الحرب . ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب إليه قال له معاوية : نرجع ونحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق . ثم رجع إلى على فأخبره ، فقال الناس : رضينا وقبلنا . فقال أهل الشام : قد اخترنا عمرا . فقال الأشعث ومن تابعه : وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعرى . فقال على : قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن . وبين لهم تخوفه من أبى موسى الأشعرى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر على للسير على مارأوا .

روى الطبرى أن الأحنف بن قيس جاء إلى على وقال : يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض وبمن حارب الله ورسوله أنفَ الإسلام (يريد عمراً) وإنى قد عجمت هذا الرجل وحلبت أسطره (يعنى أبا موسى) فوجدته

كأيل الشفرة قريب القعر وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير فى أكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم . فإن أبيت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانياً أو ثالثاً فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها فأبى الناس إلا أبا موسى . فقال الأحنف : فإذا أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال .

عقد التحكيم

لما رضى الفريقان بالتحكيم وأفضى بهما الأمر إلى كتابته كتبوا .

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه على أمير المؤمنين . فقال عمرو ابن العاص اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم فأما أميرنا فلا . فاستشار على فى ذلك بنى هاشم وأدخل معهم الأحنف بن قيس . فقال الأحنف : لا تمح أمارة المؤمنين فإنى أتخوف إن محوتها لا ترجع إليك أبداً . فأبى على ذلك ملياً من النهار ثم إن الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم برحه الله فمحى وكتب كتاب الصلح . وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان . قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين . إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره . وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل وهما : أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص القرشى عملا به وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ، وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه إنا على ما فى هذه الصحيفة ، إن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن

الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وأن مكان القضية الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً . اللهم إنا نستنصرك على من ترك مافى هذه الصحيفة »

ويتبع ذلك أسماء الشهود من الفريقين . وكان الكتاب فى ١٥ صفر سنة ٣٧ وروى الطبرى أن ذلك كان فى ١٣ صفر .

الناظر إلى عقد التحكيم الذى أوردناه لا يجد فيه حدوداً مرسومة ولا أعلاماً بينة يهتدى بها الحكم أو الناظر فى أفعال الحكم . ولم يبين فيه حكم ما إذا فارق الحكمان أو أحدهما ما فى كتاب الله أو السنة العادلة . ولا حكم ما إذا اختلفا ولم يتفقا ولم يبن به الشىء الذى يبحثان فيه من أمرهما . وإنى لا أدرى كيف يكون هذا عقد التحكيم ؟!

قال الأستاذ الخضرى : وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً . وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور . ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ دينى أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كان لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر . وشيعة معاوية تنصره لأنه ولى عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من آوى إليه قتلته .

إن تهالك كل من الرجلين على ما يزعمه حقاً له كان بالغاً أقصى نهايته . فكل منهما يريد بلوغ أربه من الآخر بأى ثمن مهما غلا . إن من عنده ذرة من الشفقة ليذوب قلبه على هذه الأمة رحمة وأسى فقد وجدت بين عاملين يتنازعانها ويغريان أبناءها بعضهم ببعض ويسيلان دماءها أنهاراً ولا تحدث واحداً منهما نفسه بأنه لا يصل إلى ما يريد إلا على جسر من الجثث يزيد على عشرات الألوف من موافقيه ومخالفيه هم عدة الإسلام وعزه وقوته بهم أعلى الله كلمته وأعز ناصره وليس من الكياسة أن يهلك مثلهم ضيعة فى أمر إن وقع لا يرتفع له ميزان الدين ولا ينخفض . ولو كان الرجلان ممن لا يؤبه لهما وليس لهما فى الدين قدم وحسن بلاء لكان للقلم مجال ، ولكنهما بالمحل الرفيع والمكان المكين ، وبخاصة على بن أبى طالب وأثره فى الدين وإعزازه . فليس لنا إلا أن نأسى على ما كان ونكل أمر صاحبي العمل إلى الله عز وجل ونسأله لهما الصفح والغفران .

حسن عندى قول المرحوم الأستاذ الخضرى : يظهر للمتتبع أخبارَ ما بين على ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام . فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه . وكان يرى فى معاوية انحطاطا هائلا عنه . ولماذا ؟ لأنه من الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه . وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الإسلام إلا كرهاً حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك . وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغماً لأنه لم يجد له أنصاراً ، فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن فى وقت بايعه فيه الناس بالخلافة ، وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه .

وكان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به الإنسان . ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ، والمنصف يقول خير نصفى

الأمة وأنفعهما وأرضاهما غناء وبلاء ، ومثله لا ينال إلا بالأناة وشيء من المصانعة والسهولة والتجاوز له عن شيء من السلطان يتبجبح فيه وينال من متاع الدنيا ما تشره إليه نفسه ، فإنه رجل قد ألف الشرف وأبهة السلطان إلى عز قديم وشرف عريق ورياسة فى الجاهلية آزرتها رياسة فى الإسلام فاتصل القديم بالحديث . وهذه أشياء لم ير على أن ينزل إليها .

أما معاوية فإنه كان بدون ريب يرى نفسه عظيما من عظماء قريش ، لأنه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب أكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة النسبية . ثم كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق . فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح فى حماية الثغور الرومية ، وهو يعلم أن علياً لا ينظر إليه بتلك العين التى كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى على يحطه عن تلك المنزلة السامية التى نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وقد وجد أمامه شبها تفسح له المجال فى تلك المناوأة .

١ — أنه لم يُستشر فى تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت إمرته جند من المسلمين لا يقل عن مئتى ألف .

٢ — إن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة على .

٣ — إن أول من ندبه إلى الخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه .

٤ — إنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى المذلة والمهانة . شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة . ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشىء الذى يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده ، فعلى كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك

لا يكون صلح حتى إن رسله التى كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى ، وكلا الأمرين لا يرضى بهما على : أما قتلة عثمان فإنه إن أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما ثانياً ولأنه لا يترك حقاً قد ثبت له بالبيعة التى رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية فى نفسه . أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذى اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج فى جيش على .

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند على فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بنى تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون فى أمر الله الرجال ؟ لا حكم إلا لله . ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بنى تميم فنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة .

روى الطبرى عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء وما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشى فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم فى أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم أن أمير القتال شبث بن

ربعى التميمى (وهذا الذى كان رسول على إلى معاوية وكان يتوقح فى خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يسايع علياً وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبعث إليهم على عبد الله بن عباس وقال له : لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك . فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقمتم من الحكمين وقد وقال الله عز وجل « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فى هذا .

قال ابن عباس فإن الله عز وجل يقول « يحكم به ذوا عدل منكم » فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين وقالوا إن هذه الآية بيننا ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم فى أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبيل ذلك مادعوناهم إلى كتاب الله فأبوه . ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والإستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية . ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك ؟ ثم سألهم ماأخرجكم علينا ؟ حكومتكم يوم صفين . فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ولما أبيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحيا ماأحيا القرآن وأن يميتا ماأمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا له فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا :

تخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال : ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله . والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون ، فبايعهم على وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجىء المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا . فدخلوا على ذلك .

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن علياً كان إماما بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافر فإذن يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر فى القرآن والحدود المقررة لامعنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصا فاللين معهم ومهادنتهم إدهان فى سبيل الله وتحكيم للرجال فيما لاحكم فيه إلا لله وهذا فى نظرهم جريمة وفاعلها ضال ، والضال لايصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه ، فلهم أن يقاتلوهم وهم فى نظرهم كجند معاوية سواء بسواء . فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل ، فلا عجب أن تكون هى أيضاً باطلة . كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر فى كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شىء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شبها فى نفس إمامة الإمام أهى منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال فى دين الله وإنما هو تحكيم فى صحة وصف ينبنى عليه حكم فإن القاضى الذى ترفع إليه قضية سرقة لايطلب منه الاجتهاد فى أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك فى إمامته والشك لايجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا أيضاً لأن صاحب الحق كثيراً مايتأكد أن الحق له فإذا رأى من

خصمه إنكاراً أو تمسكا بسببه فلا طريق له إلا أن يرفع الأمر لقاض أو لحكمين يكون حكمهما قاطعا لنزاع خصمه .

وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بات أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بله وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلى عدوان . والمتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم فى حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بمظاهرهم أنه الصواب من الرأى حتى صار عندهم من الحقائق الثابتة التى لا ينكرها إلا غاو حائد عن الدين فى نظرهم ، وإلا فكيف يؤول فعلهم وما صاروا إليه ؟ كان القوم بالأمس يعتقدون فى على أنه سيد المسلمين وأعلمهم وأفقههم فى الدين ، واليوم قاموا ينبذون إليه على سواء ويباينونه كل المباينة ويرون أنه ضال بسبب ما كان منه من التحكيم ، وهو لم يصر إليه إلا بمشورتهم ، وعن ملأمنهم ، ويقولون إنه صار لا يستحق أن يكون خليفة ويدينون بأن كل من تابعه حائد عن طريق الرشاد حلال الدم .

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى ومعهم ابن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم وأبو موسى الأشعرى معهم . وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل بأذرح . وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدرى بما جاء به ولا بما ذهب به أحد ولا يسأله أهل الشام عن شىء . وإذا جاء رسول على جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه : ما كتب إليك أمير المؤمنين ؟ فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا : ما نراه إلا كتب بكذا وكذا . فقال لهم ابن عباس : أما تعقلون ؟ أما ترون رسول معاوية يجىء لا يعلم بما جاء به أحد ويرجع لا يعلم بما رجع به أحد ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون ! — وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبى وقاص .

ولما كان القوم بدومة الجندل أحب المغيرة بن شعبة أن يعرف ما عند كل من الحكمين وهل يمكن اجتماعهما على رأى . فأتى عمرو بن العاص وقال له : يا أبا عبد الله ما رأيك فينا معشر القوم الذين اعتزلوا القتال ولم يشهدوا من هذه الحرب شيئاً ؟ فقال إنكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار . وجاء إلى أبى موسى وسأله عن شأنه ومن اعتزل الحرب حتى يتبين الحق ويجتمع الناس على إمام . فقال أنتم المؤمنون الصالحون حقا ، فقال : إن الرجلين لا يمكن أن يجتمعا .

ومما كان فى اجتماع الحكمين أنهما بحثا فيما جاءا لأجله وهو إصلاح ما بين الناس . فتكلم عمرو فقال : ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ قال أبو موسى أشهد . قال عمرو : ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال بلى . قال عمرو :فإن الله يقول : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً . فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى وبيته فى قريش كما قد علمت ؟ فإن تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة ، فإن لك بذلك حجة : تقول أنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير . وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان كاتب الوحى لرسول الله وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله : إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . فقال أبو موسى : يا عمرو أتق الله . فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولى أهله . ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة ابن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبى طالب . وأما قولك أن معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لى بالسلطان . فو الله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله عز وجل . ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو : إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف

فضله وصلاحه . فقال إن ابنك رجل ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . هذه رواية الطبرى .

لا ينتظر من محكمين توليا الحكم بكتاب تحكيم مبهم يشبه مضمونه لغزاً من الألغاز أو أحجية من الأحاجى أن يتكلما فى مثل موضوعهما المشكل إلا بمثل هذا الكلام الذى لا يشفى غليلا ولا يبرئ عليلا وأن تكون المقدمات التى تبنى عليها النتائج والمطالب لجة وليس بينها وبين بعضها ارتباط .

من هذه المناقشة يفهم أن الرجلين قد اتفقا على خلع المتنازعين ، ولكنهما اختلفا فيمن يخلفهما ويكون أمره جامعاً لكلمة المسلمين . وإنى لا أفهم ، ولا أظن أحداً يفهم على أى حكم من كتاب الله تعالى يستندان فيما اتفقا عليه ولا بأى سنة استمسكا وهما إنما وليا على الحكم بمقتضى كتاب الله تعالى وسنة رسوله العادلة الجامعة غير المفرقة — فكان عليهما أن يعمدا إلى مثل قوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الخ .

ولما صار الرجلين إلى هذه النقطة قال عمرو لأبى موسى: أخبرنى ما رأيك ؟ فقال : رأيى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : فإن الرأى ما رأيت .

كان عمرو قد أخذ أبا موسى من حين التقيا بدومة الجندل بأن يقدمه فى الكلام وفى كل شىء فيقول له : إنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أسن منى فتكلم وأتكلم . واغتزى عمرو من ذلك أن يقدمه عند الكلام على خلع ثم يكون هو على رأس أمره .

ولما لم يبق إلا إعلام الناس بما اجتمع عليه رأيهما واتفقت عليه كلمتهما ، خرجا وتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر أجمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا عنهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا

عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ، ثم تنحى ، وأقبل عمرو فقام مقامه لحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه » فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً . وحمل بعض رجال عليّ على عمرو بالسوط ، وحمل بعض رجال معاوية عليهم بالسوط ثم تحاجز الفريقان . والتمس رجال الشام أبا موسى ، فإذا هو قد ركب راحلته وذهب إلى مكة .

وقد روى الطبرى أن أبا موسى لما خرج ليتكلم قال رأيي ورأى عمرو وقد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به هذه الأمة . فقال عمرو : صدق وبر ، يا أبا موسى تقدم فتكلم . فقال ابن عباس لأبى موسى أن عمرا رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت فى الناس خالفك وكان أبو موسى رجلا مغفلا فقال : إنا قد اتفقنا .

ويرى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على ومعاوية وأن المسلمين يولون عليهم من أحبوا — قال الأستاذ الخضرى : وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول . لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئا لأن الذى ثبته إنما هو حكمه والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضى به أحد الحكمين ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية . أقول وما ذكره المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك حسن لو كان الأمر جاريا فيما بين على ومعاوية على مقتضى الحكمة ناهجا منهج المنطق الصحيح ، ولكنا نرى الأمر من أوله إلى آخره مشوشا غير منظم ولا مرتب ولا صائر فى سبيل العقل ونهج الفطنة فليس بينهما وثيقة تحكيم واضحة المعالم ظاهرة

المناهج مبين فيها أن الخلافة محل الخلاف ومحال النزاع فينطرا فى إثباتها أو إلقائها عن أحد الفريقين أو عنهما . ونقطة النزاع الكبرى وهى التى كانت مفهومة بادى الرأى وهى الاقتصاص من قتلة عثمان قد أغفلت إغفالا شائنا سواء فى صحيفة التحكيم إن كانت تصلح أن تسمى صحيفة أم فى حكم الحكمين فلم يتداولا فى هذا الشأن ولم ينقل ناقل أنهما تفاوضا فيه أو أشارا إليه باستحسان أو استهجان . ثم إذا كانت هناك صحيفة فأين ذهبت ؟ — ولم لم تكن لهما محاضر فى كل جلسة يثبت فيها كل محاورته للآخر وتحدد فيها نقط النزاع وما دار بشأن كل نقطة .

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأن هذا العمل لا يؤدى إلى نتيجة مفيدة . لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ، ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أى طريق يسلكه سوى إراقة الدماء وقد كان من المثبطين عن على والمخذلين عن نصره ومتابعته الكارهين لمسيره . وقرينه عمرو بن العاص يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك وهو حول قلب لا يعيى بالأمور ولا تكرثه المعضلات شهر من أول أيامه بسعة الحيلة العقلية وحسن الارتياد للأمور يرى الخداع فى طريق الوصول إلى ما يحب مما يزيد فى أبهته ويوكد نباهة شأنه . فلا يهمه شىء سوى الوصول إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع . ومثل هذين لا يتفقان .

وما عجبت من شىء فإن أمر أبى موسى أعجب . ذلك أنه كان ينهى الناس عن هذه الفتنة ويأمرهم باعتزالها حتى يتضح المنهج وتستقيم السنن وأن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان إلى آخر الحديث . فما باله قد غس يده فيها من حيث لا يحتسب ؟ وأوقف نفسه فيها على ثنية عجز وأوقف المسلمين على سنن الاختلاف . ولولا رحمة من الله لعادت الفتنة جذعة وكان القوم أقرب إلى التفانى والاستئصال بفضل غفلته وسوء تقديره لنفسه ولخصمه — أما كان خيراً له أن يستعفى ويترك الأمر لمن هو أكفأ منه ؟ لم يكن على ليرضى بهذا

الحكم الذى اعتقده بحق مخالفاً للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما وقد رضى به معاوية طبعاً .

وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضى الحابل

لأن أقل مافى الحكم أن ليس لعلى إمامة . وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدا فقويت آماله فى أن يكون خليفة للمسلمين وسلم عليه عمرو وسائر جنده بالخلافة .

رجع ابن عباس وشريح إلى على وأوقفاه على جلية ماتم . وهذا الأمر لا يرضيه كما قدمنا ، فكان إذا صلى صلاة الصبح يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد .

وإنى بإزاء هذا القنوت أقول : إن عليا رحمه الله قد سن لخصومه أن يقابلوه بمثل عمله ويتخذوا من لعنه نوعا من العبادة فى أعقاب الصلوات فكان معاوية إذا قنت سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر وصار ذلك سنة فى بنى أمية إلى زمن عمر بن عبد العزيز يأخذون الناس به فى أقطار بلاد الإسلام .

ليس للمؤرخ أمام ما كان من الفريقين أن يخطئهما فيما صنعا ويلومهما فيما أتيا وهذا عمر بن الخطاب قد وقع رجل أمامه فى الفرس فأظهر له النفور من قوله ، وقال له : إن الفرس حكمت فعدلت وعمرت بلاد الله فهم لا يستحقون ما تقول أو كما قال . فإذا كان هذا شأنه مع خصومه من الفرس فما بال أهل القبلة يتلاعبون ويأتون بما لا يليق بأمثالهم من الوقيعة فى أهل دينهم ؟ على أن علياً قد مات واستمر بنو أمية يسبونه فى أعقاب الخطب ستين سنة .

ويذكر ابن الأثير أن سعد بن أبى وقاص كان حاضراً يوم إعلان الحكمين أمرهما فقال لأبى موسى : ما أضعفك عن عمرو ومكائده ! فقال أبو موسى : فما أصنع ، وافقنى على أمر ثم نزع عنه . فقال ابن عباس . لا ذنب لك يا أبا موسى الذنب لمن قدمك فى هذا المقام . فقال . غدر فما أصنع ؟ فقال ابن عمر انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة ، صار إلى رجل لا يبالى ما صنع ، وإلى آخر ضعيف وابن الأثير يصحح أن معاوية حضر الحكمين وأنه قام عشية فى الناس

فقال أما بعد من كان متكلما فى هـذا الأمر فليطلع لنا قرنه . قال ابن عمر . فأطلقت حبوتى فأردت أن أقول يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام فخشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة ويسفك فيها دم ، وكان ما وعد الله فيه الجنات أحب إلى من ذلك . فلما انصرفت إلى المنزل جاء إلى حبيب بن مسلمة فقال . ما منعك أن تتكلم حين سمعت هذا الرجل يتكلم ؟ قلت أردت ذلك ثم خشيت . فقال حبيب . وفقت وعصمت .

وأحسب أن حبيباً لم يأت إلى ابن عمر من تلقاء نفسه وإنما دسه عليه معاوية حين بصر به يحل حبوته أوبلغه ذلك فأحب أن يعلم ماعنده ويقف على ما كان مزمعاً أن يواجهه به .

شأن الخوارج مع على

رأى على أنه لا بد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه . ومعالجة دائهم ولكن صدفه عن ذلك عود الخوارج فى حافرتهم وإجفالهم عن على وجماعته ، ذلك أنهم كانوا يظنون أن علياً قد وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة . وجاءه إنسان منهم فقال له : إن الناس تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس فى صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج وعابه ، فثارت الخوارج فى ناحية المسجد يقولون : لاحكم إلا لله . فقال على : الله أكبر كلمة حق يلتمس بها باطل إما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا . لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ؛ ولا نقاتلكم حتى تبدؤنا .

عند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى فخطبهم خطبة حثهم بها على الخروج وقال فى خطابه : « فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين فيهم : فكلهم يأباها . ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال : هاتوها ؛ أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧

ثم اتفقوا على أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان . وكتب عبد الله بن وهب إلى من بالبصرة منهم يعلمهم بما اجتمعوا عليه ويحثهم على اللحاق بهم فأجابوه . فلما عزموا تعبدوا ليلتهم ويومهم وساروا يوم السبت فخرج شريح بن أوفى العبسى وهو يتلو « فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاه مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

ولما خرجت الخوارج جاءت إلى على شيعته ومن بقى على ولائه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت .

وبعد أن خرج القوم وعلم على بما كان من أبى موسى وعمرو بن العاص فى شأن التحكيم خطب أهل الكوفة فقال :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أما بعد . فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم . وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيى لو كان لقصير أمر ، ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم ، كما قال أخو هوازن .

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى   مكان الهدى أو أننى غير مهتد

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله.

وكتب إلى الخوارج بالشخوص معه لحرب أهل الشام . وإنما أطمعه فى ذلك منهم أنهم كانوا كارهين للتحكيم زارين على على الرضا به . فما كان جوابهم إلا أن كتبوا إليه .

« أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

قرأ على كتاب هؤلاء القوم فأيس من خيرهم واعتزم على إلقاء حبلهم على غاربهم وأن يسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب إلى ابن عباس أن يستنفر أهل البصرة ويوجه إليه بالجند فقام فيهم ابن عباس بأمر على فلم يقم منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيس واثاقلوا فخطبهم ابن عباس وحثهم وشدد فى خروج من بقى منهم مع جارية بن قدامة فلم يخرج معه سوى ألف وسبعمائة . وكان ديوان أهل البصرة يحوى ستين ألف مقاتل سوى أبنائهم وعبدانهم ومواليهم . ولم يزل على بالنخيلة حتى أتاه جيش البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل .

رأى على ذلك فجمع رؤساء الأسباع ووجهاء القبائل من أهل الكوفة وحثهم ورغبهم وأراهم قلة أهل البصرة وتثاقلهم وقال فأعينونى بمناصحة جليلة خالية من الغش وأمرهم أن يكتبوا المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال والعبدان والموالى فرفعوا إليه ذلك فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبناء وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم . وكان جميع من معه ثمانية وستين ألفاً بعد أن تم حشد على من البصرة والكوفة والمدائن وغيرها على ما وصفنا سمع أن بعض الجند يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأ بهم (يريدون الخوارج) ، فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام . فقام فيهم خطيبا وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم . فتنادى الناس يقولون : يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت كان أمر الخوارج عجبا فإنهم كانوا يظهرون بمظهر العباد الزهاد الذين لا يرون نصبا فى ذات الله ويتورعون عن تافه الأشياء وما يعد الورع فيه باردا ويتحرجون من ذلك أشد تحرج ثم يأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر كأنهم لا يدينون بإله ولا يعرفون عدلا ولا شفقة ولا رحمة ، فهم كما يقول المثل العامى « يفتون على الأبرة ويبلعون المدرة » وهم فى كل عملهم لا يعجزون عن الإتيان بالآيات من الكتاب يستدلون بها على تبرير عملهم .

وكم من فقيه خابط فى ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل

دخل القوم قرية فخرج منها عبد الله بن خباب بن الأرت ومعه امرأته حاملا فقالوا له : أفزعت ؟ فقال : والله لقد أفزعتمونى . فقالوا : لا روع عليك ، وسألوه من هو ؟ فقالوا : حدثنا عن أبيك عن رسول الله . فحدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسى فيها مؤمناً ويصبح فيها كافرا ويصبح فيها كافرا ويمسى فيها مؤمناً » فقالوا . لهذا الحديث سألناك ، فما تقول فى أبى بكر ؟ فأثنى عليه وفى عمر فأثنى عليه وفى عثمان فى أول خلافته وآخرها فقال : إنه كان محقاً فى أولها وآخرها . وسألوه عن على قبل التحكيم وبعده فقال : هو أعلم بالله منكم وأشد توقياً لدينه وأنفذ بصيرة (وكان عبد الله بن خباب رأى أحدهم وقد سقطت رطبة من نخلة فألقاها فى فيه فأنكروا عليه أن يكون قد أكلها بغير ثمن وبغير إذن صاحبها . وقتل أحدهم خنزيراً فأنكروا عليه لأنه إتلاف لمال أهل الذمة) فقالوا له : والله إنك لتشهد بالهوى وتفضل الرجال على أسمائها لا على أفعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا قط . فأتوا به فذبحوه وبقروا بطن امرأته عن حملها وكانت متما وقتلوا ثلاث نسوة من طىء وأم سنان الصيداوية فبلغ ذلك علياً فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر عنهم فقتلوه . ولما جاء الخبر بذلك قال له أصحابه يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا ؟ سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام . فلم يجد على بدأ من موافقتهم على مناجزة الخوارج أولا .

سار إلى الخوارج . فلما لقيهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكافٌ عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . فبعثوا إليه : كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . وقد أعذر إليهم علىٌّ جهده وأبلغ فى الموعظة والتحذير فى خطب رنانة خطبها فيهم فجعلوا أصابعهم فى آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا — ثم رفع راية مع أبى أيوب الأنصارى ونادى : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة

أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن إنه لاحاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وآوى إلى على جمع وبقى ابن وهب فى ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت الموقعة فى ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من أربعمائة فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرهم : وقال احملوهم معكم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة . ويقول ابن الأثير : إنهم قتلوا فى وقت قصير كأنما قيل لهم موتوا فماتوا . وكان على يحدث أصحابه بمن يخرجون وعلامتهم رجل مخدج فالتمس فوجد فيهم .

تخاذل شيعة على

لما رأى على أنه رتق الفتق من ناحية الخوارج وأراح الناس من شغبهم أراد أن ينهض إلى الشام . فقام فى أصحابه فقال :

إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدو فى جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده . حيارى فى الحق جفاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون فى الطغيان ويعكسون فى غمر الضلال فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا وكفى بالله نصيرا فقالوا :

يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا . وكان الذى تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس — وهو من أكره الناس للحرب — وإنى لا أدرى لم يخرج الكاره للحرب مع المستعدين لها ؟ ومثل هذا لا يكون له عمل سوى التثبيط والتخذيل وقد كان هذا الرجل كذلك من يوم الجمل .

سمع على هذا الكلام وأشفق أن يستكره الناس على النهوض من فورهم فرجع إلى النخيلة وعسكر بها وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم وأن يوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم . فأقاموا

فى معسكرهم أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا مدينتهم إلا رجالا من وجوه الناس قليلا و تُرك المعسكر خاليا . فلما رأى على ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه وتركهم أياما حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذى ينظرهم ؟ فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط . فقام فيهم خطيبا فقال : « عباد الله مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز وكلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة ، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون ، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون . لله أنتم ! ما أنتم إلا أسود الشرى فى الدعة وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس . ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى ما أنتم بركب يصال بكم ولا ذوى عز يعتصم إليه لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم إنكم تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم ولا تتحاشون ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون ، ثم بين لهم حقوقهم عليه وحقوقه عليهم واستحثهم فكان كأنما ينفخ فى غير ضرم .

لم يزل على فى القوم يغاديهم بالخطب الطنانة ويراوحهم بالقول الجزل ويثير حميتهم ويستفز نخوتهم . فلم يزدهم ذلك إلا إعراضاً عن الحرب ونفاراً منها وما تغنى الأقوال والخطب عن قوم توزعتهم الأهواء وتفرقت بهم السبل يشهدون بقلوب غائبة وأفئدة شاردة وألباب طائرة ، قد تراخت أسباب طاعتهم وضعف سلطان إمامهم فى أنفسهم قد استمرأوا مرعى الدعة وآثروا السلامة ، وأصبح على لا يدرى لهم طاعة ولا يعرف لهم عصياناً فهو من أمرهم فى داج من الشك ومظلم من الريب .

شأن معاوية ومحمد بن أبى بكر

لما عزل على قيس بن سعد عن مصر بكيد معاوية وخُرق رأى المشيرين على على وولى محمد بن أبى بكر على مصر جاء إليها ولم يلبث شهراً من مقدمه حتى كتب إلى المعتزلين بخربتا يخيرهم بين الدخول فى طاعته والخروج من مصر . فأجابوه : إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا وحذروا أشد الحذر .

كان قيس بن سعد — لما علم بشخوص محمد بن أبى بكر أميراً على مصر — تلقاه وناجاه فقال . إنك جئت من عند امرىء لا رأى له وليس عزلكم إياى بمانعى أن أنصح لكم وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وإنى فى ذلك على الذى كنت أكايد به معاوية وعمراً وأهل خربتا فكايدهم به فإنك إن تكايدهم بغيره تهلك ووصف له ما يأتى وما يدع من أمره . فاستغشه محمد بن أبى بكر وخالف كل شىء أمره به وخرج لحرب أهل خربتا فقاتلوه وهزموه ولم يحل منهم بطائل .

علم معاوية بما كان بين محمد بن أبى بكر والمعتزلة بمصر فسره ذلك . وقام معاوية بن حديج السكونى الكندى يطلب بدم عثمان فأجابه ناس آخرون وفسدت مصر على محمد بن أبى بكر وعلم على بالأمر فى أثناء هدنة الحكومة فأهمه ذلك وقال : إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذى عزلناه . والأشتر وكان الأشتر بالجزيرة عاملا لعلى فأرسل إليه بأن مصر قد انتقضت على محمد بن أبى بكر وهو غلام حدث ليس عنده تجربة ولا علم بالأمور فاستخلف على عملك أهل الثقة ممن معك واحضر إلى . فلما جاء إليه ولاه أمر مصر وقال له . اخرج رحمك الله فإنى لو لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة . فخرج وتهيأ للرحلة إلى مصر وأتت معاوية عيونه فأخبره بولاية الأشتر على مصر فعظم عليه ذلك . وبعث إلى الجايستار — وهو رجل من أهل الخراج — فقال له إن الأشتر ولى مصر فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت . فأتى ذلك الدهقان حتى نزل القلزم فلما انتهى الأشتر إليها استقبله الرجل وقال أنا رجل من أهل الخراج ، وهذا منزل وهذا طعام وعلف فنزل الأشتر .

فلما طعم جاءه بشربة عسل فيها سم فشربه الأشتر فمات — وكان معاوية حين علم بفصول الأشتر يقول لأهل الشام إن الأشتر قد ولى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه فكانوا يدعون على الأشتر بكرة وعشيا . إلى أن جاء الجايستار وأنبأه بهلك الأشتر فقام معاوية فقال . أما بعد فإن على بن أبى طالب كان له يمينان قطعت إحداهما يوم صفين (يعنى عماراً) وقد قطعت الأخرى اليوم

(يعنى الأشتر) وقد روى عنه أنه قال حين علم بموت الأشتر . « إن لله جنوداً من عسل » .

أما محمد بن أبى بكر فساءه من على أن يعزله عن مصر ؛ فبلغ علياً مهلك الأشتر وموجدة محمد بن أبى بكر فكتب إليه : « أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك . وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً منى لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ماهو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب إليك ولايةمنه . إن الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب . اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك . أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته » . فكتب إليه محمد بن أبى بكر « أما بعد فقد انتهى إلى كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه وليس أحد من الناس بأرضى منى لرأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس إلا من نصب لنا وأظهر لنا خلافا وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه وملتجىء إليه وقائم به والله المستعان على كل حال والسلام عليك .

لما انصرف أهل الشام من صفين كانوا ينتظرون ما يأتى به الحكمان فلما انتهى أمرهما ، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فزاده ذلك توثيقا فى أمره وقوة إلى قوته . واختلف أهل العراق على علىّ وقعدوا عن أمره فتضاعف عليه اضطراب شؤونه ووهى جانب سلطانه . ولم يكن لمعاوية همّ إلا مصر ، وكان لأهلها هائبا يخشى أن يتسق لعلى الأمر فيها وأن يستظهر بهم على حربه ، مع قربهم وشدتهم على من كان على رأى عثمان وكان قد علم أن بها قوما ساءهم قتل عثمان وخالفوا ، فرجاهم أن يشدوا ساعده حتى إذا انقادت له أمور مصر بأزمتها استظهر بأهلها على حرب على لعظم خراجها .

فدعا معاوية من كان معه من قريش . عمرو بن العاص وحبيب بن سلمة وبُسر بن أبي أرطأة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ومن غيرهم أبا الأعور السلمى وحمزة بن مالك الهمدانى وشرحبيل بن السمط فقال لهم أتدرون لمَ دعوتكم ؟ إنى قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون الله قد أعان عليه . فقال قائلهم : إن الله لم يطلع على الغيب أحداً ، وما يدرينا ما تريد ؟ فقال عمرو : أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير عددها والكثير عدد أهلها أهمك أمرها فدعوتنا تسألنا رأينا فى ذلك ، فإن كنت لذلك جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأى رأيت فنى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك فقال معاوية لعمرو : أهمك ما أهمك . يريد بذلك أن هذا الأمر أهم عمراً لأنه جعل له مصر طعمة طول حياته فى مقابلة معاونته ومؤازرته على أمره وما شجر بينه وبين على . ثم قال : إن هذا قد ظن ثم حقق ظنه . فقالوا ولكنا لا ندرى فقال إن أبا عبد الله قد أصاب ثم قال : أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم فى حربكم عدوكم . جاؤكم وهم لا يرون إلا أنهم سيقيضون بيضتكم ويخربون بلادكم ماكانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا وحاكمناهم إلى الله فحكم لنا عليهم . ثم جمع لنا كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دم بعض ، والله إنى لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن نحاول أهل مصر ، فكيف ترون ارتشاءنا لها ؟ فقال عمرو قد أخبرتك عما سألتنى عنه وقد أشرت عليك بما سمعت ، فقال معاوية : إن عمرا قد عزم وجزم ولم يفسر فكيف لى أن أصنع ؟ فقال : إنى أشير عليك كيف تصنع . أرى أن تبعث جيشاً كثيفا عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به ، فيأتى مصر حتى يدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فظاهره على من بها من عدونا فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت أن يعين الله بنصرك ويظهر فلجك . فقال معاوية فهل عندك سوى هذا ؟

فقال لا . فقال معاوية أرى أن نكتب إلى من هم من أهل صلحنا وعلى مثل رأينا فشبتهم ونقويهم ونمنيهم مجيئنا إليهم . وإلى أهل عداوتنا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا . فإن صلح لنا قيامهم بغير قتال فذاك ما أحببنا وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله . إنك يا ابن العاص امرؤ بورك لك فى العجلة وأنا امرؤ بورك لى فى التؤدة . فقال : افعل ما رأيت فإنى أرى والله أن أمرك وأمرهم يصير إلى الحرب العوان . فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى وإلى معاوية بن حديج الكندى وكانا قد خالفا علياً : « أما بعد فإن الله قد بعثكما لأمر عظيم أعظم به أجركما ورفع به ذكركما وزينكما به فى المسلمين طلبكما بدم الخليفة المظلوم وغضبكما لله إذ ترك حكم الكتاب وجاهدتما أهل البغى والعدوان ، فأبشرا برضوان الله وعاجل نصر أولياء الله والمواساة لكما فى الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى فى ذلك ما يرضيكما وتؤدى به حقكما إلى ما يصير أمركما إليه فاصبرا وصابرا عدوكما وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما فكأن الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تكرهان وكان كل ما تهويان . والسلام عليكما » .

فلما جاء الكتاب ، كتب إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج « أما بعد فإن هذا الأمر الذى بذلنا له أنفسنا واتبعنا أمر الله فيه أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر ممن خالفنا وتعجيل النقمة لمن سعى على إمامنا وطأطأ الركض فى جهادنا ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفينا من كان به من أهل البغى وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت المواساة فى سلطانك ودنياك وبالله ما ذلك الأمر الذى له نهضنا ولا إياه أردنا فإن يجمع الله لنا ما نطلب ويؤتنا ما تمنينا فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين وقد يؤتيهما الله معا عالماً من خلقه كما قال فى كتابه ولا خلف لموعوده « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » عجل علينا خيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا حربا وكنا فيهم قليلا فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين فإن يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . والسلام عليكم » .

جاء هذا الكتاب إلى معاوية فقال لعمرو تجهز يا أبا عبد الله وبعثه فى ستة آلاف ، وأوصاه بالأعذار إلى المخالفين والتأنى والرفق والقبول ممن أقبل والعفو عمن أدبر وأن لا يبطش بمكابر إلا بعد الإعذار إليه . فلما كان عمرو بأدنى أرض مصر اجتمعت إليه العثمانية وكتب عمرو إلى محمد بن أبى بكر :

« أما بعد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر : فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك . فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنى لك من الناصحين » .

وأرسل إليه معه بكتاب كان معاوية كتبه إلى محمد بن أبى بكر صورته « أما بعد فإن غب البغى والظلم عظيم الوبال وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ، ومن التبعة الموبقة فى الآخرة . وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أسوأ له عيبا ولا أشد عليه خلافا منك : سعيت عليه فى الساعين وسفكت دمه فى السافكين ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناس لك حتى تأتى فتأمّر على بلاد أنت فيها جارى وجل أهلها أنصارى يرون رأيى ويرقبون قولى ويستصرخوننى عليك . وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك يستسقون دمك ويتقربون إلى الله بجهادك وقد أعطوا الله عهداً ليمثلن بك ولو لم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعدوك على عثمان يوم يُطعن بمشاقصك بين خُشَشائه وأوداجه . ولكن أكره أن يمثل بقرشى وان يسلمك الله من القصاص أبداً أينما كنت والسلام » .

فلما جاء إلى محمد كتاباهما أرسلهما إلى على وكتب معهما « أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أدانى مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم ، وقد جاء فى جيش لجب خراب . وقد رأيت ممن قبلى بعض الفشل ، فإن كان لك فى أرض مصر حاجة فأمدنى بالرجال والأموال . والسلام »

فكتب إليه على يهون عليه أمر ابن العاص ، وأن خروج من خرج إليه إنما هو فى مصلحته . وأمره أن لا يفشل وإن فشل من قبله وأن يحصن القرية ويضم إليه شيعته ويقاتلهم بجهده ، ووعده أمداده بالرجال سريعا . ونال من معاوية وعمرو ما شاء أن ينال وأمره أن يجيبهما عن كتابهما إن كان لم يجبهما ، وأن يندب إليه كنانة بن بشر .

أما محمد بن أبي بكر فكتب إلى معاوية « أما بعد فقد أتانى كتابك تذكرنى من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك منه وتأمرنى التنحى عنك كأنك لى ناصح وتخوفنى المثلة كأنك شفيق وأنا أرجو أن تكون لى الدائرة عليكم فاجتاحكم فى الوقعة وأن تؤتوا النصر ويكن لكم الأمر فى الدنيا فكم لعمرى من ظالم قد نصرتم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به وإلى الله مصيركم ومصيرهم وإلى الله مرد الأمور وهو أرحم الراحمين وهو المستعان على ما تصفون » وكتب إلى عمرو بن العاص : « زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين . وتزعم أنك لى نصيح وأقسم أنك عندى ظنين . وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيى وأمرى وندموا على اتباعى فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء . . . » وقام محمد بن أبي بكر فى الناس يستجيشهم ويؤلبهم ويبعث فيهم الحماسة ويهزهم بالقول . فنفر منهم ألفان معه ومثلهم مع كنانة بن بشر واستقبل عمرو بن العاص ومن معه وتقدم إليه كنانة بن بشر وكان عمرو قد سرح جيشه كتائب فصار كنانة يضرب فى هذه الكتائب ويردها إلى عمرو حتى قرب منه فاستدعى معاوية بن حديج السكونى فجاءه فى مثل الدهم فأحاطوا بكنانة بن بشر ومن معه وعطفت عليه أهل الشام فقاتلهم ابن بشر ومن معه حتى قتل . ثم جاء عمرو إلى محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أكثر من معه لما بلغهم ما حل بابن بشر ومن معه واستمروا فى التفرق حتى لم يبق معه أحد فخرج يمشى فى الطريق حتى انتهى إلى خربة فدخل فيها ودل عليه بعض القبط وهم لا يعرفونه فدخل عليه معاوية بن حديج فى أصحابه فأخرجوه وقد كاد يموت عطشا وقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال أتقتلون أخى فأرسل

عمرو إلى معاوية بن حديج أن يأتى به إلى الفسطاط حيا فقال أكذلكم قتلتم كنانة بن بشر وأبقى أنا محمد بن أبى بكر ؟ أكفاركم خير من أولئكم ؟ فطلب محمد أن يسقوه فقال لا سقاه الله شربة ماء أن سقاك قطرة ماء منعتم عثمان الماء وقتلتموه صائما محرما حتى تلقاه الله بالرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يا ابن أبى بكر ويسقيك الله الحميم والغساق ونال كل منهما من الآخر وانتهى الأمر بأن قتله وأدخله جيفة حمار ثم أحرقه . ولما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه وقنتت على معاوية وعمرو دبر كل صلاة وضمت عيال محمد إليها .

أما على فلم يوفق لإخراج الجنود لأغاثة محمد بن أبى بكر إلا بعد شدة . وقد انتُدب له ألفان ولم يسيروا قليلا حتى جاء الخبر بقتل محمد بن أبى بكر ووقوع مصر فى يد معاوية . فأرسل إلى القوم من ردهم من الطريق وحزن على محمد بن أبى بكر حزنا كثيرا . ولم يجد عليا ما صاغ من الخطب وصنف من القول فى الاستنهاض . وقد سر معاوية وأهل الشام بما كان سرورا عظيما.

كانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ، ولم يقنع بالاستيلاء عليها ، بل عمد إلى تجهيز الجيوش إلى أطراف على ينتقصها : فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلى ففزع إلى على يستمده لكفاح المغيرين فأمر الناس باللحاق واستنهضهم فتثاقلوا فقام على فيهم بهذه الخطبة (ياأهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرىء منكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضبع فى وجَارها . المغرور من غررتموه . ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب . لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجا . إنا لله وإنا إليه راجعون . ماذا منيت بكم . عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون صم لا تسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد وجه معاوية أيضاً سفيان بن عوف فى ستة آلاف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية .

ووجه عبد الله بن مسعدة إلى تيماء وأمره أن يصدِّق من مر به من أهل

البوادى وأن يقتل من امتنع ثم يأتى مكة والمدينة . فوجه إليه على جيشاً يقدمه المسيب ابن نجية الفزارى فلقى ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديداً وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش .

ووجه معاوية الضحاك بن قيس للإغارة على بوادى البصرة فأغار عليها .

ووجه بسر بن أبى أرطأة فى ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وملكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ، ثم قدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس والياً لعلى . فلما علم بمقدم بسر بن أرطأة فرّ إلى الكوفة واستخلف على صنعاء فجاء بسر وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله ابن عباس قالوا : إنه ذبحهما وقد جنت أمهما لمصابهما وهوله ورُئيت وهى بالأسواق تنشدهما وتقول :

يا من أحس بابنىّ اللذين هما كدرّتين تشظى عنهما الصدفُ

وكان بُسر مسرفاً فى القتل لشيعة على ، سفاكا للدماء ، فقد قتل كثيراً من المسلمين فى وجهه هذا وهدم دوراً كثيرة فى مكة والمدينة وقد وجه إليه علىٌّ جارية ابن قدامة فى ألفين ووهب بن مسعود فى ألفين فخاف منهما وهرب حتى أتى مكة وقد قتل على فى تلك الأثناء وحملهم جارية بن قدامة على بيعة الحسن وكذلك أهل المدينة .

على هذا النمط كانت الأحوال : معاوية يتسق له الأمر ويضخم ملكه ويزداد قوة إلى قوته وتواتيه الأقدار ويرافقه التوفيق ، وعلى تضطرب عليه الأحوال وتتعذر السبل وتنتقص أطرافه وتقتل شيعته وأهل طاعته وتلتوى عليه الأمور . حتى أن أكثر المؤرخين يذكرون أن عبد الله بن عباس قد فارق علياً إلى مكة . لأن علياً سمع فيه الوشايات وقبل عليه السعايات من الساعين إليه بأنه احتجن الأموال دونه وخان فى بيت المال . وقد روى الطبرى أن الساعى بذلك أبو الأسود الدؤلى وكان ابن عباس عابه فأصغى على إلى قوله ، فاحتمل ابن عباس ثَقَلَهُ وما كان معه من مال ولحق بمكة فى جوار أخواله من بنى هلال . وذلك تقدير العزيز العليم .

جواب سؤال

يعتلج نفسى سؤال كلما استعرضت الأحوال التى كانت فى أخريات زمان عثمان وفى مدة على وما بعدها وهو : لم اختص المصرين البصرة والكوفة بقيام الخوارج دون الشام ومصر . ولم كان أهلوها بهذه الأخلاق من النزوع عن الطاعة والخلاف لأمر الإمام ؟ .

هذا السؤال مهم جدا وجوابه أهم ويحتاج إلى الإفاضة والشرح فى البحث والتنقيب عن غوامض كثيرة وربط الأسباب بمسبباتها . غير أنى اجتزىء بأن أقول كلمة موجزة تكون بمنزلة الإشارة ، واعتمد على ذهن القارىء فى الإكتفاء بهذا الإجمال .

يقول علماء الأخلاق وأهل البصر بعلم الاجتماع : إن ماضى الأمة لا يموت أبداً ولكنه يكون حيا فيها وفى أعقابها ، وإن الروح العامة للأحياء من الأمة إنما هى مؤلفة من أفكار الأموات . ومعلوم أن المسلمين قد غلبوا الفرس واحتووا أموالهم ونساءهم وذراريهم ، واتخذوا النساء الفارسيات زوجات وأولدوهن أكثر أولادهم فى تلك النواحى . فنشأت نابتة تلك الأقطار بين آباء وأمهات من جنسين متباينين فى المدنية والأخلاق والآداب والعادات والمعتقدات ومن دمين مختلفين يحمل كل منهما صفات متنافرة وعقائد متضاربة . ومثل هذا النسل تتفكك فيه أواصر الروح الوراثى وتوجد فيه أفكار متناقضة كل منها يجذب قواه إلى ناحيته . ومعلوم أن الفرس قد اعتنقوا أديانا مختلفة واصطبغوا بصبغات متنافرة فهم قوم يجمعون بين الصابئية والمجوسية والإباحية . ولهم ولوع باختلاف الأساليب الدينية يمثلها خيالهم ولم يكن لهم ثبات على دين خاص أو نحلة معينة بل كانوا فى جميع أدوار حياتهم متأثرين بعوامل الجذب والدفع بين النحل والأديان . فلما نشأ هذا الجيل المولد بين العرب والفرس نشأ مختلط المزاج سريع التأثر بالعقائد . يلبس لباس الدين والتقوى التى ورثها من الآباء ولكنه يريد أن يجذب هذا

اللباس ويوسع فيه حتى يحيط بكل ما انتقل إليه بطريق الوراثة من الأهواء المضلة التي يعجز عن التخلي عنها ولا يقدر على مفارقتها . وليس الدين عنده ديناً إن لم يتسع له ولما حمله بالوراثة من النزعات والنزغات وليس فى وسعه أن يقاوم تلك العوامل الداخلية التي تدفعه إلى العمل على هذا النحو فهو يأتى ما يأتى باعتقاد قوى وفكرة لا شك فيها أنه على حق ليس وراءه إلا الضلال . وعلى ذلك يكون مزاجه العقلى والأخلاق وآدابه التي يأخذ نفسه بها مزيجاً مركباً من عناصر شتى .

ولهذا يقول علماء الاجتماع : إن الشعب الصحيح لا وجود له إلا عند القوم الأولين . وأما الأمم المتحضرة فإن كثرة اختلاط التناسل ووحدة البيئة ولدت منها شعوبا تاريخية جديدة تشبه الشعوب الصحيحة . وإن صفات الشعب النفسية ثابتة ثبات صفاته الجسمانية وتنتقل بالوراثة على قاعدة واحدة وبالاستمرار . وإن المولد رجل تتجاذبه مؤثرات مختلفة من الوراثة والذكاء والآداب والأخلاق .

فإذا كانت أمة كلها أو جلها على هذا النحو من التناسل بين أبوين مختلفين كل الاختلاف على هذا النحو الذى ذكرنا كان قيادها صعبا وإن البيئة إذا كانت بهذا الوصف أثرت بطريق العدوى فى من لم يكن مولداً واندمج كثير بحكم التقليد وتغلب روح الجماعة فى ذلك المزاج المختلط فتنعدم شخصيته ويكون متأثراً بالروح العام للجماعة التي هو فيها .

وقد قال غوستاف لوبون « أمة أهلها كلهم مولد لا تساس » فليس عجيبا أن تعتاص على علىّ سياسة هؤلاء القوم وأن ينزع منهم نازع فى كل يوم إلى الخروج وانتحال نحلة جديدة وتأويل الدين على مقتضى ما يجول بخواطرهم لأنهم مدفوعون إلى هذا الضرب بعوامل الوارثة التي فيهم .

أما أهل الشام فلم يكونوا كذلك لأنهم لم يكونوا يستكثرون من إيلاد السبايا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الروميات كن متدينات بالدين المسيحى

وهو دين يأمر بالخير وينهى عن الشر وأهل تلك الناحية قد بعد عهدهم بالوثنية ولم ينقلبوا فى الأهواء والبدع تقلب الفرس ، فكان المزاج الدينى للأمهات قريباً من مزاج الآباء فلم يكن التباين كثيراً من هذه الناحية فكانوا أبعد من البدع التى تختلق فى العراق .

مقتل على بن أبى طالب

كان الخوارج يرون فى على بن أبى طالب عدواً لدوداً وخصماً خصيما . فاجتمع منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لايخافون فى الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا . فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبى طالب وكان من أهل مصر . وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان . وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه . فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشر تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه . وأقبل كل واحد منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب .

فأما ابن ملجم فكان عداده فى كندة فخرج فلقى أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره فرأى ذات يوم أصحابنا من تيم الرباب وكان على قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتالهم . ورأى من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ابنة الشجنة وقد قتل على أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها التبست بعقله ونسى حاجته التى جاء لها ثم خطبها . فقالت لا أتزوج حتى تشفى لى . فقال وما يشفيك قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب . فقال : هو مهر لك ، أما قتل على فلا أراك ذكرته لى

وأنت تريديني . قالت : بلى ، التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنئك العيش معى وإن قتلت فما عندالله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . قال: فو الله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على ، فلك ما سألت . قالت : إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك . فبعثت إلى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فأجابها . وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع يقال له شبيب بن بجرة فقال له هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال وما ذاك ؟ قال قتل على بن أبى طالب قال ثكلتك أمك لقد جئت شيئا إدّا ، فكيف تقدر على على ؟ قال أكمن له فى المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال ويحك لو كان غير على لكان أهون على ، قد عرفت بلاءه فى الإسلام وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم وما أجدنى أنشرح لقتلة . قال أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ قال بلى . قال فنقتله بمن قتل من إخواننا . فأجابه فجاءوا قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها قد أجمع رأينا على قتل على . فقالت إذا أردتم ذلك فأتونى . ثم عاد إليها ابن ملجم فى ليلة الجمعة التى قتل فى صبيحتها على فقال : هذه الليلة التى واعدت فيها صاحبى أن يقتل كل واحد منا صاحبه . فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التى يخرج منها على فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهرب وردان .

فأما وردان فقد جاء منزله وأخبر رجلا من قومه الخبر فقتله الرجل . وأما شبيب فدخل غمار الناس ونجا . وأما ابن ملجم فشدوا عليه فأخذوه .

وأما على بن أبى طالب فتأخر وقال : لا يفوتكم الرجل . وأدخل عليه ابن ملجم فقال له : أى عدو الله ألم أحسن إليك ؟ قال بلى . قال فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال على : لا أراك إلا مقتولا ، ولا أراك إلا من شر خلقه .

وكان ابن ملجم حين ضرب علياً بالسيف قال : الحكم لله يا على ، لا لك

ولا لأصحابك وقد قال علي بعد ضربه : النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي . وقالت أم كلثوم بنت علي وهي تبكي : أي عدو الله ، لا بأس على أبي ، والله مخزيك . قال فعلى من تبكين ؟ والله لقد اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد .

ودخل جندب بن عبد الله على عليّ فقال : يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن ؟ قال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر . فرد عليه مثلها . فدعا حسناً وحسيناً فقال : أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً . اعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم . ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم فقال إني أوصيك بمثله ، أوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما . وما زال يوصيهم بمحاسن الأخلاق والتقوى ، وما زال يقول لا إله إلا الله حتى قبض صبيحة يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ٤٠ . وكان قد نهاهم عن المثلة وقال : يا بني عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن إلا قاتلي . انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور . فلما قبض بعث الحسن إلى ابن ملجم . فقال للحسن هل لك في خصلة إني والله ما أعطيت الله عهداً إلا وفيت به . إني قد كنت أعطيت الله عهداً عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما . فإن شئت خليت بيني وبينه ولك الله علي إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدي في يدك . فقال الحسن : أما والله حتى تعاين النار فلا . ثم قدمه فقتله وأخذه الناس فأدرجوه في بواري ثم أحرقوه بالنار .

وأما البرك فإنه قعد لمعاوية فى الليلة التى ضرب فيها على ، فلما خرج ليصلى الصبح شد عليه بسيفه فوقع فى إليته ولم يقتله ، فأخذ . فقال لمعاوية : عندى خبر أسرك به فإن أخبرتك به أنافعى ذلك عندك ؟ قال : نعم . قال : إن أخاً لى قتل علياً فى مثل هذه الليلة . قال : فلعله لم يقدر على ذلك ؟ قال : بلى ، إن علياً يخرج وليس معه حرس . فأمر به فقتل . وأرسل معاوية إلى الساعدى وكان طبيباً فقال : إن ضربتك مسمومة فإما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع عنك الولد وتبرأ منها . فقال : أما النار فلا صبر لى عليها ، وأما الولد فإن فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى فسقاه تلك الشربة وبرأ ولم يولد له بعدها . وأمر معاوية باتخاذ المقصورات وحرس الليل والشرط تقوم على رأسه إذا سجد .

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص فى تلك الليلة وكان اشتكى من مَغْس أصاب بطنه فلم يخرج وكان خارجة بن حذافة صاحب شُرْطته فأمره أن يصلى بالناس فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله . فأخذه الناس وانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالأمرة . فقال مَن هذا ؟ قالوا : عمرو . قال . فمن قتلتُ ؟ قالوا : خارجة بن حذافة . قال : أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة . وقدمه فقتله .

وبلغ معاوية ما كان بمصر فكتب إلى عمرو :

وقتل وأسباب المنايا كثيرة ... منيه شيخ من لؤى بن غالب
فيا عمرو مهلا إنما أنت عمه ... وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوتُ وقد بل المرادى سيفه ... من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف آخــــر مثله ... فكانت علينا تلك ضربة لازب

ولما انتهى إلى عائشة قتل على تمثلت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت : من قتله ؟ فقيل : رجل من مراد ، فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس فى فيه تراب

فقالت زينب بنت أبى سلمة : ألعلى تقولين هذا ؟ فقالت : إنى أنسى فإذا نسيت فذكرونى .

وقد قال ابن أبى مياس المرودى فى قتل على :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

وقد رثاه أبو الأسود الدؤلى بقوله :

ألا بلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرا أجمعينا

فى أبيات غير هذه . ومعلوم أن مخاطبة معاوية بهذه الكلمة أمر فى غير محله ، لأنه لا ذنب له فى ذلك ، وإنما قتله الخوارج ، وقد استوفى معاوية حصته من المؤامرة .

وقد كان على قد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

وقد روى الطبرى بسنده إلى خالد بن جابر قال : سمعت الحسن يقول — لما قتل على عليه السلام — وقد قام خطيبا « لقد قتلتم الليلة رجلا فى ليلة نزل فيها القرآن وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام . والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبعثه فى السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو سبعمائة أرصدها لخادمه » ومعلوم أن يوشع لم يقتل ، وأما كون عيسى رفع فى مثل تلك الليلة فلم أقف عليه .

وإنى هنا أتعجل بكلمة صغيرة وهى : أننا إذا نظرنا إلى على من جانب الدين وحب الحق والزهد فى الدنيا والإعراض عن زخافها وزينتها وجدناه يمشى فى صف أبى بكر وعمر لا يتخلف عنهما قيد خطوة . وإذا نظرنا إليه من جهة الفقه فى أحكام الدين والعلم بجزئيات فروع الشريعة وجدناه يسبقهما أما من حيث تدبير الملك وسياسة الرعية ومقاربة العامة والتنبه لدقائق السياسة والأخذ على شكائم القوم والإحاطة بأحوالهم . فإنه يتأخر عن الرجلين فى هذا المقام . مع سعة درايته وقوة عارضته لأن الأقوال فى السياسة وحسن الملكة والإعراب عن دقائق ذلك شىء ، وإفاضة ذلك على الرعية وبسط النفوذ على الكافة وإخضاعهم للإرادة شىء آخر . وقد يمر بنا شىء من ذلك ومن عدم نجاحه فى جمع كلمة الأمة والسر فى ذلك سوء الأحوال التى تولى فيها .

وعندى أن الوقت لو صفا لعلى رضى الله عنه وواتته المقادير باستتباب الراحة واجتماع الكلمة ، لأذاق الأمة حلاوة العدل وحملهم على الجادة وسار بهم فى طريق الفتوح وبسط نفوذ الإسلام وإعزاز كلمته بما لم يدع مقالا لقائل ولله فى خلقه شئون .

ويكفى من ينظر فى أمر على أنه لم يوجد عنده من المال سوى سبعمائة درهم كان أرصدها لشراء خادم له لم يكن عنده سواها وفى رعيته من يملك عشرات الآلاف ومئات الآلاف . ولم يكن مترفهاً فى معيشته ولا متوسعاً كما كان معاوية أو عثمان بل كان من طراز أبى بكر وعمر .

بيت على

تزوج على بن أبى طالب :

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده . وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وهى زوج عمر بن الخطاب .

(٢) أم البنين بنت حزام من بنى عامر بن كلاب ، فولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان ،

(٣) ليلى بنت مسعود التيمية ، فولدت له عبيد الله وأبا بكر .

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية ، فولدت له يحيي ومحمداً الأصغر .

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهى أم ولد من سبي تغلب ولدت له عمر ورقية .

(٦) أمامة بنت أبى العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فولدت له محمداً الأوسط .

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية ، فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية .

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود ، فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امرىء القيس الكلبية ، ولدت له جارية ماتت صغيرة .

وكان له بنات منهن : أم هانىء ، وميمونة ، وزينت الصغرى ، ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى . وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتى . وكان النسل من ولده الخمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس ، وعمر .

صفة على وأخلاقه

هنا أترك الكلام لصديق المرحوم الخضرى بك يقول كلمة فى ذلك : يخطر ببال من فحص عن تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال . كيف دانت قريش لشيخين ، أولهما من بنى تيم بن كعب والثانى من بنى عدى وخضعت لهم الخضوع التام ، فصار القوم بقلب واحد فى سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبنى عبد مناف وولبها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته فى آخر عمره ، ولم يصفُ الأمر لثانيهما فى جميع حياته ، بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بنى عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الأدنون وسادة قريش فى جاهليتهم كما سادوا عليهم فى الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التى لم تجتمع فى غيره ؟ لا بد

لذلك من أسباب . أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى ، وأما أمر على فإنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق على وما كان من الأحوال التى أحاطت به .

كان على ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره ، وهى :

الشجاعة — الفقه — الفصاحة .

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ؟ وأول ما عرف من شجاعته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوماً يترصدون حتى إذا خرج يقتلونه ، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر فى نفسه . ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفى مكانه ، يبارز الأقران فلا يقفون له ، ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد أتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر . أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الأفاعيل ، وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته .

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول . صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صباه وأخذ عنه القرآن ، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبد مناف ثم بنى هاشم ، ولم يزل معه إلى أن توفى عليه السلام كل هذا أكسبه قوة فى استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه فى الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم فى بعض الأحيان ، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب .

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التى جمع منها السيد الرضى جملة عظيمة فى الكتاب الموسوم بنهج البلاغة ، وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد . فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل

من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها وتقوم مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جوادّ الفضل والكمال .

وطوراً كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح فى أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ، فخلبت القلوب عين هواها وأخذت الخواطر دون مرماها . واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء وأحياناً كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا ، فصل عن الموكب الآلهى واتصل بالروح الإنسانى ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى . ونما به إلى مشهد النور الأجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس .

وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئا كثيرا .

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له ، جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها . ويرى بذلك له الحق فى ولاية الأمر دونهم فقد قال : لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير . وقال : فوالله مازلت مدفوعا عن حقى مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا . وهناك طبيعة فى الناس — أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم .

إن تلك الأمور التى يراها على لنفسه جعلته يقتنع بأن الحق فيما يراه ، وافقه عليه غيره أم خالفه — ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الاستشارة فيما هو صانع — وهذا شىء شديد لا تقبله نفس الكبراء والأشياخ — روى أنه لما بويع

عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما فقال لهما : لقد نقمتما يسيرا وأرجأتما كثيرا . ألا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به . أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت ما به ؟ والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية أربة ولكنكم دعوتمونى إليها ، فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته أستشيركما وإخوانى المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن هذا الأمر لم أحكم فيه أنا برأيى ولا وليته هوى منى بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه ، احتج إليكما : قد فرغ الله من قسمه وأمضى إلى حكمه ، فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى . أخذ الله بقلوبنا وقلوبكما إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر . وأى نفس تصبر على مثل هذا ، ؟ .

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر فى قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صواباً كان أو خطأ فلما آل الأمر إلى على كان يريد قتل عبيدالله بعد أن مضى على القصة تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين .

كان لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على ، فقال بعد خلافته : والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فإن العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق .

بويع بولاية الأمصار من علية قريش وذوى الرأى والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره ، فلم يسمع لأحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم حتى خيل إليهم أنه لو ملك كانت مصيبة كبرى فناءوه وكانوا عليه يداً واحدة .

أراد فى هذه الأحوال أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم فى أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا : أرض بالتحكيم وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان . ولما ولى ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا قثم ابن العباس على الحجاز وعبيد الله ابن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان ؟ وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان . يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فأرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لها بين الطائفتين توازن عند الخصومة . كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده ويفيض عليهم العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقير والقطمير فى وقت هو محتاج إليهم فيه حتى كان سبباً فى تغيير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة . وليس شأن على فى ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما على فكان معظم الأمة عليه فضلا عن أن كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال فى قيس بن سعد وعبد الله بن عباس .

وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يُعدّ لها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة والحال السيئة التى تولى فيها فإنها كانت تقسره على غير ما عرف عنه من الكياسة وسداد السياسة . اهـ ببعض تصرف .

° ° ° ° • ° ° ° °

مبايعة الحسن بن علي

لما قتل علي بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة . وأول من بايعه قيس بن سعد فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلين . فقال له الحسن رضى الله عنه : على كتاب الله وسنة نبيه ؛ فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط . فبايعه وسكت وبايعه الناس .

وكان علي رضى الله تعالى عنه قد استطاع بعد الجهد الشديد أن يبايعه أربعون ألفاً على الموت وكان قد جعل قيس بن سعد على مقدمته ووجهته أذربيجان . فلم يزل سعد يدارىء ذلك البعث حتى قتل علي . وكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل فى الجماعة . وعرف أن قيس بن سعد لا يوافقه فعزله . وقيل إنه لم يعزله ، ولكن الحسن قد اختلف عليه أهل عسكره وهو بالمدئن وقد نزل معاوية بجنده مسكن وسبب هذا الاختلاف على الحسن أن قائلا فى عسكره قال : إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا ، فنفروا ونهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته ، فخرج حتى نزل المقصور البيضاء بالمدائن وكان سعد بن مسعود الثقفى عم المختار بن أبي عبيد عامله عليها . فقال له المختار وهو غلام شاب : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية . فقال له عمه : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ، بئس الرجل أنت ؟ .

ولما رأى الحسن تفرق الأمر عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح . وقال للحسين ولعبد الله بن جعفر إنى قد كتبت إلى معاوية فى الصلح وطلب الأمان فقال له الحسين . نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة علي . فقال له الحسن : اسكت وأنا أعلم بالأمر منك ولما انتهى كتاب الحسن إلى معاوية أرسل إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فقدما المدائن وأعطيا الحسن ما أراد — فكتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدمته

فى اثنى عشر ألفاً يأمره بالدخول فى طاعة معاوية . فقام قيس فى الناس فقال : يا أيها الناس . اختاروا الدخول فى طاعة إمام ضلال ، أو القتال مع غير إمام . قالوا لا - بل نختار أن ندخل فى طاعة إمام ضلالة ، فبايعوا لمعاوية .

ويظهر لى أن هذه الرواية واهية إذ يبعد على قوم مسلمين أن يقولوا ذلك ولعلهم لم يقولوا ذلك إلا بعد أن استوثق لهم بنفسه . وروى الطبرى أن أهل العراق لما بايعوا الحسن بن على طفق يشترط عليهم أنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فارتاب أهل العراق فى أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط . وقالوا : ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتال . ثم لم يلبث الحسن حتى طعن طعنة أشوته[1] فازداد لهم بغضا ومنهم ذعراً . فكتب إلى معاوية يطلب الصلح ، فأرسل إليه معاوية صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها ، وكتب اليه أن اشترط فى هذه الصحيفة ما شئت فهو لك . فلما جاءت الصحيفة الى الحسن أضعف الشروط التى كتب بها الى معاوية أولا وهى خمسة ملايين درهم كانت فى بيت مال الكوفة وخراج دار ابجرد ، وأن لا يشتم على بمسمع منه فلما رأى معاوية أنه أضعف الشروط استمسك بما كتبه الحسن أولا ولم يعطه ما اشترطه ثانيا

سار معاوية بعد ذلك حتى نزل الكوفة . وأراد عمرو بن العاص أن يفضح الحسن بن على ، وأن يدو عيه للناس فأشار على معاوية أن يخطب فى الناس ويدعو الحسن الى الخطبة فقام معاوية كارهاً لذلك ، فخطب فى الناس ثم أمر رجلا أن ينادى الحسن ليتكلم . فقام فتشهد فى بديهة أمر لم يُرو فيه ثم قال : أيها الناس . إن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا . وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول . وأن الله تعالى قد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » فلما قالها قال له معاوية أجلس . ولم يزل ضرما على عمرو وقال له هذا من رأيك . وقد تحمل الحسن بمن معه من أهل بيته إلى المدينة .

---

(١) لم تصبه

وروى الطبرى أيضا أنه لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بمسكن ، قام الحسن فقال . يا أهل العراق إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى .

وكان قيس بن سعد قد أبى من الصلح ، وكان تابعا لابن العباس . وقد كاتب ابن عباس معاوية يطلب إليه الأمان وترك ما أصاب من مال على الدخول فى طاعته فكتب له بذلك وأرسل إليه جندا ، فلحق ابن عباس بجند معاوية سراً وترك الجند الذى كان فيه بلا قائد سوى قيس بن سعد . فبقى قيس على الجند الذى كان مع الحسن وخاطبه معاوية فى الدخول فى الطاعة فأبى سعد أن يلين له . فأرسل إليه معاوية ورقة مختومة من أسفلها وقال له اشترط فيها ما شئت . فكتب فيها الأمان لنفسه ولشيعة على ولم يزد . وكان هذا من حكمة معاوية لأن عمرا أراده على قتاله فأبى وقال إنا لا نخلص إليهم حتى يقتل عدادهم من أهل الشام وما خير العيش بعد ذلك . وأنا لا أقاتلهم ما وجدت إلى الصلح سبيلا . وكان الصلح فى شهر ربيع الآخر سنة ٤١ : وهذه الرواية أراها أثبت وهى تدل أيضاً على نفس عالية كريمة لقيس بن سعد .

والذى يلاحظه المؤرخ ، أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان وسكنت الضوضاء وهذا يدل على أن الطلب بدم عثمان حجة داحضة . وأن الغرض الحقيقى لمعاوية ومن معه إنما هو الملك لا طلب الثأر . وقد كانوا حين ثارت الفتنة يعدون دهاة العرب خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ، وقيس بن سعد ، وعبدالله بن بديل .

تنزل الحسن بن على

كان من رأى جند على أن يبايعوا الحسن بن على بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الأحوال التى هو فيها نظرة صائبة .

وجد جنداً لا يركن إليه وخصما قوى الشكيمة ، وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة ، ولم ير خيرا لنفسه ولا لأمته من أن ينزل

لمعاوية على شروط رضيها الطرفان ، وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ ، وبذلك تم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين » . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة (عام الجماعة)

مدنية الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين[1]

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دولة الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم . ونريد بالمدنية مجموع النظام الذى اتبعوه فى أحوالهم الاجتماعية ، سواء فى إدارة أمورهم الداخلية أو فى حروبهم .

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس (الخلافة الإسلامية) . وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاء ثانى الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم لم يزل مستعملا لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء. وهذه الخلافة رياسة دنيوية أسسها الدين ، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعا الخليفة فى ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا ما لا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا فى الفتوى كان من المحتم

(١) ألمت هذه الكلمة تماماً فى محاضرات المرحوم الخضرى بك مع زيادة بسط وفصل بيان .

عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى فى عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم ، فلم يكن له سلطان دينى أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين . فليست الخلافة سلطاناً دينيا كما يزعمون ، وإنما هى سلطان أساسه الدين .

ولم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة ، بل يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش . والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر . فأبوبكر من بنى تيم ، وعمر من بنى عدى ، وعثمان وعلى من بنى عبد مناف . وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة ، وصاحبها يتعين بالانتخاب ، ومقيد فيها يعمل بالقانون الشرعى ، تشبه رياسة الجمهورية . وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى .

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وزادوا فى بيعة عثمان « وسيرة الشيخين أبى بكر وعمر » وحذفت هذه الزيادة فى بيعة على لأنه كان أباها لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف . وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور ، إلا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة فى ذلك . وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له (شورى خاصة) من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ومن ماثلهم . وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه و (شورى عامة) من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الأمر فى المسجد بعد أن يدعو « الصلاة جامعة » فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خاصته . وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول : من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلى أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة والديمقراطية الصحيحة ولم يكن

ينقص هذا النظام البديع إلا شيء واحد . وهو تعيين من لهم الصوت فى انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم وقد كان عدم هذا التعيين سبباً من أسباب الفرقة بين على ومعاوية . لأن عليا كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينه وحدهم لا يشركهم فى ذلك أهل الأمصار الأخرى فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته ، وليس لأحد منهم بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار مع ما كان يدعيه سوى هذا . فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحرب العظيمة بين المسلمين .

ولم يكن للخلافة فى هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته ، بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس والكبير إذا طلب منه أمراً أو أراده على شأن من الشئون وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل إلى سعد بن أبى وقاص من حرق باب دار الإمارة الذى حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه إلا بعد الاستئذان

القضـــاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعى المأخوذ من الكتاب والسنة ، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون فى الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء . ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح اضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها ، ففوضوا هذا العمل إلى من فى مكنتهم الاستنباط . ولكنهم لم يتسموا بالقضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب : فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم نموذجا يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين .

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرف نفوسهم واستقلالهم فى الحكم ولم يعرف عن أحد منهم فى ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به . وكان سواء فى نظرهم الشريف والوضيع

والخليفة والرعية . ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم فى قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً ، وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولى قضاء بلده من يرى فيه الكفاية وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة . وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاء ما يقال إنه كتبه على بن أبى طالب إلى أحد عماله « ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه ، أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك) وهذا الكتاب عندى فيه شك وأرى أنه موضوع .

وكان فى كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام ، كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر . وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة فى كتاب . بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثانى جزءاً . وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضى مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص - وهو الحديث - عند غيره لذلك كانوا يسألون . هل عندكم شىء فى هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولم يجمعوا هذه الفتاوى ، ولا الأقضية فى كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم . وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم فى الفتاوى والأقضية

ولم يكن التقاضى موكولا إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء . وإنما كان موكولا إلى الاجتهاد فى فهم القانون

الشرعى وتطبيقه على الحوادث والواقعات . حقيقة إن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام ، بل اهتم بالقواعد الكلية . وليس هذا عيباً فى القوانين التى يراد منها البقاء ، بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

الاجتهاد للقاضى — والحال كما ذكرنا — أمر لا بد منه . ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة .

ولم يكن تعيين القضاة ما نعا للخلفاء من نظر أية خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء فى آنات كثيرة ، فكأن القضاة كانوا نوابا للخلفاء .

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له ، لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ فى يد القاضى ، فهو الذى يقضى وهو الذى ينفذ الحكم . ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ ، لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق : فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين ينفذون ما صدرت به الفتوى من تلقاء أنفسهم

ويظهر لنا أن قضاء القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصا أو جلدا لسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها . وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يبلغنا أيضا أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك دليل على قلة القضايا والخصومات .

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه، ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء. وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمر يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر في معداتهم. ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف — وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمضّ من ضربة السيف، لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام، ويرون الإحجام عاراً لا يمحى — وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء، وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب. وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم.

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظا عظيما فبعد أن كانت العرب تحارب جاهليتها بطريقة الكر والفر — وهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفرّ ثم يكر وهكذا لا يتبعون نظاما — رأى قواد الجند من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى — أو جناحان — وساقة وهي الجزء المؤخر من الجيش وإذا كان الجيش تام الأقسام على هذا الوصف يسمى خميسا. ولكل فرقة من الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد العام. وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميرا وكان للاحتفاظ بخطوط

رجعتهم الشأن العظيم حتى لا يأتوا من خلفهم وكانوا يحذرون البيانات جهدهم.

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتيسير الجنود ما كتبه عمر ابن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول « وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم . فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم . واحتر للطلائع أهل الباس والرأى من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية . فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع اليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم اذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك » .

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن

العمال والقواد ، وقليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية إلى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في مصارفه .

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية ، وإيرادات غير ثابتة . أما الأولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية .

والخراج هو ما كان يوضع على الأرض التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها ويؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحيانا شيئا مقدرا كما عمل عمر في السوداء . وأحيانا يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض . أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن وملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب ، فهذه أرض عشر ومثلها الاراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين . والعشر هو عشر مايخرج من الأرض .

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون . فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأي . فقال عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم . فقال عمر : ما هو إلا ما تقول ، ولست أرى ذلك . والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل . بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ فأكثروا على عمر وقالوا : تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ فكان عمر لايزيد على أن يقول هذا رأي . قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن يقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار

خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله إن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

قالوا نسمع يا أمير المؤمنين . قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم أرأيتم هذه الثغور؟ لابد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وأدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ فقالوا جميعاً : الرأى رأيك فنعما قلت وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم فقال قد بان لى الأمر فمن رجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه على أهم ذلك فإن له بصراً وعقلا وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة — قبل أن يموت عمر بعام — مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح . فقال عمر : إذا أترك من بعدكم من المسلمين لا شىء لهم . وفعل بالشام كما فعل بالعراق وترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين .

قال أبو يوسف القاضى : والذى رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم . لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة المرتزقة .

ولم يكن مقدار الخراج معروفا فى عهد الخلفاء الراشدين تمام المعرفة

الجزية

والجزية هى ما يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم . ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل — روى أبو يوسف القاضى فى كتابه الموسوم بالخراج(١) قال : مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر . فضرب على عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال يهودى . فقال فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال الجزية والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال . فقال . أنظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما فى السنة . ولا تنقص عن ١٢ درهما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته « أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقتهم » .

---

(١) ص ٧٣ بولاق و ص ١٥١ طبعة المطبعة السلفية

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم — نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم. وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب فيما الزكاة دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه، بين ذلك فى كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده. وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام فى مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر: أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر. فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ليس فيما دون المائتين شيء. فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه.

روى أبو يوسف القاضى. أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب. دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب وبعث زياد بن حدير على عشور أهل العراق والشام

ومما يستطرف من خبر زياد أن رجلا من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر راجعاً فى سنته. فقال. اعطى ألفاً أخرى. فقال التغلبى كلما مررت بك تأخذ منى ألفاً؟ قال نعم فسار التغلبى إلى عمر فوافاه بمكة وهو فى بيته فاستأذن عليه فقال: من أنت؟ قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته. فقال عمر: «كفيت» ولم يزد على ذلك فرجع التغلبى

إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه : من مرعليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلا . فقال الرجل : قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفا وإنى أشهد الله أنى على دين الرجل الذى بعث إليك الكتاب(١) .

وقد اتبع المسلمون سنة عمر فى تعشير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين . قال أنس بن سيرين : أرادوا أن يستعملونى على عشور الإبلة فأبيت فلقينى أنس بن مالك فقال . ما يمنعك ؟ فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس قال فقال لى . لا تفعل ، عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك من أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب . وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة إلى بيت المال وفراً ، وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة .

النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم ، لأنها تتبع المدنية والحضارة والأمة العربية كانت فى ذلك الحين تغلب عليها البـــداوة . ولما جاء الإسلام لم يتغير التعامل بهذه النقود بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر . فلما فتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم ، رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال وعشرين قيراطا ، ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهى ٤٢

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٦٢ طبع المطبعة السلفية .

قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المثقال وضرب الدرهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كلا منها = ١٤٠ فصارت النسبة بين الدرهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧ . — نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال : وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله وحده . وعلى آخرى عمر . وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل . فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها : الله أكبر .

والظاهر أن ولاة الأمور والأمراء كانوا يضربون السكة فى نواحيهم ويضعون أسماءهم عليها . ذكر صاحب تاريخ التمدن الإسلامى أن من ذلك قطعة من الدنانير ضربها خالد بن الوليد فى طبرية سنة ١٥ للهجرة وهى على رسم الدنانير الرومية تماما بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالأحرف اليونانية (Xaled) وهذه الأحرف (Bou) قال ويظن الدكتور مولر المؤرخ الألمانى أنها مقطعة من (أبو سليمان) كنية خالد بن الوليد وصورة القطعة منقوشة فى الكتاب من وجهيها .

وفى الكتاب المذكور . وذكر المرحوم جودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الأمراء والولاة فى عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ فى قصبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفى (بسم الله الرحمن الرحيم) ورأى نقداً مضروباً سنة ٢٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضاً . ونقداً ضرب سنة ٦١ فى يزد على دائرته (عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين) بخط بهلوى .

الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم . وكان الحج معتبراً فى نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاما يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم

وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون . وكان أكثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فإنه حج سنيه كلها لم يتخلف فى واحدة منها ، إلا أنه حصل خلاف فى السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة . وعثمان بن عفان حج سنيه . وعلى أناب عنه كل سنى خلافته لما شغل به من الاضطراب الذى كان بينه وبين معاوية .

كان الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيما وفائدة كبرى فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض ، وكان الخلفاء يجيئهم به الأخبار مالا يمكن أن يصل إليهم بواسطة الولاة .

الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه ، وكان فى كل مصر مسجد جامع تؤدى فيه الجمعة ولا ينصب منبر فى غيره . فلم تكن تقام إلا جمعة واحدة فى المصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالى . ولم يبلغنا أنه تعددت فى البلد المساجد فى عهد الخلفاء الراشدين .

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجىء الإسلام نادرة فى الأمة العربية خصوصاً فى الحجاز ونجد . فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر فى أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما فتحت البلاد الفارسية . وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون . جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة . وكان أكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة — أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكتب شيء من الكتب فى ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع فى صحف فى عهد أبى بكر . وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها الأمصار ليكون كل مصحف إماما لأهل المصر الذى أرسل إليه . أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع فى كتاب . وكذلك لم يكتب شيء فى العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها . والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة . فكانوا يستقلون بفهمها — وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضى بالمران على ذلك لا بتعلم سابق — وما قيل من أن علم النحو دونه أبو الأسود الدؤلى بأمر الإمام على ، فقد كان شيئاً يسيراً ولم يكن كتاباً مدوناً كما هو المعروف فى الكتب المدونة .

فهرس

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

مطابع المختار الاسلامي